

التطورات السياسية و الاقتصادية لإيالة الجزائر خلال القرن 11 هـ / 17 م

اطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه علوم في التاريخ الحديث و المعاصر

اشراف :

أ.د/ عبد القادر صحراوي

اعداد الطالب الباحث :

محمد بن سعيدان

السنة الجامعية :

(1440/1439 هـ - 2019/2018 م)

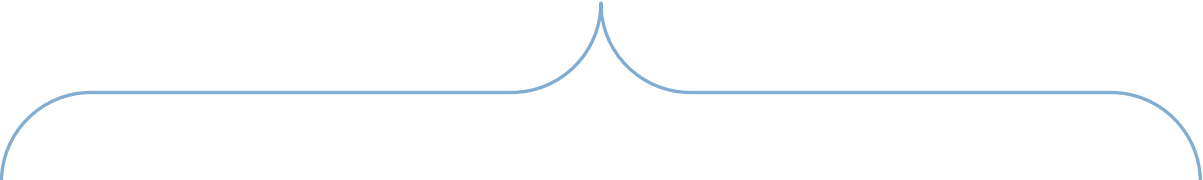
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الاهداء

لسان قائل و قلم سائل و قلب صادق أنحني إلى من ألهمني بنعمة العقل و أفاض علي سبيل الخير
و الرحمة " الله " جلا و علا " .

إلى من كل من كانوا سنداً لي في هذه الحياة.. إلى من ذللوا لي الصعوبات... إلى من أضفوا على
حياتي طعماً خاصاً... شكراً جزيلاً لكم.

محمد بن سعيدان



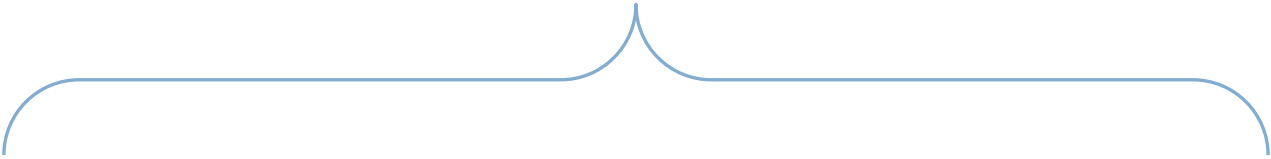
قائمة المختصرات



باللغة العربية:

الرمز	المعنى
م	ميلادي
ص	الصفحة
تر و تح	ترجمة و تحقيق
ط	الطبعة
هـ	هجري
ج	الجزء
د.ت	دون تاريخ
تص و تع	تصحيح و تعريب
د.س.ن	دون سنة نشر
ش.و.ن.ت	الشركة الوطنية للنشر و التوزيع
تح	تحقيق
تع	تعريب
د.ت	دون تاريخ
م.و.م.ج	منشورات المتحف الوطني للجيش
م.و.ن.ت	المؤسسة الوطنية للنشر و التوزيع
م.ت.م	المجلة التاريخية المغربية
ع	العدد
د.د.ن	دون دار نشر
د.م.ج	ديوان المطبوعات الجامعية
تق و تع	تقديم و تعريب
م.و.ك	المؤسسة الوطنية للكتاب

R.H.M	Revue d'histoire maghrébine
N°	Numéro
P	Page
R.O.M.M	Revue de l'occident musulman et de la méditerranée
R.Af	Revue Africaine
J.A	Journal Asiatique
C.M.H	
T	Tome
VOL	Volume
OP.Cit	Opera Citato
Ibid	Ibidem
A.N.E	Agence Nationale d'édition
J.B	
ENAL	Entrepris Nationale algérienne de livres
SNED	Société Nationale d'Editon et de Diffusion
O.P.U	Office des Publications Universitaires
CH	
C.T	Cahier de tunisie
R.T	Revue de tunisie
A.I.E.O	Anales de l'institut d'études orientales Alger
R.H.M	Revue d'histoire maghrébine



المقدمة



كانت منطقة الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط خلال الفترة الحديثة (1453-1830م) مسرحاً للصراعات التي حدثت بين ضفتيه، الشمالية المتمثلة في الدول الأوروبية، والجنوبية ممثلة في الإيالات العثمانية، ونخص بالذكر الجزائر تلك التي شكّلت و بحكم موقعها الاستراتيجي وسط بلاد المغرب حلقة و صل بين شمال القارة الإفريقية، وشرقها، و كذا بين القارة و أوربا وهو الموقع نفسه الذي ساعدها، وأهلها على القيام بنشاط متوجه نحو البحر يحمل مرّة الطابع العسكري فيؤثر على العلاقات السياسية، وأخرى الطابع التجاري. وزاد هذا الدور في فترة التواجد العثماني، إذ فتح باب العلاقات بالإيالة سواء كانت مع الدولة العثمانية و إيالاتها بالمشرق العربي، أو بالدول الأوروبية.

شهدت الجزائر في ظل الحكم العثماني تحولات عميقة في جميع المجالات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية، و إذ كانت أغلب الدراسات و الأبحاث، قد تناولت جوانب عديدة من هذه الفترة الزاخرة بالأحداث فإنها لا تكاد تغطيها جميعا.

في هذا السياق يمكننا أن ندرك أن موضوع التطورات السياسية و الاقتصادية لإيالة الجزائر شكّل مادة بحث خصبة للعديد من الدراسات ولاسيما الأجنبية التي اعتمدت على تقارير القناصل ومراسلاتهم، أو ما سجله الرحّالة الأوروبيون من انطباعات حول نشاط القرصنة، و الأسرى المسيحيين. الأمر الذي قد يوهم القارئ بأن الجزائر في العهد العثماني اقترن وجودها بالقرصنة ونعتها بألقاب كثيرة مثل " عش القرصنة، و"مغارة اللصوص" كما نجد أن أغلب تلك الدراسات ركّزت على المغالطة القائمة على ربط قوة الإيالة ونشاطها التجاري بالقرصنة.

انطلاقاً من هذا الطرح اختارنا لموضوع مشروعنا الموسومة بعنوان " التطورات السياسية و الاقتصادية لإيالة الجزائر خلال القرن 11هـ/17م"، لأن هذه الفترة تميّزت بتحوّلات وتغيّرات جذرية بالنسبة للجزائر، ففيها أخذت البحرية الجزائرية تميل إلى الضعف، وفيها أخذ الارتباط القوى بين الجزائر والدولة العثمانية يضعف، منذ قيام الجند والطائفة بالانقلاب على باشا الجزائر، وتجريده من صلاحياته وإسنادها إلى واحد منهم في سنة 1659م، ولم يلبثوا أن طلبوا من السلطان العثماني في سنة 1711م في عهد الداوي "علي شاوش" الكف عن إرسال باشا يمثلهم في الجزائر، والقبول بأن يكون ممثله الداوي نفسه.

يعتبر القرن الـ17م جدير بالاهتمام و الملاحظة لما يمتاز به من سمات بارزة، فهو يعتبر عصر التحولات و التغيّرات الجذرية بصورة عامة. أما بالنسبة للجزائر فهو يعتبر عصر التفوق البحري من ناحية وعصر الانفصال عن الدولة العثمانية، و عصر الاضطرابات السياسية من ناحية أخرى، و هو كذلك عصر

التكالب الأوروبي عليها و هو أيضا عصر عرفت فيه شخصيات قوية. لذلك يمكن القول أن الأوضاع العامة للجزائر سواء السياسية أو الاقتصادية قد تأثرت بشكل كبير بطبيعة و خصائص الحكم العثماني الذي استمر ما يزيد عن ثلاثة قرون من جهة ،و بشخصيات الحكام الأتراك من جهة أخرى ،حيث تميزت هذه الأوضاع بالاستقرار و الازدهار في بعض الأحيان و الاضطرابات و الانحطاط أحيانا أخرى .

سنتناول في هذه الأطروحة الفترة التي بدأت فيها الجزائر تأخذ منعرجا خطيرا ببداية القرن 17 م بعد أن كانت تتمتع بمكانة مرموقة و هيبة دولية ، مركزين على التطورات الهامة التي عرفتتها الجزائر ،بالرغم من ولائها للدولة العثمانية فقد أخذت طابعا خاصا تمثل في استقلالية القرار السياسي الذي أثر بدوره على التطور الاقتصادي حيث اتخذت الحكومة الجزائرية سياسية خارجية مستقلة ، فلم يعد تعاملها مع دولة ما مرهون برأي الدولة العثمانية حيث أصبحت تُسلم من تشاء وتحارب من تشاء وتبرم الاتفاقيات الثنائية بمحض إرادتها ، هذه الاستقلالية تجلّت مع حلول القرن 17 م إذ أصبحت العلاقة بين الجزائر و الدولة العثمانية تنحصر في مدّ يد المساعدة كلما اقتضت الضرورة ،ومنه نقول أنّ الجزائر عرفت تطورات سياسية و اقتصادية هامة خلال القرن 11 هـ-17 م.

و بهذا يعتبر موضوع التطورات السياسية و الاقتصادية في إيالة الجزائر في القرن 11 هـ/17 م من المواضيع الهامة و الجديرة بالبحث و الاهتمام لما يمتاز به هذا القرن من سمات بارزة باعتباره قرن التحولات و التغييرات الجذرية بصورة عامة.

- دواعي اختيار الموضوع:

- الرغبة الشخصية في البحث في تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني .
- محاولة تسليط الضوء على هذه الفترة التي تعد من أهم المراحل البارزة في تاريخ الجزائر العثمانية.
- الميول الشخصي إلى دراسة تاريخ الجزائر في الفترة العثمانية و الرغبة في البحث و قراءة كل ما كتب حول الفترة المدروسة.
- البحث في نوعية الترابط الذي كان بين الدولة الجزائرية و الدولة العثمانية في الفترات الأربع والتطورات التي آلت إليها.
- رغبتنا في المساهمة و لو بشكل بسيط بالكتابة في هذا الموضوع الذي لا تزال الكثير من جوانبه غير مدروسة بقدر كافٍ.
- أنه يبحث في التطورات التي عرفتتها الجزائر في حقبة مهمة حيث تأرجحت بين التوتر ،و الحرب في العقود الأولى ،والسلام الحذر في بقية العقود.

-لأنّ الفترة المراد بحثها تميزت بظهور شخصيات فاعلة في الجزائر، كان لها الدور الكبير في توجيه طبيعة العلاقات خلال فترة البحث مثل: "الآغا شعبان" الداوي "حسين" الداوي "شعبان" باشا، ا لداوي "محمد بكداش" من جانب الجزائر.

-لأنّ الفترة شهدت إبرام عدة معاهدات ،واتفاقيات جديدة بالبحث لفهم أسباب التوتر ،والحرب ،و السلام ،وما نتج عن تلك العلاقات من انعكاسات على علاقات الجزائر مع الدول الأوروبية الأخرى.

-تشجيع الأستاذ المشرف على طرق هذا الموضوع و البحث في ثناياه للتعرف على التطورات التي آلت إليها الجزائر العثمانية في الفترة المدروسة و مدى تأثيرها على العلاقات بينها و بين الدول الأوروبية.

- الإطار الزمني و المكاني للدراسة:

بما إن الوقت المتاح لا يسمح ببحث تلك التطوّرات في فترة أطول فقد اقتصرنا على بحثها فقط في القرن الحادي عشر للميلاد الموافق للقرن السابع عشر للميلاد ،باعتباره من أهم الفترات لإيالة الجزائر لما شهده من تطورات أحدثت نقلة نوعية في تاريخها.

أمّا من ناحية المكان فإن موضوع الدراسة يركز على منطقة حيوية ،تمثلها الجزائر ،وهي من دول الحوض الغربي للمتوسط، وما تمثله الجزائر في الضفة الجنوبية للمتوسط من بعد إسلامي، و امتداد للدولة العثمانية.

- المنهج المتّبع:

اعتمدنا في دراستنا هذه على المنهج التاريخي الوصفي الذي يهتم بوصف الحادثة التاريخية كما اوردتها المراجع والوثائق .والمنهج التحليلي باعتباره ملائم لهذا الموضوع كونه يبحث في اسباب حدوث الواقعة التاريخية وصولا الى النتائج المتوصل اليها وتحليلها تحليلا تاريخيا ،و ذلك لأنه يتزامن مع مختلف المخطات التاريخية زمنياً و مكانياً.

- إشكالية الدراسة:

- الإشكالية العامة:

- هل الظروف المتوسطة و الظروف المحلية كانت سببا كافيا في تطوّر ،وتوجيه الأحداث سياسياً و اقتصاديا بالجزائر خلال القرن 11هـ/17م ؟

تندرج ضمن هذه الإشكالية مجموعة من التساؤلات:

- هل هذه التطورات فرضتها الأوضاع الداخلية و الخارجية لإيالة الجزائر أم أن الباب العالي حاول فرض هذه التحولات للسيطرة أكثر على الإيالة ،و إلى أي مدى نجح في ذلك ؟
- ما هي طبيعة العلاقات الجزائرية الأوروبية خلال هذه الفترة؟ وهل كان لطبيعة هذه العلاقات اثر في التوجه السياسي و الاقتصادي للإيالة ؟
- ما هي التطورات الاقتصادية التي شهدتها الجزائر؟ ،و إلى أي مدى أثرت التطورات السياسية على الجانب الاقتصادي في الإيالة ؟

- خطة البحث:

للإجابة على الإشكالية قسمنا بحثنا إلى فصل تمهيدي وبابين تضمن كل باب جملة من الفصول وخاتمة وجملة من الملاحق كالتالي
 . الفصل التمهيدي

تم فيه إلقاء الضوء على مراحل إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية من الاستنجد مروراً بالإلحاق ثم فترة البايكليات باعتبارها المرحلة الأولى من نظام الحكم العثماني في الجزائر.

الباب الأول: التطورات السياسية.

فخصّصناه للتطورات السياسية الذي تناولنا فيه نظام الحكم خلال القرن 17 م. تطرقت فيه إلى سياسة البايكليات الداخلية و الخارجية باعتبارها هي التي وجهت طبيعة العلاقات الأفقية والعمودية لإيالة الجزائر خاصة وان الجزائر قد اكتسبت خلال هذه الفترة مكانة متوسطة وعالمية. وأشارت كذلك في هذا الباب إلى بداية الانفصال عن الدولة العثمانية في فصل بعنوان سياسة الباشوات الداخلية والخارجية التي كانت سببا في تقليص مدة حكمهم إلى ثلاث سنوات من طرف الدولة العثمانية .وفصل آخر ثالث عن المميزات التي طبعة الجزائر خلال فترة الأغوات خاصة على المستوى الداخلي والمتمثل في تلك الثورات التي طهرت من اجل الانفصال عن الدولة العثمانية وكان أعنفها ثورة الأغوات.

الباب الثاني: التطورات الاقتصادية.

فقد كان حول التطورات الاقتصادية لإيالة الجزائر خلال القرن 17.عاجلت في فصله الأول الأسطول البحري ودره في مكانة الجزائر خلال هذه الفترة أشارت فيه إلى عوامل قوة البحرية الجزائرية .وصناعة السفن والأسلحة. وعائدات البحرية وعدد الأسرى خلال الفترة المدروسة. أما في الفصل الثاني تطرقت إلى

الحرف والحرفيون، تكلمت فيه عن الأندلسيون وفضائهم المكاني لنشاطهم .والتعاملات الاقتصادية الأندلسية، كما أشرت إلى الصناعات الحرفيون .وكذا الجانب الفلاحي و الري لما له من دور اقتصادي مهم فأشرت فيه التقنيات المستعملة من طرف العثمانيين في الزراعة ودور الزراعة الجانب الاجتماعي . وفصل آخر رابع حول المبادلات التجارية الداخلية و الخارجية تكلمت فيه عن العملة والضرائب .وتأثير الوقف في النشاط الاقتصادي

وختمت دراستي بمجموعة من الاستنتاجات، وذيلتها بجملة الملاحق قصد التوضيح.،ثم قائمة المراجع المعتمدة.

١- الدراسات السابقة:

- مما لاشك أن دراسات عديدة تناولت هذه الفترة بالوصف ، و التحليل و التوثيق و سجلت من خلالها التطورات السياسية و الاقتصادية في الجزائر ،و هي من الكثرة ما يتعدّد عدّها. لكن أغلب تلك الدراسات القديمة منها و الحديثة ،تناولت هذا الموضوع في سياق تاريخي عام.
- تجدر الإشارة إلى إن الباحث قد وجد من تقدّمه إلى البحث في جانب أو أكثر ،ولكن ذلك لا يمنع من الإدلاء بدلوي فيه على ضوء ما قدّمه من مقالات ومؤلفات، و ما وفرته الوثائق المنشورة أخيرا من معطيات تعتبر جديدة تسمح بتكوين رؤية جديدة ربما أكثر وضوحا وعمقا. ومن تلك المقالات ما نشره "دوفو" A. DE VOULX، و"هايدو" Haedo " " دوغرامون" De Grammont " في المجلة الأفريقية "la Revue Africaine" لا يمكن إهمالها ، لأنها تحوي وثائق منشورة هامة عن الفترة الحديثة والمتعلقة بعلاقات بلدان المغرب الإسلامي وفرنسا خاصة الجزائر .
- كتاب مذكرات أحمد الشريف الزهار ،و هو عبارة عن مصدر نفيس يعالج فيه مؤلفه سيرة الدايات في الفترة الأخيرة من العهد العثماني ،و تكمن قيمة هذا الكتاب في قرب مؤلفه للأحداث إلى جانب ذلك منصبه آنذاك -نقيب الأشراف- ،و برزت في هذا الكتاب النزعة الموضوعية للزهار فنجده ناقدا للكثير من الدايات و سياستهم في الحكم ،قام على تحقيق هذا المخطوط أحمد توفيق المدني.
- كتاب المذكرات لوليام شالر ،و يعد من المصادر المترجمة إلى العربية ،يتناول هذا الكتاب معلومات قيمة عن تاريخ الجزائر بمختلف مجالاته.

٢- أما من ناحية المؤلفات:

- "دوغرامون" De Grammont " في كتابه Histoire d'Alger sous la domination: Turquie 1515-1830) (تاريخ الجزائر تحت الحكم العثماني) الذي بحث

فيه عن كل قوة إيالة الجزائر إلى درجة أنها تطاولت أحيانا على فرنسا وانجلترا الأسس التي قامت عليها هذه القوة.

- "البير دوفو" A. DE VOULX في كتابه (les archives du consulat général du France a Alger) (أرشفيف القنصلية العامة الفرنسية بالجزائر) فقد نشر العديد من المواضيع التي تتصل بمدينة الجزائر اعتمادا على وثائق أرشفيف تلك القنصلية المحفوظة الآن في المكتبة العامة بالجزائر، وعمل على نشرها بالفرنسية مثل دفتر التشريعات ووثيقة عهد الأمان وسجل غنائم البحر والتعريف بحياة البحار الجزائري "الرايس حميدو".
- كما يعتبر "هايدو" Haedo "ممن ألقوا الضوء على تاريخ السياسة خلال القرن السابع عشر فأشار إلى الثورات الداخلية وتمرد الانكشارية في كتابه (Histoire Des d' Alger rois) "تاريخ ملوك الجزائر".
- و ماكتبه "بلونتي" Plantet في كتابه "Correspondance des deys d Ager avec la cour de France 1579-1833" مراسلات دايات الجزائر مع البلاط الفرنسي، إلى بعض الأخبار عن الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية للجزائر خلال هذه الحقبة.
- "بول ماصون" Masson(p) يعتبر من الأوربيين المهتمين بالجانب الاقتصادي، فقد كتب حول المؤسسات الفرنسية، (Histoire Des Etablissements de Commerce français dans L'Afrique Barbaresque 1560-1793، حيث يعطينا فكرة عن علاقة فرنسا بدول شمال إفريقيا، ورغبتها في السيطرة على مناطق المؤسسات .
- عزيز سامح ألت: الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا الذي أشار فيه إلى وثائق مهمة تخص الموضوع.
- جمال قنان: العلاقات الفرنسية الجزائرية 1670 - 1830 الذي تناول فيه دراسة مفصلة حول العلاقات بين الجزائر وفرنسا في أواخر عهد الدايات. وكتابه معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619 1830 الذي جمع فيه جمع فيه المعاهدات المبرمة بين الجزائر وفرنسا .
- محمد العربي الزيري: التجارة الخارجية للشرق الجزائري في الفترة 1792- 1832 ،الذي تطرق فيه للوضع التجاري في بداية القرن التاسع عشر ميلادي، وللمنافسة الكبرى بين الدول الأوربية. خاصة فرنسا وانجلترا
- ناصر الدين سعيدوني :النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني 1792-1830 ،الذي تطرق فيه الى الجانب الاقتصادي.

- المنور مروش: دراسة عن الجزائر في العهد العثماني، القرصنة الأساطير والواقع، الجزء الثاني . هذا الكتاب يعتبر دراسة متميزة لكونه احتوى الكثير من الاحصائيات حول ما يتعلق بالأسطول ، والبحرية في الفترة المدروسة.
- أما المؤلفات المخطوطة :
- عبد الله محمد بن ميمون الزواوي النجار: التحفة المرضية في الدولة البكداشية، فإذا كان "الفونس روسو" قام بترجمة مخطوط التحفة ونشرها عام 1846م فإن قيمتها العلمية اكتملت على يد محمد بن عبد الكريم الذي قام بتحقيقها ونشرها مطبوعة سنة 1792م بالجزائر. أفادني هذا المصدر في العنصر المتعلق بحملة ديستري على الجزائر خاصة فيما يتعلق بموقف فرنسا من الحملة .
- محمد بن عبد الرحمن بن رقية التلمساني الجديري: الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة . انتهى من نسخة في 14 ذي الحجة 1193هـ، نشره سليم بابا عمر في مجلة تاريخ وحضارة المغرب العدد الثالث سنة 1967م. أفادني في ذكر الحملات التي شنّها الأوروبيون على مدينة الجزائر من بداية العهد العثماني إلى سنة 1189هـ/1775م.
- المزارى بن عودة: طلوع سعد السعود في اخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، الذي حققه يحي بوعزيز، يعتبر الكتاب مصدر مهم حيث يفيدنا في الأخبار المتعلقة بوهران والجزائر، واسبانيا وفرنسا، أفادني في الحملات الفرنسية ضدّ الجزائر.
- أما من ناحية الأطروحات والرسائل الجامعية :
- نجد أن عائشة غطاس-رحمة الله عليها- قد قدمت دراسة مستفيضة في رسالتها الجامعية لنيل شهادة الماجستير بعنوان العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السابع عشر 1619-1694. حيث ركزت على الجانبين السياسي والتجاري.
- رسالة ماجستير بليل رحمونة بعنوان علاقات للإيالة الجزائرية مع بعض موانئ البحر الأبيض المتوسط "مرسيليا" و"ليفورن" من 1700 إلى 1827 تعرضت فيها إلى جوانب من الموضوع، خاصة الجانب المتعلق بالعلاقات التجارية.
- غطاس عائشة: الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830. مقارنة اجتماعية اقتصادية دكتوراه دولة في التاريخ الحديث.

- إضافة إلى مجموعة من المذكرات التي كان لها السبق في هذا المجال نشير إلى الدراسات المتميزة التي أعدها الباحثون من أهمها هذه الكتابات نذكر أرزقي شويتام ،المجتمع الجزائري و فعاليات في العهد العثماني .

ومن كل هذا يتّضح أن عناصر الموضوع قد درست دراسة مفصلة من طرف من تقدّمني من الباحثين و لذا لا يمكنني إن ازمع أنني صاحب الأسبقية في المحتوى، و إنما جهدي في الاستنتاج مما ذكرته .وفي طريقة الطرح للموضوع ،و معالجته. أدعي لنفسي الأسبقية في المحتوى.

- نقد المصادر و المراجع:

- اعتمدنا في دراستنا هذه على جملة من المصادر و المراجع التي أثرت موضوعنا و التي كانت في مجملها قد تكلمت عن تاريخ الجزائر إبان الحكم العثماني ،و نذكر من أهمها :
- الوثائق المنشورة والتي استفدت منها كثيرا و أهمها :
- مجموعة الوثائق التي نشرها الأستاذ جمال قنان في كتابه نصوص ووثائق بتاريخ الجزائر الحديث المؤسسة الجزائرية لطباعة، 1987م. أفادني في معرفة مضمون معاهدة السلم المئوي
- مجموعة الوثائق التي نشرها ألبير دوفو
- A. DE VOULX (A) : Tachrifat recueil de notes historique sur l'administration de l'ancienne régence D'Alger
- الذي قام بجمع الوثائق العثمانية ، والعربية ترجمها، ونشرها باللغة الفرنسية في كتاب سماه دفتر التشريفات أفادني في العنصر المتعلق بالغنائم البحرية.
- مجموعة الوثائق التي نشرها "بلونتي" والتي أطلق عليها اسم مراسلات دايات الجزائر مع البلاط الفرنسي.
- Plantet (E) : Correspondants des deys d'Alger avec la cour de France 1579 1833 .
- وقد اعيد نشرها في مجلدين ما بين 1981 - 1989 م بباريس .تناول المراسلات التي جرت بين الدايات, و الملوك والوزراء الفرنسيين افادني كثيرا .
- مجموعة الوثائق التي نشرها "روارد دوкарدي" بباريس .
- Rouard deCard (E):Traites de la France Avec Les Pays De L'Afrique du Nord Alger Tunisie, Tripolitaine, Maroc. Libraire de la cour d'appel et de l'ordre des avocats, paris 1906.

- والتي تتعلق بمعاهدات فرنسا مع إيلات الدولة العثمانية. استفدت من الجزء الخاص بالمعاهدات الفرنسية الجزائرية.
- المصادر العربية والمعربة :
- مذكرات احمد شريف الزهار نقيب أشرف مدينة الجزائر ، و الذي يعود تأليفه إلى القرن التاسع عشر ميلادي ، أفادني فيما يخص الحملات التي شنتها فرنسا على الجزائر خلال القرن الثامن عشر.
- مذكرات "وليام شالر" قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824، نشر بمدينة بوسطن الأمريكية عام 1826م يضم شهادات وحقائق قيّمة ، استفاد المؤلف من كتاب "الطبيب شاو"shaw"ترجمة "بلانشي" المترجم الرسمي للملك شارل" إلى الفرنسية ، وقام إسماعيل العربي بترجمته إلى العربية وهو كتاب مهم في وصف نتائج الحملات التي كانت تشنها فرنسا من حين إلى آخر على الجزائر.
- أما المصادر الأجنبية:
- Fray Diego de Haedo: Topographies et Histoire d'Alger, la vie a Alger au xvi siècle, tar et notes A .Berbrugger, éd gronde Alger, 2004
- يعتبر هذا الكتاب في غاية الأهمية لصاحبه الراهب "هايدو" الذي وقع أسير في مدينة الجزائر سنة 1578م ، إلى غاية 1581م يعتبر عمله أساسيا لكل الكتابات الغربية اللاحقة عن الجزائر وقد أفادني في العنصر المتعلق بالأسرى الأوروبيون وعملية افتدائه .
- Laugier de Tassy : Histoire du royaume D'Alger avec l'état présent des son gouvernement de ses fors de terre et Le mer, paris ,1992.
- اشتعل "لوجي دو تاسي" بالقنصلية الفرنسية في الجزائر خلال القرن الثامن عشر لم يمكث كثيرا بالجزائر ومع هذا فان كتابه يعتبر مهم بالنسبة بتاريخ الجزائر خلال القرن السابع عشر وما قبله كان ذو نظرة موضوعية بعيدة عن الأحكام المسبقة .
- Pierre Dan :Histoire de la barbarie et de ses corsaires ,paris ,1634.
- كان "بيار دان" من كبار جماعة الثالوث المقدس المخصصة للأسرى، زار مدينة الجزائر بغرض افتداء الأسرى الفرنسيين ،هذا الكتاب ليس مخصصا للحديث عن الجزائر فقط، وإنما بلاد المغرب ككل أفادني هذا الكتاب في العنصر المتعلق بالأسرى الأوروبيون وافتدائهم.
- المراجع العربية والمعربة :

- يحيى بوعزيز: علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا ، فهو يتحدث بشكل مباشر علاقات الجزائر مع الدول الأوروبية المتوسطة وغيرها ، أفادني في الفصل المتعلق بالعلاقات السياسية والحملات العسكرية الفرنسية على مدينة الجزائر .
- جمال قنان : **معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619-1830** ، فهو يتعرض للمعاهدات المبرمة بين الجزائر وفرنسا ، أفادني في الرجوع إلى بعض منها خاصة فيما يتعلق بمظاهر الوفاق .
- محمد العربي الزيري: **التجارة الخارجية للشرق الجزائري في الفترة ما بين 1830-1972** الذي تطرق فيه إلى الوضع التجاري للجزائر في بداية القرن التاسع عشر . والمنافسة الكبرى بين الدول الأوروبية فرنسا وإنجلترا من أجل الظفر بامتيازات مما ساعدني في الفصل الرابع في العنصر المتعلق بالعلاقات التجارية بين البلدين .
- ناصر الدين سعيدوني: **النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني 1792-1830م** الذي تناول النظم المالية والتبادل التجاري أفادني كثيرا في الفصل الخاص بالعلاقات التجارية .
- لمنور مروش : **دراسات عن الجزائر في العهد العثماني** خاصة الجزء المتعلق بالقرصنة والأساطير والواقع استفدت منه كثيرا في العوامل المتحركة في العلاقات خاصة القرصنة وما يترتب عنها من أسرى وافتدائهم .
- جون باتيستيت وولف: **الجزائر وأوروبا 1500-1830م** " الذي صدر بالو.م.أ سنة 1919م بعنوان: الجزائر تحت الأتراك 1500-1830م وعندما عرّبه أبو القاسم سعد الله وغير له العنوان إلى "الجزائر وأوروبا" ، رغم أن الكتاب يمثل وجهة نظر غربية مسيحية إلا أن ذلك لا يفقده قيمته العلمية. أفادني كثيرا خاصة أن المؤلف أفرد فيه فصلا كاملا خاصا بالعلاقات بين الجزائر وفرنسا .
- عزيز سامح ألتر : **الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا** ، عرّبه محمود علي عامر ، أفادني في بعض الوثائق التي أوردها المؤلف فهو يؤرخ للتواجد العثماني في شمال إفريقيا ، وإن كان يركز في أكثر الأحيان على الجزائر ، وأحوالها السياسية ، وعلاقاتها الخارجية يعطينا الكتاب معلومات في غاية الأهمية .
- **المراجع الأجنبية :**
- Grammont (hd) : Histoire d'Alger Sous La domination Turque 1515 – 1830, paris, 1887.

- يعتبر من الكتب الهامة حول تاريخ الجزائر في العهد العثماني. درس فيه صاحبه وبشكل مفصل الأحداث التي جرت في الجزائر في هذه الفترة بحسب مراحل الحكم التي عرفت بها البلاد من تمردات وثورات داخلية، و علاقات خارجية سواء مع بقية البلدان المغاربية أو مع الدول الأوروبية .
- Daniel panzac :les Corsaires Barbaresques a la fin d'une epoque1800-1820, Paris,2000.
- قدم دانيال دراسة قيمة في كتابه عن نشاط القرصنة في الايالات المغاربية . كانت الاستفادة منه في الجزء المتعلق بالقرصنة الجزائرية التي أعطى لها عدة إحصائيات متنوعة بتحليل ، كما انه تعرض لطبيعة المبادلات التجارية الجزائرية مع دول غرب أوروبا .
- بالإضافة إلى المجالات المتعددة الدراسات و بعض مذكرات التخرج و التي قدمت فيها دراسات لمختلف الفصول التي قمنا بدراسته
- **الصعوبات التي واجهتنا في هذه الدراسة:**
- من الطبيعي أن يواجه الباحث العديد من الصعوبات في كل مراحل إعداد بحثه ومن الصعوبات التي واجهتني لإنجاز هذه الدراسة أذكر منها:
- مشكل الترجمة مما يتطلب جهدا إضافيا لترجمتها وبالتالي فإن نقل مضمونها بدقة كما أراده صاحبه . كان من الصعوبة بمكان.
- أن تفسير المصادر والمراجع الغربية، و العربية لبعض الأحداث تفتقر إلى الدقة، و تميل إلى المبالغة أحيانا مما يجعل الاطمئنان إلى تلك المؤلفات غير ممكن في الغالب دون المزيد من البحث أكثر فأكثر عن الحقيقة.
- أن عدم التفرغ التام للبحث نتيجة الارتباط بالتدريس والعمل الإداري والمشاكل اليومية، كل هذا شكل لي صعوبة في تنظيم الوقت والتفرغ لإنجاز البحث في الوقت المحدد.
- تعذر الحصول على بعض المصادر التي تخدم الموضوع بشكل أساسي و عدم العثور على دراسات عديدة تحمل عنوان موضوعنا، إذ كان عملنا في الأغلبية قائما على الدراسات العامة.
- عدم الحصول على بعض المؤلفات التي لها من الأهمية بمكان مما أدى بنا إلى استعمال الكتب الإلكترونية أكثر لكننا تجاوزناها بإذن الله.

- الظروف العائلية مع وجود الأسرة ، والأولاد ، والتزاماتهم ، كل ذلك لا يمكن إهماله ، إذا ما قورن هذا الباحث بطالب جديد ما زال في بداية حياته وبدون التزامات .
- لقد حاولت مع عزمي في العمل ، وهدفي في أن أحقق نتيجة إيجابية ، أن أتكيف قدر الإمكان مع هذا الواقع ، فأتصل أحيانا بالزملاء الذين ساعدوني ، أو الأستاذ المشرف الذي يوجهني ، غير أنني اكتفيت بجمع عدد معقول من المادة العلمية .
- إن موضوع التطورات السياسية و الاقتصادية لإيالة الجزائر خلال القرن الحادي عشر هجري ، السابع عشر ميلادي ، يعتبر من المراحل الهامة في تاريخ منطقة حوض المتوسط ، والجزء الغربي منه خصوصا ، لأن هذه المرحلة ربطت بين الضفتين خلال قرن كامل من الزمن ، كما كان لها الأثر العميق على العلاقات المتنوعة بين الضفتين عموما . إن تلك المرحلة كانت حتمية تاريخية لأن الظروف التي توفرت خلال القرن 11هـ / 17م ، فرضت ذلك النوع من الاحتكاك بين منهجين حضاريين مختلفين ، وإيديولوجيتين متناقضتين - خاصة في تلك الفترة - بالإضافة إلى المصالح المتصارعة ، كل ذلك أوجد تلك المرحلة .
- وفي الأخير لا يفوتني أن أتقدم بالشكر الجزيل ، والاعتراف الصادق لأستاذي المشرف الأستاذ الدكتور "عبد القادر صحراوي" على قبوله الإشراف عليّ أولا ، وعلى مساعدته لي بكل الإمكانيات المادية ، والمعنوية لأنه ساعدني بالتوجيه ، وبالرأي السديد ، والنصيحة الصادقة ، والأفكار المنيرة ، أشكر أستاذي المشرف على صبره ، وعلى رزاقته وسعة صدره ، لأنه تحمّل استفساراتي وأسئلتني المتكررة ، أشكره على تواضعه وعلى تفضله بقراءة فصول مذكرتي عدّة مرات رغم سلباتها ، وتصحيحه لي أخطائي حرفا بحرف ، وتقديمه لي التوجيهات ، والإرشادات المستمرة فيما يخص المنهجية ، أشكره لأنه ساعدني باستمرار لأحقق هدفا لطالما حلمت به ، وسأظل مدينا له ما حييت . أشكر كل من قدّم لي المساعدة ، وكل من درّسني ولقّني حرفا ساعدني في هذه الدراسة المتواضعة .

الفصل التمهيدي

أوضاع الجزائر داخليا و خارجيا أواخر القرن 16م
مطلع القرن 17م.

أولا : الاستنجد بالعثمانيين

ثانيا : نظام البايلربايات (1518_1587م)

الفصل التمهيدي: أوضاع الجزائر داخليا وخارجيا أواخر القرن 16م ومطلع القرن 17م

عاش المغرب الأوسط ظروف صعبة داخليا وخارجيا، فأما الظروف الداخلية تمثلت في التدخلات المرينية و الحفصية، أما الخارجية فتمثلت في التحرشات الاسبانية.

أولا: الاستنجد بالعثمانيين:

تعتبر الخلافة العثمانية من القوى التي أخذت على عاتقها إعادة بناء القوة الذاتية للعالم الإسلامي و الدفاع عنه كما حافظت على إسلام وعروبة سكان شمالي إفريقيا من أخطار الغزو الصليبي الاستعماري الأوروبي الذي حملت لواءه إسبانيا و البرتغال والمنظمة الصليبية المعروفة باسم فرسان "القديس يوحنا" والتي اتخذت من جزيرة مالطا مُستقراً ومقاماً وكان من أهداف هذا الغزو قطع الطريق أمام الأندلسيين الفارين و عزلهم داخل اسبانيا كما يتضمن برنامج الاسبان بعد هذا الاحتلال في تعمير هذه المدن بالاسبان و جعلها مدن مسيحية و الملاحظ أن نفقات اسبانيا على هذه المستعمرات كانت تغطيها من نفس المنطقة عن طريق الضرائب التي تفرضها على السكان، و بذلك كان يسهل عليها التحكم فيها ومن هذا المشهد السياسي نستخلص العناصر التالية:

ليس هناك دولة مركزية موحدة قوية ومعترف بها المغرب العربي.

غياب شبه كلي للدفاع عن السواحل التي أصبحت مفتوحة لكل المغامرين وتحقيق المشاريع التوسعية⁽¹⁾.

بروز البحارة الشرقيين-الأندلسيين الذين اعتبروا قوى بحرية جديدة في الفضاء الجغرافي السياسي للبحر الأبيض المتوسط الغربي في بداية القرن 16م و هو الأمر الذي مكّنهم من مجابهة و محاربة اسبانيا، و مد يد المساعدة للمورسكيين داخل التراب الأندلسي، و من هذا المنطلق و ابتداء من 1505م وضعت اسبانيا آلية احتلال موانئ (المرسى الكبير، وهران، بنيون الجزائر، بجاية، حلق الوادي، و طرابلس الغرب)، و قد سعت بذلك لجعل هذه القلاع حصوناً مسلّحة بهدف مراقبة النشاط المتزايد للأتراك العثمانيين و كذا المورسكيين إن عثمة المغرب العربي خلال النصف الأول من القرن 16 م قد وردت مبدئياً في إطار مبادرات شخصية، فوصول "الأخوين بربروس" إلى السواحل الإفريقية كان وراء عثمة الفضاءات المغاربية بدءاً بالجزائر ثم طرابلس الغرب و أخيراً تونس.

كانت الأحداث السياسية للمغرب الأوسط تتأرجح بين الضعف السياسي و التجزئة الإدارية و القبلية و يرجع الفضل إلى "عروج و خير الدين بربروس"⁽²⁾ اللذين نجحا تماماً على إثر مجاهدتهما مع النظام الاجتماعي و

¹ -حنيفي هلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الهدى، عين مليلة -الجزائر-، 2009م، ص122-123.

² -بربروسه تتكوّن من كلمتين: "باربا"، و"روسه"، و معناها اللفظي اللحية الشقراء، لُقّب "خير الدين" بهذا اللقب لأنّ لحيته شقراء فأصبح اللفظ يشمل كل إخوته أبناء يعقوب. أنظر: نيكولايف ايڤا نوف، الفتح العثماني للأقطار العربية 1516-1574 م، تر و تح: يوسف عطا لله، ط 2، دار الفراي، 2004، ص101.

القبلي السابق في أن يضع حدا لتلك الانتهاكات ولثورات القبائل وأن يتمكننا فيما بعد، من إرساء إستراتيجية وتحالف بين العثمانيين وشيوخ الطرق الدينية ضد العدو المشترك. إن النجاح الذي تحقق قد أدى حتما إلى تبني تصور سياسي مستقبلي، يقضي بربط الجزائر بالدولة العثمانية وهو الارتباط الذي رغب فيه بل وطالب به عن طوعية أهالي الجزائر، الذين كانت تقضي مضاجعهم الضربات و الهجومات الاسبانية¹. أيضا إنشاء ممالك مسيحية تتناثر على الساحل الشمالي لإفريقيا كمرحلة ثالثة وبذلك يغدو البحر المتوسط في المدى البعيد بحيرة مسيحية أوروبية²، ويعقب ذلك تغلغل صليبي أوروبي جنوبا في داخل القارة الإفريقية، ولكن تصدّت الدولة العثمانية لهذه المشروعات الصليبية الاستعمارية فأصبحت أحلاما وغدت هباءً مثبثا³.

بعد سقوط آخر معقل إسلامي للأندلس سنة 1492م إثر حروب دامت ما يزيد عن عشر سنوات، و نزوح المسلمين الأندلسيين إلى الضفة الجنوبية للبحر المتوسط بمساعدة سكان الممالك المغربية في إجلائهم إلى سواحل بلادهم أثار حفيظة الاسبان الذين أبدوا تخوفهم من أن يستجمع هؤلاء المطرودون قواهم ويعملون على استرجاع الأندلس وذلك بمساعدة من استقبلوهم في أراضيهم بما فيهم أعيان الجزائر.

كان من نتائج سقوط الأندلس على الجزائر آثار بالغة الأهمية ليس على مستقبل الوجود الإسلامي في الأندلس فحسب بل على المستقبل السياسي لدول شمال إفريقيا كلّها وعلى الجزائر بصفة خاصة ولذلك فإنه كما كان سقوط غرناطة بداية لتاريخ الجزائر الحديث وذلك بالنظر إلى النتائج التي ترتبت عن هذا الحدث. و بناء على ما سبق يمكننا أن نستنتج آثار سقوط غرناطة على الجزائر فيما يلي:

نظرا لتوجه السياسة الاسبانية بدعم وتخريض من الكنيسة الكاثوليكية إلى تنصير المسلمين و إنهاء الوجود الإسلامي، و تحت ظروف القهر و الإرهاب الذي كان يعيشه المسلمون في الأندلس، اضطرّ عدد كبير منهم إلى مغادرة الأندلس والهجرة إلى بلدان شمال إفريقيا والاستقرار بها خصوصا التي كانت تعيش أوضاعا خاصة شجعت أعدادا كبيرة منهم على الهجرة إليها والاستقرار بها بينما، فقد استوطن عدد كبير من مهاجري الأندلس المدن الساحلية الجزائرية مثل: تنس، بجاية والجزائر، وهران وكذلك الداخلية مثل: المسيلة وتلمسان، كما أدّت الهجرة الأندلسية إلى نشوء مدن جديدة ذات طابع أندلسي مثل مدينة بجاية التي توافدت عليها أعداد كبيرة من أهالي الأندلس حتى كوّنوا بها طائفة على غاية كبيرة من الأهمية وهاجر إليها عدد كبير من العلماء وكذلك البليدة و القليعة اللتان أقطع "خير الدين بربروس" أراضيها لمهاجري الأندلس، وهكذا فإنه باستيطان العنصر الأندلسي

¹ _حنيفي هلايلي، المرجع السابق، ص122-123.

² _تيسير جبارة، تاريخ الدولة العثمانية (1280-1924م)، جامعة القدس المفتوحة، فلسطين، 1436 هـ-2015م، ص131.

³ _إسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكات، ط1، 1416 هـ/1996م، ص237.

فيمدن شمال إفريقيا والجزائر خاصة يكون قد تمت إعادة تشكيل الخريطة الديموغرافية لهذه المدن التي عرفت بتمدنها و تطورها الفني والعمراني مقارنة مع غيرها من المدن الأخرى¹.

احتلال المدن الساحلية لبلدان شمال إفريقيا من طرف الاسبان والبرتغال بغية قطع طريق العودة على الأندلسيين الذين جعلوا من هذه المدن قواعد ينطلقون للانتقام من الاسبان وقد أدى اشتداد الصراع بين المسلمين و الاسبان في سواحل شمال إفريقيا إلى جذب عدد كبير من البحارة الأتراك إلى هذه المنطقة الذين قدموا لمساعدة إخوانهم، فانتعشت حركة الجهاد البحري أو القرصنة كما يسميها بعض الباحثين بتضافر جهود هؤلاء البحارة مع جهود الأندلسيين الذين كانوا يزودونهم بالمعلومات الدقيقة عن الشواطئ الاسبانية ومواطن الضعف فيها، كما كانوا ينظمون حملات انتقامية من الاسبان الذين أخرجوهم من بلادهم.

ساهم الأندلسيون في تثبيت الوجود العثماني بالجزائر وشكلوا الحليف الأول للأتراك العثمانيين سواء في مواجهة الاسبان، أو في القضاء على حركات التمرد التي كان يقودها الزعماء المحليون ضد الوجود العثماني في الجزائر.

انتعاش الحركة الاقتصادية والزراعية والفنية والعمرانية في المدن التي استقر بها الأندلسيون، حيث قام المهاجرون الأندلسيون باستصلاح مساحات واسعة في نواحي متيجة والمرتفعات الساحلية وشرشال وتلمسان ووهران و عنابة².

أما في المجال الصناعي فقد تمكنوا من إقامة المصانع لمزاولة المهن كالحدادة والخياطة ومعالجة الخزف والجلد والحرير واشتهرت مصانع الحرير الأندلسية بمدن الجزائر والقلعة وشرشال كما يعود إليهم الفضل في تحسين صناعة البارود وتطوير صناعة السفن بموانئ الجزائر وشرشال.

قام الاسبان إثر ذلك باحتلال عدة مدن ساحلية جزائرية خلال الفترة الممتدة (1505-1511م) سواء بالقوة العسكرية كما فعلت مع المرسى الكبير و وهران و بجاية، أو بواسطة إجبار البعض الآخر على إبرام معاهدات الولاء لهم تحت طائلة التهديد، كما هو الشأن بالنسبة لتنس ومدينة الجزائر و مستغانم و تلمسان... ولما تأكد أعيان مدينة الجزائر الواقعة تحت تهديدات الاسبان المتمركزين في قلعة الصخرة بأنه لا يمكنهم الوقوف في وجه أعدائهم بواسطة الإمكانيات المحدودة التي كانت لديهم والتشتت الذي ظل قائما في المنطقة لجئوا إلى الاستنجاد ببعض البحارة المسلمين الذي ذاع صيتهم آنذاك بمحاربتهم المسيحيين الذين كان يقودهم "عروج" و

¹ محمد درّاج، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس (1512-1543م)، تصدير: ناصر الدين سعيدوني، ط1، الأصالة للنشر والتوزيع، 1433-2012م، ص62.

² حنيفي هلايلي، الحضور الأندلسي بالجزائر في العهد العثماني على ضوء سجلات المحاكم الشرعية، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، ص2.

إخوانه الذين انتقلوا من جزيرة "جربة" واستقروا بمدينة جيجل بعد طرد الجنويين منها، ومنذ استقرارهم بمدينة الجزائر ابتداء من سنة 1516م بدأ تشكيل كيان سياسي جديد تعزز مركزه بعد سنوات قليلة بتلقي الحماية من قبل الدولة العثمانية بطلب من أهلها والتزم الأخوين بالواجب الديني الذي أملى عليهم مناصرة لإخوانهم المسلمين والتخفيف عنهم جراء مختلف المضايقات التي تعرضوا لها من قبل الأسبان اثر سقوط غرناطة.

في ظل هذه الظروف التي كانت تعيشها كل من منطقة الأندلس من اضطهاد ديني للمسلمين من طرف الأسبان وما تعيشه بلدان المغرب من تفكك وانحطاط داخلي، ساهم في جعل هذه المنطقة سهلة المنال للأسبان والبرتغال في مد نفوذهما تحت راية الكنيسة في الجهة الغربية من البحر المتوسط على سواحل إفريقيا¹.

هذا الوقت كانت مجموعة من البحارة المسلمين في الجهة الشرقية من نفس البحر رافعين راية الجهاد البحري والدفاع عن الدين الإسلامي ومنهم الإخوة بربوس فظهورهم في الجهة الشرقية لحوض البحر الأبيض المتوسط وازدياد نفوذهم عن طريق ممارسته الجهاد البحري في نهاية القرن 15م²، خصوصا بعد ان وجد "عروج" مكانا له في خضم هذه الأحداث، بحيث أعطاه الملك الحفصي مكانا يلجأ إليه للراحة مقابل خمس الغنائم بمنطقة جربة بعد العودة من الجهاد البحري³.

أنقذ الوجود العثماني الجزائر من الاحتلال الأوروبي المبكر، فقد كانت اسبانيا-وقد أصبحت إمبراطورية مهمة تضم إلى تاجها بعض الدول الأوروبية الكبرى، وتحسب أنها تمثل المسيحية الأوروبية- عازمة على احتلال شمال إفريقيا جميعه، وقد أسست لها قاعدة احتلال مهمة في وهران، وناضلت لاستمرار احتلالها وتوسيع دائرة الاحتلال ابتداء من الهجوم على مستغانم وتلمسان، رغم ما تكبدته من خسائر في هذه الحملات نتيجة دفاع الجزائر العثمانية عن المناطق المستهدفة⁴.

¹ _عبد القادر فكايير، الغزو الاسباني للسواحل الجزائرية و آثاره (910-1206هـ/1505-1792م)-دراسة تتناول الآثار السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية على الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ص142.

² _أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، (ط1، 1402هـ-1982م/ط2، 1413هـ-1993م/ط3، 1424هـ-2003م)، دار الشروق، القاهرة، 93.

³ _نيكولايف ايفا نوف، المرجع السابق، ص110.

⁴ _آرجمنت كوران، السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر، تر:عبد الجليل التميمي، منشورات الجامعة التونسية، 1970م، ص21.

انطلاقاً من هذا العزم الاسباني وعزم الدول الأوروبية الأخرى من شاطئ البحر الأبيض الأوروبي كانت الجزائر مهددة باحتلال لم تكن بقادرة على صدّه، وهي في أواخر عهدها المتفسخ. إذن الحكم العثماني أنقذ الجزائر من الاحتلال الأوروبي مبكراً¹.

كان للبعد الديني دوره الفعال في قناعة الجزائريين بضرورة الاستنجاد بالعثمانيين ضد الغزاة الاسبان خلال العقد الثاني من القرن 16م، والانضواء طواعية تحت لواء الدولة العثمانية والانضمام إلى حظيرتها دون أن تتجشّم الأخيرة عناء يُذكر، حفاظاً على مقوماتها الحضارية الإسلامية، وخوفاً من التنصير الذي كان الاسبان يرمون إليه إن هم تمكنوا من أرضهم كما فعلوا بأهل الأندلس ثمّ يجبرهم على هجرة ديارهم كما تقتضي بذلك الشريعة الإسلامية على رأي كثير من الفقهاء وهو ما أثار مخاوف السكان².

أفتى "الونشريسي" لأهل الأندلس بوجوب الهجرة على كل مسلم إذا استولى النصارى على وطنه، وفحواها: ((إن الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام فريضة إلى يوم القيامة، وكذلك الهجرة من أرض الحرام والباطل بظلم أو فتنة... والواجب الفرار من دار غلب عليها أهل الشرك والخسران إلى دار الأمن و الأمان...))، و يضيف: ((...و لا يسقط هذه الهجرة الواجبة على هؤلاء الذين استولى الطاغية على معاقلهم وبلادهم إلا تصور العجز عنها بكل وجه و حال، لا وطن ولا مال فإن ذلك كله ملغى في نظر الشرع...))³.

كما استدل بالأحاديث الشريفة ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: "لا تسكنوا المشركين ولا تجامعهم، فمن ساكنهم أو جامعهم فهو منهم..."، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر الكافرين". هذه الفتاوى القائمة على أدلة شرعية كان لها الوقع الكبير في نفوس الجزائريين مما دفعهم ودون تردد إلى طلب الحماية من الأسطول العثمانية و إن تطلب منهم ذلك في ما بعد: الانضمام إلى الدولة العثمانية، فكان ذلك أجدى عندهم من حكم النصارى أو هجرة وطنهم⁴. ذلك أنهم لم يكونوا قادرين على التصدي للحملات التي كان يشنها الاسبان على مدّهم الساحلية مما أثار الفزع في نفوسهم، وصاروا ينظرون إلى مصيرهم بما آل إليه مصير أهل الأندلس الذين تعرضوا لكل أنواع التقتيل والتعذيب والتنصير ومحاكم التفتيش.

¹ عبد الكريم غلاب، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي -عصر الإمبراطورية-، ج2، ط1، دار الغرب الإسلامي 1426هـ-2005م، ص374.

² عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص145.

³ عمّار خروف، العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، ط1، ج1، دار الأمل للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978م، ص25.

⁴ محمد درّاج، المرجع السابق، ص65.

عرفت الجزائر خلال الحكم العثماني تطورات مختلفة وأحداثا كثيرة صارت شاهدة على أهمية الإيالة على المستويين الإسلامي والعالمي متخطية بذلك الحيز المتوسطي، و بعد مقتل "عروج" الذي بمجيئه هو وأخيه تغير تاريخ الشمال الإفريقي كله¹، و بتعيين "خير الدين بربروس" بايلرباي "أمير الأمراء" سنة 1519م الذي فيه يرى مؤلف "الغزوات" وهو من المؤلفات التي تثنى كثيرا بل وتمجد "عروج" و "خير الدين" في مدّ النفوذ العثماني إلى الجزائر، أن بقاءه في الجزائر بعد نكبة أخويه "عروج" و "إسحاق" كان بإلحاح من الجزائريين، وقد جاء في "الغزوات": (...). ثم عزم "خير الدين" على السفر إلى الروم لأجل الغزو و مواصلة الجهاد، وجمع أهل الجزائر من العلماء و الصلحاء وقال لهم: "إني قد عزمت على السفر إلى حضرة السلطان وأمنت بلادكم من العدو بما تركت عندكم من العدة، لأني تركت في بلادكم أكثر من مئة مدفع، ولم يكن في بلادكم ولو مدفع واحد...).

رفع العثمانيون لواء الجهاد و تحرير المواقع المحتلة في الجزائر وحملوا شعاره منذ أول ظهور لهم في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط فراحوا ينجحون مسلمي الأندلس بنقلهم إلى البلاد المغاربية التي لم تسلم هي الأخرى من هجمات الاسبان ويتعاونون مع المسلمين في الجزائر على تحرير المواقع التي احتلها هؤلاء، وقد نوهت المصادر المحلية بالجهود التي بذلها العثمانيون منذ ظهورهم في الحوض الغربي للمتوسط².

هذا "المجهول" في غزوات "عروج" و "خير الدين" الذي يعتبر سجلا عن مآثرهما في إنقاذ مسلمي الأندلس وجهادهما في الحوض الغربي للمتوسط وفي الجزائر لتحرير جيغل، بجاية، والجزائر وغيرها، يقدم معلومات مهمة عن تلك الجهود لا غنى للمؤرخ عنها، ومنها يمكن أن نستخلص نظرة صاحب الكتاب إلى العثمانيين الأوائل في الجزائر وجهودهم فيها، وهي نظرة فيها كثير من الشناء والمدح لهم ولا سيما "العروج" و "خير الدين".

تواصلت الحركة الجهادية والتي قادها العثمانيون منذ دخولهم أرض الجزائر، فبعد استتاب الأمن في مدينة الجزائر وضواحيها، توجه إلى تلمسان إثر وصول وفد إليه من أهلها ولم يضيع وقتاً بل خلف أخاه "خير الدين" على مدينة الجزائر وتوجه إلى تلمسان وبعد قضائه على النظام الزياني المتعامل مع الاسبان، فاجأه الاسبان بقوة عظمى قادمين من وهران لاحتلال تلمسان وإرجاع "حمو الثالث" إلى العرش في معركة دامية سنة 1518م³.

تحمل "خير الدين" ثقل المسؤولية الملقاة على عاتقه مواصلا الجهاد ضد الغزاة الاسبان مُدافعاً عن أرض الجزائر باعتبارها جزءا من الأمة الإسلامية، ولعل أهم ما يلفت النظر هو: قوة العزيمة العثمانية لحماية هذا البلد من الحملات الأوروبية التي كانت أعنفها في أيام حكم "حسان أغا" (940-951هـ/1533-1544 م)، فمع تنامي القوة العثمانية أعد الملك الاسباني "شار لكان" حملة ضخمة على الجزائر قادها بنفسه سنة

¹ عبد البارئ محمد الطاهر، دولة الخلافة العثمانية قراءة في نشأتها وعوامل سقوطها، زرقاء اليمامة للنشر والتوزيع، الفيوم- مصر-، د.ت، ص 119-122.

² مجهول، غزوات عروج وخير الدين، تص: نور الدين عبد القادر، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1934م، ص 42.

³ مبارك بن محمد الهلالي الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج 3، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، د.س.ن، ص 44.

948هـ/1541م. لم يوقف العثمانيون بالجزائر جهادهم ضد غارات الأوروبيين فعندما حكم "حسن بن خير الدين" للمرة الثانية ما بين (965-975هـ/1557-1567م)، حاول الاسبان بسط سلطاتهم حوالي وهران فكسر شوكتهم في "ماز غران" سنة 966هـ/1558م، ولقد لقيت الحركة الجهادية التي ميزت الوجود العثماني بالجزائر الكثير من التنويه والإشادة لدى السكان الذين تفاعلوا معها ساعة بساعة.

تخرج مركز "خير الدين" ¹ بالجزائر بعد مقتله أخيه وأصبحت الأخطار تهدده من كل جانب في الداخل و الخارج ففي الداخل كثر المعارضون ضده وتمرد عليه "أحمد بن القاضي" في جبل كوكو ²، و تمردت شرشال وتنس، وتواطأ بنو زيان مع الاسبان وتقاسع أمير تونس الحفصي عن مد يد المساعدة له، بل أنه عزم على محاولة إخضاعه لسلطته واتضح سوء نيته عندما رفض تزويده بالذخيرة الحربية أثناء الحصار الثالث الذي فرضه على بجاية عام 1515م ³.

استطاع "خير الدين" توسيع دائرة نفوذه باسم الدولة العثمانية سواء بإلزام الحفصيين وبني زيان إعلان تبعيتهم للعثمانيين أو تحرير قسنطينة عام 1527م، ورفع عليها العلم العثماني واستطاع أيضاً ضم معظم موانئ الجزائر من أيدي الاسبان وضم له موانئ عنابة وبجاية وقالة وغيرها، وأعظم نصر له كان ضمه لحصن البنيون سنة 1529م الذي أقامه الاسبان في مواجهة ميناء الجزائر، وإذا كان عام 1518م هو بداية وصول السلطة العثمانية رسمياً إلى شمال إفريقيا، فإن حصول "خير الدين" على حصن البنيون هو بداية لتأسيس ما عرف بـ"بنية الجزائر"، وأصبحت الجزائر عاصمة المغرب الأوسط بل عاصمة شمالي إفريقيا العثمانية، وأصبح "خير الدين" الحارس الأمامي للدولة العثمانية في غرب البحر المتوسط ⁴.

¹ - خير الدين بربروس (1470-1546م): هو حاكم الجزائر، قائد الأسطول العثماني "باشا قبودان"، ومجاهداً بحرياً، ولد في جزيرة لسبوس- في اليونان المعاصرة-، وتوفي في الآستانة (اسطنبول)، اسمه الأصلي هو: "خضر بن يعقوب" ولقبه "خير الدين باشا"، بينما عرف لدى الأوروبيين بـ"بارباروسا-أي ذو اللحية الحمراء-، أنظر: نيكولاي أيفا نوف، الفتح العثماني للأقطار العربية 1516-1574م، المرجع السابق، ص101) بايلربايا على الجزائر، حيث كان الباييرباي (الباييرباي: أي باي البايات، أو أمير الأمراء، وهو اللقب الذي حمله حكام الجزائر في الفترة الممتدة من 925-995هـ/1519-1587م وكانوا يعينون لفترة غير محدودة، أنظر: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثة مائة سنة بين الجزائر و اسبانيا، ش.و.ن.ت، الجزائر، ط2، 1976م، ص93-95).

² - وليم شالر، مذكرات وليم شالر قنصل أمريكا في الجزائر، تع: اسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.س.ن.، ص40-41.

³ - مجهول، مذكرات خير الدين بربروس، تر: محمد دراج، ط1، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 1431هـ-2010م، ص49.

⁴ - أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث -بداية الاحتلال-، ط3، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1982م، ص47.

هكذا وبسبب هذه العوامل كلّها اعتزم "خير الدين" مغادرة الجزائر ليستأنف الغزو والجهاد ضدّ القراصنة في البحار حتى يبني قوته لكن عُقَالَ مدينة الجزائر وكبراءها ألحوا عليه بأن يبقى في المدينة¹، وعندئذ عرض عليه مفكرة ربط الجزائر بالدولة العثمانية وإدخالها ضمن أملاكها حتى تكسب نوعاً من الحماية الدولية ويجد هو الحكمة وسيطرته على البلاد. وهذه الفكرة تدل على بعد نظر "خير الدين" لأنّ الجزائر سنداً بوسائلها الخاصة لا تستطيع أن تقف في وجه الزحف الاسباني، ولأنّ الدولة العثمانية هي الدولة الوحيدة آنذاك التي بمقدورها أن تدعم سلطته وتمدّه بكلّ ما يحتاج إليه من مال وسلاح وعتاد ورجال.

استحسن كبار المدينة الرأي فأرسل "خير الدين" وفداً إلى السلطان "سليم الأول" عام 1518 م الذي كان موجوداً بمصر²، عرض عليه الفكرة فقبلها وأرسل إلى "خير الدين" التعيين كأول عثمانى على الجزائر بلقب "بايلرباي" مع مجموعة من الجنود الإنكشاريين (2000) وعدد من المدافع والذخائر الحربية وأذن "خير الدين" بتجنيد عدد من المتطوعين ليساعدوه في حفظ الأمن والنظام³.

لكن "خير الدين" وضع مجموعة من الشروط من أجل بقاءه، وافق عليها الأعيان وسكان الجزائر⁴ قائلاً: «أنتم رأيتم ما وقع من الملاحين الكافرين ولا يؤمن عواملهم، وقد ظهر لي من الرأي أن نصل يدنا بطاعة السلطان الأعظم مولانا السلطان "سليم" فيمدّنا بالمال والرجال، وجميع ما نحتاج إليه إلّا بصرف الخطبة إليه وضرب السكّة عليه»⁵.

الحقيقة أنّ "خير الدين" قد قرّر الاستعانة بالإمبراطورية العثمانية حتى يتمكن من الحصول على الأموال والقوة العسكرية اللازمة لمواجهة الخطر الاسباني في حوض البحر الأبيض المتوسط خاصة أن الاسبان كانت تتزعم العالم المسيحي وتعتبر القوة المهيمنة في شمال إفريقيا وجنوب أوروبا⁶، وأذن السلطان يومئذ في سكّ النقود الجزائرية ولم

¹ _الآغا بن عودة المازري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تح: يحيى بوعزيز، ج1، دار الغرب الإسلامي، د.س.ن، ص249.

² _كورين شوفالييه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر (1510-1541 م)، تر: جمال حمادة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م، ص38.

³ _يحيى بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر- الجزائر القديمة والوسيطة والحديثة-، ج2، دار البصائر للنشر والتوزيع، طبعة خاصة، الجزائر، 2009م، ص14-15.

⁴ _جمال الدين سهيل، ملامح من شخصية الجزائر خلال القرن 11هـ/17م، مجلّة الواحات للبحوث والدراسات، العدد13 (2011): 137-158، قسم التاريخ، المركز الجامعي، غرداية، الجزائر، ص138.

⁵ _ابن رقية التلمساني الجديري، الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، مخطوط بالمكتبة الوطنية بالجزائر، ص6، يحتوي هذا المخطوط على 16 ورقة، مكتوب بخط مغربي يوجد تحت رقم 1626 بقسم المخطوطات.

⁶ _عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997، ص54.

يعلم من قبل عن أحد ممّن تولى الحكم من الأتراك بالجزائر أنّه ضرب العملة باسمه، وإنّما كانت تضرب دوما باسم السلطان العثماني¹.

محمل القول عن الأسباب التي جعلت "خير الدين" يُعجّل بطلب إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية:

إدراك "خير الدين" لمحدودية قدراته العسكرية بالمقارنة مع الإمكانيات الهائلة التي يمتلكها الأسبان والتي جعلت منهم دولة قادرة على خوض العديد من الحروب في اسبانيا وشمال إفريقيا ضد المسلمين، وفي أوروبا ضد البروتستانت وضد ملك فرنسا منافس "شار لكان" على زعامة أوروبا، فضلاً عن تقديم مختلف أشكال الدعم للنمسا لكي تتمكن من التصدي لحملات العثمانيين في شرق أوروبا.

معرفة "خير الدين" لموازن القوى في الصراع الإسلامي المسيحي جعلته يرجح ضم جهده إلى أقوى دولة إسلامية في ذلك العصر، أي الدولة العثمانية فهي وحدها التي كانت مؤهلة لقبول ضم الجزائر إلى ممتلكاتها وبالتالي حمايتها بدعمها بالمال والعتاد والرجال عندما يقتضي الأمر ذلك.

تخوفه من الزعماء المحليين في الجزائر سواء كانوا أمراء أو شيوخ قبائل أو أعيان مدن. فقد رأى من خلال سابق تجربته معهم مدى استعداد هؤلاء الزعماء للثورة والتمرد عند أول فرصة تتاح لهم.

عدم وجود قوة إقليمية في منطقة الصراع (شمال إفريقيا) يمكن التحالف معها، أو حتى الانضمام إليها لمواجهة الخطر الأسباني فالمغرب كان يعيش في أزمات داخلية، و تونس رغم كونها كانت تعيش استقراراً نسبياً في السلطة إلا أنّ سلطانها كان قد بلغ من الضعف ما جعله عاجزاً عن فرض سلطانه على ما تحت يده من البلاد، فضلاً عن أن يكون قادراً على حماية الجزائر فقد احتلّ الأسبان بجاية وعنابة ودّلس ومدينة الجزائر، و هي كلها كانت مدناً تابعة إدارياً وسياسياً للدولة الحفصية، و مع ذلك لم يتخذ السلطان الحفصي أي خطوة جدية للدفاع عنها وطردها الأسبان منها.

أصبحت الجزائر بذلك إحدى الولايات الساحلية للإمبراطورية العثمانية كما أصبح لبایلرلي الجزائر بمقتضى هذا التعيين حق التصرف المطلق في الجزائر، و دخلت بذلك الجزائر تحت نظام الحكم العثماني هذا النظام السياسي الذي ارتبط فعلياً بالسياسة العثمانية وسلطة الحاكم العثماني في الباب العالي وتمثيله في الجزائر بالحاكم العثماني الملقب في أول الأمر بـ"البایلرلي"، وقد عرف نظام الحكم العثماني في الجزائر عدة تطورات سياسية².

كانت التبعية الجزائرية للدولة العثمانية تعتمد على عنصرين أساسيين:

¹ محمد عبد الرحمان بن محمد الجيلاني، تاريخ الجزائر العام (920 هـ/ 1514 م - 1216 هـ/ 1830 م)، ج3، شركة دار الأمة للطباعة والنشر و التوزيع، 2014، ص44.

² عبد البارئ محمد الطاهر، المرجع السابق، ص 119.

أولهما: الجيش البري المتكوّن من الأوجاق والإنكشارية ..، وقد كان لهذا الجيش دور كبير في حكم الجزائر مع الدولة المركزية تارة، وبلاستقلال عنها تارات أخرى. وهذا الجيش كان يستولي شيئاً فشيئاً على مراكز القوة والسلطة لأنّه هو الذي يحمي الباشاوات ثم الدايات، حتى أصبح الدايات ينتخبون من بينهم من يحكم الدولة وأحياناً تساعد حكومة اسطنبول على مدّ السلطة في الجزائر بالمال. كانت عصابات منهم أحياناً تشور على رأس السلطة في الجزائر فتغتاله أو تدخل معه في صراع تتغلّب أو تغلب فيه، فإذا غلبت قتلت الدايات وقامت بتصفية أتباعه، وإذا غلبت قام الدايات الغالب بتصفية المتمردين، ولذلك كان الأمن منعماً كان الأهالي الجزائريون يتمردون أحياناً على هذه السلطة، والمصير كان محتوماً فإنّ كثيراً من القبائل كانت معزولة دون أن يكون لها سند من سلطة أخرى. على أن استيراد الجنود من مختلف أجزاء الإمبراطورية تضاعف شيئاً فشيئاً حتى ضعفت القوة الحامية للجزائر⁽¹⁾.

ثانيهما: اللذين يعتمد عليهما الحكم في الجزائر هو "طائفة الرؤساء، ويعني ذلك القوة البحرية التي كانت في فترة طويلة أقوى قوة بحرية في العالم الغربي، وقد بدأت القوة البحرية الجزائرية منذ عهد "آل بارباروسا"، واستمرت تقاليد البحرية الجزائرية ونشاطها البحري حتى الاحتلال الفرنسي.

كانت بداية البحرية—من عهد آل بارباروس—تقوم بعمل جهادي إسلامي ضدّ سيطرة المسيحية ونفوذها. ولذلك كانت نداءً للدولة العثمانية التي تقوم بدور الخلافة الإسلامية ضدّ الدول المسيحية الأوروبية الخاضعة لتوجيهات البابوية ضدّ الإسلام، ثمّ تحوّلت الفكرة إلى حرب ضدّ السفن الأوروبية وسلبها وتدمير بعضها وغزو الشواطئ البحرية المتوسطية كجنوة، صقلية، مالطة وسردينيا، وبفضل انضمام الأجانب من الأوروبيين ودول الشمال إلى القراصنة الجزائريين ازداد نشاطهما حتى شواطئ دول الشمال ثمّ إلى أمريكا والبرازيل و ايسلاندا.. هذه القوة البحرية كانت تقوم بسلب السفن والشواطئ ونهبها فتتوقّر لها ثروة طائلة تساعد ببعضها الدولة ولكن المهّم من ذلك أنّها كانت تقوم بأسر البحارة وسكان السواحل الذين كانوا يهجرون أماكن سكنهم إلى الداخل وقد توقّر للقراصنة الذين يقومون بعملهم باسم الجزائر¹.

كان هذا النشاط البحري يوقّر نشاطاً تجارياً مهماً للجزائر وسكانها وخاصة الأتراك الذين يستفيدون منها أكثر من الأهالي ولذلك أصبح هذا النشاط المورد الأكبر للجزائر، وللدولة العثمانية المركزية².

هذه القوة لم تكن تعود على الجزائر والدولة العثمانية دائماً بالخير العميم، ورغم أنّها كانت شريعة العصر الأوروبيون قاموا بمثيلاًتها من القرصنة باسم المسيحية، فقد كانوا يخشون من البحرية الجزائرية لكثرة سفنها وشجاعة

¹—عبد البارئ محمد الطاهر، المرجع السابق، ص 122.

²—نفسه، ص 125.

رجالها، وأصبحوا يخشون أكثر حينما انضم إليها ملاحون وقراصنة أوروبيون لهم خبرة أكثر وتقنية جديدة مستفيدين مما في بلادهم من نشاط بحري¹.

غير أنّ ظاهرتين خطيرتين تخلفتا عن هذا النشاط:

أولها: أثر داخلي، فقد كانت القوة البرية المتمثلة في الإنكشارية وكل الجنود المتطوعين تنافس هذه القوة البحرية خاصة وأنها تملك قوة المال والسيطرة والنفوذ عند الدولة المركزية التي كانت تستفيد من مالها وحمايتها حينما تقوم بالدفاع عن الدولة. ولم يكن هذا الموقف دائماً فقد كانت البحرية الجزائرية كثيراً ما تعمل لحسابها دون أن تأخذ إذن السلطة، ولو كان ذلك لغير صالح الدولة، فكثير من الدول كانت تعادي السلطنة العثمانية نظراً لعدوان القراصنة أو الدخول معهم في معركة بحرية أو على الشواطئ التي يغزوها.

المنافسة كانت قوية بين القوة البرية والبحرية، وكثيراً ما كانت تتغلب القوة البحرية لما لها من قوة في تعيين الدايات و إسنادهم على القوة البرية. المنافسة لم تكن في صالح الجزائر على كل حال، ولكنها طبيعية بين قوتين غير طبيعيتين كل منهما كانت من المتطوعين والمرتزة، وكل منهما لم يكن لها انتماء وطني أو قومي، وضحية هذه المنافسة دائماً هو المجتمع الجزائري الذي لم يكن يستفيد إلا بالتبعية.

لم تكن الجزائر بمنجاة من عواقب هذه الفوضى و اللا مسؤولية، فقد أعلنت الحرب على تونس رغم رضوخها رسمياً للدولة واحدة، وعدة مرّات حاولت السلطات العثمانية في الجزائر الهجوم على المغرب، وكان المغرب أيضاً يحاول من حين لآخر الهجوم على تلمسان. وكانت محاولة الطرفين تثنى بالفشل، ولذلك دشّن العهد العثماني في الجزائر وتونس انفصال المغرب العربي نهائياً، ولم تقم أية دولة من الطرفين بمحاولة توحيد هذه البلاد بعدما رأينا من فشل الوحدة ابتداء من عهد المرينيين.

ثانيها: هي الانتقام من الجزائر، أو الدولة العثمانية في شخص الجزائر فقد كانت الحرب مستمرة مع اسبانيا التي مكّنت لنفسها من قاعدة بحرية برية هي وهران. وكانت الحامية الاسبانية المركزة في هذه المدينة كثيراً ما تغیر وتحاول احتلال مناطق أخرى كمستغانم وتلمسان، وكانت تدخل مع السلطات في الجزائر في حروب طاحنة شغلت القوة البرية مدّة طويلة².

حقّق انضمام الجزائر إلى الدولة العثمانية أهدافاً سياسية وعسكرية كثيرة أهمها تأمين حدود مصر الغربية، و توسيع ممتلكات الدولة العثمانية دون أن تتحمّل أية تبعات عسكرية أو مالية كبيرة كما تحمّلت ذلك في مصر والشام. كما جعلت الدولة العثمانية من الجزائر ولاية ذات وضع خاص، فعرفت بناء على ذلك بناية الجزائر ذلك لأن طبيعة موقعها وظروفها حولتها إلى قاعدة للوجود العثماني في غرب البحر المتوسط، فصارت تبعاً لذلك مسئولة عن إدارة شؤون الحكم في طرابلس الغرب في المرحلة الأولى من الوجود العثماني في شمال إفريقيا، كما

¹ _ أحمد زكريا الشلق، العرب والدولة العثمانية من الخضوع إلى المواجهة 1516-1916م، ط1، مصر العربية للنشر و التوزيع، القاهرة، 2002 م، ص365.

² _ نفسه، ص366.

أولت إليها مهمة إلهاء الاسبان عن المشاركة في حروب أوروبا ضدّ الدولة العثمانية في المجر والنمسا، وذلك بالتصدي للعدوان الاسباني على سواحل شمال إفريقيا وتأمين عمليات إنقاذ المسلمين في الأندلس¹.

كان من أثر ذلك أيضا أن سادت موجة عامة من الرعب في أوروبا خصوصاً في اسبانيا عند إعلان انضمام الجزائر إلى الدولة العثمانية لأنّ هذا الانضمام كان يعني بالنسبة لها وصول الخطر العثماني ليس لتهديد قواعدها العسكرية المنتشرة في شمال إفريقيا فحسب، بل يتعدى ذلك إلى تهديد وجودها في الأندلس التي ما زال هاجس إعادة فتحها من طرف الأتراك العثمانيين يلوح لهم في كل حملة يقوم بها الغزاة، بل وتؤكد هذا الرعب حينما عزم السلطان "سليمان القانوني" على فتح روما، بعد استيلائه على مملكة نابولي فأرسل لأجل ذلك الأسطول العثماني بقيادة "خير الدين" ببروس لاحتلال (أولونيا) الواقعة على ساحل البحر الأدرياتيكي وذلك سنة 1537م².

ثانيا : نظام البايلربايات:

أثرت التطورات التي عرفت الجزائر منذ مطلع القرن 10هـ/16م وإلى غاية وقوعها تحت الاحتلال الفرنسي عام 1246هـ/1830م بشكل واضح في المسيرة التاريخية للجزائر العثمانية، وطبعتها بطابع ميزها عن الفترات السابقة مما أثار اهتمام الكثيرين من الكتاب والمؤلفين و السفراء و الرحالة، فكتب كل واحد فيما أثار اهتمامه ولفت نظره، ذلك أن بروز الجزائر على مسرح الأحداث الإقليمية والدولية خلال الفترة 918-1246هـ/1512-1830م، وتصديدها للغزو الاسباني وقيام حكم مركزي قوي مع إرساء دعائم وحدة سياسية وإدارية ضمن حدود واضحة المعالم إلى حد كبير جعلت الجزائر محل رصد من قبل من تقدم ذكرهم.

تباينت رؤاهم إلى السلطة التي كانت قابضة على الحكم فيها طوال الفترة المذكورة بين مستحسن ناظم منصف ومتحامل فالكثير من العلماء والفقهاء والمثقفين كانوا يرون فيها الناصرة للدين، المدافعة عن المسلمين في الجزائر في حين تحامل آخرون على تلك السلطة العثمانية فأبرزوا مساها ومظالم حكامها للرعية وتشددهم في جباية الضرائب منها وتسليط المغارم عليها، أما معظم الغربيين فركزوا جهودهم على القرصنة ومسألة الأسرى، والأضرار التي لحقت الأمن والنشاط التجاري من جراء قبضة الحكم العثماني في الجزائر³.

فقد كان الوضع الدولي بالإيالة الجزائرية يرجع في أساسه إلى تطوّر نظام الحكم العثماني بالجزائر، بفعل أحداث و تغيرات لا زال بعضها غامضاً لندرة المصادر، نلاحظ أن الحكم العثماني بالجزائر مر بأربع مراحل حسب السلطة العليا التي كانت تمثلها. أولها مرحلة باي البايات أو باي لارباي "أمير الأمراء" (1518-1588

¹ _ جمال قنان، معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619-1830 م، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010 م، ص21.

² _ محمد درّاج، المرجع السابق، ص236.

³ _ ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830)، طبعة ثالثة منقحة ومعدلة ومزينة، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، الجزائر، ص21.

م)، يعاصر عهدهم فترة السلاطين العظام وعصر القوة العثمانية، والملاحظ خلال هذه الفترة توطيد الحكم العثماني في الجزائر ووضع أسسه التي سوف يركز عليها طوال التواجد العثماني في الجزائر، وكان هؤلاء البايكليات بمثابة ملوك مستقلين رغم اعترافهم بسيادة السلطان العثماني إذ كانوا يمارسون بأنفسهم أو بواسطة خلفاء لهم، يعينهم في حالة انشغالهم عن إيالة الجزائر¹.

تميّز عهدهم بازدياد التدخل الإسباني، و تكثيف الغارات البحرية على مدينة الجزائر إلا أن جميعها باءت بالفشل كما تميّز عهدهم بالوقوف في وجه تدخل ملوك المغرب السعديين في الجزائر و الانتصار عليهم في كثير من المواقع و العمل على بسط السيادة العثمانية داخل الأراضي الجزائرية، و كان البايكليات من كبار رجال البحر يعود الفضل إليهم في تنظيم القوة البحرية العثمانية، و في التفوق البحري العثماني في المنطقة الغربية للبحر الأبيض المتوسط، و الإشراف على إخضاع باقي شمال إفريقيا للسلطة العثمانية، و الجدير بالملاحظة أن أهم ظاهرة سياسية طبعته هذا العصر هي محاولة البايكليات وضع حد لنفوذ الجيش الإنكشاري و هذا من خلال إنشاء قوة عسكرية موازية لها اعتمدوا فيها على تجنيد عناصرها من الجزائريين و العلوج، و قد حاول المؤرخ الفرنسي "جولييان" أن يفسر الدافع الحقيقي لهذه المحاولة حيث من خلالها حاول البايكليات إنشاء إمبراطورية بحرية تقتضي تضافر و تلاحم جميع القوى الفاعلة في الإيالة.

تشير بعض الدراسات على أن البايكليات تمكنوا من أن يجدوا لأنفسهم قاعدة شعبية تساعدهم في مهامهم السياسية والعسكرية مما أفضى على عهدهم نوعا من الاستقرار والهدوء فقد كان لتمسكهم بمبدأ تحرير البلاد من بقايا الاحتلال الإسباني قاعدة أساسية أكسبتهم هالة من الاحترام والتقدير في نظر السكان، ومحاولتهم التقرب من رجال الصوفية وكسب ولائهم من خلال منحهم الكثير من الامتيازات، وهذا بغرض استمالة نفوذهم الروحي، ونظراً للشعبية الواسعة التي كان يتمتع بها شيوخ الزوايا².

جمع معظم البايكليات بين وظيفة البايكلي و منصب قبطان باشا، و السبب في ذلك أن البحر كان طريق الاتصال الوحيد بين اسطنبول، و شمال إفريقيا، و كان قبودان باشا هو الذي يتولى أمر الاتصال بين السلطان ونيابات الجزائر و تونس و طرابلس، و كانت سيطرت البايكليات على القوتين العسكريتين الأساسيتين في الجزائر: (الإنكشارية "القوات البرية" و طائفة الرؤساء "القوات البحرية") قوية.

تميزت هذه المرحلة بتصفية الجزائر من الأطماع الاستعمارية الإسبانية بالدرجة الأولى وبتوسيع داخل البلاد وإرساء النفوذ العثماني فيها، كما اهتم البايكليات بتنظيم البلاد سياسيا و اقتصاديا³. و بهذا يمثل هذا العصر

¹ ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830)، طبعة ثالثة منقحة و معدلة و مزيدة، المرجع السابق، ص 22.

² حنيفي هلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، المرجع السابق، ص 123.

³ حمزة منير وآخرون الجزائر في عهد الدايات، قسم العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تبسة، ص 6.

أزهى عصور الحكم العثماني في الجزائر حيث ازدهرت البلاد في هذه الفترة من جميع النواحي وذلك بفضل التعاون بين فئة الرياس¹ في القيادة وأبناء الجزائر، وقد ساهم في تنمية البلاد وازدهارها مهاجرو الأندلس الذين وظفوا خبراتهم ومهاراتهم في ترقية المهن وتقوية الاقتصاد الجزائري، كما ازدهرت الجزائر في هذه الفترة التي تميّزت الحياة السياسية فيها بالاستقرار وتحالف الجميع ضدّ العدو الاسباني.

عهد الولاة هذا لم تكن سلطة الدولة العثمانية عليها تزيد على "الخطبة" للسلطان في المساجد كما كان الولاة مخلصين للدولة باعتبارها دولة الخلافة الإسلامية².

يعتبر "خير الدين" أول حاكم عثماني للجزائر، وقد جاء هذا التعيين ليدعم سلطته في البلاد فاتخذ مركزه في مدينة الجزائر وعيّن "أحمد بن القاضي" سلطان جبل كوكو حاكما على بلاد القبائل والناحية الشرقية، ولم يرتح الحفصيون والمرينيون لذلك وأخذ كل واحد يدبّر المؤامرات ضدّ "خير الدين" ونظامه³.

الاسبان من جانبهم نظّموا ضدّه حملة عسكرية كبيرة وضخمة قادها "قودو مونكاد" ونزلت بوادي الحراش في شهر أوت 1519م، ولكنها أصيبت بهزيمة ساحقة وفقد الاسبان معظم قواتهم وأسلحتهم وسفنهم وكان من ضمن أسباب هزيمتهم تأخر إمدادات الزبّانيين المتحالفين معهم من تلمسان وسيكون لهذه الهزيمة تأثير كبير على تحرّشات الاسبان على شمال افريقيا⁴، والحفصيون والمرينيون استعملوا الدسائس واستمالوا إليهم "ابن القاضي" و "محمد ابن علي"، ودفعوهما إلى الثورة ضدّ "خير الدين" للتخلّص منه خاصة الحفصيين فترعما تمرّدا واسعا واستطاع "ابن القاضي" أن يهزم "خير الدين" وقطع عليه خط الرجعة إلى الجزائر التي استولى عليها فاضطر أن ينسحب إلى قاعدته البحرية القديمة بجيجل لمدة ست سنوات تقريبا (1521-1527م)، ظلّ أثناءها يحارب الاسبان ويرقب الأمور ويستعد لإعادة الكرة⁵.

عانى سكان مدينة الجزائر كثيرا من جور "ابن القاضي" وظلمه خاصة في ميدان جبي الضرائب، و لذلك راسلوا "خير الدين" كما راسله أمراء القلعة وسكان القبائل، فعاد إلى المدينة عام 1527م واستعاد سلطته ونفوذه ومدّها إلى جهات كثيرة وقضى على الحصن الاسباني ببرج الفنار في 16 ماي سنة 1529م وأزال بذلك كابوسا

¹ الرياس: هم مجموع الذين يعيشون على الجهاد في البحر، اختلفت أصولهم فمنهم الأندلسيين، و الأعلاج، والأقلية منهم هم من سكان الإيالة. أنظر: حمدان بن عثمان خوجة، المرأة، تع: محمد العربي الزيري، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1983م، ص155.

² ناصر الدين سعيدوني، الملكية والجباية في الجزائر أثناء العهد العثماني، ط2، معدلة ومنقّحة، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، الجزائر، ص55.

³ عبد الكريم غلاب، المرجع السابق، ص339.

⁴ عميرايوي حميده، قضايا مختصرة في تاريخ الجزائر الحديث، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، 1426هـ- 2005م، ص75.

⁵ عمار بوحوش، المرجع السابق، ص58.

مخفقا كان يجثم على صدر سكان مدينة الجزائر حوالي 19 عاما تقريبا لم يكتف بتحطيمه فردم البحر بينه وبين ساحل المدينة و أوصله بها بواسطة رصيف طويل أصبح ميناء الجزائر الحالي.

كان طرد الاسبان من هذه القلعة على هذا الشكل صدمة كبيرة لهم لذلك صمّموا على الانتقام وأفرغوه على شرشال عام 1531م بواسطة حملة كبيرة قادها "أندري دوريا" الإيطالي الأصل وأحدثوا في المدينة تخريبا وفي أهلها نكرا، ولكن "خير الدين" هبّ لإنقاذها واضطر الاسبان إلى الفرار بفضل شجاعة الأهالي وصمودهم¹، ونظرا لما أبداه "خير الدين" من مقدرة في الإدارة وفي الحروب البحرية وقيادة الأساطيل، استدعاه السلطان العثماني إلى القسطنطينية عام 1535م ليعيّنه وزيرا للبحرية العثمانية.

لكنّه في واقع الأمر كان "خير الدين" قد تمتّع بسلطات واسعة استطاع بواسطتها هو ومن جاء من بعده من الحكام الأساسيين في الجزائر في الفترة (1519-1587م)، أن يسيطروا نفوذهم شيئا فشيئا على كامل أنحاء الجزائر وأقاليمها وتحقيق وحدتها ثمّ العمل على استحداث أنظمة إدارية وتقسيمات اقليمية، بالإضافة إلى التصدي بنجاح للحملات الاسبانية والزيانية والحفصية².

خلف "خير الدين" في ولاية الجزائر "حسن أغا" عام 1534م الذي تمكّن من التصدي لغزوة اسبانية وفي عهد خلفائه تمكّن أحدهم وهو ابن "خير الدين" من تحصين البلاد وضّمّ تلمسان ومستغانم ومواجهة الاسبان في وهران، كما قد تمكّن "صالح ريس" من طرد الاسبان من بجاية ثمّ طرابلس (1555-1556م) وصار أسطول الجزائر قويا ومرهوبا في البحر المتوسط³.

كان البيلربايات من كبار رجال البحرية لذلك لم تفتهم فكرة انشاء قوة بحرية، وتنظيمها تفرض تفوّقها في الحوض الغربي للبحر المتوسط وكذلك تشرف على اخضاع باقي مناطق شمال افريقيا للسلطة العثمانية حيث ظلّت مهمّتهم تنحصر في توجيه الحكم في كل من طرابلس وتونس طيلة مدّة حكمهم⁴.

لكن التحوّل الذي حدث في طبيعة العلاقات العثمانية-الأوروبية في نهاية القرن 16م و احتلال موازين القوى لصالح الأوروبيين كانت وراء ازدياد الضعف العثماني ولاسيما اثر معاهدي "كارلوفيتز" (Carlovitz) في (1699م) مع النمسا، البندقية وبولونيا، و معاهدة اسطنبول (1670م) مع روسيا و التي بموجبها تخلى فيها العثمانيون عن بعض أقاليمهم. و قد نتج عن هذا التطوّر أن ضعفت الروابط بين نيابة الجزائر و السلطة العثمانية حتى أصبحت شبه جمهورية عسكرية، و مما زاد في استقلالية الجزائر وحكامها عن الدولة العثمانية، أن أصبح

¹ محمد عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، المرجع السابق، ص 86.

² حمزة منير وآخرون، المرجع السابق، ص 16-17.

³ أحمد زكريا الشليق، المرجع السابق، ص 131.

⁴ أنظر رسالة أهالي مدينة الجزائر للسلطان العثماني باللغة العثمانية في المجلة التاريخية المغربية، تونس، 1976، عدد 5، ص 99.

الدايات يعتبرون أنفسهم كخلفاء للباب العالي فقط بعد أن كانوا تابعين له ووصلت بهم الجرأة أن يقوموا بالاتصال بالدولة الأوروبية دون اعتبار لمصلحة السلطة.

استطاعوا إعادة النظام و الأمن للبلاد وبسط السيطرة على عدة مناطق واسعة وصلت إلى الواحات الجنوبية في عهد "صالح رايس"، كما شهدت هذه المرحلة تأسيس أول نواة للجيش الجزائري و البحرية الجزائرية، وقد كان معظم ولاية هذا العهد من طائفة رياس البحر الذين يُعِينهم السلطان أو يوافق على من يقترحه الرياس الذين لم يكونوا يتقيدون كثيرا بأراء الديوان الذي سيصبح فيما بعد الحاكم الفعلي للجزائر¹.

بعد استتاب الأمر وتوحيد الجزائر تحت مسمى واحد أصبحت الجزائر تحكم كدولة كبرى شأنها شأن أية دولة أخرى وأخذ حكامها على امتداد مراحل الحكم حتى عهد الدايات يطوّرون عمل أجهزتها واستكمال متطلبات الدولة الاقتصادية والاجتماعية وتنظيمهما حسب الشريعة الإسلامية دون التدخل في النسيج الاجتماعي أو اللحمية المغاربية، بل فضل العثمانيون الاهتمام بأنفسهم والحفاظ على مكانتهم في المجتمع الجزائري، وكذلك المشاكل التي تحدث بين رياس البحر والإنكشارية للسيطرة على الحكم.

أما علاقتهم بالدولة العثمانية التي باتت محدودة بعد فقد الأخيرة عددا من أراضيها لروسيا والنمسا، وأصبح الرابط الديني هو الذي يربط بين الاثنين بعد أن فضّلوا إرسال الهدايا والأموال وجلب الإنكشارية لمساعدتهم على إدارة دفة الحكم دون تدخل الدولة العثمانية مباشرة في حكم الجزائر إذ أنّ الاتفاقات الرسمية بين الجزائر والدول الأوروبية كانت تجري باسم الحكام الجزائريين وليس باسم السلطان العثماني وهو ما وُلد وضعاً دولياً خطيراً كانت نتائجه سلبية على الجزائر².

بعد موت "علج علي" باشا سنة 1587م رأت الدولة العثمانية من المناسب أن تفصل بين إدارة أوجاقات الغرب بتعيين واليين مختلفين على أن تكون ولايتهم لمدة ثلاث سنوات يتغيرون بعد انقضائها وبذا تكون الدولة العثمانية فكرت في تأمين وحدة للإمبراطورية مانعة أن تكون إدارة شمال إفريقيا كلّ بيد شخص واحد ولمدة طويلة و في الحقيقة فإنّ النتيجة جاءت عكسية إذ ضعفت روابط الأوجاقات بالدولة العثمانية.

اتّسم عهد البايلرييات بعدّة خصائص أهمها:

1. معظم ولاية هذا العهد كانوا أقوياء ذوي سلطة ونفوذ واسعين أتاح لهم مركزهم الممتاز أن يمدّوا سيطرتهم حتى إلى تونس وطرابلسي تحكّموا في أقدارها وتشاركوا في الصراع الدائر بهما ضدّ الاسبان أساسا، وضدّ

¹ _احمد زكريا الشلّيق، المرجع السابق، ص135.

² _عثمان عكاك، موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2003م، ص304.

الثورات الأهلية الداخلية. وهم الذين بحكم لقبهم (بايلرياي) يعينون باشوات تونس وطرابلس عن الدولة العثمانية ويعينون من يخلفهم بالجزائر عندما ينقل أحدهم.

ومن أشهر هؤلاء "خير الدين" وابنه "حسن"، "صالح راييس"، "العلج علي" و "حسن فنزيانو"¹.

2. معظم هؤلاء من طائفة الرياس البحريين الذين كان أغلبهم من رفاق "خير الدين" نفسه، والسلطان العثماني هو الذي يعينهم أو يوافق على من يقترحه الرياس بحكم تبعية الجزائر للدولة العثمانية وكانت صلاتها بالسلطان قوية ويتولون في هذه البلاد تنفيذ أوامره وتعليماته بخدافيرها دون معارضة. وكثيرا ما يبقى الواحد منهم في الحكم عدة سنوات نظرا لما لهم من قدرة في حكم البلاد كما أنّ عدد منهم نقل إلى الأستانة ليتولوا منصب قبطان باشا أو وزارة البحرية بسبب كفاءتهم في قيادة الأساطيل البحرية مثل "خير الدين" وابنه "حسن باشا" و "العلج علي".

3. انصبّ جهود هؤلاء البايالريايات على مقاومة النصارى الاسبان في البحر الأبيض المتوسط وتصفية جيوبهم في الداخل بالموانئ التي يحتلوها وتقديم يد المساعدة لمسلمي الأندلس المنكوبين كجزء من المقاومة الداخلية والمحلية.

4. تمّ للجزائر في هذا العهد تحقيق وحدتها الإقليمية والسياسية لأنّ البايالريايات اهتموا بمدّ نفوذهم وسيطرتهم إلى كل جهاتها في الشرق والغرب والجنوب قضوا على كل الإمارات والسلطنات المحلية كالدولة الزيانية بتلمسان والإمارات الحفصية في قلعة بني عباس، قسنطينة، عنابة وإمارة جبل كوكو بالقبائل. ويعتبر "صالح راييس" بطل تحقيق هذه الوحدة لأنه هو الذي اجتهد في مدّ نفوذ الأتراك إلى الواحات بالجنوب، وقضى على الدولة الزيانية بتلمسان وفرض طاعة السلطة بالجزائر على كل المناطق².

5. ونظرا لأهمية تلمسان بالنسبة لمستقبل الجزائر السياسي والوجود العثماني بالجزائر، وفي مقاومة الاسبان بالجيوب التي يحتلوها بالمناطق الساحلية خاصة وهران، المرسى الكبير، فإنّ البايالريايات دخلوا حلبة الصراع ضدّ السلطنة المغربية بالمغرب الأقصى التي كانت لها أطماع كذلك بها واضطروا أن يشنوا الحملات العسكرية على فاس نفسها لتأديب سلاطينها السعديين.

6. نظرا لأهمية موقع الجزائر الاستراتيجي وقوة السلطة الجديدة بها فقد دخلت كطرف في الصراع الدولي الذي دار على أشده في هذه المنطقة واحتدّ بين الإمبراطورية العثمانية والاسبان وفرنسا، وكان من أبرز ميزات هذا الصراع توثّق العلاقات بين الدولة العثمانية وفرنسا و الجزائر، بالتبعية واشتراكها في محاربة الاسبان ومقاومة مشاريعهم العدوانية في حوض البحر المتوسط الغربي بسبب عدااء الأتراك والجزائريين

¹ _دخية فاطمة، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، دكتوراه في جامعة بسكرة، 2014-2015م، ص 6.

² _نفسه، ص 7.

التقليدي للأسبان وتنافس فرنسا التقليدي لهم حول مشاكل القارة وورثة العروش زيادة على تكرار اعتداءات "شارلكان" على الشواطئ الفرنسية.

وبناء على هذا التقارب والعلاقات الوثيقة بين العثمانيين والجزائريين والفرنسيين استنجدت فرنسا بأسطول الجزائر مرة لقمع ثورة داخلية بمرسيليا ومرة أخرى لردّ هجمات الاسبان على الجنوب الفرنسي وقاد "خير الدين" أسطول الجزائر إلى الشواطئ الفرنسية عام 1543م لقيادة العمليات الحربية ضدّ "شارلكان" الاسباني، وتعود العلاقات الطيبة بين فرنسا والدولة العثمانية إلى أيام السلطان "سليمان القانوني" و"فرانسوا الأوّل" حيث حصلت فرنسا من السلطان على امتيازات واسعة في أملاك الدولة العثمانية عام 1535م¹.

7. أصبح للجزائر في هذا العهد أسطول بحري قوي وكبير تطوّر بمرور الزمن وكان من ضمن دوافع انشائه مقاومة القرصنة الأوروبية وخاصة الاسبانية، واستطاعت الجزائر بهذه القوى البحرية أن تفرض إرادتها على الدول الأوروبية وترغمها على دفع إتاوات مقابل ضمان الأمن والسلامة لمراكبها في حوض البحر المتوسط الغربي، كما استطاعت أن تشارك في توجيه الأحداث في المنطقة، كما أنّ أسطولها شارك في المعارك الكبرى إلى جانب الدولة العثمانية كما حصل في معركة ليبانتو عام 1571م. على أنّ هذا الأسطول الذي كان الدافع الأوّل لإنشائه في البداية هو الجهاد في سبيل الله ومقاومة القرصنة بعد أن ضعفت روح الحروب الدينية وانطفأت جذوتها لدى الأوروبية وظهرت بدلا منها رغبة الإثراء عن طريق التجارة والغنم البحري.

8. بدأ النفوذ الفرنسي في هذا العهد يتسرّب إلى الجزائر ويتغلغل فيها كنتيجة للعلاقات الطيبة بين الدولة العثمانية وفرنسا.

يمثّل عهد ولاية البايبراي دور القوّة لحكم العثمانيين في الجزائر في مختلف الميادين ولو أنّ الجانب السياسي والعسكري كان أبرز من غيره. عرفنا فيما سبق أنّ "خير الدين" بعد أن عيّن "بايلرباي" على الجزائر وما حولها احتفظ بها لنفسه وعين على الجزائر الشرقية والغربية عمالا من قبله وبقي الأمر كذلك إلى عهد البايبراي "حسن بن خير الدين" الذي أعاد تنظيمها إداريا وقسمها إلى أربع بايلىكات (عمالات) على كل منها باي نائباً على باشا، وبقي هذا التنظيم إلى غاية نهاية العهد العثماني².

¹ يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر-الجزائر القديمة والوسطية والحديثة-، ج2، المرجع السابق، ص19.

² نفسه، ص20.

أمّا الجزائريون فلم يسمح لهم في هذا العهد بالدخول إلى الجيش والتدرّج في مناصبه خوفا من تمردهم على السلطة في مستقبل الأيام، وعندما حاول "حسن باشا بن خير الدين" أن يدخل منهم عناصر إلى الجيش دبّرت ضده مؤامرات انتهت بعزله عن الجزائر عام 1568م¹.

¹— يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر-الجزائر القديمة والوسيط والحديثة-، ج2، المرجع السابق، ص21.

الباب الأول

التطورات السياسية لإيالة الجزائر في القرن 11 هـ / 17 م

الفصل الأول :مرحلة الباشاوات (1587-1659م)

الفصل الثاني :مرحلة الأغوات (1659-1671)

الفصل الثالث :مرحلة الدايات (1671-1700)

الباب الأول: التطورات السياسية لإيالة الجزائر خلال القرن 11 هـ/17 م:

اكتسب حوض البحر المتوسط أهمية حضارية، و استراتيجية بالغة، ظهرت على ضفافه حضارات راقية كما يمثل مركزا للتجارة العالمية، وحلقة وصل بين مختلف شعوب العالم، خاصة بين ضفتيه الشمالية، و الجنوبية. هذا ما جعله ميدانا للتأثير، والتأثر بين الشعوب، التي عاشت على ضفافه، و بين الدول التي ظهرت على مر العصور، خاصة تلك التي قامت خلال الفترة الحديثة، أي فترة القرن الحادي عشر هجري/السابع عشر ميلادي، والتي تتركز على الحوض الغربي من هذا البحر المتوسط، و التي هي موضوع هذه الدراسة.

الهدف من هذا المدخل هو محاولة الإحاطة بالوضع الدولي، الذي ميّز منطقة الحوض الغربي للبحر المتوسط مع مطلع القرن الحادي عشر هجري/ السابع عشر ميلادي، ومعرفة مختلف القوى السياسية، التي حاولت فرض قوتها فيه، أو السيطرة عليه؛ وذلك من أجل الوقوف على الظروف، التي تحكمّت في العلاقات بين ضفتيه في هذه الفترة؛ أي العلاقات بين الإيالات العثمانية في غرب المتوسط¹.

تميّز هذا الوضع الدولي في الحوض الغربي من البحر المتوسط في مطلع القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي، بوجود قوى على ضفتيه؛ قوى من الضفة الشمالية أهمها إمبراطورية إسبانيا إلى جانب البرتغال، وقوى أخرى مقابلة في الضفة الجنوبية؛ تتمثل في الدولة العثمانية، ودول المغرب الإسلامي.

أهم ما ميّز الحياة السياسية بعد مرحلة تأسيس إيالة الجزائر هو التغييرات الخطيرة التي شهدتها النظام السياسي الذي مرّ بثلاثة أنواع من الأنظمة انتقل أثناءها الحكم إلى ثلاث قوى متميّزة.

الفصل الأول: مرحلة الباشاوات (1587-1659م)

أولاً: سياسة الباشاوات الداخلية

كانت الجزائر منذ انضمامها تحت لواء الدولة العثمانية ممثلة بنظام البايكيات وهو اللقب الذي حمله الحكام الأساسيين في الجزائر في الفترة الممتدة من 925-995 هـ/1519-1587م، وقد كانوا يعينون لفترة غير محدودة بزمان، وغالباً ما كانوا يستدعون لاستلام منصب أعلى هو وزير البحرية².

من أسباب تغيير النظام السابق نجد:

¹ _ محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، ط2، مكتبة الشرق، لبنان، 1969م، ص56.

² _ نفسه، ص57.

كان ولاّة البايكيات أقوياء وأصحاب نفوذ واسع، تخطّت سلطتهم الجزائر إلى تونس وطرابلس بحكم أنّهم أصحاب فضل في فتح هذين البلدين، ولإلحاقهما بالدولة العثمانية التي كافأتهما على ذلك بإعطائهم امتيازات واسعة من بينها تعيين باشاوات تونس وطرابلس، واختيار من يخلفهم في منصب البايكيات عندما يتقرّر رحيلهم إلى القسطنطينية لتسليم منصب أكبر، وجديد مثل "قبطان باشا" على البحرية العثمانية.

حكم هؤلاء البايكيات غير محدودة فكثيراً ما تمتد فترة الواحد منهم عدّة سنوات في منصبه، و يصبح صاحب مركز قوي ونفوذ واسع لدرجة أنّ الدولة العثمانية بدأت تشمّ رائحة التمرد، ومحاولة الانفصال عنها والاستقلال بهذه البلاد، فتقرّر تقصير مدّة حكم الوالي إلى ثلاث سنوات فقط، والتنقيص من امتيازاته السابقة، واختصاصاته وتغيير لقبه إلى الباشا، لذلك فبعد انهاء ولاية البايكيات "حسن فنزيانو" عام 1587 م، غيّرت حكومة اسطنبول طريق الولاية في الجزائر فعزمت على إرسال باشاوات من قبلها يحكم الواحد منهم ثلاثة أعوام وعيّنت "أحمد باشا" والياً جديداً على الجزائر¹.

تُميّز هذا العهد عدّة أحداث بارزة بعضها خارجية وبعضها داخلية، أما الأحداث الخارجية فتتمثّل في بداية الصراع مع الدولة العثمانية ومواصلة الجهاد ضدّ القراصنة الأوروبيين في البحار وخاصة ضدّ فرنسا، وأمّا الأحداث الداخلية فتتمثّل في الصراع ضدّ إمارة قلعة بني عباس، وفي ظهور عدد من الثورات الداخلية في العاصمة وفي شرق البلاد والجنوب وفي الصراع بين القوّات العسكرية الإنكشارية البحرية وطائفة الرّياس البحرية. عرف القرن السابع عشر تحوّلاً ملحوظاً تمثل في اهتمام الحكام العثمانيين المتزايد بالمناطق الداخلية للبلاد، والسعي المتواصل لبسط نفوذ البايك على البلاد السائبة، أو التي ظلت ممتنعة نظراً لبعدها عن مراكز الحاميات، أو لصعوبة تضاريسها، في وقت قل فيه نشاط الغزو البحري، ولم تعد الغنائم توفر لخزينة الدولة ما تحتاجه من مبالغ مالية خاصة في النصف الثاني من القرن السابع عشر، وتسببت الحملات العسكرية التي قاموا بها، إلى حدوث ضغط على أهالي الأرياف بفعل الضرائب، وقد أدى ذلك كله إلى نشوب سلسلة من الاضطرابات والانتفاضات القبلية².

الحديث عن الثورات و التمردات نتطرق أولاً إلى ما ذكره الدكتور "أبو القاسم سعد الله" في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي في الفصل الثاني حاليثورات ما كان قصير المدى محدود المكان وما كان طويل المدى واسع المجال، والواقع أنّ ردّ فعل ضد العثمانيين قد بدأ منذ اللحظة الأولى، وأولهم جاءت من أصحاب المصالح السياسية والاقتصادية في البلاد الذين يقومون بدفع الضريبة للحكومة المركزية ويعترفون بالتبعية للسلطان العثماني وكانت علامة التمرد لامتناع عن دفع الضريبة³، ومجموعة من الثورات والتمردات وأولها محاولة "سليم التومي" استعادة نفوذه على

¹ جمال الدين سهيل، المرجع سابق، ص 144.

² أمين محرز: الجزائر في عهد الأغوات (1659-1671)، دار هومة للنشر و التوزيع، الجزائر 2008، ص 25.

³ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي،

مدينة الجزائر مما أدى إلى مقتله على يد "عروج بربروس" وثورة "ابن القاضي" أمير إمارة كوكو وكذلك سحق أمراء قسنطينة على يد العثمانيين كأولاد صولة. ومع تقدم العهد بدأت تظهر تمردات وثورات جديدة أيضا كثورة صحال التي رواها "ابن مريم" وبذلك بداية تعبير عن روح وطنية ضد العثمانيين.

ذكر "أبو القاسم سعد الله" الثورة التي حدثت في زواوة خلال القرن 12 هو كان سببها فرض ضرائب جديدة على أهلها ففي سنة 1158م خرج أهل زواوة ضد القائد العثماني "محمد الفريرا" المشهور بـ "الذباح" وتمكنوا من قتل قائد الحامية العثمانية في سبوا وهو "محمد الذباح" وقد استمرت الثورة مدة سنة وأرجعت السلطان العثمانية وبذلك وضع حد لهذه الثورة الخطيرة على الوجود العثماني، وأما من الثورات غير الدينية ضد العثمانيين ثورة الكراغلة وثورة تلمسان في القرن 11 هـ. بدأت هذه الاضطرابات بثورة تلمسان 1627م التي قمعت بشكل وحشي سنتين من بعد، لكن يبدو أن نقطة الانطلاق الحقيقية لهذه الفترة كان طرد للكراغلة¹ من مدينة الجزائر (1629-1630م)، فمعظم المطرودين انتهى بهم المطاف إلى تكوين معسكر في "واد الزيتون" بدائرة الأخضرية حليا بولاية البويرة، و إلى "بني عباس" ببلاد القبائل اللتين كانتا في حالة حرب مفتوحة مع السلطة المركزية، بينما حاولت مجموعة من الثوار الكراغلة الاستيلاء على العاصمة.

هذا ما عرف بثورة الكراغلة²، لم تكد هذه الجبهة تمدا حتى انفجرت في وجه السلطة بالجنوب الشرقي إحدى أكبر الانتفاضات القبلية في تاريخها، هذه الانتفاضة المعروفة بثورة "ابن صخري" دامت منذ 1638م وكان سببها المباشر هو تخريب "الباستيون" في خصم الحرب الجزائرية الفرنسية عام 1637م، حيث كان الكثير من القبائل والعشائر في شرق البلاد وعلى رأسها قبيلة الحناشة تتعامل تجاريا مع الفرنسيين³.

أدى توقف المبادلات التجارية إلى انتفاضة هذه القبائل التي رفضت دفع الضريبة السنوية بحجة تخريب المركز التجاري الفرنسي الأمر الذي حرّمها من المداخل التي كانت تجنيها. كما أدى قتل بآي قسنطينة" لمحمد بن صخري شيخ قبيلة الدواودة بتهمة الخروج عن طاعته إلى انضمام الدواودة إلى صف الجناشة والقبائل الثائرة ضدّ

1 _ الكراغلة هم أبناء الأتراك، والأعلاج من أفراد الاوفاق، للمزيد انظر:

-Mantran (R): " Quelques apports ottomans dans les capitales des odjaks l'ouest" in **R. H. M** , 1993, n° 69- 70,p134.

2 _ ثورة الكراغلة: تشير بعض الكتابات الغربية إلى أن الثورة الكراغلة ضد طبقة الأتراك العثمانيين التي احتكرت المناصب العليا، وحالت دون وصول الكراغلة إليها، كانت بتحريض من خيضر باشا(1005هـ-1596م). وقد انتهز الكراغلة فرصة هذا النزاع بينه وبين الانكشارية، وحاولوا السيطرة على زمام الحكم. ولم يتوقف الخلاف بعد ذلك ففي سنة 1629م اصدر الأتراك العثمانيون أمرا للكراغلة بمغادرة مدينة الجزائر، وعادوا إليها في 1633م وحدثت اضطرابات كثيرة، لكن ثورتهم فشلت. أنظر:

-Pierre Boyeri: "Le Problème kouloughli dans la Régence d'Alger" in **R.O.M.M**. Aix-en Provence , 1970 , n° spécial, pp 79-94.

3 _ جمال قنان: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500-1820، المرجع السابق، ص71.

الحكم العثماني⁽¹⁾. سار الثوار إلى قسنطينة فحاصروها ، وخربوها ، وعمت على إثرها الفوضى في باليك الشرق ، وألحقت القبائل هزيمة نكراء بقوات الجند التي أرسلها الوالي "على باشا" في 1638م ، وقرر هذا الأخير في سنة التالية الخروج بنفسه لملاقاة الأعداء⁽²⁾، لكنه حوَّصر وهزم فعين "على باشا" "حمزة خوجة" أحد قادة الجيش للتفاوض مع الثوار ، واضطر إلى الرضوخ إلى شروطهم⁽³⁾ .

أثار هذا الاتفاق سحق الديوان حتى إن الوالي بعد رجوعه إلى العاصمة كان مرغما على الاختباء بعض الوقت خوفا على حياته وقد تفاقم الوضع سوءا في عهد خلفه "أبو جمال يوسف باشا" (1640-1642م)، الذي فضل التخلي عن منصبه بعد مرور أربعين يوما من الحكم. وذلك في الوقت الذي كانت فيه معنويات الجيش محطّة، وقوات الأمير "كوكو" تغير على متيجة، وتهدد مدينة الجزائر نفسها⁽⁴⁾، أعاد الديوان النفوذ العثماني على بعض المناطق من الشرق والجنوب الشرقي⁽⁵⁾.

عاشت الإيالة مرحلة من القلاقل والانتفاضات شبه المستمرة خاصة في الفترة (1655-1659م) التي تعاقب على الحكم فيها كل من "أحمد باشا"، و"إبراهيم باشا" وكان باشاوات الجزائر مثل غيرهم من الباشاوات العثمانيين يشترطون مناصبتهم بالمال ، ولهذا كان همهم الوحيد جمع الثروة فكانوا يتلاعبون أو يتأخرون في دفع رواتب الجند وتجهيزهم وهي النفقة الإلزامية الوحيدة. مما إلى خلق أزمة مالية خانقة أكثر من ذي قبل ، حيث أضحت موارد الخزينة غير كافية البتة لسداد رواتب الجند الانكشاري ، هذا ما جعل أعضاء الديوان يلغون

1 _ عباد صالح: **الجزائر خلال الحكم التركي: 1514 - 1830**، دار هومة، الجزائر، 2004، ص ص 121، 122.

2 _ Delphine (G): " **Histoire des pachas d'Alger de 1515 à 1745** " in **R.Af**. 66, 1925, p202.

3_ تضمنت شروط الاتفاق النقاط التالية:

- لا يقلق الأتراك المنتفضين بخصوص اللزمة

- يعود الأتراك الجزائر دون أن يلتفتوا يمينا أو شمالا

- يعيد الأتراك بناء الباستيون حتى يتمكن السكان من دفع اللزمة

- يعفوا الأتراك على الكراغلة مدينة الجزائر، على الأرجح تقدير إن الكراغلة شاركوا في هذه الانتفاضة. انظر:

-Berbrugger (A): " **notes relatives à la bensakhri** " in **R.Af**. , 1886, n10, p 345.

4 _ Grammont : **Histoire d'Alger** ; Op .cit, p 190.

5 _ محرز أمين: المرجع السابق، 2008، ص 27.

الاختصاصات المالية للوالي العثماني المتمثلة في دفع الرواتب، والجباية و النفقات العامة⁽¹⁾. ولعل هذا كان سبب تجريدهم من كل سلطة⁽²⁾.

إثر ثورة الأغوات 1659م⁽³⁾، وذكر "ابن المفتي" عن الأسباب التي أدت إلى انتزاع ميزة دفع الراتب من الباشاوات مايلي: "...عندما كانوا مكلفين بدفع الرواتب، كانوا يستغلون الأمر في نهب الأموال التي تحمل إلى القصر من مختلف الجهات بدون تحفظ، وفي الوقت كانوا يتتبعون في السلطة على فترات متقاربة، كان سكان الجزائر ضحايا لشجعهم، حتى إنهم فرضوا على العلماء وعدول المحكمة دفع مبلغ معين. فطن عسكرنا المنصور بعون الله لذلك وقرروا نزع دفع الرواتب من الباشاوات وكذا جباية الضرائب و تسديد النفقات وذلك بصفة تامة." ويضيف انه "ابقي على رأس حكومة المدينة، و مقاطعاتها (دار السلطان) فقط"⁽⁴⁾. وعلى اثر ذلك ثارت الطائفة على "علي باشا" وأنفجر الوضع المحتقن، وبناء على طلب ممثلي الرياس إلقاء القبض على الوالي وإتباعه، الذين وضعوا في غليوطة لنقلهم إلى أزمير لبحث مسألة سوء الإدارة وبشكل عام عن الأزمة المالية التي أوقعوا البلاد فيها⁴.

الدافع الكبير لاستحداث نظام الباشاوات هو الرغبة في إحكام الدولة العثمانية سيطرتها على البلاد ومنع حدوث التمرد ضدها، و لكن الأمور صارت في غير هذا الاتجاه، فقلد بدأ ديوان الأوجاق يتقوى و يوسع نفوذه و سيطرته خلال هذا العهد و عمل على التدرج على التخلص من الهيمنة العثمانية وتلاقت جهوده مع جهود الباشاوات لتجسيم هذا الاتجاه و ابرازه، فشجع الباشا "خضر" طائفة الرياس على الغزو البحري و سعى لوضع حدّ لامتيازات التجار الفرنسيين في ساحل القالة و عناية و أمر بهدم مركزهم التجاري هناك، و أسر ما فيه من الأشخاص المشبوه في أمرهم لم يستطع خلفه أن يعالج الموقف كما تريد الدولة العثمانية لأنّ الديوان عارض بشدة

1_ عزيز سامح ألت: المرجع السابق، ص 387.

2_ شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ص 352.

3_ قررت طائفة الانكشارية انتزاع الصلاحيات المالية من الباشاوات، لصالح طائفة الرياس باعتبارها أغنى فئة وكان ذلك بعد طردها "علي باشا" سنة 1945م، لم تضع هذه المحاولة حدا للصراع القائم بين الأغوات والباشاوات، فقرر الاوجاق سنة 1659 م الاستيلاء على زمام الحكم، إذ ثارت فرقة البولكباشية، وأعلنت عن تعيين البولكباشي آغا، وأوكلت إليه مهمة جباية الضرائب وتأدية رواتب الانكشارية، وبهذا تبدأ مرحلة جديدة من مراحل الحكم العثماني بالجزائر، التي لم تخلو هي الأخرى من الاضطرابات والاضطرابات، حيث لم يسلم الأغوات من تسلط الانكشارية وتعرض معظمهم للاغتيالات، فعقب اغتيال الآغا الحاج علي لجأت الانكشارية إلى طائفة الرياس، ووقع اختيارها على أحدهم والريس "التركي" ومنحته لقب الداوي الحامي. انظر:

-Delphin(G): " **Histoire des pachas d'Alger de 1515 à 1745** in **J.A** avril juin 1922 , n°66, p p 161-233.

4_ عزيز سامح ألت: الأتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية، تر: محمود علي عامر، دار النهضة العربية للطباعة و النشر، ط 1، بيروت-لبنان 1989 م، ص 387.

أوامر السلطان وتعليماته التي حصلها إلى مبعوثه الخاص الأغا "مصطفى القاجي" القاضية بإعادة بناء المركز الفرنسي و إطلاق سراح الفرنسيين الأسرى¹.

انجّز عن هذا الصراع بين الجزائر و الدولة العثمانية توتر العلاقات بينهما وبين فرنسا كذلك و استفحال أزمة الثقة بينهما بسبب عدّة مشاكل ذات الصلة بالقرصنة و الحروب البحرية فقد نشط الرياس في هذا العهد في الغزو و الحروب البحرية ولمعت أسماء كثيرة من الرياس ("كمامي قورصو" و "مامي نابوليتانو" و "رجب رايس" و "محمد عوجية رايس"...)، و أخذوا يتمردون على الشواطئ الفرنسية بأمر من الباب العالي استجابة لاستنجد الملك الفرنسي "هنري الرابع" ضدّ الاعتداءات الاسبانية، و بعد أن فشلت الحملة الاسبانية على مدينة الجزائر في عام أوت 1601م التي وضع حد خطتها قرصان فرنسي اسمه "الروكي".

عمل باشاوات الجزائر على وضع حدّ لامتيازات التجّار الفرنسيين واشتكى "هنري الرابع" إلى الباب من تصرفات الباشا "خضر" الذي أمر بتحطيم المركز الفرنسي بالقالة وأسر رؤّاده، فعزله ولكن خلفاءه عجزوا عن إرضاء فرنسا بسبب معارضة الديوان لذلك ولم تغلح محاولة "القاجي" رسول السلطان في إيجاد حلّ للمشكلة كما سبق القول.

لذلك مال كل فريق لاستعمال القوة و أخذ الفرنسيون يعتدون على السفن الجزائرية، كما أخذ الرياس الجزائريين يردّون على هذا العنف بمثله، فألقوا القبض على القنصل الفرنسي بالجزائر و أرغموه على إطلاق سراح الأسرى الجزائريين الذين احتجزوهم بمرسيليا، و كان من المفروض أن تهدأ الأحوال بين البلدين بعد هذا لكن قيام أحد القراصنة الفرنسيين المدعو "سيمون دانصا" و حفز الرياس الجزائريين على مهاجمة السفن الفرنسية أينما وجدت، فتضخّمت الخسائر الفرنسية المادية والبشرية، وتعرّضت تجارتهم للأضرار الفادحة و عجزت الدبلوماسية الفرنسية و قوّاتها العسكرية على التغلّب على الصعوبات الكثيرة واضطّرت فرنسا إلى مفاوضة الجزائر والوصول معها إلى توقيع اتفاقية 24 مارس 1619م التي تنصّ على تبادل الأسرى وإعادة المدفعين المهريين وذلك بفضل ضغط تجار مرسيليا المتضررين أكثر².

كذلك نجد أن الدولة العثمانية قامت باستحداث نظام الباشاوات من أجل أن تحكم سيطرتها على البلاد وتجنّب ربما ما يمكن أن يحدث ضدها من العصيان و التمرد ولكن هؤلاء الباشاوات سرعان ما فقدوا نفوذهم وسيطرتهم على الأوجاق الذي كان يرفض باستمرار كل سلطة تخالف اتّجاهه مما جعل الباشاوات يتعرّضون لضغط مزدوج من السلطان العثماني ومن ديوان الأوجاق بالجزائر وهكذا في سنة 1587م تمّ إلغاء نظام البايلربايات واستبدل بنظام الباشاوات وهذا التغيير عُيّن من قبل السلطان العثماني "مُراد الثاني"، حيث أصدر فرمان إلغاء نظام

¹ يحيى بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر-الجزائر القديمة والوسيط والحديثة-، المرجع سابق، ص 32.

² نفسه، ص 34.

الباليربايات واستبداله بهذا النظام، فأخذ الباب العالي بإرسال الباشاوات لحكم مدينة الجزائر ابتداء من 1587م وكان هؤلاء الحكام يديرون شؤون الدولة بمعاونة اللجنة الاستشارية مؤلفة من: وكيل الخرج، الخزانجي، خوجة الخيل والأغا¹.

كانت العلاقات بين إيالات شمال إفريقية والباب العالي في إسطنبول مشكلة مستمرة من (القرن 16) إلى (القرن 18) فقد وضع "خير الدين" جماعة القرصنة التي أنشأها تحت حماية السلطان الأعظم ولا يتسرب الشك حول سيطرة السلطان في تلك الأثناء فأَي رَيس أو ضابط من الإنكشارية يعصي التعليمات تقطع رأسه بأمر السلطان وهذا "خير الدين وحسن بن خير الدين، وصالح ريس، وعلي علي" جميعهم وصلوا إلى قيادة الأسطول العثماني كلهم حاملين لقب (الباشا القبطان) بالإضافة إلى لقب (الباليرباي).

الأسباب التي أدت بالباب العالي إلى إتباع هذا الأسلوب في الحكم هو خوفه من استقلال الجزائر عن السلطة العثمانية خاصة إذا علمنا أن نفوذ الإمبراطورية العثمانية كان يمتد إلى دول المشرق العربي، والدول الواقعة في أوروبا الشرقية مثل اليونان وقبرص والصرب و البوسنة والمهرسك وألبانيا وبلغاريا والجزر هذا بالإضافة إلى أن حكم الباليرباي كان يشمل الجزائر، تونس وليبيا ماعدا المغرب الذي كان مستقلا، ولهذا قرر الباب العالي بإسطنبول أن ينصب على كل مقاطعة من هذه المقاطعات باشا².

تعتبر هذه الفترة مرحلة جديدة في تاريخ الجزائر، وذلك لأن السلطان العثماني أراد أن يخفف حدة النزاع بين فئة الرياس وفئة اليولداش وخاصة أن الفئة الأخيرة كانت مستاءة من تمتع فئة الرياس أو جنود البحرية بلقب الباليربايات أو أمير الأمراء، ولذلك قرر السلطان العثماني إلغاء هذه الرتبة ونتيجة لهذا التغير أصبح السلطان العثماني يقوم بتعيين باشا.

كانت الجزائر في الفترة السابقة تحكم بواسطة الولاة، وكانوا مخلصين للدولة العثمانية دولة الخلافة فلم يفكر أحدهم في الاستقلال، والحقيقة أن الجزائر، كان لها مركز خاص بالنسبة للولايات العثمانية الأخرى، فقد كانت تتمتع بلا مركزية واسعة وكانت السلطة العثمانية عليها اسمية أو رمزية فقط، تكاد أحيانا لا تتعدى الدعاء للخليفة العثماني على المنابر في مساجد الجزائر³، لكن منذ عام 1587م كانت إسطنبول ترسل للجزائر ولاية غرباء عن الجزائر يحملون لقب الباشا، وكان الباشا يعين لمدة ثلاث سنوات، وإذا كان من النادر أن يكمل هذه المدة، وكان باشاوات الجزائر مثل غيرهم من الباشاوات العثمانيين يشترطون مناصبتهم بالمال وكان الجنود يمثلون مركز

¹ — أمين المعلوف، شيء عن الجندية، مجلة المقتطف عدد 5، السنة 39، ص 482.

² — عمار عمورة، موجز في تاريخ الجزائر، دار ربحانة للنشر والتوزيع، ط 1، 2002 م، ص 97.

³ — عمار بوحوش، المرجع سابق، ص 58.

القوة، فكان الباشاوات حريصين على جمع أكبر قدر من المال باسم الضريبة أو غيرها لدفع الالتزامات المتعددة، و في مقدمتها رواتب الجند و الهدايا التي يتقرب بها الباشا من السلطان و حاشيته¹.

هكذا وقع في هذه السنة تغيير في سياسة الدولة العثمانية نحو ولاية الجزائر الذين أمضوا حياتهم بالجزائر يحكمونها حكما دكتاتوريا مطلقا، و يتصرفون في شؤونها تحت لقب (بكلربك) و هم يعملون فيها عمل الملوك المستبدين- و إن اعترفوا بسيادة الأستانة عليهم- و لقد تطلع بعض هؤلاء الولاة إلى أن ينشئوا لأنفسهم مملكة تضم المغرب الإسلامي بأجمعه إليهم، بل إنهم حاولوا الحد من سلطان جيش الإنكشارية العظيم المجندة من قبل زواوة، حيث أن مطامعهم هذه أقلقته بال سلاطين اسطنبول فعقدوا عزمهم على تغيير النظام باستعمال الباشاوات على الجزائر و كان أول باشاوات الجزائر "دالي أحمد باشا"².

لم يكن للباشاوات القادمون للإيالة أساس أو سند محلي بين القوى التي كانت تسيطر على أوضاع الجزائر فكان همهم الوحيد جمع الأموال وكان لهذا الشعور دور في خلق الانفصال بينهم وبين الرعية وهذا ما يفرقهم عن البايلايات الذي كانوا زعماء للجهاد بينما هم مجرد موظفين ترسلهم اسطنبول لخدمة السلطان العثماني في الجزائر³.

يعين الباشا في هذه المرحلة لمدة ثلاث سنوات، يقوم بإرساله من تركيا ويستدعيه بعد انتهاء فترة تعيينه أن يقوم بإرسال باشا آخر من هناك، لكن المشكل هو أن كل باشا معين في الجزائر لمدة قصيرة لا تتجاوز 3 سنوات كان ينصرف إلى السلب والنهب وجمع الثروة قبل عودته إلى القسطنطينية، وهذا ما دفع باليوليداش أو رجال الجيش البري أن يثوروا على الباشاوات ويضعفوا نظام الحكم في الجزائر⁴.

واجه الباشاوات صعوبة في ضبط الأمور والسيطرة على الأوضاع بسبب شغب الإنكشارية الذي كان قد بدأ منذ أواخر عهد البايلايات، فأصبح الباشاوات في صراع مع هذه الطائفة خاصة عند تأخر دفع رواتبهم. وقد وصل طغيان الأوجاق إلى حدّ سجن الباشاوات مثلما فعلوه مع الباشا "يوسف" سنة 1642م⁵.

¹ _شوقي عطاء الله الحمل، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث (ليبيا-تونس-الجزائر-المغرب)، مكتبة الأنجلوا المصرية، ط1، 1977، ص101.

² _عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، المرجع سابق، ص115.

³ _توفيق دحماني، دراسة في عهد الأمان القانون الأساسي والعسكري للجزائر في العهد العثماني -وثائق تنشر لأول مرة-، الدار العثمانية، ص 17.

⁴ _عمار عمورة، المرجع سابق، ص98.

⁵ _حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، ط3، دار الكتب العربية، تونس، 1373 هـ، ص 136.

كانت طائفة الرّياس داخل مجلس الديوان تميل إلى مقاومة نفوذ السلطان مثل السكان الجزائريين الذين يستفيدون منهم في الميدان التجاري، ذلك لأنّ الرّياس البحريين يغنمون في البحار أموالاً وبضائع كثيرة و متنوعة ويعرضونها للبيع في الموانئ و المدن الساحلية، فتروج التجارة و تنمو الثروات الخاصة بالسكان ممّا يجعلهم يميلون بعواطفهم إلى أفراد هذه الطائفة، ولقد كان من أهم قرارات الديوان ضد نفوذ الباشاوات إخضاع خزينة الدولة لإدارته و إرغام الباشاوات على دفع مرتّبات الجنود من اختصاصاتهم المالية وحدها، وجاء هذا الحدث ليشعل نيران ثورة عارمة عام 1633م تزعمها عنصر الكراغلة الذين هاجموا مدينة الجزائر وحاصروا القوّات العثمانية بالقصبة بسبب عجز الولاة عن دفع المرتبات للجنود.

حصلت للمدينة مذبحة كبيرة و رهيبة بسبب انفجار مخزن للبارود وانتهى الأمر بسيطرة "الرايس علي بتشين" على السلطة وهو صاحب المسجد المعروف بالعاصمة وصاحب سمعة و شهرة واسعة في الجزائر وفي البلدان الأوروبية بفضل الانتصارات الكبيرة التي أحرز عليها الأسطول الجزائري في البحر المتوسط و الأطلسي وبحر الشمال، و كان ذا ميول استقلالية وصاهر سلطان "كوكو" كتنقيّة لمركزه و نفوذه في هذه الفترة.

تمتع الباشا بكثير من الامتيازات منها سهم من الغنائم والعييد الذين يقعون في أسر القراصنة وحق تقبل الهدايا مقابل الخدمات ومراقبة المدخولات المالية التي تجمع من الرعايا المحكومين من قبل البايات الثلاثة و باشا الجزائر وبذلك يتضح أن هذا المنصب، كان ثمرة ناضجة يسيل لها لعاب أصحاب البلاط والسياسيين الطموحين أو الشريهين من حاشية السلطان¹.

قصر مُدّة التعيين (ثلاث سنوات) جعلت من المستحيل تقريبا على الباشا الجديد أن يفهم تعقيدات الحياة السياسية في مدينة الجزائر ونظام حكم البايات في أقاليمهم وعلاقاتهم بالشيوخ والملوك، التابعين لهم قبل أن يحين الوقت لقدم الباشا الجديد، الذي يحل محله، وكان هؤلاء الباشاوات المعيّنين كل ثلاث سنوات ليسوا في العادة من البحارة أو الجنود بل كانوا من المحظيين السياسيين الذين حصلوا على مناصبهم بأثمان غالية، فقد كانت الرشوة هي سلوك الحياة في إسطنبول بعد أن انتهى عهد السلاطين الكبار خلال القرن 16م، وحل محلهم سلاطين ضعاف غالبا ما كانوا تحت سيطرة السلطنة الأم و الحرّيم، ولذلك كان الباشا الجديد حريصا على ملئ جيبه بالذهب والعودة إلى إسطنبول وكان هذا السلوك المتميز بالشراهة قد أثار حسد وغضب الإنكشارية والرياس معا².

كانت واجبات الباشا والتزامه تسمح له بأن يقوم بعمليات النهب، فمهمّته الأساسية جمع الضرائب التي تسمح له بدفع رواتب الجند وتجهيزهم، وهي النفقة الإلزامية الوحيدة، وقد استغلّ الباشاوات هذه الوظيفة المالية

¹ - يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر - الجزائر القديمة والوسطية والحديثة، المرجع سابق، ص 38.

² - جون ب وولف، الجزائر وأوروبا 1550-1830، تر: أبو القاسم سعد الله، دار الرائد، الجزائر، ص 113-115.

كما استغلّهم أعوانهم فكانوا يتلاعبون أو يتأخرون في دفع رواتب الجند، وكان الباشاوات قد أرهقوا سكان الجزائر بجشعهم ونهبهم¹.

شهدت هذه الفترة من تاريخ الجزائر ثورات متعدّدة من القبائل حيث كانت للزعماء المحليين سلطة ونفوذ بالإضافة إل سلطة طوائف الجند والبحرية وغيرهم.

زاد الأمر سوءاً ضعف الدولة العثمانية، مما أثر على مركز ممثليها في الجزائر، خاصة أن الدولة جرت على التغيير المستمر للباشاوات، وأنهمك هؤلاء في جمع أكبر قدر من المال في فترات حكمهم القصيرة فأضعف ذلك من مراكزهم وجعلهم موضع السخط والنقمة.²

عرفت الجزائر خلال هذه المرحلة أكثر من أربعين باشا تجدد تعيين بعضهم أكثر من مرّة، وتعرّض الكثير منهم للعزل والسجن على يد الأوجاق، وكان عهد معظمهم قصيرا فقد استمر حكم "يوسف باشا" سنة 1640م أربعين يوماً ثم عزل وسجن سنة 1642م بسبب تأخره عن دفع رواتب الجند ثم عاد للمرة الثالثة سنة (1647م) وبين (1655-1659م) تعاقب على الحكم أكثر من مرة كل من (أحمد باشا وإبراهيم باشا) وكانت هذه الفترة مليئة بالاضطرابات، مما دفع الأوجاق إلى إنهاء حكم الباشاوات³.

أهم الباشاوات الذين حكموا الجزائر و أول باشا عين على الجزائر هو "دالي أحمد" 1586م، و في عهده كثرت الغزوات البحرية الجزائرية ضد السواحل الأوروبية، إسبانيا، صقلية، كورسيكا وقتل أثناء المعركة الذي خاضها جيشه ضد المتمردين الليبيين فخلفه "خضر باشا" الذي قمع ثورة "المقراني" بسبب هجومه على الثكنات العسكرية العثمانية بزمورة وبرج بوعريرج وعلى إثر وشاية فرقة اليولداش، بنهبه لأموال الخزينة استدعى من طرف الباب العالي و وضع في السجن، وحل مكانه عام 1592م "شعبان" لكن بعد أربعة أشهر من الحكم استدعى إلى القسطنطينية فخلفه "مصطفى باشا" ثم أُستدعي "خضر باشا" من جديد بعد أن ثبت براءته لم ينسى ما فعلته فرقة اليولداش ضده، و لإزالة شرهم سلح الجزائريين الذي ثاروا على اليولداش وهم جنود أتراك برية كان سكان الجزائر يكرهونهم لتصرفهم الغليظ، ولهذا السبب عزلت القسطنطينية "خضر باشا" ونصب مكانه من جديد "مصطفى باشا" لكن هذا الأخير لم يتمكن من القضاء على ثورة (بني عباس) بالقبائل فعزلته وعينت "دالي حسن أبو ريشة" باشا على الجزائر.

¹ _توفيق دحماني، المرجع سابق، ص 133.

² _شوقي عطاء الله الحمل، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث (ليبيا-تونس-الجزائر-المغرب)، مكتبة الانجلوا المصرية، 1977، ط1، ص 102.

³ _توفيق دحماني، المرجع سابق، ص 134.

لم يدم حكم هذا الأخير طويلا لأن فرنسا طلبت من الباب العالي عزله بحجة أنه خرق الاتفاقية التي تربط فرنسا بالباب العالي، فحل مكانه "سليمان باشا" وفي عهده شتت أوروبا عام 1601 م حملة صليبية كبيرة ضد الجزائر بقيادة الأسباني "جان دوريا" ومباركة البابا، مكونة من 70 سفينة حربية وعشرة آلاف جندي من فرنسيين وإيطاليين وإسبانيين متبعة في ذلك خطة الكابتن الفرنسي "روكس" وعندما اقتربت القوات المسيحية من الساحل الجزائري هبت ريح بحرية عنيفة أفسدت خططهم وعادوا من حيث انطلقوا¹.

عام 1603 م عاد "الخضر باشا" للمرة الثالثة حاكما على الجزائر و في عهده قامت طائفة الرياس البحرية الجزائرية بغزو السواحل الفرنسية و أسر بعض مواطنيها و تهدم المركز التجاري الفرنسي بالجزائر، فاحتج ملك فرنسا لدى الباب العالي فأرسلت "قوصة باشا" مكانه والذي قتل "خضر باشا" وعندما حاول "قوصة" تطبيق تعليمات السلطان العثماني بإطلاق الأسرى الفرنسيين وإعادة بناء المركز التجاري الفرنسي عارض الديوان الجزائري هذا الحل وقتل بسببها "قوصة باشا" فخلفه "مصطفى القاجي" الذي مات بالطاعون عام 1607 م فحل مكانه "رضوان باشا" من بعده جاء "حسين الشيخ باشا" ثم عين "سليمان باشا" حاكما على الجزائر.

قام أحد الفرنسيين في هذه الفترة، كان متواجدا بالجزائر، بسرقة مدفعين و أعطاهم لفرنسا، فاحتج باشا الجزائر على هذا العمل و دخلت البحرية الجزائرية في مشادات مع القوات الفرنسية ولم تنته هذه القضية إلا بإرجاع المدفعين وتسليم الأسرى الجزائريين، وفي هذا الصدد أبرمت عام 1628 م معاهدة بين الجزائر و فرنسا نصت على عدم اعتداء البحرية الجزائرية على السفن الفرنسية و إطلاق سراح الأسرى من الجانبين و تنصيب فرنسا قنصل يقيم بصفة دائمة بالجزائر و يتمتع بالحصانة الدبلوماسية، لكن بعد مدة من الزمن نقضت الجزائر هذه الاتفاقية لسبب اعتداء الفرنسيين على البواخر الجزائرية و الاستيلاء على أفرادها فقدمت السلطات الجزائرية احتجاجا لدى الملك الفرنسي لكن دون جدوى مما أجبر القوات البحرية الجزائرية على شن هجومات على السواحل الفرنسية عادت عليها بالخير الكثير².

هناك عدّة أحداث بارزة تميّز هذا العهد منها: الصراع ضدّ إمارة قلعة بني عباس، وظهور مجموعة من الثورات الداخلية في العاصمة وفي شرق البلاد والجنوب، كذلك الصراع بين القوّات العسكرية الإنكشارية وطائفة الرياس البحرية، هذا بالنسبة للأحداث الداخلية، أمّا على الصعيد الخارجي نجد توتّر العلاقات بين الجزائر وفرنسا بسبب عدّة مشاكل ذات صلة بالقرصنة والحروب البحرية، و امتيازات التجار الفرنسيين، وقضية تحطيم حصن فرنسا من طرف الباشا "خضر" و أسر رواده، و من الأحداث البارزة في هذا العهد نجد الصراع ضدّ الدولة العثمانية حيث بدأ ديوان الأوجاق يتقوّى و يوسّع نفوذه و سيطرته فعمل بالتدرّج على التخلّص من الهيمنة العثمانية وتلاقت جهوده مع جهود الباشاوات.

¹ _ عمار عمورة، المرجع سابق، ص 97.

² _ نفسه، ص 98.

الأمر ذات الدلالة على اشتداد الخلاف بين الجزائر وتونس بسبب الحدود الشرقية، أن الباشا "حسين الشيخ" قام بإبرام معاهدة مع باي تونس لتحديد مناطق الحدود، لكن الباشاوات الذين جاؤوا من بعده شعروا بأنّ بايات تونس هم الذين يشجعون على قيام الاضطرابات في شرق الجزائر، فأعلن الباشا "خضر" الحرب على تونس إلى أن تمّ الصلح سنة 1628 م.

لم يكن الأمر يختلف كثيراً فيما يخصّ علاقة الجزائر مع المغرب الأقصى، فقد اشتدّ التنافس بينهما خلال هذه المرحلة بسبب أطماع سلاطين المغرب في النواحي الغربية للإيالة، كما لم يقتصر حكام الجزائر من جهتهم في إحداث القلاقل داخل المغرب.

أثارت المراكز التجارية التي يحتلها الفرنسيون بالساحل الشرقي من الشواطئ الجزائرية ازدهاراً شديداً في صدر المتنافسين الغربيين، وخاصة منهم الهولنديين والإنجليز وأهل جنوة فهم كانوا من أسبق الناس ركضاً بهذا الميدان. كل ذلك طمعا وحرصا على احتكار تجارة الرقيق والمرجان واستثارة بخيرات البلاد وتركيزاً لسلطوتهم القرصانية على ضفاف غربي هذا البحر.

حلّت قافلة هولندية بحرية بمياه الجزائر في سنتي (1029-1033 هـ/1620-1624 م) تشتمل على ستة وحدات حربية، و اتّصل أهلها بالديوان فأظهروا له رغبتهم في النزول بمراكز المرجان المثبّة بالشواطئ، فلم يعرهم الديوان بالاً و يومئذ كشف هؤلاء الهولنديين عن عداوتهم فجاءوا بطائفة من الأسرى المسلمين فأعدموهم شنقاً أمام الجزائر، و على مرأى و مسمع من السكان، و يومئذ استجاب الديوان لهولندا فعقد معها معاهدة سلم، و في نفس هذه الآونة من التاريخ غزا الإنجليز عاصمة الجزائر محاولاً هو بدوره أيضاً احتكار التجارة و الاستقرار بالمراكز¹.

يذكر الإخباريون من عنى منهم بتدوين أحداث هذا العصر أنه حدث خلال سنة (1030 هـ/1621 م) وباء رهيب بولاية تونس، و انتشر منها إلى الجزائر و يعرف هذا الحدث بالوباء الكبير. و تذكر لنا الرواية التاريخية عدة باشاوات أعقبوا "خضر باشا" من غير أن تعطينا تفاصيل عنهم ولا يسعنا نحن إلّا سرد أسمائهم هكذا مجردة أولهم "مصطفى حافظ كوسة أو قوصة" سنة 1030 هـ/1621 م، ثم "حسين باشا قائد سوسة" (تولى في ثاني شوال من نفس السنة)، و بعده "حسين ابن إلياس باي عام 1032 هـ/1623 م"، ثم في نفس السنة تولى بعده "مراد باشا الأعمى في 22 رمضان/جويلية"، ثم "ابراهيم باشا يوم 14 جمادى الثانية 1033 هـ/أفريل 1624 م"².

تدهورت سلطة الباشا في السنوات الموالية بسرعة كبيرة فكانت الأوامر القادمة من إسطنبول لا تطاع إلا إذا وافق عليها الديوان، وقد لاحظ "الأب دان" في وسط عقد الثلاثينيات من القرن 17 م (أن الدولة كانت ملكية

¹ _ جمال الدين سُهيل، المرجع سابق، ص ص 145، 146.

² _ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، المرجع سابق، ص 128.

بالاسم فقط، لأنهم في الحقيقة حولوها إلى جمهورية)، كما أن "فرانسييس نايت" وكذلك القنصل الإنجليزي والقنصل الفرنسي الذين عاشوا في الجزائر في النصف الأول من القرن 17 م كلهم ردّدوا ذلك الرأي.

أسرعت طريقة التدهور بالهزيمة التي حلت بالأسطول الجزائري عندما فاجأه (البندقيون) في (فالونا- valo na) في آخر العقد الثالث، فقد قرر الرياس أن لا يذهبوا ثانية لنجدة السلطان دون معونة مقدّمة، وهكذا فإن هـ عندما أمر الباب العالي من جديد الأسطول الجزائري بالانضمام إلى الأسطول العثماني، رفضت طائفة الرياس الإجابة، فكان رد فعل إسطنبول الأول هو أمر الباشا بقطع رأس الأميرال "علي بتشين"، ولكن هذا كان أغنى رجل في الجزائر، وكان أميرال الأسطول، بذلك بقي رأسه سليما وقد كان امر السلطان غلطة فادحة كان يمكنها أن تؤدي إلى نهاية العلاقات بين الجزائر والدولة العثمانية لأنه يبدو أن "بتشين" كان قد تأمر للاستيلاء على السلطة وجعل الجزائر مستقلة، ولكن الموت المفاجئ لهذا الأميرال القرصان هو الذي وضع حدا للمؤامرة.

جاء الوقت الذي احتاج فيه السلطان إلى الجزائريين، وقد أرسل المعونة مقدّمة ولكن هذه المعونة تحولت إلى زيادة الخلاف فقد أعلن "إبراهيم باشا" أنه إذا انضم القراصنة إلى المؤسسة البحرية للسلطان فمن الطبيعي ألا يكونوا قادرين على الاستيلاء على الغنائم في غرب البحر الأبيض، ومن ثمة فإنه هو شخصا سيكون محروما من سهمه، في الغنائم ولذلك اقترح أن نسبة عشرة في المائة من المعونة السلطانية تُعطى له شخصا، وكان ذلك سنة 1659م وقد أدى هذا إلى حدوث ثورة قضت على سلطة الباشا في الجزائر¹.

أهم ما ميّز عصر الباشاوات نذكر ما يلي:

- تعيين باشا عثماني في كل من الجزائر وتونس وطرابلس بعد أن كان هناك حاكم واحد للمنطقة يوجد مقر حكمه بالجزائر.
- بدأت تظهر الخلافات والتناقضات بين جنود البحرية الجزائرية (الرياس) وبين جنود البحرية العثمانية خاصة عندما حاول الأتراك أن يخضعوا المصالح الجزائرية لصالح الإمبراطورية العثمانية.
- برزت قوة الرياس أو قوة رجال البحرية الجزائرية إلى درجة أن دول أوروبا أصبحت تخشى الجزائر وتسعى إلى إقامة علاقات تعاون معها وعندما تعثرت المفاوضات قامت الدول المسيحية بشن حملة عسكرية على الجزائر في شهر سبتمبر 1701م².
- حصل في هذه المرحلة أو الفترة تصادم وتنافر بين جنود البحرية وجنود القوات البرية (اليولداش) وخاصة وأن رجال البحرية كانوا يحصلون على غنائم كبيرة من جراء غاراتهم البحرية الناجحة على أساطيل القوات الأوروبية وهذا الصراع هو الذي تسبب في إضعاف الدولة الجزائرية.

¹ _عثمان عكاك، المرجع سابق، ص 136.

² _عمار بوحوش، المرجع سابق، ص 58.

- بروز الميول الاستقلالية للجزائر عن مركز الخلافة العثمانية وضعف السلاطين العثمانيين في الجزائر (الباشاوات) أمام نفوذ الإنكشارية، ورجال الطائفة أو رياس البحر الذين تزايدت سلطتهما، إضافة إلى حدوث اضطرابات وثورات داخلية واستمرار الأخطار الخارجية من الدول المجاورة وغير المجاورة عبر التدخلات على المدن الساحلية والحدود البرية وانتشار الأوبئة والمجاعات، والكوارث الطبيعية وغيرها.
- لقد وقعت العديد من الثورات والاضطرابات في مدينة الجزائر وفي أقاليم البلاد الأخرى، وكانت أهمها ثورة الكراغلة، و ثورة بني عباس، وثورة آل القاضي وثورة الشرق و اضطرابات في مدينة الجزائر وغيرها وهذا ما يجعلنا نتساءل عن سبب تلك الثورات أو بشكل أصح الاضطرابات وحركات العصيان¹.

كانت تلك الثورات كانت تحدث عادة عندما يطالب أي حاكم الناس بدفع الضرائب، وعندما يعجز الناس عن الدفع كانوا يثورون، وكذا عند المساس بمنطقة ما أو جماعة سكانية مثل ما حدث في ثورة الشرق. بيد أن ما يلاحظ عن تلك الثورات أنّها لم تشهد الإطاحة بالحكم القائم في الجزائر وإذا ما قُورن عددها بباقي البلدان في تلك الأزمنة متساوية أو أقل². تجدد أطماع بعض الدول الأوروبية في البلاد وتجسّد ذلك في حملات كثيرة مست العديد من المواقع الساحلية الجزائرية، ويبدو أن ما كان يشجع تلك الدول على غزو الجزائر هو تلك الثورات المشار إليها سابقاً. وتمّت تلك الحملات الأوروبية من قبل دول عديدة هي: اسبانيا، فرنسا، إنجلترا و هولندا و أهمها تلك التي وقعت في السنوات (1601-1603-1604-1607-1610-1611-1617-1620-1621-1624-1637-1652-1658)، وغيرها⁽²⁾

كما أن من أسباب تلك الحملات: (الغزوات) التي كان يقوم بها الجزائريون على السواحل و السفن الأوروبية و التي توسع نطاقها بحيث أصبحت لا تقتصر على غرب المتوسط، بل امتدّت حتى الأطلسي إلى غاية أيسلندا شمالاً مروراً بالسواحل البرتغالية و الإنجليزية و الايرلندية، و قد انتشر نشاط الغزو البحري خلال القرنين (16 و 17 م) حيث بلغ ذروته، و أصبح عملاً يساهم فيه الجميع، و ذلك بما كان يدره عليهم من غنائم و أرباح، و منيت الدول الأوروبية من جرائه بخسائر كبيرة حيث تذكر المصادر أن الجزائريين غنموا في غضون العقد (1608-1618 م) ما لا يقل عن مائتين و واحد و خمسين مركباً، و أسروا أكثر من 7 آلاف و خمسة و ثلاثين مسيحياً. كما تبين إحدى الوثائق أنّ عدد المغانم كان أكثر بكثير، حيث أنّه خلال الفترة (1613-1621 م) استولى الرياس على 9 آلاف وستة و ثلاثين سفينة، ومع مرور الوقت تقلّصت الغنائم⁽³⁾.

¹ _ توفيق دحماني، المرجع سابق، ص 15.

² _ عمار بوحوش، المرجع سابق، ص 59.

³ _ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، المرجع سابق، ص 129.

- كما تميّز عهد الباشاوات كذلك بتجدّد النزاع على الحدود بين الجزائر وتونس والجزائر والمغرب الأقصى وكذا تحرّشات و هجومات البلدين المذكورين على الأراضي الجزائرية.

- الأحداث صراع الطائفتين المذكورتين⁽¹⁾

- إنّ التنافس بين الطائفتين المذكورتين كان راجعاً كذلك إلى أن مصالح كل منهما كانت مختلفة لكنها متكاملة في آن واحد مختلفة كون الرياس كانوا يدفعون بالأمور نحو تشجيع الغزو البحري الذي كان يسبب ردود فعل من الدول المتضررة والنتيجة يتحملها بعد ذلك الجميع. أما الجند فكانوا يعملون على الحصول ما يلزم الدولة من البر (داخليا) ومتكاملة لأن الغزو البحري يساعد الخزينة، ويجبر الدول على دفع الإتاوات والبحارة كذلك في حاجة إلى الجند ليبقوا في المدن الجزائرية كقوة تحافظ على الأمن والاستقرار وكذلك وجود مصالح خاصة فرياس البحر كانوا يريدون عناصر تكون طيبة (طاعة) وهو ما لم يكن يتوافق مع العنصر التركي العنيد لذلك كانت الإنكشارية غير مفضلة وهذا ما جعل النفور متبادلاً¹.

- كما أن الباشاوات وجدوا صعوبة في التحكم وفرض سلطتهم على الطائفتين المذكورتين، لأنّ هاتين الطائفتين كانتا متعودتين على حكام أقوياء (البابليرايات)⁽²⁾

- فهذه الظروف هي التي جعلت العثمانيين يلجئون إلى تحرير عهد الأمان لأوّل مرّة سنة (1067-1068 هـ/1657 م) (بيد أنّ هذا العهد لم يبق لأنّ أمور أخرى حدثت حالت دون ذلك منها: جرد الباشاوات من الصلاحيات التي كانوا يتمتعون بها من إدارة أمور الإيالة، و جباية الضرائب و تعيين كافة موظفي البلاد في الأقاليم، و الحكم والرعية، فبعد مرور سنتين عن ذلك أي في سنة (1070 هـ-1659 م) قام رجال الطائفة و الديوان بتجريد "إبراهيم باشا" من الصلاحيات المذكورة، لأنّ الباشا المذكور كان يتلاعب في الجباية و يأخذ نصيباً من المال الذي كان يرسله السلطان العثماني لرجال الطائفة لضمان مشاركة الرياس في الغزو البحري و معارك الدولة، و هو ما عرف في التاريخ بثورة الكراغلة.

- وقيل تفصيل القول في عهد الأمان لابد من الإشارة إلى سياسة العثمانيين مع القوى والزعامات المحليّة وذلك باستمالة العناصر الدينية لمساعدتهم على بسط نفوذهم، وعن طريق تقريبهم ومنحهم الهدايا و إعفائهم من الضرائب، بل وصل الأمر إلى تخصيص نصيب من الغنائم إلى تلك الزعامات الدينية².

هكذا نستنتج أن هناك قسط وافر من المسؤولية في سقوط سمعة حكومة الباشاوات وضمحلل سيادتهم بالجزائر مُلقى على عوائد هؤلاء الحكام. الباشاوات أنفسهم. ذلك أن الباشا قد شعر بالاستقلال في هذه المدة و أخذ في الاشتغال بنفسه منصرفاً عن الإدارة مجتهداً في التمولّ بطرق الرشي و أساليب أخرى

¹ _ توفيق دحماني، المرجع سابق، ص ص 16-18.

² _ نفسه، ص 19.

كثيرة، فلم تلبث هيئته أن سقطت و اجتزأ عليه الإنكشارية فنشأت عن ذلك اضطرابات و فوضى في البلاد و إلى هؤلاء الباشاوات أيضا ترجع مسؤولية الإسراف في التعدي على السفن والشغور فقد كان هنالك من الباشاوات من يدفع أهل البلاد إلى ذلك دفعا بل يكلفون بعض القرصان بأن يقوموا بعملية القرصنة لحسابهم من ثم لم يعن الباشا بأن يحسن تمثيل السلطان أو يقوم بالمهمة الملقاة على عاتقه، فلم يكن الجند أو الأهليون ليشعروا بوجوده بينهم إلا في الاحتفال العظيم الذي يقام لاستقباله يوم أن يصل من القسطنطينية أو في هذه الاجتماعات التي كان مجلس الشورى يعقدها للنظر في شؤون البلاد من حين لآخر.

ربما حاول الباشا أن يُخضع شوكة الإنكشارية بالاستعانة عليهم بقبائل من أهل البلاد، فنشأت عن ذلك حروب وويلات شتى. وقد حاول أحدهم أن يستولي على المنحة التي كان السلطان يعثها كل عام لإعانة الأسطول الجزائري فكانت النتيجة أن قرّر الديوان المنعقد سنة (1069هـ/1659م) وكانت السلطة فيه للإنكشارية أن يسحب من الباشا آخر ما بقي لديه من مظاهر السلطة وهو القيام على الأموال والاحتفاظ بالخزينة ليتولاها يومئذ الأغا يعاونه الديوان وبهذا أصبحت السلطة الفعلية بيد الأغوات¹.

ثانيا: سياسة الباشاوات الخارجية

العلاقات الجزائرية خلال العهد العثماني مع الخلافة العثمانية والدول الأوربية والدول العربية و الولايات المتحدة الأمريكية منسجمة في العديد من معاهدات السلم والتعاون حيناً وفي المؤامرات و المنورات والتكتلات بل والغارات والحروب في أغلب الأحيان، ومن مظاهر دور الجزائر الدولي و إشعاعها العالمي وهيئتها التي كان يحسب لها حسابان ولكن أيضا بعض نقط الضعف التي كانت سندا غير مقصود للأحقاد الأوربية الصليبية وللأطماع الفرنسية⁽²⁾.

كون الجزائر لم تكن بمعزل عن العالم المتوسطي سواء بالنسبة للدول المجاورة أو دول الضفة الشمالية، رغم تلك الاضطرابات الداخلية وتأثيرها لم يمنع من استمرار العلاقات مع فرنسا وبريطانيا ..، خاصة فرنسا التي تريد الاحتفاظ بالامتيازات التي حصلت عليها من الدولة العثمانية وتجلى ذلك في تجديدها للمعاهدات الخاصة بالسلم²، و التجارة بالمؤسسات الإفريقية بين الجزائر وفرنسا، فطبيعة الجزائر البحرية التي جعلتها تمارس النشاط البحري العسكري جعلتها في احتكاك دائم مع القوى الأوربية. الجزائر لم تكن معزولة عما يحدث في أوربا فقد

¹ _عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، المرجع سابق، ص 140-141.

² _مولود قاسم نايت بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيئتها العالمية قبل 1830

3 _Eugene(P):Correspondanc des deys d'Alger avec la coure de France

1579-1833 , TII, paris, 1889, pp591, 592.

كانت طرفاً، ولو بطريقة غير مباشرة فعلاقتها بالقوى الأوروبية خاصة فرنسا كانت تتأرجح بين المد، والجزر حسب المؤثرات البحرية والسياسية.

شكّلت علاقات الجزائر بالدول الأوروبية العنصر الأساسي والفعال للدولة الجزائرية منذ سنة 1518 م وإلى غاية 1830 م، بحيث اعتمدت الجزائر على أدوات هامة، ومؤسسات هادفة لتحقيق مشروعها الرامي إلى وقف العدوان الخارجي، وتبني مبدأ الاحترام المتبادل، فأدى ذلك إلى اعتماد الجزائر عدة أسفي شكل استراتيجيات منذ عهد "خير الدين"¹.

كان أول هذه الأسس هو ربط مصير الجزائر بالدولة العثمانية منذ النصف الثاني من القرن 16 م إلى غاية النصف الثاني من القرن 17 م حين بدأت تظهر للجزائر شخصية دولية انطلاقاً من مبدأ الاستقلالية في القرار، وعدم الالتزام بأي تعاقّد أو اتفاقية تعقدها الخلافة العثمانية مع الأطراف الأوروبية ما لم ترتبط معها الجزائر بصفة مباشرة لثبوت مصالحها وهذا ما جعل الجزائر لا تهتم بإرسال سفراء لها في الدول الأوروبية، وتبنت الجزائر عدة آليات لوضع أسس المعاهدات من خلال مبدأ أنه من السهل إبرام اتفاقية الصلح والتقارب، لكنه من الصعب المحافظة عليها، وركزت الجزائر في كل معاهداتها خاصة مع فرنسا².

تشكّلت أسس العلاقات الخارجية للجزائر أساساً من مبادئ دبلوماسية عامة، أكّدت الجزائر من خلالها ولاءها للدولة العثمانية من جهة، وبيّنت من خلالها على استقلالية قرارها السياسي في كثير من الجوانب خاصة فيما تعلق بمعاهدات الصلح بينها وبين دول الحوض الغربي للمتوسط من جهة أخرى، وفيما يلي المبادئ العامة التي اعتمدت عليها الجزائر في علاقاتها مع هذه الدول، والتي تشكّلت منها مبادئ الدستور العام لشخصية الجزائر الخارجية³:

- عدم التنازل عن حقوق السيادة، والتمسك بمبدأ احترام شخصية الدولة في كل الظروف.
- مراعاة أسس الصداقة في التعامل مع السفراء، وكريس مبدأ السيادة الوطنية في التعامل مع الأطراف الأوروبية
- مراعاة حرية التعاقد، وعدم الالتزام بما توقعه الخلافة العثمانية من معاهدات، ولم ترد أي إشارة لتبعية الجزائر للخلافة.
- مبدأ نبذ استعمال القوة في العلاقات الدولية، وعدم الرضوخ للقوة مهما كلف ذلك إصرار الجزائر على وضوح معاهداتها مع دول أوروبا.

¹ - رحومنة بليل: العلاقات التجارية للإيالة الجزائرية، مع بعض موانئ البحر المتوسط، مرسيليا، ليفورنا (1700-1827م)، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، الحديث، جامعة الجزائر، ص50.

² - جمال قنان، معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619-1830 م، المرجع سابق، ص40-42.

³ - نفسه، ص43.

- تبني مبدأ الحياد في الصراعات الأوروبية.
- اعتماد مبدأ وحدة المغرب العربي واحترام الحوار والدفاع المشترك إذا لزم الأمر.
- الوفاء والالتزام بنص الاتفاقيات مهما تغيرت الظروف خاصة ما تعلق منه بأمر السفن وشروط رسوها بالموانئ.
- اعتماد مبدأ المساواة بين دول أوروبا، فلا يوجد صديق مقرب أو العكس بل هي المصالح.
- مبدأ عدم مساعدة الجزائر لطرف يكون في حالة حرب مع دولة تمّ التعاقد معها حتى ولو كان هذا الطرف قريباً جداً.

1_علاقتها مع الدولة العثمانية:

بحلول القرن السادس عشر أصبحت الدولة العثمانية قوة كبيرة مترامية الأطراف هذه الدولة المسلمة ذات المذهب السنّي التي كان مركزها شرق البحر الأبيض المتوسط سعت للسيطرة عليه ومد نفوذها على الأراضي الساحلية المتاخمة له، ومواصلة سلسلة توسعاتها العسكرية التي انطلقت من الأناضول باتجاه آسيا الصغرى وأوروبا كما تمكنت من امتلاك ترسانة عسكرية كبيرة بالإضافة إلى أسطول بحري قوي، اتجهت خلاله في فتوحاتها إلى الأراضي العربية أما في البحر الأبيض المتوسط فقد اصطدمت بالقوى المسيحية المتمثلة في الأسبان والبرتغال¹.

عرفت الحروب البحرية بالجهاد البحري ضد القوى الصليبية التي لاحقت مسلمي الأندلسيون احتلت السواحل الشمالية لإفريقيا وأقامت عليها الحصون والمراكز العسكرية تطلب من العثمانيين تحريرها خاصة استنجد الأهالي بهم².

هنا بدأ التدخل الرسمي للدولة العثمانية في شمال إفريقيا عامة و الجزائر بالخصوص لتدخل المنطقة ككل مرحلة جديدة في تاريخها و تكون بذلك أولى بداية العلاقات التي لعل من أهم ملامحها البارزة خلال القرن 17 م هو اتخاذ الحكومة الجزائرية سياسة خارجية مستقلة فلم يعد تعاملها مع دولة ما مرهون برأي الدولة العثمانية حيث أصبحت تُسلم من تشاء و تحارب من تشاء، وتبرم الاتفاقيات العثمانية بمحض إرادتها هذه الاستقلالية نلاحظها

¹ _لسان الدين الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: محمد عبد الله عنان، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة، ج1، 1974، ص107-108.

² _ابن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان وأخبار تونس في عهد الأمان، ط2، الدار التونسية والشركة التونسية للنشر والتوزيع، تونس، ج2، تونس، د.ت، ص121.

مع حلول القرن 17 م، و أوضح مثال يمكن ذكره بهذا الصدد هو إخفاق مساعي الدولة العثمانية التي استهدفت حمل الحكومة الجزائرية على إرجاع الحصن سنة 1606 م كما و تمثل ثورة الأغوات مرحلة حاسمة في ذلك¹.

كانت العلاقة بين الجزائر والدولة العثمانية تنحصر في مدد المساعدة كلما اقتضت الضرورة، فشارك الأسطول الجزائري مرات عديدة إلى جانب الأسطول العثماني وهذه المساعدة نفسها كانت مرهونة بأوضاع البلاد الجزائرية العثمانية².

اكتسبت الجزائر أهمية كبيرة ومكانة سياسية جد مؤثرة في الحوض الغربي للمتوسط، خاصة بعد استكمال الدولة العثمانية الأراضي الجزائرية كمنطلق للسيطرة على المتوسط من جهة والقضاء على القوى البحرية المسيحية واتخاذها آلية للجهاد البحري الذي اعتنقه العثمانيون في الشرق والغرب. ظلت الدول الأوروبية في القرن 17م ترى أن التقرب من الدولة العثمانية يكفيها لتحظى بالاحترام و التقدير من طرف الجزائر و بحارتها³.

لكن الاستقلالية بقراراتها عن الدولة العثمانية نفسها جعل أمم أوروبا تعيد حساباتها، وتسعى إلى بناء أواصر التقارب مع الجزائر كدولة مستقلة بذاتها وبعيدا عن قرارات وسياسات الباب العالي بالرغم من تبعية الجزائر إداريا للدولة العثمانية، والالتزام بتوجهاتها و إستراتيجيتها مع دول أوروبا لكن دون المساس بالسيادة العامة للجزائر والتأثير على علاقاتها بجيرانها. إلا أن فرنسا ظلت تراهن على علاقتها الحميمة مع الدولة العثمانية لتحقيق التقرب من الجزائر الفرنسية، ولذلك لا يمكن دراسة العلاقات الجزائرية الفرنسية، دون الرجوع إلى طبيعة العلاقات العثمانية الفرنسية، وتأثيرها على العلاقات الجزائرية الفرنسية⁴.

2_علاقتها مع أوروبا:

1-مع فرنسا:

تعتبر الفترة الممتدة من النصف الثاني للقرن السابع عشر من أهم الفترات التي أحدثت تغييرا كبيرا في تاريخ الحوض الغربي للمتوسط على وجه الخصوص، مؤثرة بذلك في العلاقات بين الضفتين، لذا فان هناك عدة عوامل

¹ _عائشة غطاس، العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السابع عشر 1619-1694 م، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1984 م، ص 19.

² _سفيان الصغير، العلاقات الجزائرية العثمانية خلال عهد الدايات في الجزائر، (1671-1839 م)، مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية و العلوم الإسلامية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، (1432-1433 هـ/2011-2012 م)، ص 10-11.

³ _محمد بن يوسف الزيتاني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تق: المهدي بوعبدلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2004، ص 24.

⁴ _جمال قنان، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصر، م.م. و.ج، 1994، الجزائر، ص 28.

أثرت في العلاقات الجزائرية الخارجية مع فرنسا، تحكمت فيها الظروف التي مرت بها فرنسا من ناحية ،و الوضع السائد في الجزائر من ناحية أخرى.

إضافة إلى ذلك الأنشطة التي تمارس في البحر كالقرصنة أو لصوصية البحر ،أو التجارة الخارجية دون إن ننسى العامل الديني الذي كان يغذي الصراع القائم بين ضفتي المتوسط على وجه العموم ،مما زاد في نشاط الغز البحري وما ترتب عنه من قرصنة وغنائم بحرية خاصة الأسرى ،ونشاط التجارة الخارجية بفضل قوة الأسطول الجزائري الذي عرف تطورا سريعا حيث بلغ ذروته في النصف الأول من القرن السابع عشر ميلادي.

لكن قبل الحديث عن العلاقات بين الجزائر وفرنسا في القرن 17 م رأينا من الضرورة تسليط الضوء على العلاقات الفرنسية العثمانية ،لأن الجزائر لم تخرج في سياستها الخارجية،عن مبادئ الدولة العثمانية وكذلك يمكن اعتبار العلاقات السياسية بين الدولة العثمانية وفرنسا إطارا عاما للعلاقات الجزائرية الفرنسية¹.

يعود تاريخ بدايات الاتصالات بين فرنسا والدولة العثمانية إلى سنة 931 هـ-1525 م، وذلك إثر انهزام "فرانسوا الأول" في معركة "بافي" (Pavie)، وأسره من طرف خصمه "كارلوس الخامس". وقد بوشرت تلك الاتصالات في البداية من طرف والددة الملك المأسور، حيث أرسلت مبعوثها "جول فرانجياني" ومعه خطاب تطالب فيه السلطان العثماني بمواجهة قوات عائلة الهابسبورغ. كما قام الملك الفرنسي بنفسه بمحاولة أخرى بعد إطلاق سراحه بموجب معاهدة تم إبرامها في مدريد بين فرنسا و "كارلوس الخامس" في سنة 1526 م، حيث أرسل مبعوثه الشخصي "جان دي لا فوريه" (Jean de la foret) إلى السلطان العثماني "سليمان القانوني" بهدف إقامة سلم دائم مع مختلف الأمراء المسيحيين باستثناء "كارلوس الخامس".

لا يمكن فصل العوامل الخارجية عن عنصر الامتيازات التي تحصلت عليها الدول الأوروبية عبر مختلف الفترات الزمنية هذه الامتيازات التي ترى فيها بالعربي أنها جعلت من الموانئ العثمانية مفتوحة أمام التجارة الغربية²، تجسدت في توقيع العديد من المعاهدات التي تبدو غير متكافئة بين الطرفين عمليا ،فأمام عرقلة نشاط التجار الجزائريين في الموانئ الأوروبية ترى حصول هؤلاء الأجانب (الفرنسيين) على احتكار الصيد والنشاط التجاري، وتطورت الشركات والمؤسسات بالشرق الجزائري بالنسبة للفرنسيين و الإنجليز وبيوتات تجارية إسبانية في الغرب إلى جانب نشاط التجار اليهود³.

¹ _أبو القاسم سعد الله، شعوب وقوميات، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1988، ص140.

² _Louba Belarbi: "Le régime Libéral des Capitulation de cadre juridiques de l'expansion du capitalisme Européenne dans le marché da l'empire Ottoman au 19^e Siècle" in C.M.H ,juin 1990, n^o 7,p87.

³ _رحمونة بلبل: المرجع السابق، ص11.

وهنا يظهر عامل آخر وهو المنافسة بين هذه الأطراف والتي تحاول أن تقف حجر عثرة أمام الفرنسيين، مما جعل التجارة مع الفرنسيين (ميناء مرسيليا) يتراجع أحيانا مقابل تزايد النشاط مع "ليفورن" بواسطة اليهود الليفورنيين اللذين شكلوا خطرا حتى على الجزائر مع مرسيليا، مما جعل هذه الأخيرة تصدر العديد من القوانين لطردهم من هذه المدينة. كما جعلوا من ميناء ليفورن يحتل مكانة هامة في تجارة الجزائر في استيراد المواد لأولية هذه الفئة التي احتكرت ثلثا تجارة الجزائر الخارجية، أضحت تسيطر تمثل الايالة الجزائرية في الأسواق أوروبا ولا سي ما مرسيليا وليفورن¹.

جدير بالذكر أنّ هذه الاتصالات لم تأخذ شكلاً علنياً ورسمياً إلا سنة 1534 م، وقد انتهى التقارب الفرنسي العثماني بحصول فرنسا على معاهدة الامتيازات في سنة 1536 م².

مثّل عهد "سليمان القانوني" رأس الهرم بالنسبة لقوة الدولة العثمانية و مكانتها بين دول أوروبا، إذ اعتبره بعض المؤرخين السلطان الذي أوصل الدولة العثمانية إلى أرقى عصورها، ما دفع بفرنسا إلى إتباع سياسة الليونة مع الدولة العثمانية جعلها تحصل على أول معاهدة سلام سنة 1535 م و سميت هذه المعاهدة بمعاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية-أما عن مصير العلاقات العثمانية الفرنسية فإنه شهد أواخر القرن 16 م و بداية القرن 17 م أحداثا بارزة و تطورات هامة كان الدور الكبير في تغير طبيعة العلاقات و مضمون المعاهدات و حتى الامتيازات الممنوحة للرعايا الفرنسيين³.

تطورت الامتيازات العثمانية الفرنسية خلال نهاية القرن 16 م في عهد كل من "سليم الثاني" و "مراد الثالث"⁴، و جدّدت أول معاهدة بين "شارل التاسع" و "سليم الثاني" في أكتوبر 1659 م و ظلت العلاقات بين البلدين تحافظ على سيورتها، و تجددت العلاقات مطلع القرن 17 م و تحديدا في العام 1604 م جدّدت المعاهدة مع فرنسا و في عهد "هنري الرابع"⁵ مكنتها من وضع يدها على تجارة المشرق و بالرغم من حصول

1 _Charl(A.J): **Histoire de l'Afrique du Nord de coquette Arabe a1830**,T2,2^e édition Payot, Paris,1964,p290.

2 _ عائشة غطاس، العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السابع عشر 1619-1694 م، المرجع سابق، ص 4-6.

3 _علي محمد الصلابي، الدولة العثمانية، عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار ابن الجوزي، القاهرة، 2001، ص 187.

4 _سليم الثاني: ولد عام 1522م تولى السلطة سنة 1566م ودامت مدة سلطته 8 سنين و 5 أشهر توفي 1574م. أنظر: علي محمد الصلابي، المرجع سابق، ص 123.

5 _مراد الثالث: ولد عام 1546م تولى السلطة 1574 عرف بانغماسه في الملذات توفي 1574م. أنظر: علي محمد الصلابي، المرجع سابق، ص 123.

6 _ هنري الرابع: أحد أهم ملوك فرنسا اعتلى العرش في 23 جويلية 1533م وعرف بسياسته المزدوجة مع الدولة العثمانية. أنظر: علي محمد الصلابي، المرجع سابق، ص 123.

"هنري الرابع" على امتيازات، إلا أن سياسته عرفت بالازدواجية تجاه الدولة العثمانية و اتسمت عموما سياسة فرنسا الخارجية اتجاه الدولة العثمانية بالتناقض¹.

يمكن تقسيم فترة العلاقات بين الدولة العثمانية وفرنسا خلال القرن 17 م بمرحلتين:

المرحلة الاولى من 1611 إلى 1640 م: تميزت هذه الفترة بفشل النشاط الدبلوماسي للقناصل الفرنسيين في الأستاذة نتيجة عدم حصولهم على أي امتياز يُذكر، ودخلوا في صراعات مع الوزراء العثمانيين، حاول المستشار "رشيليو" إعادة العلاقات على ما كانت عليه في عهد "لويس الثامن" و قد سعى هذا الأخير إلى الوقوف أمام مساعي البنادقة و الإنجليز في الحصول على أي امتياز، إضافة إلى ذلك محاولة تعكير العلاقات مع الهولنديين، و قد نجح من خلال سفراء فرنسا في إسطنبول من حماية التجارة الفرنسية و تطورها و كان هم فرنسا هو إبقاء العلاقات حسنة مع الدولة العثمانية.

اما المرحلة الثانية من 1640 إلى 1700: عرفت هذه المرحلة توتر العلاقات العثمانية الفرنسية و في هذه الفترة دخلت الدولة العثمانية في صراع مع البندقية و كريت و التي تعود حيثيات هذه المواجهة بين العثمانيين و البنادقة إلى سنة 1644 م بعد ما قام فرسان مالطا على الاستيلاء على عمارة عثمانية كانت متوجهة إلى مصر فتدخل السلطان العثماني "إبراهيم" وطلب من سفراء الدول الأوروبية التدخل لحل المشكلة، لكنهم رفضوا بما فيهم فرنسا و اعتبروا مالطا دولة مستقلة، فقرر إرسال جيش و دامت هذه الحرب حوالي 25 سنة و هدفت الدولة العثمانية من خلالها إلى وضع حد على هيمنة البنادقة و نفوذهم في جزيرة كريت².

الدارس لتاريخ العلاقات الفرنسية-المغربية سوف يجد لها امتداد قبل الفترة الحديثة إذ تشير بعض الدراسات إلى وجود معاهدات بين أوروبا ودول المغرب الإسلامي خلال العصور الوسطى، ومنها المعاهدة التي أبرمتها بجاية مع الجنويين في سنة 1236 م، ومع جمهورية البندقية في سنة 1251 م والتي ضمنت حق حرية التجارة وأمن الجاليات. غير أن هذه العلاقات سوف تتأثر مع نهاية القرن 15 م وبداية القرن 16 م بعدة أحداث أهمها:

- سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس سنة 1492 م وما تبعها من أحداث.
- الهجمة الأيبيرية على سواحل المغرب الإسلامي وملاحقة المورسكيين المطاردين³.

¹ _ صالح عباد، المرجع السابق، ص 155.

² _ C.Lamouche, **Historique de la Turquie depuis les origines jusqu'à nous**, Payot, Paris, 1953, P152.

³ _ أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر الحديث، ش.و.ن.ت، ط 1981 م، ط2، ص 248.

بحلول القرن 16م عرفت منطقة البحر الأبيض المتوسط تحولات عميقة حيث برزت به قوتان عظيمتان متصارعتان هما: الدولة العثمانية والإمبراطورية الأسبانية، وهو الصراع الذي أفضى إلى تقارب عثماني-فرنسي ثم تطور إلى وفاق فتحالف بعد ذلك ضدّ عدوّهما المشترك إسبانيا وإمبراطورها "كارلوس الخامس"¹.

شكّلت العلاقات الجزائرية الفرنسية حجر الزاوية في العلاقات الخارجية للجزائر لما كان لها من تداعيات أثرت على السكينة العامة للمؤسسات الداخلية للجزائر عموماً، والمؤسسات البحرية خصوصاً، فالحملات التي قادتها فرنسا تبعاً على الجزائر خلال هذا القرن تنم عن الحقد الصليبي والرغبة الجارحة في تحطيم قوة بحرية ورياسها. قامت العلاقات الجزائرية الأوروبية عامة والفرنسية بصورة خاصة على عدة موضوعات وقضايا ناجمة عن نشاط البحرية الجزائرية وتعاطيها للقرصنة وتبعاته المتمثلة في الأسرى والتجار وتأمين الملاحة البحرية.

باعتبار أن الجزائر أسست في الحقبة العثمانية لتكون دولة بحرية بالدرجة الأولى فكان مفتاح عظمتها في عصر القرصنة يكمن في بحريتها التي كانت توجه سياستها الخارجية وتحدد طبيعة علاقاتها مع الدول الأوروبية بما فيها الإمبراطوريات العظمى التي كانت على رأسها فرنسا، ومن هنا تبرز أهمية البحرية الجزائرية ودورها في التأثير على العلاقات الجزائرية الفرنسية كموضوع للبحث للمساهمة في فهم دور ومكانة البحرية الجزائرية في الحياة السياسية الخارجية والدبلوماسية لإدراك تأثير ذلك الوجود في علاقات الجزائر الفرنسية².

كانت العلاقات الجزائرية الفرنسية سلمية، خلال أغلب فترات القرن 16 م، لكن مع بداية القرن 17 م فإننا نجد أن العلاقات بين الطرفين قد نحت منحني آخر بسبب تغيّر الوضع في الجزائر وفي فرنسا.

أصبحت الجزائر تمتلك قوة بحرية ضاربة تدخل بها الرعب في نفوس الأوروبيين، و تهدد بواسطتها المصالح الاقتصادية للدول الأوروبية في الحوض الغربي للمتوسط، وفي المحيط الأطلسي، ورغم اعتبار أغلب الأوروبيين بأن الجزائر تمثل اليد القوية للدولة العثمانية الممتدة في غرب المتوسط إلا أن إسطنبول لم تعد تعتقد تماماً بصحة النظرة الأوروبية إذ كانت تشعر في أغلب الأحيان أن الجزائر مقاطعة متمردة تسعى إلى الاستقلال عن الباب العالي بعد أن أصبحت تجاهر برفضها الأوامر السلطانية خاصة في ما يتعلق بالعلاقات مع الحليف الفرنسي، أما فرنسا فقد عرفت هي الأخرى فترة من الاستقرار و الازدهار بفضل سياسات الملك "هنري الرابع"، الذي نجح في إخماد الصراع الديني و لو إلى حين و قد أدت هذه الأوضاع بالعلاقات إلى الجنوح نحو الصدام، و انعكس ذلك على نشاط وكالة الباستيون³.

¹ _ملك إسبانيا 1516 م، و إمبراطور الغرب 1519-1556 م، حارب العثمانيين، ودخل في نزاع طويل مع "فرانسوا الأول" ملك فرنسا.

² _محمد زروال، العلاقات الجزائرية الفرنسية (1791-1830)، م.و.ن.ت، الجزائر، 2009، ص 11-12.

³ _نفسه، ص 12.

ستشهد هذه الوكالة التي عرفت نموا مطردا منذ تأسيسها تدهورا في نشاطها منذ بداية القرن 17 م بسبب تعرضها للهدم من قبل الجزائريون وسيحاول الفرنسيين إعادة بنائها سالكين في سبيل ذلك طريق التهديد حيناً، والطرق الدبلوماسية أحياناً كثيرة، إلا أنهم سيفشلون في تحقيق ذلك.

عرفت وكالة الباستيون تطور و توسع نشاطها إلى أنها كانت دائما محل نزاع و مفاوضات بين الجزائر و فرنسا و رغم فشل فرنسا دائما في المفاوضات إلا أنهم لم يتراجعوا عن رغبتهم الملحة في الوصول إلى الهدف، وبعد أن رأى "دوكيز" تعثر المفاوضات مع الجزائر قام بتجهيز حملة سنة 1026 هـ-1618 م حيث نجح في الرسو قرب الباستيون، و بدأ في أشغال الترميم و لما بلغ الخبر أعضاء الديوان قاموا بقطع مفاوضات السلام مع الفرنسيين و أمروا حامية عنابة بمهاجمة الحصن و تدميره حيث قتلت العديد من جنود و عمال الحملة، و أسرت القائد "دالمان" مع مئة شخص أرسلوا كلهم إلى مدينة الجزائر.

رغم توصل الطرفين إلى عقد معاهدة سلم و تجارة سنة 1028 هـ-1619 م إلا أنه سرعان ما انهارت بسبب مقال البعثة الجزائرية في مرسيليا سنة 1028 هـ-1620 م وبعد كل هذه الأحداث أصبح من المستبعد إعادة ترميم الباستيون، في ظل التوتر الشديد الذي شاب على العلاقات بين البلدين، ولن يتمكن الفرنسيون من العودة إليه إلا بعد سنة 1037 هـ-1628 م حين قدوم "سانسون نابلون".

بعد تحطيم الباستيون سنة 1604 م أصدر الدوق "دوكيز" قرار يقضي بمنع التجارة مع بلاد المغرب في 07 ديسمبر 1607 م، ورغم القطيعة المعلن عنها إلا أن الحركة التجارية بقيت مستمرة بين البلدين وإن لم تكن جد نشيطة، والدليل على ذلك هو استمرار مسؤولي الشركة بمرسيليا في قبض ضريبة على السفن القادمة من الباستيون وملاحقتها إلى أن أمر "هنري الرابع" بإلغائها¹.

كما أن شركة "النش" قد أوفدت بعثة تضم تجارا وصيادين برئاسة السيد "دوموا ساك" ويبدو من خلال أعضائها أنها لم تأت بغرض التفاوض حول قضية الباستيون فقط، إذ يتبين من خلال البرقية التي بعثها الديوان إلى السلطات المحلية في عنابة لتسهيل مهمة البعثة سنة 1015 هـ-1607 م أن حكام الجزائر قد أعطوا تعليمات بالسماح لهؤلاء بالنشاط في أي مكان يروونه مناسباً².

رغم إرسال السلطان العثماني القنصل الفرنسي رفقة مبعوثه الشخصي "مصطفى أغا" إلى الجزائر مُزوّدين بفرمان سلطاني يأمر فيه الباشا وديوانه بضرورة احترام وتنفيذ معاهدات الامتياز، لكن البعثة الفرنسية العثمانية

¹ _ فلة القشاعي، الصحة والسكان في الجزائر في العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي 1518-1871م، دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، 2003-2004، ص 61.

² _ إسحاق زيتوني، البحرية الجزائرية و تأثيرها في العلاقات الجزائرية الفرنسية السياسية 1519-1800 م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، المركز الجامعي بغرداية، 1432 هـ-2011/2012 م، ص ص 42-46.

أخفقت هي الأخرى في إقناع الحكومة الجزائرية بإعادة الامتياز. إذن فشلت البعثة العثمانية والبعثة الفرنسية المشتركة في مهمتها مما يؤشر إلى ما يلي:

- أن الموقف الجزائري المتصلّب من قضية حصن فرنسا لم يكن موجّهاً على ما يبدو ضدّ فرنسا فقط، وإنّما كانت ضدّ الدولة العثمانية كذلك بسبب اعتقاد الباشا والديوان في الجزائر بأنّ حقهم مهضوم في هذه القضية، ولم يحسب للطرف الجزائري أي اعتبار.
- أنّ الإصرار الجزائري على الرفض يبيّن بوضوح استقلال الجزائر في اتّخاذ القرارات، وربما كانت تلك هي البداية نحو هذا التوجّه في العلاقة بين الدولة العثمانية مع إيالتها قبل أن يتّضح ذلك جلياً مع نهاية القرن 17 م. وكما أشرنا سابقاً إلى أن وكالة الباستيون كانت أحد أسباب الخلافات بين الطرفين وأدت إلى القطيعة بينهما استمرت ربع قرن كذلك كان هناك سبب آخر أدى إلى هذه القطيعة¹ والذي يتمثل في:

مدفعا دانصا²: وهما مدفعا البرونز اللذين سرقهما الرايس "سيمون دانصا" الهولندي من الحكومة الجزائرية عام 1017 هـ-1609 م ممّا أثار أزمة بين الجزائر وفرنسا. أثارت هذه السرقة غضب الباشا الذي احتجّ لدى الملك الفرنسي "هنري الرابع" (Henri IV)، لكن هذا الأخير لم يكثرث للأمر ولم يكتف "دونصا" بسرقة المدفعين فقط. بل راح يحرّض على احتلال الجزائر، وبهذه الحادثة وعدم اهتمام الحكومة الفرنسية لاحتجاج الباشا أعلنت الحرب بين البلدين والتي لم تكن في صالح الفرنسيين إذ خسروا في الخمس سنوات الأولى التي أعقبت القطيعة فقط ثلاثة ملايين فرنك، وعدد كبير من الأسرى، وإزاء هذا الوضع المتأزم حاولت فرنسا من جديد إعادة السلم مستعملة الوساطة العثمانية، وتمكّنت بعد مساعي حثيثة ومفاوضات عسيرة من إبرام معاهدة مع الجزائر في 1619 م³. رغم ما شهدته العلاقات الجزائرية الفرنسية من توتر بسبب قضية الباستيون و مدفعا "دانصا" إلا أن الفرنسيين كانوا يتطلعون دائماً إلى أفق سلام مع الجزائر يضمن امتيازاتهم الاقتصادية، ويحصّن سفنهم التجارية من مغامرات قراصنتها فكانت وجهتهم دائماً الباب العالي⁴.

¹ _ Henri De Grammont, "Relations entre la France et la régence d'Alger au 17 siècle. Les deux canons de Simon Dansa 1606-1628", in R.Af, 1879, Alger, vol 23, p9.

² _ دانصا: بحار هولندي، تجنّس بالجنسية الفرنسية ودخل إلى الجزائر وانضم إلى طائفة رياس البحر في سنة 1606 م حيث أبدى نشاطاً ملحوظاً أكسبه بسرعة شهرة كبيرة بين الأهالي، خاصة عندما قام بتعليم زملائه القباطنة تقنية تيسير السفن المستديرة وملاحقتها. كما قاد البحارة الجزائريين لأوّل مرة إلى أعالي البحار حين عبر بهم جبل طارق واخترقوا المحيط الأطلسي فوصلوا إلى ايسلندا في أقصى الشمال، ومكافأة له أعاره الباشا مدفعين من البرونز لتسليح سفينته لكنّه سرعان ما خان الثقة وفترّ من الجزائر بالمدفعين. أنظر: فلة القشاعي، المرجع سابق، ص 61.

³ _ عائشة غطاس، العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السابع عشر 1619-1694، المرجع سابق، ص 48.

⁴ _ إسحاق زيتوني، المرجع سابق، ص 60-78.

تدخل الباب العالي من جديد لحل الخلاف نهائيا بين الطرفين تحت إلهام الحكومة الفرنسية فقبلت الجزائر وبدأت المفاوضات بين البلدين حيث تمت المحادثات وانتهى المفاوضات إلى الاتفاق حول شروط السلام وتوجت بعقد معاهدة ثنائية جزائرية-فرنسية بتاريخ 21 مارس 1619 م واجتمع الوفد الجزائري مع قناصل وحاكم مقاطعة بروفنس "الدوق دوقيز"¹.

تعتبر هذه المعاهدة أول معاهدة سياسية محفوظة في تاريخ العلاقات الجزائرية أبرمها الوفد الجزائري مع الوفد الفرنسي في مدينة "مرسيليا" (Marseille) في 21 مارس 1619 م، وأقرت عودة السلام بين البلدين وتبادل الأسرى. غير أنّ هذه المعاهدة سرعان ما نقضت بسبب حادثة المذبحة التي ذهب ضحيتها الوفد الجزائري المفاوض في مدينة مرسيليا مع عدد من الأسرى الجزائريين.

لم تضع معاهدة 1619 م التي جاءت بعد مجهودات شاقة حدًا للنزاعات الشائنة، ولو لبضعة أيام، ولم يتمكن الطرفان من تحقيق السلم المنشود فبينما كانت السفارة الجزائرية تنتظر تسلم المدفعين و الأسرى لتُغادر مرسيليا وصل إلى مدينة مرسيليا نبأ هجوم "الرايس رجب" أحد اليااس الجزائريين على سفينة مرسيلية عائدة من الإسكندرية كانت مُحملة كما يُذكر ببضائع ثمينة في فيفري (1620 م - 1028 هـ) وعلى ما يبدو فإن هذا اليايس لم يكن على علم بالاتفاق الجديد الذي لم تُكتمل بعد شروط تنفيذه إلا أن ذلك لم يكن في حُلد سكان مدينة مرسيليا الذين قاموا في موجة من الغضب بمهاجمة مقر البعثة الجزائرية ليلا، وفتكوا بأفراد البعثة الأربعين فضلا عن جزائريين آخرين من أسرى و غيرهم حيث بلغ عدد الجزائريين المغدور بهم ستين قتيلا حسب مراسلة ديوان الجزائر إلى حكام و قناصل مرسيليا مؤرخة في صفر (1038 هـ - 1628 م)².

كان من الطبيعي أن يكون لهذه الحادثة أصداءها في الجزائر، وأن تثير ضجة كبيرة في الأوساط الرسمية فثار الأهالي بمدينة الجزائر ضد الجالية الفرنسية من جهة، وألقي القبض على القنصل الفرنسي من جهة أخرى، وسارعت الجزائر إلى مراسلة الحكومة الفرنسية للتعرف على أسباب الحادث الذي وصفته بأنه مناف لروح المعاهدات، ومناف للروح العامة، وهو ما يُقرأ في رسائل الاحتجاج. لقد أخلت فرنسا بأحد المبادئ، وهو احترام و عدم المساس بشخصية السفراء، و لقد كانت هذه الحادثة سببا مباشرا في عدم استتاب الأوضاع إلى غاية (1037 هـ - 1628 م)، و استمر البلدان في حالة حرب تزايدت شدتها ثماني سنوات، و كان البحر الأبيض المتوسط ميدانا لها³.

¹ _ عائشة غطاس، العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السابع عشر 1619-1694 م، المرجع السابق، ص 48-49.

² _ جمال قنان، معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619-1830، المرجع سابق، ص 263-265.

³ _ محمد خير فارس، المرجع سابق، ص 127.

ركّز الجزائريون نشاطهم أثناءها على الساحل الجنوبي لفرنسا فكبّدوا الفرنسيون خسائر جسيمة فسارعت الحكومة الفرنسية إلى إصدار أمر بالمحاكمة وذلك خوفاً من ردّ الفعل الجزائري، كما كاتبت الحكومة الجزائرية المسؤولين في مرسيليا للتعرف على أسباب الحادثة.

لا شك أنّ هذه الحادثة كانت سبباً في تسميم العلاقات وعودة الطرفين إلى الحرب، والتي استمرّت لثمانين سنوات (1620-1628 م)، تكبّدت فيها التجارة الفرنسية خسائر معتبرة بالإضافة إلى مئات الأسرى¹.

أدركت حكومة "لويس الثالث عشر" أنّ بقاء حالة الحرب أمر لا يمكن تحمّله بسبب ما يلحقه البحارة الجزائريون من خسائر لمصالحها، الأمر الذي جعلها تصمّم على إعادة السلام، فاندبت لهذه المهمة "صانصون نابليون" الذي يملك خبرة واسعة بشؤون العرب والمسلمين فقد سبق وأن شغل منصب قنصل بحلب كلّف "صانصون" من طرف حكومته بالحصول على فرمان سلطاني يحث الجزائريين على عقد سلام جديد مع فرنسا.

بجربة الدبلوماسي المحنّك لم ينسى "نابليون" أن يصطحب معه المدفعين المسروقين والهدايا المغرية لإدراكه أنّ الحكومة الجزائرية لن تباشر أية مفاوضات ما لم تستعد المدفعين. خاض "نابليون" مفاوضات مضنية امتدّت على مدى سنتين وسط منافسة كبيرة من طرف الإنجليز والهولنديين للحصول على نفس الامتيازات، وكلّفت الخزينة الفرنسية حوالي خمسين ألف ليرة، وزّعت على أعضاء الديوان وأصحاب الحلّ والعقد المؤثرين في القرار السياسي. وفي الأخير تمكّن "نابليون" من اقناع أعضاء الديوان والباشا بتوقيع معاهدة سياسية وتجارية في 19 سبتمبر 1628 م، وقد جاءت بنودها أكثر شمولية ووضوحاً من سابقتها. كما لم يخرج هو شخصياً من هذه المعركة الدبلوماسية خالي الوفاض، إذ فاز بامتياز يحوّل له حق استغلال الباستيون².

مما يثير الدهشة حقاً أنّ هذه المعاهدة التي بذلت من أجلها الحكومة الفرنسية الكثير أخفقت هي الأخرى في وضع حدّ للنزاع بين البلدين سوى لفترة قصيرة، فقد كانت فرنسا السبّاقة إلى نقضها كما يقول المؤرّخ الأمريكي "سبنسر": «...وقد روعي هذا السلم، الذي توصل إليه بعد جهد بدقة من طرف الجزائريين أكثر من الفرنسيين...».

لم تكن معاهدة 1628 م على ما يبدو محلّ إجماع فرنسي، فقد أبدت بعض الأوساط اعتراضها للمعاهدة أو للبنود التي لا تخدم مصالحها، ومنها البند المتعلّق بتفتيش السفن الفرنسية لذلك لم تتوان الأوساط في تعكير صفو العلاقات بين البلدين، وذلك باعتدائها على السفن الجزائرية، ما جعل الجزائريين يردّون عليها بالمثل فعادت حالة الحرب تطبع علاقات البلدين. وقد أثبتت الوقائع تفوّق الجزائريين على أعدائهم وانتهى الوضع بإقدام الرايس "علي بتشين" بتخريب الباستيون في سنة 1637 م³.

¹ _ جون باتيست وولف، المرجع سابق، ص 346.

² _ وليام سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تع: عبد القادر زيادية، دار القصة للنشر، الجزائر، 2009م، ص 172.

³ _ عائشة غطاس، العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السابع عشر 1619-1694 م، المرجع سابق، ص 50.

ظلّ التوتّر قائماً بين البلدين إلى سنة 1640 م حين توصل الطرفان إلى توقيع معاهدين: الأولى سياسية والثانية تجارية، وذلك بفضل المساعي التي قام بها أحد المواطنين الفرنسيين، وهو المدعو "كوكيال" والمحسوب على التيار الذي يلحّ على إقرار السلام بين البلدين واستمرت حالة الحرب غير المعلنة بين البلدين طيلة عشرين سنة تقريباً ألحق خلالها الجزائريون هزائمهم بأعدائهم الذين لم يكن باستطاعتهم الردّ عليها بسبب انشغالهم بحروبهم في أوروبا⁽¹⁾.

إلا أن هذه المعاهدة أمنت حقوق الرعايا الأجانب المقيمين في فرنسا، والفرنسيين المقيمين لسفن أعداء الجزائر كما التزمت الجزائر بمنع أعداء الفرنسيين بالبيع في موانئها لتأكيد الطرفين على حرصهما على إحلال السلم فقد تعهدا بقطع رؤوس كل من يخالف هذه البنود¹.

منذ أن وطّد "لويس الرابع عشر" مركزه وجّه اهتمامه صوب شمال إفريقيا مستخدماً ضدها القوة ليفرض رغباته عليها، وجد في وزيره "كولبير" المعين الوفي لتنفيذ مشروعه. كان "لويس الرابع عشر" و وزيره يميلان إلى استخدام القوة ضدّ شمال إفريقيا، وخاصة الجزائر لذلك سوف يجرّد أربع حملات بحرية على الجزائر في غضون قرن على الجزائر.

- حملة "دي بوفورت" على جيجل 1664م :

- في خريف 1661م أمر الملك "لويس الرابع عشر" "جاسوسه" "دي كليرفيل" "De Clerville" بالتوجّه نحو الجزائر في مهمة استطلاعية²، وبعد معاينة المنطقة اقترح المهندس مدينة عنابة لتكون منطقة إنزال الحملة. لكن الأميرال "دي بوفورت" "De Beaufort" فضّل ميناء جيجل لأنّه منطقة التقاء حدود الإيالتين التونسية والجزائرية ممّا يسهّل العمل ضدهما، ولأنّ جيجل في نظره منطقة سهلة خصبّة، يمكن تمويل الحامية الفرنسية دون ما الحاجة إلى فرنسا. بعد الانتهاء من الاستعدادات انطلقت الحملة من ميناء طولون في 2 جويلية 1664م بقيادة الدوق "دي بوفورت"، مكوّنة من أسطول من 60 سفينة من مختلف الأحجام والأنواع، عليها 4650 جندياً من القوات البحرية، مدعّمة بقرات مالطية³ إنجليزية وهولندية، ومئات المتطوعين.

¹ _ جمال قنان، معاهدات الجزائر مع فرنسا (1619-1830)، المرجع سابق، ص 56.

² _ نفسه، ص 57.

² _ Henri De Grammont : **Histoire d Alger sous la domination Turque 1515-1830**.e.E.le roux ,paris,1887,p181.

³ _ Ernest Watbled : " **Expédition du Duc De Beaufort contre Djidjeli en 1664**", in **R.Af**, Alger 1873, vol 17,p218.

ظهرت العمارة الصليبية أمام الميناء في 22 جويلية 1664م، وتمكنت القوات الغازية من احتلال مدينة جيجل، بعد دفاع مستميت من أهلها، قبل أن ينسحبوا نحو البوادي والجبال. لكن هذا النصر ما لبث أن تحوّل إلى هزيمة، عندما تصدّى "الآغا شعبان" للقوات الفرنسية، وتمكن من استرداد المدينة و إلحاق الهزيمة بالجيش الفرنسي، الذي خسر ما يربو عن 1400 شخص ومئات المدافع. أثارت هذه الهزيمة غضب الملك الفرنسي الذي طالب بالتفسيرات والتوضيحات حول أسباب الانسحاب من دون أمره، وحاول بعد ذلك التقليل من حجم الكارثة التي أُلّت بجيشه وبلاده أمام الرأي العام الأوروبي، فأمر بإبقاء بعض السفن تظهر أمام مدينة الجزائر.

وفي السنة الموالية قام "دي بوفورت" بقصف مدينتي شرشال، والجزائر لتغطية الفشل ومحو آثار هزيمة جيجل سنة بعد ذلك تَمّت تصفية الخلافات بين البلدين، بإبرام معاهدة 17 ماي التي أعطت مَرّة أخرى أرجحية القناصل الفرنسيين على غيرهم، واستئناف نشاط "الباستيون" وافتداء الأسرى¹. حاول الملك الفرنسي بعد هذه المعاهدة التقرب من الجزائر، وسعى جاهدا على إبقاء الأسرى حالة السلم معها، بسبب انشغاله بحروب أوروبا.

ظلّ السلام الحذر يطبع علاقات البلدين بسبب خرق الفرنسيين لنصوص المعاهدات المبرمة، خاصة ما يتعلق بقضية حجز الأسرى الجزائريين، الفارين من أعدائهم، إلى أن توصلّا في سنة 1681 م إلى اتفاق بشأن إطلاق الأسرى. لكن فرنسا لم تلتزم مَرّة أخرى بوعدها. عندئذ يئس الديوان في الجزائر من إرجاع الأسرى فقرّر نقض السلام وإعلان الحرب. أصبح الموقف الفرنسي في حرج بعد هذه القطيعة، وخاصة بعد إقدام الجزائر على إبرام معاهدات، مع كل من هولندا وإنجلترا في سنتي 1680 م و 1682 م على التوالي، وتعهدا بتزويد الجزائر بالعتاد الحربي. بعد الهزيمة التي منيت بها فرنسا بعد حملة "دي بوفورت" في جيجل، أبدى الملك الفرنسي "لويس الرابع عشر" رغبته في التوصل إلى تسوية مع الجزائر، لكي يتسنى له التفرغ لمشاكل أهم على الصعيد الأوروبي، وكسب صداقة الجزائر الضرورية، لضرب أعدائها².

كلّف "لويس الرابع عشر" المفوض العام للقوّات "تروبير" "Trubert" بأن يتفاوض مع الجزائريين لإبرام اتفاق سلام، وكان الطريق قد هده تاجر فرنسي يدعى "جاك أرنو" "Jacques Arnaud" الذي لعب دور مبعوث غير رسمي سعى لإقناع الحاكم علي آغا لوقف الحرب. لذلك لم يجد "تروبير" صعوبة تذكر في الوصول لاتفاق مع "علي آغا" رغم محاولة الانكليز إفشال هذه المفاوضات، انتهت حالة الحرب بين فرنسا والجزائر بإبرام معاهدة 17 ماي 1666/1077م التي أقرها، وصادق عليها لويس الرابع عشر في 7 سبتمبر من نفس السنة. نصّت هذه المعاهدة على اعتماد الطرفين نظام الجوازات، و عدم جواز أسر رعايا و سفن الطرف الآخر، بالإضافة إلى إطلاق سراح أسرى البلدين بالتبادل، أو الافتداء⁽³⁾.

¹ _ عائشة غطاس: العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السابع عشر 1619-1694 م، المرجع السابق، ص 79.

² _ نفسه، ص 80.

3_ Grammont (H.D): Op cit, p340.

بموجب هذا الاتفاق، تم تحرير 1127 فرنسي من أسرى جيغل و المعارك البحرية، و أزيد من 300 جزائري في غضون السنتين التاليتين، كما أعيد فتح منشآت الباستيون التجارية التي أسندت إدارتها إلى السيد "جاك أرنو" لقاء مساهمته في محادثات السلام¹. إلا أن التوتر عاد سنة 1079هـ/1668م بعض الشيء للعلاقات بين البلدين بسبب مشاركتهما في حرب كريت حيث نشط الرياس الجزائريون ضمن الأسطول العثماني، دعمت فرنسا من جهتها البنادقة كانت النتيجة أسر الرياس لعدة سفن تجارية فرنسية، كانت تحمل المؤن.

اعتبر الفرنسيون ذلك خرقا للمعاهدة، و قاموا بإرسال المركيز "دي مرتل" "De Martel" في جوان إلى الجزائر بطلب تصليح الخطأ، فوافق الديوان على طلبه حفظا للسلم القائم و تم تسليم السفن مع بحارتها، وفي ظروف مماثلة استولى الرياس في طريق عودتهم من المشرق في 1080هـ/1669م على سفن يعود بعضها لتجار فرنسيين وفي شهر أفريل الكونت "دي قيقون" "Comte de Vivonne" يطالب بمعاينة الرياس والمذنبين، فاستقبل هذا الأخير بشكل ودي و في مجلس الديوان، وشنق بمحضره ثلاث رياس بعد محاكمتهم، رميت جثثهم في البحر ويبدو أن هذا التصرف غير المتبصر عائد إلى نفوذ "إسماعيل باشا"، المراعي للمصالح الفرنسية حسب ما يتضح من مراسلاته. في نفس السنة حمل الماركيز "دي مرتل" رسالة من "لويس الرابع عشر" يعرض فيها على الجزائريين مساندته في حروبه ضد أعدائه الأوربيين، و في حين قبل أعضاء الديوان مبدئيا بهذا العرض، فإن طائفة الرياس أبدت معارضتها لأي تحيز تجاه فرنسا²، وعاد "دي مرتل" في فبراير 1670م على رأس عمارة لإدراج بنود إضافية في معاهدة 1666م لتجنب الوقوع في المشاكل³.

مما نصت عليه هذه البنود الملحقة المعاقبة الجسدية للقباطنة المسؤولين عن التجاوزات كما تضمنت إلغاء حق تفتيش المراكب الفرنسية⁴. بعد عقد المعاهدة مباشرة، بعث الملك لويس الرابع عشر قنصله مبلغ ستة آلاف فرنك، ليوزعها على شكل هدايا على حكام مدينة الجزائر لتحريضهم على قطع علاقاتهم بهولندا وإنجلترا، و الذي عبر عنه بإحدى رسائله إلى القنصل الفرنسي بالجزائر، عليكم عند وصولكم بالعمل على تدعيم السلام و بذل قصارى جهودكم لحمل حكام الجزائر على قطع علاقاتهم مع الانجليز، وهولندا.

و كانت إنجلترا تعمل هي الأخرى على الفوز بمكانة خاصة لدى حكومة الجزائر، و على تحريض الجزائر على قطع علاقاتها مع فرنسا، فمنحت ثلاثين سفينة إلى حكم الجزائر عسى أن تعلن الحرب على خصمها⁵.

¹ _ Grammont (H.D): Op cit, p340 .

² _Plantet: Op.cit, p6

³ _Grammont(H.D):"Documents algériens" in R.Af., 1885, n^o29,pp 453,454.

4 _ جمال قنان: معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619-1830 م، المرجع السابق، صص 284-288.

⁵ _عائشة غطاس: العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السابع عشر 1619-1694 م، المرجع السابق، صص 80.

إنّ الوفاق الذي اتّسمت به العلاقات أصبح مشروطا بظهور الدايات، اعتلائهم الحكم فظهر تخلي واضح من جانب الحكومة الجزائرية عن أيّ ليونة، و تمثل الرسالة الموجهة من الداى الحاج محمد التركي المؤرخة في 2 محرم 1085 هـ / 23 سبتمبر 1674م حجر الزاوية في العلاقات الجزائرية الفرنسية وقد تضمنت الأسس التي وضعتها الجزائر في سبيل إقامة السلام وصداقة بين البلدين، فذكرت بالسلام القائم بين البلدين، بالقطيعة في حالة امتناعها عن احترام تلك القواعد التي نصت عليها الرسالة كما يلي: "إن وسيلة تدعيم السلام بين بلدينا هي تمنعوا رعاياكم من استقبال أكثر من ثلاثة مسيحيين من أعدائنا على متن سفنكم، و أن لا يبحر رعاياكم على متن سفن أعدائنا، و إن هذا سيكون سببا في القطيعة. وستكون القطيعة في هذه الحالة خارجة عن إدارتنا... كما أننا لن نسمح لكم بحجز رعايانا من جنوه و ليفورن، وإسبانيا وأماكن أخرى عندما يلتجئون إلى مملكتكم بناء على السلم القائم بيننا". وافقت فرنسا على تلك الشروط، بعد مرور حوالي سنة خرفت شروط السلم مما أدى إلى حالة الحرب، و رغم توتر العلاقات بين البلدين وقتئذ وافق على توقيع اتفاق جديد بشأن الباستيون - مراكز تجارية - مع "ديسو" "Dyson" ونص هذا الاتفاق على السماح لمدير المراكز بإجراء الإصلاحات الضرورية، وكان الداى الحاج محمد التركي متمسكا بمسألة الإفراج عن الأسرى الجزائريين المحتجزين بمرسيليا، و هي المسألة التي أثرت على طبيعة العلاقات بين البلدين¹.

- حملة "دوكين الأولى 1682م :

جهز الملك "لويس الرابع عشر" حملة بحرية كبيرة، و كلف الأميرال "دوكين" (Duquesne) بحرق وتدمير الجزائر، تدفعه الرغبة في الانتقام من حكام الجزائر، الذين جازفوا في إعلان الحرب ضدّ فرنسا من جهة، و من جهة أخرى إظهار قوّة فرنسا من خلال اعتمادهم على سلاح جديد هو "مدفع الهاون"، الذي يطلق قذيفة ضخمة من المتفجرات. توجه الأسطول في البداية إلى مدينة شرشال، و شرع في قصفها لكن المدينة لم تتضرر كثيرا، و بعد شهر ظهر الأسطول الفرنسي أمام ميناء الجزائر.

يقول "التلمساني": ((... في عهد "بابا حسن"، وفي أول رجب من سنة 1093 هـ وصلت حملة عسكرية، بلغ عدد سفنها ستين سفينة...))². استمر قصف المدينة خمسة أيام، نجحت عنه خسائر جسيمة، تمثلت في مقتل 500 شخص، و هدم حوالي 50 بناية³.

- حملة دوكين الثانية 1683 م: لم يكن الملك الفرنسي ووزيره راضيين على نتائج الحملة السابقة، إذ لم يكن السلاح المحرّب ذا فاعلية كبيرة رغم الدمار الذي طال المدينة، لذلك قرّر إرسال حملة ثانية بقيادة

¹ _ Grammont(H.D): "Documents...", Op,cit,p454.

² _ محمد بن محمد بن عبد الرحمن ابن رقية التلمساني الجديري : الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة"، نشر سليم بابا عمر في م ت ح م ،الجزائر، 1967 م ،عدد3 ،ص 20 .

³ _ 2- التلمساني ،الجديري ابن رقية الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، مخطوط بالمكتبة الوطنية بالجزائر، ص6، يحتوي هذا المخطوط على 16 ورقة، مكتوب بخط مغربي يوجد تحت رقم 1626 بقسم المخطوطات ص 6.

نفس الأميرال قوامها إحدى وعشرين عمارة حربية، وفيلق من أربعة آلاف جندي عازمة على حرق المدينة. وما أن وصلت حتى شرعت في قصف مدينة الجزائر بوابل من القنابل، أدت إلى سقوط عدد كبير من الضحايا، يقول "التلمساني" عن هذا القصف: ((... ففي الليلة الأولى من رجب الفرد رموا قدر ستين بومبا، وفي الليلة الثانية منه رموا إلى البلد، وإلى المرسى قدر مائة وعشرين بومبا...))¹، وبسبب التدمير الكبير الذي لحق بالمدينة، ضغط السكان على الداي بالتفاوض مع الفرنسيين، و استجاب الداي لرغبتهم غير أنّ "دوكين" اشترط لوقف القصف تسريح جميع الأسرى الفرنسيين، ومبالغ مالية كبيرة كتعويضات. "و لكن أصالح معكم إذا أعطيتهموني جميع ما عندكم من أسرى الفرنسيين ومصروف العمارة وهي ثلاثمائة ريال متاع الميزان وقبلتم جميع ما اشترط عليكم..."⁽¹⁾.

رضخ الداي لشروط الأميرال، وسّلم مائة وخمسين أسيرا فرنسيا، ولكن مسألة الغرامة أخرجت الوصول إلى اتفاق نهائي. في هذه الأثناء عرض "الحاج حسين ميزومورتو" و كان من بين الرهائن على "دوكين" حل المشكلة، إذا ما سمح له بالنزول إلى الرصيف. وفعلا فما أن عاد إلى المدينة حتى دبر مؤامرة لاغتيال الداي، ونصّب نفسه مكانه و هدد الفرنسيين بقتل جميع الأسرى، إذا استمر القصف وتقدّ وعده عندما أقدم على إعدام القنصل الفرنسي الأب "لوفاشيبي"، مع عشرين آخرين بالمدفع، الأمر الذي أجبر "دوكين" على الانسحاب خائبا، دون أن يحقق رغبة ملكه في حرق، وهدم المدينة هدا كاملا. أسفر هذا القصف على خسائر كبيرة في صفوف الجزائريين. فحسب القنصل الإنجليزي "ريكوت" أنّ عدد القنابل، التي سقطت على المدينة بلغت ستة آلاف، وهدم ثمانمائة دكان ومنزل².

بعد هذا الفشل الذريع اضطرّت فرنسا إلى العودة إلى فكرة السلام؛ فاستدعت "دوكين" واستبدلته بالأميرال "دوتريفيل" (De Tourville)، وأكلت له مهمة التفاوض. تمكن هذا الأميرال "، بعد مفاوضات من إبرام معاهدة صلح بتاريخ 25 أبريل 1684 م، نصّت على أن يكون السلام بين البلدين لمدة مائة سنة.

__ حملة ديستري 1688 م:

لم تكد تمضي ثلاث سنوات على معاهدة 1684 م، حتى تجدد النزاع وعاد الطرفان إلى الحرب. وتذرعت فرنسا بإعلان الحرب بسبب سماح الحكومة الجزائرية، ببيع غنيمه فرنسية من طرف أحد بحارة مدينة سلا. وإثر ذلك انطلقت الحملة العسكرية الفرنسية بقيادة الأميرال "ديستري" (D'Estrées) وقوامها أربعة وأربعين عمارة. و بمجرد وصولها بدأت في قصف المدينة، الذي استمرّ 15 يوما، سقطت خلالها 10420 قذيفة على المدينة، وتخلّفت خسائر جسيمة في المباني، حيث نقرأ في شهادة أحد التجار: ((... إنّ المدينة دمرت تماما؛ فالسفن

¹ ابن رقية التلمساني: المرجع السابق، ص 21.

² جون باتيست وولف: المرجع السابق، ص 346.

الخمس التي كانت راسية في الميناء غرقت ، وحصن "ماتيفو"¹ ومدافعه الخمسة عشرة دمرت...، المساجد ومترل الداى ، سويت بالأرض، وتجاوزت القذائف المدينة لتدمر قنوات الماء . أصيب "ميزومورتو" مرتين، ولجأ الأهالي إلى الريف....".

رغم الأضرار التي ألحقها القصف بالمدينة، إلا أنّ فرنسا فشلت في فرض إرادتها على الجزائر ، و انتهت الحملة بتوقيع معاهدة صلح في 24 سبتمبر 1689 م، احتوت على 31 بندا تطرقت لمختلف النزاعات القائمة بين البلدين، ومنها قضية افتداء الأسرى، وهكذا وضعت هذه المعاهدة حدّا لتراع مسلح دام طويلا، وفشل معها مشروع "لويس الرابع عشر" في فرض إرادته على الجزائر، وتدميرها كما كان يحلم.

أوفد الداى "شعبان"² مبعوثا عنه إلى فرنسا وهو "محمد الأمين"، لتسوية الخلاف واسترجاع الأسرى الجزائريين. وانتهى الأمر بتثبيت السلم بين البلدين، والذي سوف يستمر لمدة مائة سنة.

ساد العلاقات الجزائرية الفرنسية بعد إبرام معاهدة السلم المؤقت³، استقرار وهدوء نسبي؛ فقد مالت السياسة الفرنسية إلى الاستماع إلى نصائح القناصل، الذين كانوا على جانب كبير من الفطنة والدراية، لذلك ما فتئوا يردّدون أن الخصومات مع الحكومة الجزائرية يضر بالتجارة أكثر مما يضرّ بالقرصنة، فالقصف ظلّ دون مفعول، ولم يتحقق النتائج المرجوة. ولكن بالرغم من حداقة القناصل إلا أنّ ذلك لم يمنع بروز خلافات بين البلدين، كان سببها قضية الأسرى الفارين من الجزائر على متن سفن فرنسية، وكذا تورط ضباط وجنود فرنسيين في مساعدة الاسبان، أثناء عملية استرداد وهران في سنة 1732 م.

لما يئست فرنسا من حرب سخرت فيها معظم إمكانياتها، استعملت أحدث الأسلحة لكنها تسفر عن النتائج التي رسمتها لنفسها. نتيجة إصرار الداى الحاج "حسين ميزومورتو" على الصمود، عندما قال قولته المشهورة: "إنني أفضل أن تقطع رأسي وتحمل إلى هناك على التفاوض مع "دوكين" لأنه رجل لا يوثق بكلامه"، وفي نفس الوقت الذي رجع فيه "دوكين" من القصف الثاني لمدينة الجزائر، كانت مملكة فرنسا في مملك الهابسبورغ في إسبانيا قد أعلن الحرب، لذا قررت الحكومة الفرنسية أن تتبع سياسة معتدلة نحو جماعة التجارة في الجزائر. فكتب الماركيز "دي سينيلي" "De Seignelay" وزير الشؤون البحرية إلى أمير البحر "تورفيل" "Touville" بأن الوضع

¹ _ هو أقصى نقطة في شرق مدينة الجزائر، يوجد به حصن يعرف عند الجزائريين بـ "تمانفوس".

² _ استلم زمام الحكومة في ذي الحجة 1100 هـ / أكتوبر 1689 م . يذكر عنه أنّه كان شعوبيا متعصبا للأعاجم . قتل خنقا في سنة 1685 م . للمزيد عنه أنظر: عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ص 200 .

³ _ تعتبر هذه المعاهدة من أهم المعاهدات في تاريخ البلدين؛ حيث بقيت تمثل القاعدة المرجعية، التي تركز عليها المعاهدات الأخرى، و جدّدت عشرين مرّة. أنظر جمال قنان : "عصر في الأزمة الجزائرية الفرنسية 1827 م"، في مجلة التاريخ، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، 1984 م ، عدد خاص، ص 9 .

الحالي (أي الحرب ضد اسبانيا) يجعل من الضرورة القصوى عقد معاهدة مع الجزائر و نتيجة لذلك، وصل "تورفيل" إلى الجزائر يوم الثاني من أبريل 1684م مرفوقا بمبعوث من السلطان العثماني، مهمته بأن يوضح بأن فرنسا، و الدولة العثمانية على وفاق تام، وأن السلطان يرغب أن تكون إيالة الجزائر أيضا صديقة مع الفرنسيين، و كان "تورفيل" مرنا في مفاوضاته بقدر ما كان دوكين خشنا. مثلما أكد عليه الملك نفسه: "ستقدم لي خدمة كبيرة إذ تمكنت من عقد الصلح..". وخلال عشرين يوم من المفاوضات كتبت معاهدة ستدوم مئة سنة بتاريخ 25 أبريل 1684/محرم 1096هـ تضمنت 29 بندا وقد نصت على تبادل الأسرى، وحللت القناصل من أي قروض سيئة، و حددت طريقة المرور، وأكدت على الخصوص على ما جاء في المعاهدات الفرنسية-الجزائرية السابقة- كما قد نص أحد الشروط على زيارة شخصية جزائرية هامة للبلاط الفرنسي لعقد السلام مع الملك. وقد حاول كل من القنصل الانجليزي، والهولندي منع إتمام المعاهدة، لكن القصف كان قد أقنع الجزائريين بأن عليهم أن يلجئوا إلى السلام إذ كانت جميع الشروط مرضية (1).

بعد إبرام الصلح أخذت الجزائر سفارة إلى البلاط الفرنسي تشكلت أساسا من "الحاج جعفر" و هو من أبرز رجال الديوان، و شاطر باشا، حظيت السفارة باستقبال الملك في 04 يوليو 1684م، وتبادل الطرفان أثناء هذا اللقاء الهدايا فقدمت البعثة إلى لويس الرابع عشر اثني عشر فرسا من أجود الخيول وتسلمت بالمقابل ثلاث بنادق وثلاثة مسدسات، وسيفا مزركشا بالأحجار الكريمة و ثياب فاخرة، و مطرقات، وساعة ذات ستة عناقيد، واثني عشر ميدالية ذهبية، وست زرابي فاخرة. كما جاءت هذه البعثة بأربعمئة أسير¹. سمحت هذه المعاهدة لفرنسا من توجه جهودها ضد اسبانيا و سعى "كولبير" إلى توطيد علاقاته بالجزائر، فاقترح عليها أن يمد بكل ما تحتاج إليه إذ ما قطعت علاقاتها مع إنجلترا².

و بعد معاهدة 1684م، و في ديسمبر 1685م أوفد الحاج "حسين ميزومورتو"، محمد أفندي إلى فرنسا محملا بالهدايا، و أكد المبعوث بهذه المناسبة على ضرورة الإفراج على مختلف الأسرى الجزائريين بفرنسا، و في شهر ماي 1686م-1098هـ جاء "دوتروفيل" إلى الجزائر مصحوبا بهدايا إلى الداي حسين، و الديوان منها مركب مزود باثني عشر مدفعا، لتظهر فرنسا حسن نيتها، في إقامة السلام بين البلدين، لكنها في حقيقة الأمر لم تكن صادقة في ذلك، و هو ما أثبتته الأحداث إذ ما لبث أن تعكر الوثام، أعلنت فرنسا الحرب ضد الجزائر، و قد تذرعت في ذلك بسماع الحكومة الجزائرية بيع إحدى الغنائم الفرنسية من طرف بحار من سلا بسوق العبيد بالجزائر³.

¹ _ محمد بن رقية التلمساني: المرجع السابق، ص 23.

² _ عائشة غطاس: العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السابع عشر 1619-1694 م، المرجع السابق، ص 91.

³ _ Delphin(E): "Histoire des pachas D'Alger de 1515-1745" in J.A., 1922, n°19, p212.

لم تكن فرنسا من الحملة العسكرية التي قادها "ديستري" شيئا فلم يتمكن من إملاء شروطه على الجزائر أمام صرامة و شدة الداي حسين ميزومورتو، فقد كان الجزائريون هم الراجحون لأن فرنسا شرعت في اتصالات سرية في ربيع 1689م/1101هـ قصد تحقيق السلم، لكن ميزومورتو لم يسعفه الحظ على المصادقة على المعاهدة حيث غادر مدينة الجزائر في يوليو 1689م¹. عقب الحملة التي شنها "ديستري" على مدينة الجزائر، وجد "لويس الرابع عشر" نفسه عاجزا عن التصدي للبحرية الجزائرية، و عن تموين الحرب، و هو ما يؤكد نص القرار الملكي المؤرخ بـ 14 سبتمبر 1689، قبيل إبرام المعاهدة. «...إن جلالة الملك قد اخبر بأنه يوجد في البحر المتوسط عدد كبير من السفن الجزائرية مهيمنة على مختلف الممرات، و تفاديا لوقوع سفن رعاياهم في أيدي الجزائريين يمنع على مختلف السفن الخروج مهما كان الأمر...»⁽¹⁾.

انتهى هذا القصف بإبرام معاهدة الصلح في الرابع و العشرين من شهر سبتمبر 1689م جاءت في إحدى وثلاثين بنداً، تناولت مختلف النزاعات القائمة بين البلدين، و اتفق فيها على فدي الأسرى. أوفد "الداي شعبان"² مبعوثاً عنه للبلاط الفرنسي و هو "محمد الأمين" لتسوية الخلاف، و استرجاع الأسرى الجزائريين وتبادل الهدايا.

أ- ترتيبات معاهدة 1689م:

لم تدخل معاهدة 1689م تغييرات جوهرية على ترتيبات معاهدة سنة 1684م إلا في ما يتعلق بقضية الأسرى فبعد الأخذ و الرد اتفق الطرفان على تسوية المسألة بالكيفية التالية:

حرية سراء الأسرى بدون تميز بالنسبة لكل من الطرفين، ما عدى بحارة سفينتين جزائريتين فقد تم التنصيص بخصوصهم على أن يتم شراء كل من عساكر الأوجاق بمائة و خمسين قرش والبحارة الآخرين بمائة قرش و في مقابل ذلك فإن السلطات الجزائرية سترد عدد مماثل من الأسرى الجزائريين بنفس السعر الأخير على كل واحد منهم.

من ما يلاحظ بخصوص هذه الترتيب هو أن قضية الأسرى لا يزال يحيطها الغموض ذلك أن الطرفين لم يلتزما برد أسرى بعضهما البعض و إنما تعهدا بكونهما سيسمحان بذلك فقط غير ملتزمين سادة الأسرى بقبول افتدائهم، و إذا ما أخذنا بعين الاعتبار عدم توفر المعلومات لدى السلطة الجزائرية حول الأسرى و أماكن

¹ جون.ب.وولف: المرجع السابق، ص355

² الداي شعبان: أحد رياس البحر و كبار المحاربين و حاكم الجزائر من (1100-1106هـ/ 1689-1695)

و كان رجلاً عاقلاً يتخذ القرارات بكل حزم وثبات، و ينقدها بشدة. جريئاً و مقداماً و محافظاً على كلامه. انظر :

- أبو القاسم سعد الله: "من أخبار شعبان باشا داي الجزائر"، مجلة التاريخ، العدد 18، 1985.

- أبو القاسم سعد الله: أبحاث وأداء في تاريخ الجزائر، ج2، المؤسسة الوطنية لكتاب الجزائر، 1986، ص 321.

تواجههم في المدن الفرنسية و انعدام و جود فآت مختصة في عملية افتدائهم و تتبع ظروفهم في الأسرى كما هو الشأن بالنسبة للفرنسيين فإننا ندرك أن الجانب الجزائري قد أضاع حقه في قبول صيغة هذا البند بهذه الكيفية المهمة¹.

فإلى جانب كون الجزائر ليس لها ممثلون دائمون في فرنسا فحتى القنصل الذي كان من المفروض أن يستقر في مرسيليا فإنه لحد الآن لا يوجد ما يدل على كونه باشر عمله في هذه المدينة، و حتى إن وجد قنصل في مرسيليا فإن ذلك لا يكف لتغطية المعلومات الضرورية حول قضية الأسرى و تتبع أحوالهم إذ أن هؤلاء كانوا موزعين الموانئ الفرنسية المتوسطية، تولون مرسيليا، و الموانئ الأطلسية حيث توجد أعداد كبيرة منهم في هذه الموانئ².

أما بالنسبة لفرنسا فبالإضافة إلى القنصل الذي كان من مهامه الأساسية تتبع حالة الأسرى الفرنسيين في البلاد توجد في الجزائر ثلاثة هيئات دينية اثنتين منها مهتمتان أساسا لتتبع حالة الأسرى المسيحيين و تقدم المساعدة لهم على مختلف الأشكال بما فيها تنظيم حملات تبرع في الأقطار الأوربية لافتدائهم، إلى جانب المندوبية البابوية و سوف توفر فرنسا لنفسها ظروف أفضل لتتبع حالة أسراها و وضعيتهم عندما تدرج في هذه المعاهدة مبدأ اعتبار رجال الدين المسيحيين المستقرين في الجزائر بمن فيهم المندوب البابوي من جملة رعاياهم و تحت حماية قنصلها في هذه البلاد³. و في المقابل فإننا لا نجد أية هيئة جزائرية أو إسلامية موازية لهذه الهيئات الجزائرية تعمل في البلدان الأوربية لفائدة الأسرى المسلمين بها، واعتبار لهذه الوضعية فإن الجزائر لم تكن مؤهلة أن تستغل هذه التسوية بخصوص الأسرى لصالحها و هذا ما تبين بعد وقت قليل من توقيع هذه المعاهدة و الذي يشكل عقبة أخرى في تنفيذ دعائم الصلح الجديد³.

بخصوص حرية المياه الإقليمية فإن المبعوث الفرنسي نجح في الإبقاء على ترتيبات هذا البلد الذي كان مدرج في معاهدة 1684م ولم تسجل الجزائر حقها في مبدأ المعاملة بالمثل بهذا الخصوص والذي كان قد أثير في المراسلات السابقة في هذه القضية الأخير و الذي رأين أن الفرنسيين كانوا على استعداد لقبوله في الحالة القصوى نظرا لأهمية ذلك بالنسبة لتجارهم مع البلدان الأوربية والمتوسطية من جهة و حفاظا على سمعة ملكهم لويس الرابع عشر من جهة أخرى. والنقطة الشاذة التي أوضحتها هذه المعاهدة كذلك واضحة بذلك حدا لنزاع شبه دائم ومصدر قلق للعلاقات بين البلدين منذ وقت طويل و هو المتعلق بكيفية معاملة الرعايا الفرنسيين والذين يعملون كمرتزقة تحت

¹ _ محمد الأمين: هو الدفتر الذي اختاره الداوي شعبان كمبعوث إلى البلاط الفرنسي لتسوية الخلافات و إرجاع الأسرى الجزائريين، و كان ذا علم و معرفة دقيقة بجزيئات و تفاصيل العلاقات الجزائرية الفرنسية، و هو الذي حرر المعاهدة الأخيرة المبرمة بين الحاج حسين ميزومورتو والمبعوث الفرنسي "مارسيل". أنظر: إبراهيم سعيود: القرصنة المتوسطية خلال الفترة الحديثة، مجلة الواحات لبحوث و الدراسات، المطبعة العربية، المركز الجامعي بغرداية، جوان 2011 م، ص 40.

² _ نفسه، ص 40-41.

³ _ جمال قنان: معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619-1830 م، المرجع السابق، ص 121، 122.

راية الدولة الأجنبية المعادية للجزائر، لقد وافقت فرنسا على أن يتم معاملة هؤلاء كما يعامل الأعداء سواء بسواء في نفس الوقت الذي تعهد فيه الطرفان باحترام رعايا بعضهم البعض ف غير هذا الصنف، كما أبقى على البند الذي تعهدت فيه الجزائر بعدم السماح لرعاياها بالعمل تحت رعاية دولة معادية لفرنسا و منح حق اللجوء على مواثيقها لأعداء هذه الأخيرة. كما اتفق الطرفين على عدد من الترتيبات الأخرى أبقية سرا و لم تندرج ضمن ترتيبات المعاهدة، و تتعلق أساسا على ما يبدو بالثمن الذي يتم افتداء به الأسرى على أن لا يتجاوز هذا الثمن سعر شرائهم في الأصل، و المقيدة في سجلات البايك بالنسبة للجزائر و بثمان معقول بالنسبة لفرنسا¹.

ب- موقف الديوان من معاهدة 1689م:

أمام هذه الوضعية اتخذ الديوان موقف وسطا هو عدم رفض الاتفاق مبدئيا في نفس الوقت الذي سعي فيه إلى توضيح بعض القضايا التي تبدو أنها كانت موضوع اتفاق سري بين الحاج "ميزومورتو" و المبعوث الفرنسي مارسيل و عدم و عمد و سعي إلى إدراج هذه التسويات ضمن ترتيبات المعاهدة².

ففي رسالة مطولة بعث بها الديوان إلى لويس الرابع عشر³ بتاريخ 14 جانفي 1690م أوضح بها جميع الملابسات التي أحاطت بالمفاوضات الأخيرة مع الباشا السابق كما تعرض للمباحثات التي أجراها مع مبعوثه مارسيل بخصوص هذا الاتفاق لقد أكد الديوان في هذه الرسالة رغبة الجزائر في إقرار سلم ثابت و دائم مع فرنسا موردا لتأكيد ذلك ما مدلوله في القرآن الكريم بكون الصلح الجيد هو من أفضل الأعمال ثم تعرض للظروف التي وقع فيها في هذا الاتفاق مبينا أن هذه المفاوضات جرت في سرية وهو لشيء لم تجري به العادة في الجزائر ما أثار شكوك الديوان حول هذه المسألة مبرزا في نفس الوقت التناقض الموجود في ما قاله الحاج حسين بخصوص هذه المعاهدة وما تم تسجيله بالفعل في بنودها خاصة فيما يتعلق بقضية السفن التي استولى عليها الفرنسيون أثناء الحرب الباشا كان قد أعلن أن فرنسا قد استردت خمسة سفن بمقتضى هذا الاتفاق و لكن المبعوث الفرنسي أعلن أن الاتفاق ينصّ على استيراد ثلاثة سفن فقط، وإنه قد تم التنصيص بهذا العدد الخير في نسخة المعاهدة الموجودة عند مارسيل و التي لا تملك الدولة نسخة منها كما لم تودع نسخة من الرسالة التي بعثها إليه لويس الرابع عشر أثر توقيع هذا الاتفاق كما جرت به العادة⁴.

¹ _ Plantet(E):Correspondance...,Op.cit. , T1,pp204.206 .

² _إبراهيم سعيود:المرجع السابق،ص ص37،36.

³ _Plantet(E):Correspondance...,Op.cit. , T1,pp294-316.

-انظر:رسالة الداى شعبان إلى لويس الرابع عشر بتاريخ 1691/07/23م.

جمال قنان: معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619-1830 م ،المرجع السابق، ص ص 123، 124.

و يلاحظ الديوان أن هناك بنود سرية تم الاتفاق عليها كبنود مكملة لهذه المعاهدة و إنه لا يوافق على هذا الأسلوب إذ يجب أن يكون الاتفاق علنيا وعلى كل الأمور التي أتفق عليها وبناءا على هذه فإنه تم دراسة هذه المعاهدة اعتمادا على النسخة الموجودة في حوزة المبعوث الفرنسي مارسيل و عقدت جلسات مطولة معه حيث تم استعراض بنود الاتفاق بندا بندا وأدخلت عليه تعديلات و قد أكد الديوان في هذه الرسالة¹، على أن هذا الاتفاق المعدل يحظى بموافقة الجميع، كما أعلن كونه يرى أنه كشرط مسبق لتنفيذ هذا الاتفاق وصول السفن الخمسة و بعدها ستقوم هذه بتنفيذ ما عليها من التزامات مؤكدا بأنه "منذ أن تأسست هذه الجمهورية لم يحدث مطلقا أن تم التراجع عن اتفاق و عهد قد أبرم"².

يبرر هذه الاحتياطات التي اتخذها بعدم البدء في تنفيذ المعاهدة إلا بعد وصول السفن الخمسة، بأن هناك سوابق مؤسفة حدثت في الماضي من طرف الفرنسيين منذ بعض سنوات جاء أحد جنرالاتكم و المدعو "دوكين" موفد من طرفكم لعقد الصلح و إن الداى الذي كان يحكم في مدينتنا في ذلك الوقت، و بنية حسنة رد إليه خمس مائة وسبعين أسيرا، لكن هذا الجنرال بدل الوفاء بعهدده قام بإلقاء القنابل على المدينة. "هذا العمل حَزَّ كثيرا في قلوب جنودنا بالرغم من أنه لم يؤذهم ولم ينل منهم في شيء أبدا إذ لم تخدم سوى عدد من البيوت الصغيرة التي كانت ملكا لفقراء المدينة إننا نعلم أن الأباطرة لا يقرون أبدا هذا النوع من الأعمال المزرية التي تثير الاضطرابات في الوقت الذي كانت تجري فيه المفاوضات من أجل عقد الصلح فالسيد "دوكين" كان السبب في مقتل السيد الداى ظلما من طرف عساكر الاوجاق لأنه رد هؤلاء الأسرى...، ومن المفيد أن يعرف جلالتكم أن عددا من رعاياكم كثيرا ما يقومون بمثل هذه الأعمال المخزية التي تضر بشرفه و سمعته.

كما أرسل الداى "شعبان" رسالة أخرى³ في هذا الاتجاه إلى كاتب الدولة للبحرية معلنا في بدايته بأنه لم يكن من عاداتنا في الجمهورية أن يقوم الرؤساء بإبرام عقود و اتفاقيات بدون حضور العامة ملحا على ضرورة إرسال نسخة من المعاهدة التي تم توقيعها مع الباشا السابق و كذلك الرسالة المرفقة بها لأخذ نسخة عنها و الاحتفاظ بها في أرشيفات الدولة.

لتوفير أسباب النجاح للمهمة التي ستسند إلى المبعوث الذي سيوفد إلى فرنسا عمدا الداى "شعبان" إلى اختيار شخص ذي كفاءة عالية ومعرفة دقيقة بجزئيات وتفاصيل العلاقات الجزائرية الفرنسية، "محمد الأمين" الدفتردار الذي اختير للقيام بهذه المهمة هو الذي حرر المعاهدة الأخيرة التي أبرمت بين الحاج "حسين ميزومورتو" والمبعوث

¹ _ Plantet(E):Correspondance...,Op.cit. ,T1,pp294-316.

-انظر:رسالة الداى شعبان إلى لويس الرابع عشر بتاريخ 1691/07/23م.

² _ Plantet: Correspondances...,Op.cit., T1, PP.316, ...325.

³ _Ibid,p, 316,...325.

-انظر رسالة الداى شعبان إلى الكونت "بونتشارتران"

"المؤرخة في 1691/07/23م.

الفرنسي "مارسيل" وهو يتميز بخبرة واسعة في مجال العلاقات الإسلامية الأوربية، و ذلك أنه شبّ و تربّى في البلاط العثماني وقد شغل فترة معينة من الزمن وظيفه حافظ سجلات الدولة في القسطنطينية و التحق بالجزائر في 1689م ليصبح من كتاب الدولة، لقد اشتهر على ما بيده و بخطه الديواني الرائع و بأسلوبه و بلاغته في الكتابة التي تعتمد على الإطناب والتجمل والتعظيم للمخاطب.

زوّد هذا المبعوث رسائل إلى كل من "لويس الرابع عشر" و كاتب الدولة للبحرية وإلى "فوفري" مأمور البحرية في تولون، كما منح تفويضا مطلقا لتسوية كل القضايا أولها قضية الأسرى التي طرحت في هذه الرسالة بكل إلحاح، ففي الرسالة التي وجهها الداوي شعبان إلى لويس الرابع عشر أبرز هذه المسألة على أنها النقطة الجوهرية التي أثرت على العلاقات بين الطرفين منذ وقت طويل: "نؤكد لجلالتكم أن السبب الرئيسي الذي من أجله لم تستمر معاهدة السلم التي أبرمت بيننا في الماضي الطويل هو كون جلالتكم أعطى أوامره عدة مرات بإطلاق سراح الجزائريين، لكن الموظفين الذين كانوا يشرفون على شؤون الأسرى في ذلك الوقت لم يسيروا سيرة حسنة مع مبعوثينا الذين أرسلوا لهذا الغرض بحيث أنه بقي عدد كبير من رجالنا منذ ذلك الوقت في حالة أسر بائسة وورد إلينا بدلمهم أسرى أجاناب ليسو من الجزائريين، أما الذين طالبنا بهم فقد شدو وثاقهم أكثر بالرغم من أنكم أعطيتهم أوامركم بتسريحهم ولكنهم رفضوا ردهم إلينا، وهذا السبب في وجود عدد من الجزائريين أصدقاءكم يرحلون في الأغلال لمدة خمس وعشرين سنة في حالة بؤس شديدة. فالوضع الذي وجدنا أنفسنا أمامه في عدم قدرتنا على تحريرهم بالرغم من إثارتنا لهذا الموضوع باستمرار، ملئنا أسى ووصلنا إلى حالة تشبه اليأس، وهذا هو السبب الرئيسي الذي من أجله تعثرت معاهدات السلم المختلفة، ولم تحترم كما يجب أن تكون يا مولاي النقطة الرئيسية في كل القضية وهي أيضا موضوع رجائنا. إذ كان جلالتكم يرغب في أن يكون دائما والي الأبد ثابتين ومتشبثين بخدمة أصدقاء أصدقائهم وأعداء أعدائهم ونحترم وبكل دقة والي آخر الدهر بنود المعاهدة التي أقسمنا عليها...و نأمل بفضلكم يا مولاي بإكرام خاص تقدمونه إلينا بإطلاق سراح جميع الجزائريين اللذين تمّ أسرهم منذ خمسة و عشرين سنة و إرسالهم إلى هذه البلاد"¹.

و في رسالة وجهها إلى "محمد الأمين" بتاريخ 09 سبتمبر 1690م و بعد أن وجه العتاب له لكونه اشتكى كثيرا من المعاملة التي لقيها، و أنه بالعكس عومل أحسن ممّا عومل به أي مبعوث جزائري زار فرنسا من قبل²، كما أنه عبر في هذه الرسالة عن عدم فهمه للموقف الذي اتخذته السفير برفضه المصادقة على المعاهدة المبرمة في الجزائر في العام الماضي و أنه سيشتكيه للداي إذا ما سافر و لم يقوم بإنجاز هذا الإجراء الذي يعتبره في كل الأحوال مجرد "إجراء شكلي" إذ أن عدم القيام به سوف لن يثنيه عن إعطاء أوامره للموظفين للقيام بتنفيذ ما تم

¹ _Plantet: Correspondance...OP.CIT pp 226...232.

-انظر رسالة الداوي شعبان إلى الملك لويس الرابع عشر المؤرخة في 1690/05/10م

² _ إبراهيم سعيود: المرجع السابق، ص47.

الاتفاق عليه وبخصوص المطالب التي أدرجت في مذكرة الديوان فإن الوزير الفرنسي أحضره بكونه قد أعطى الأوامر بإطلاق كل الأسرى إلا الذين تم التنصيب عليهم في المعاهدة، و سوف يصحب معه في عودته إلى الجزائر من يجده منهم في مرسيليا، والباقي سوف يتم إرسالهم إلى الجزائر تباعا.

أما بالنسبة للآخرين فما عليهم إلا أن يتصلوا بوكلاء الأجناف للاتفاق معهم حول سعر شرائهم وإن الملك سيعطي الأوامر لتنفيذ ذلك بمجرد وصول هذا الاتفاق كما تعهد كاتب الدولة برد المركب الخامس وبخصوص الأسرى الذين تم اختطافهم من الميناء فإن "بونشتران" يقول بأن رباني السفينتين المعنيتين ينبغي أن ينفيا قاطعا حدوث ذلك وبالرغم من هذا فإن حرسه على أن لا يبقى للديوان أي موضوع يشتكي منه فقد اقتنع الملك بتقديم هدية له في شكل إطلاق سراح ثمانية أسرى بدون فدون فدية و يطلب أن ترسل إليه قائمة بأسماء الذين يرغبون في إطلاق سراحهم وبخصوص تعيين السيد "روني لومير" قنصلا فإن الوزير الفرنسي احتفظ بالرد على هذه المسألة مؤكدا أن الملك سوف يختار لهذا المنصب من يراه أهلا له و يكون محل رضا للسلطات الجزائرية ملا حضا أن وضعية "لومير" كأسير سابق في الجزائر تجعله غير مؤهل لتمثيل فرنسا في هذه البلاد¹.

لقد لخص "محمد الأمين" الجهود التي قام بها خلال هذه الشهور الطويلة التي قضاهما في فرنسا في رسالة بعث بها إلى "الداي شعبان" بتاريخ 07 فيفري 1691م والتي احتجزتها السلطات الفرنسية "وهو عمل بالرغم من عدم مشروعيته لكنه كان سائدا في سلوك الدبلوماسية في ذلك العصر" ذكر فيها أنه لم يدخر وسعا ولم يغفل لحظة من أجل إنجاز المهمة التي كلف بها مستخدما في ذلك كل أساليب الود والصدقة "لكن هؤلاء الكفرة لا يغيرون أبدا من طبعهم ولقد ركب هؤلاء الخونة غرورا شديدا بسبب ما حققوه من مكاسب على حساب أعدائهم بفضل مساعدة المسلمين لهم، لكنهم بعيدون من أن يعترفوا بهذا الفضل، أنه من المستحيل إفتكاك أي وعد من أفواههم فهم لا ينفكون من تأجيل الأمور من يوم إلى غد و إلى ما لا نهاية¹. لقد قلت لهم وكررت ذلك أكثر من مرة و حتى لملكهم بكونه ليس أمامي سوى ثلاث أشهر وقمت بكل المساعي الممكنة أنه شعب مثل الحجارة لا يمكن أن تحصل منه على أي جواب و لا تستطيع أن تسوي معه أي مشكلة، فلاستيلاء على قلعة وهران هو أسهل من إفتكاك مسلمين من بين أيديهم وتحرير ألائك الموجودين في المحيط". وختتم "محمد الأمين" رسالته بالتأكيد على ضرورة عدم تسهيل مهمة الفرنسيين لافئداء أسراهم إلا بعد عودته إلى الجزائر².

ولم يلتحق بالجزائر بعد حصوله على هذه الترضية المبدئية بل بقي عين المكان لمتابعة تنفيذ هذه الوعود، ولم يعد إلى الجزائر إلا في شهر أغسطس (أوت) 1691م ويبدو أن إقامته أقلقة كثيرا للسلطات الفرنسية التي انزعجت انزعاجا شديدا من إلحاحاته و متابعته بإصرار وتشبث لمطالبة و لوضعه الرفض و تجاوزوه لقرار الفرنسيين أفاد مبعوث إلى الجزائر لتسوية القضايا والتي لا تزال معلقة مع كل من الداوي و الديوان.

¹ _ إبراهيم سعيود: المرجع السابق، ص 47-48.

² _ جمال قنان، معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619-1830 م، المرجع السابق، ص 130..133.

ففي رسالة مطوّلة كتبها الداوي إلى "لويس الرابع عشر" يوم 28 جويلية 1691م سطر فيها تفاصيل الصعوبات التي واجهته إقرار الصلح وتثبيت السلم المبرم بين البلدين، لقد كشفت هذه الرسالة مناورات الطرف الفرنسي و الظليلات التي يقوم بها للتحايل عن تطبيق المعاهدة بروحها ونصّها، بين هذه المناورات بأسلوب مهذب و لكن بلهجة حازمة مرددا في كل مناسبة القيم التي يجب أن تركز عليها المعاهدات و الأخلاقيات الأساسية التي يجب أن تتوفر في هذه المعاملات لإقرار السلم الحقيقي الصادق بين الطرفين. قد عمد "الداوي شعبان" إلى كشف ازدواج شخصية المبعوثين الفرنسيين الذين يوفدون إلى الجزائر، فهم يؤكّدون نوايا و يتعهدون و يلتزمون ملكهم و حكومتهم ولكن عندما يبدوون في التطبيق يستعملون كل أساليب التحايل و المراوغة¹.

و ركّز الداوي على هذه النقطة ليبين ضررها و انعكاساتها السلبية على العلاقات بين البلدين حيث حدد وقائع محددة بين فيها كذب المبعوث الفرنسي "مرسيل" و تحايل موظفي تولون و مرسيليا باعتماد طريق الغش في تطبيق بعض بنود هذه المعاهدة مبينا أن الجزائر لن تظل بهذه الأساليب و أورد الداوي كدليل على كذب المبعوث قضية سفينة و بحارة (والي راييس) فهذه السفينة كانت قد فقدت قبل القطيعة بين فرنسا و الجزائر لكن عندما ذهب المبعوث الجزائري وتبين أنها جنحت إلى الشواطئ الفرنسية و تم أسر بحارتها وأرسلوا إلى الأجناف، فالمبعوث الفرنسي كان قد أعلن في الديوان أن السفينة غرقت وأن بعض البحارة من الذين نجو ماتوا من المرض ولم يبق أحد².

فبمقتضى المعاهدات التي كانت سائرة المفعول قبل القطيعة كان من المفروض أن يتلقى هؤلاء البحارة كل العون و المساعدة ويرسلون إلى بلادهم و هذا الترتيب تم إقراره في المعاهدة الأخيرة³، و على ذلك فإن الداوي طالب بعودة هؤلاء البحارة دون استثناء وبدون دفع أي فدية عنهم، وكذلك رد السفينة الذي ثبت أنها توجد في حالة جيدة في ميناء مرسيليا كما تعرضت الرسالة لمسألة أخرى تتعلق بموضوع السفن التي كانت من المفروض أن ترد إلى الجزائر حسب الاتفاق الذي تم التوصل إليه بهذا الشأن حيث بينت كيف أن موظفي الموانئ الفرنسية احتفظوا بواحدة من هذه السفن الخمسة و التي هي من صنع جزائري في حالة جيدة ليعطوا بدلها مركب صغير متهرئا لا تتعدى قيمته الأربع مائة قرش بدعوى أن هذه كانت قد غرقت و عوضت بهذا المركب.

¹ _ جمال قنان، نصوص و وثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500-1800، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1987، ص 129-132.

² _ جمال قنان، نصوص و وثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500-1800، المرجع السابق، ص 133، 132.

³ _ البند الثامن من معاهدة 1689 م، انظر: Rouard de cared : Op cit , pp55,56.

انظر كذلك. جمال قنان: نصوص و وثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500-1800، المرجع السابق، ص 122، 125.

نستنتج ممّا سبق الهزائم البحرية المتكررة التي منيت بها فرنسا أفقدتها هيبتها وهيمنتها، ولم يعد بإمكان البحرية الفرنسية مواجهة البحرية الإنجليزية والهولندية ممّا جعل مسالة فرنسا للجزائر ضرورة ملحة لضرب هؤلاء.

أنهت معاهدة السلم المئوي الخلافات القائمة بين البلدين خاصة بعد 1694م والتي تضمنت سلما لمدة مئة سنة، حيث تمّ تجديدها في العديد من المرات والمناسبات. واقتصرت المراسلات بين البلدين في تبادل المودّة و التهاني، فمثلا رسالة "لويس الرابع عشر" إلى "الداي شعبان" في 21 ديسمبر 1692م التي كانت كلها مودة، وعواطف، وعروض طيبة بنفس المعاملة، وفيها ذكر للمبعوث الخاص للويس الرابع عشر "دوزو" "Dusault" الذي سنجده فيما بعد أيضا بينهما ثم مبعوثا من "لويس الخامس عشر" وهناك سنعرض صورة استقبال من الداى "محمد بن حسين"¹.

وهناك رسالة أخرى من "لويس الرابع عشر" إلى الداى الجديد "الحاج أحمد"² في 28 سبتمبر 1695م يهنئه فيها بانتخابه دايا للجمهورية الجزائرية، ويتمنى له فيها كل الخير والبركة³. و رسالة أخرى مؤرخة في 05 سبتمبر 1696م يعلمه فيها بإرسال مبعوثه الخاص "دوزر" "Dozer" من جديد إلى الجزائر "لإزالة بعض سوء التفاهم الذي يمكن إزالته بالرسائل وحدها..".

وتلقى الداى الجديد "مصطفى" رسالة تهنئة من "لويس الرابع عشر" يؤكد له فيها نفس النوايا، بعد تجديد مصادقة الداى على المعاهدات السابقة، حسب العرف المتبع الذي يقضي بتجديد المصادقة على المعاهدات السابقة كما أنتخب دايا جديدا، وفيها تعبيرا عن عواطف وتمنيات الخ، كما بعث "لويس الرابع عشر" برسالة أخرى إلى "الداى مصطفى" يشكره فيها على تهنئته بوليد لحفيد له "دوق برغونيا"، ويعبر له في أيضا عن عواطفه ولم ينس أن ينتهز الفرصة للتأكيد عن ضرورة الحفاظ من كلا الجانبين على المعاهدات ...⁴.

ورسالة أخرى منه أيضا إلى الداى يهنئه بالانتصار على باي تونس "حسن بن على"، في حرب بينهما، و في عهد الداى مصطفى تمّ تجديد معاهدة السلم في نوفمبر 1705م.

¹ _ Plantet: Op.cit, T1, pp 397,398.

—أنظر رسالة لويس الرابع عشر إلى الداى شعبان في 24 ديسمبر 1692م.

² _ الداى أحمد :خلف الداى شعبان حكم من (1107-1110هـ/1695-1698م).

³ _ Plantet: Op.cit, T1, pp 499,500.

—أنظر رسالة الملك لويس الرابع عشر إلى الداى الحاج احمد المؤرخة في 28 سبتمبر 1695 .

⁴ _ Plantet: Op.cit, T1, pp 499,500.

و مجمل القول:

- أنّ العلاقات الجزائرية الفرنسية في الفترة الحديثة ارتبطت بالتواجد العثماني، فكان لمعاهدة الامتيازات الأولى في سنة 1536 م الفضل في إرساء أسس العلاقات الثنائية وبموجبها حصلت فرنسا على امتيازات سياسية وتجارية في الجزائر لم تحظ بمثلها دولة أوروبية أخرى.
- أنّ العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السادس عشر ميلادي عرفت فترات خصبة من التعاون والدفاع المشترك فرضته الظرفية التاريخية المتمثلة في وجود العدو المشترك "اسبانيا".
- أنّ العلاقات الجزائرية الفرنسية ميّزها سلم حذر خلال الفترة التي تغطي النصف الأول م القرن 17 م، حيث تأرجحت بين السلم والحرب، وعجزت فرنسا على انتهاج سياسة واضحة المعالم مع الإيالة الجزائرية.
- أنّ اعتلاء الملك "لويس الرابع عشر" عرش فرنسا شكّل بداية مرحلة جديدة في علاقات البلدين حيث عمد إلى أسلوب القوّة ضدّ الجزائريين بتجريده لعدّة حملات عسكرية قصد إذلال الجزائر وإملاء شروطه عليها، إنّ سياسة العصا والقوّة التي انتهجها "لويس الرابع عشر" منيّت بالفشل، وأدرك متأخراً أنّ هذا الأسلوب لا طائل منه فاضطرّ مُرغماً إلى انتهاج أسلوب الترضية والمسالمة¹.

2- العلاقة مع إنجلترا:

تحسّنت العلاقات الانجليزية الاسبانية بموت الملكة "إليزابيث" عندما أبرم خلفها الملك "جيمس الأوّل" (1603-1625 م) معاهدة سلام مع اسبانيا سنة 1604 م، وقد كان لذلك انعكاس مباشر على العلاقات الجزائرية الانجليزية، ذلك أنّ القنصل الانجليزي في اسطنبول فقد آتة وسيلة للضغط على الحكومة العثمانية لوقف نهب السفن الانجليزية من طرف رياس البحر الجزائريين إذ لم تعد سلطة السلطان تحمي سفن دول يفترض أنّها صديقة لنظامه وتقيم سلاماً مع أعدائه في نفس الوقت².

أنهت معاهدة السلام الانجليزية الاسبانية آتة حصانة للسفن الانجليزية في البحر الأبيض المتوسط، خاصة وأنّ الجزائريين خلال هذه المرحلة فتحوا عهداً جديداً للغزو البحري، فلم يكد العقد الأول من القرن 17 م حتى تمكّن الجزائريون من أسر أربعمئة وستة وستين انجليزياً، وأصبح الأسطول الجزائري يشكّل تهديداً خطيراً لسفن دول شمال أوروبا، وخاصة الانجليزية حتى أنّ السفير الانجليزي في اسبانيا كتب يصف هذه الحالة الخطيرة في سنة 1617م: «... إنّ قوّة وجرأة قراصنة شمال إفريقيا هما الآن على هذا النحو من الضخامة سواء في البحر المتوسط أو في المحيط

¹ _ محمد خير فارس، المرجع سابق، ص 133.

² _ جون ب وولف، المرجع سابق، ص 242-253.

الأطلسي. وأشهد أنني لم أعرف في حياتي شيئاً جلب إلى هذا البلاط - يقصد البلاط الاسباني- الأسى العميق، والخراب الكبير غير هؤلاء القراصنة...»¹.

أما تزايد نشاط البحرية الجزائرية ضد السفن الانجليزية، قرر الملك الانجليزي "جيمس الأول" تجريد حملة عسكرية لقنبلة مدينة الجزائر، وأوكل أمرها إلى الأميرال "روبرت مانسيل" (Robert Mansel). وصل الأسطول الانجليزي إلى المياه الجزائرية في أواخر نوفمبر 1620 م، لكن الحملة فشلت في تحقيق مبتغاها في فك الأسرى وحرق الأسطول الجزائري أكد هذا الإخفاق العسكري عجز إنجلترا على الرد على البحرية الجزائرية للأسباب التالية:

- ضعف الأسطول الجزائري عدم تحمّل الخزانة الانجليزية لنفقات حرب قد تطول.
- انشغال إنجلترا بالحروب الدينية في أوروبا (حرب الثلاثين سنة).

مالت إنجلترا إلى الحل التفاوضي مع الجزائريين فعقدت معاهدة سلام مع الجزائر في سنة 1622 م، ونصّت على تعيين قنصل انجليزي في الجزائر، وتشجيع التجار الانجليز على بيع بضائعهم في الجزائر، وقد ظلت تلك المعاهدة تمثّل القاعدة التي تركز عليها جميع اتفاقيات البلدين، لكن هذه المعاهدة لم تنجح في تثبيت السلام، فقد كان الانجليز سباقين إلى نقضها، كما يقول المؤرخ الأمريكي "ولف": «...وكما حدث مع الفرنسيين، فإن أول المخلفين بينود المعاهدة هم الانجليز و ليس الجزائريين...»².

ربما أسعد خرق المعاهدة طائفة الرّياس لأنّ ذلك يعني لهم استئناف الغزو، والاستيلاء على السفن الانجليزية وإعلان الحرب على إنجلترا والتي كانت في صالح الجزائريين كما بيّنت الوقائع، فقد عاد تهديد البحارة الجزائريين للسفن الانجليزية بل وامتدّ إلى سواحل إنجلترا وإيرلندا نفسها، وأدخلت الرعب في نفوس السكان.

لعلّ أجراً هجوم هو ذاك الذي قاده "مُراد راييس" على ساحل "بلتيمور" الانجليزي في سنة 1631 م وغنم فيه مئات الرجال والنساء والأطفال ثمّ يبيعهم في سوق الرقيق بالجزائر تزايد عدد الأسرى الانجليز ممّا دفع ذويهم إلى الضغط على الحكومة الانجليزية قصد اقتدائهم، فكانت أول عملية اقتداء لأسرى انجليز هي التي تولّاها القنصل الانجليزي "ادمون كاسن" (Cassen) في سنة 1646 م حيث حظي باستقبال الباشا والديوان، ووفق في إبرام

¹ -وليام شالر، المرجع سابق، ص140.

² -مولود قاسم نايت بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830، ط1، دار البعث، قسنطينة، 1985، ص185.

معاهدة جديدة نصّت على عدم الإساءة للسفن الإنجليزية و طواقمها في الجزائر ،بالإضافة إلى بنود أخرى تتعلّق بحقوق الجالية الإنجليزية في الجزائر كما تمكّن "كأسن" من افتداء حوالي 246 أسيراً¹.

عرفت العلاقات الجزائرية الإنجليزية خلال عهد الجمهورية بما يمكن أن نسميه السلام المشوب بالحذر ،إذ رغم السلام الذي أكّده معاهدة 1646 م إلا أنّ التوجّه الجديد لحكومة الجمهورية كان يقضي باستعمال الصرامة في التعامل مع الإيتالات المغربية بشكل عام ،وقد ظهر ذلك جلياً في التعليمات التي زُوّد بها القنصل الإنجليزي الجديد "روبير براوني" (Robert Browne)،وهي تعليمات تميّزت بالوضوح والجفاء وعدم التساهل أو التسامح مع أيّ عمل يخلّ بالمعاهدة ،وتدعيماً لمهمّة قنصلها أرسلت حكومة الجمهورية أسطولها بقيادة الأميرال "بلاك"(Blake)إلى البحر الأبيض المتوسط ليكون على أهبة الاستعداد لأيّ طارئ².

عندما عادت الملكية إلى إنجلترا في سنة 1660 م استهلّ الملك "شارل الثاني" عهده بتوجيه حملة عسكرية على مدينة الجزائر لإرغام الحكومة الجزائرية على الانصياع لرغبته في تعديل المعاهدة السابقة ،وخاصة الشرط المتعلّق بتفتيش السفن الإنجليزية فور وصول الأسطول الإنجليزي إلى ميناء الجزائر شرع في قصف المدينة ،وأبراجها وردّت عليه الحصون الجزائرية فأصابَت السفينة الرئيسية التي تحمل الأميرال ،كما أصيب بعض السفن بأعطاب فمات منهم مائة حسب ما يرويّه صاحب الزهرة النائرة:«...ولم يمت في ذلك الحرب إلاّ رجل واحد انجرح ومات بعد ثلاثة وعشرين يوماً، وأمّا النصارى الملاعين ،فقد مات منهم أكثر من مائة...»³.

بفشل الحملة لجأت إنجلترا كالعادة إلى أسلوب التفاوض فعقدت معاهدة سلم مع الجزائر في سنة 1662 م أرضت الإنجليزي.ظلّ تبادل التهم بخرق المعاهدات يعكّر صفو العلاقات بين البلدين ،ليجد كل طرف المبرّر للقيام بأعمال عدوانية ،ففي ربيع 1671 م تعرض ميناء بجاية إلى هجوم إنجليزي قادة الضابط "إدوارد سبراغ"(Edward Spragge)،أسفر عن حرق اثنتي عشر⁵ سفينة، وأكثر من ثلاثة آلاف قتيل.

¹ _ المنور مروش،دراسات عن الجزائر في العهد العثماني (القرصنة الأساطيل الواقع)، ج 2، دار القصة للنشر، الجزائر،2009م،ص 285-286.

² _ جون.ب.وولف، المصدر سابق،ص 305-308.

³ _ أرزقي شويّتام،الصراع الفرنسي الإنجليزي وأثره على الجزائر،جريدة الشعب،عدد 8640،الجزائر،21 أوت 1991،ص9.

⁴ _ أنظر: نصّها في جمال قنان،نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500-1800، المرجع السابق، ص 91-96.

⁵ _ Moulay belhamissi, **Alger l'Europe et la guerre secrète 1518-1830**, éditions a-n-e-.Alger.2009.p 72.

بقيت حالة الشدّ والجذب تطبع علاقات البلدين إلى مطلع عقد الثمانينات من القرن المذكور حين وقع البلدان معاهدة سلام في 22 أفريل 1682 م، نجم عنها تحسّن في العلاقات والتي سوف تستمر إلى القرن 12 هـ/ 18 م.

مما تقدّم يمكن القول:

إنّ المتأمل في سير العلاقات الجزائرية الانجليزية خلال الفترة المذكورة يلخص إلى ما يلي:

- أنّ الانجليز سعوا إلى ربط علاقات ود وسلام مع إيالة الجزائر بعد التقارب الذي تمّ بينهم وبين العثمانيين خلال القرن 10 هـ/ 16 م، وذلك خدمة لمشروعهم الرامي إلى التحكّم في التجارة الدولية في البحر المتوسط.
 - أنّ العلاقات الجزائرية الانجليزية خلال القرن 10 هـ/ 16 م طبعها السلم والتعاون على المستوى الدبلوماسي، التجاري وتبادل الخبرات.
 - أنّ العلاقات الجزائرية الانجليزية دخلت مرحلة جديدة مع مستهل القرن 11 هـ/ 17 م، حيث عرفت شداً وجذباً خاصة في النصف الأوّل من القرن المذكور متأثرة بالمستجدات الدولية المتمثلة في تصاعد وتيرة القرصنة البحرية.
 - أنّ علاقات البلدين مالت نحو السلم أكثر مع الربع الأخير من القرن 11 هـ/ 17 م¹.
- 3- علاقتها مع اسبانيا:**

عرفت شبه الجزيرة الأيبيرية تطوّرات هامة ، كان لها تأثير على مستقبل إسبانيا ، و على أوروبا ، و على منطقة الحوض الغربي للمتوسط بشكل عام ، من هذه التطوّرات زواج "فرديناند" (1467م-1516م) ملك أراغون بـ"إيزابيلا" (1474م-1504م) ملكة قشتالة سنة 1469 م، وتمّ توحيد المملكتين ، و ظهور مملكة إسبانيا الكاثوليكية الموحدة².

و رغم التوجهات السياسية لكل من أراغون ، وقشتالة ، فالأولى بحكم امتلاكها لجزر البليار وصقلية ، و سردينية و وجود أحد أفرادها على رأس مملكة نابولي، تتجه نحو المتوسط من أجل تأمين طريق بحري آمن . أما قشتالة بحكم موقعها الجغرافي ، كانت تتجه نحو الأطلسي ، و بحكم دورها في الصراع مع المسلمين ، كانت تهتم بما يجري في المغرب الإسلامي . غير أن هذا التباين في التوجهات السياسية ، لم يمنع من ظهور سياسة إسبانية

¹ _ جون.ب. وولف، المصدر سابق، ص 329.

² _ Ferand Braudel : **le Méditerranée et le Monde méditerranéen à l'époque de Philippe2**, 2T, 2eme édition, librairie Armand colin, Pari 1966,T2,p19 .

خارجية يوجهها الملك الاسباني "فرديناند"، الذي نجح في إثارة اهتمام قشتالة بمسائل القارة الأوربية، وشبه الجزيرة الإيطالية¹. اتخذت هذه الوحدة السياسية التي عرفت الجزيرة الأيبيرية صبغة دينية، اعتمدت على التحالف بين الكنيسة الكاثوليكية، و الملوك الكاثوليك، و التي نتج عنها ما عرف بحرب الاسترداد Reconquista التي وجهتها إسبانيا ضدّ مسلمي الأندلس، و سكان المغرب الإسلامي².

أول عمل يعكس هذه السياسة ذات النزعة الكاثوليكية، هو استسلام غرناطة آخر معاقل المسلمين بالأندلس للملكين الكاثوليكين في 2 ربيع الأول سنة 897 هـ، الموافق ل 3 يناير سنة 1492 م³. وبسقوطها أصبحت إسبانيا على مقربة من بلدان المغرب الإسلامي، حيث عملت على ملاحقة مسلمي الأندلس، الذين لجئوا إلى تلك البلدان، ثم بدأت في تنفيذ مشروعها التوسعي، الذي يهدف إلى احتلال المناطق الساحلية الإستراتيجية لبلدان المغرب الإسلامي⁴.

تقاسمت إسبانيا، و البرتغال مناطق النفوذ في سواحل المغرب الإسلامي بمباركة الكنيسة. حيث أخذت إسبانيا المغرب الأوسط، و الأدنى، أما البرتغال فالسواحل الأطلسية للمغرب الأقصى، و تم عقد معاهدة "توردسيلاس" في 7 جوان 1494 م، بعد تدخل البابا "ألكسندر السادس" "Alexandre" حيث حدد حجر باديس كفاصل بينهما تفاديا للصدام بين الدولتين⁵.

أرسلت الملكة "إيزابيلا" عدة بعثات تجسسية باتجاه الضفة الجنوبية لمعرفة أوضاعها، كان أهمها التي أرسلت إلى مملكة تلمسان و على رأسها "لورينثو دي باديا" "Lorenzo De Badia" في سنة 1493 م الذي تمكن من وضع تقرير عن المنطقة⁶. كما وظّف الكاردينال "أخسيمينيس" أحد التجار الإيطاليين واسمه "جيرومينو فيانيللي" Geromino Vianelli و الذي يعود له الفضل على الاسبان في توجيههم إلى مناطق إستراتيجية، كميناء المرسى الكبير، ومدينة وهران⁷. و في سنة 1494 م أرسل "فرديناند" جاسوسا آخر وهو "فيرناندو دي

¹ _محمد خير فارس: المرجع السابق، ص 14.

² _عبد الرحمان بن محمد الجيلالي: المرجع السابق، ص 97.

³ _ج . س. كولان : الأندلس، تر: إبراهيم خورشيد وآخرون، ط 1، دار الكتاب اللبناني المصري، مصر 1980، كتب دائرة المعارف الإسلامية 2، ص 139.

⁴ _شوقي عطا الله الجمل، المرجع السابق، ص 77، 78.

⁵ _شوقي عطا الله، الجمل، المرجع السابق، ص 78.

⁶ _جون ب. وولف : المرجع السابق، ص 53.

⁷ _عبد القادر فكاير : الصراع الجزائري الاسباني في الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرن 16م، رسالة ماجستير معهد التاريخ، جامعة الجزائر، الجزائر 2001/2000، ص 36.

زافيرا" Fernando De Zafira الذي استطلع الأوضاع في مملكتي فاس، وتلمسان¹. وقد كان هؤلاء الجواسيس يتنكّرون في زيّ التجار، بهدف الحصول على المعلومات التي يحتاجها الاسبان في غزو بلدان المغرب الإسلامي².

و في مطلع القرن 16م احتلّت إسبانيا موانئ هامة على سواحل المغرب الإسلامي، كالمرسى الكبير في سنة 911 هـ/1505م، ووهران في سنة 914هـ/1509م، بجاية في سنة 915هـ/1509م³. ثم طرابلس في سنة 916 هـ/1510م⁴. كما قام الاسبان بحملة لاحتلال جزيرة جربة في نفس السنة، لكنها فشلت بسبب المقاومة الشديدة للقبائل التونسية⁵.

أصبح "شارل الخامس" CHARLES QUINT " في سنة 1516 م ملكا لإسبانيا بعد وفاة جدّه "فرديناند" الكاثوليكي، ثم انتخب في سنة 1519 م على رأس الإمبراطورية المقدّسة. وقد تلقى تربية، وتعلّما دينيا، حتى قال المؤرخون عنه أنه ولد صليبا، كما ورث تقاليد أجداده الملوك الكاثوليك، فكانت إستراتيجيته تقوم على توحيد الدول المسيحية، وإعلان الحرب على المسلمين (العثمانيين)⁶. فقد عمل على توحيد المسيحيين لمجابهتهم، وأولى اهتماما كبيرا لصراعه ضدهم فقد كان "شارلكان"⁷ يرى أن الحرب ضد المسلمين واجب كل الدول الأوروبية المسيحية.

وفي سنة 1525 م هزم على يد الجيش الألماني في معركة بافيا "فرانسوا الأول" بإيطاليا، وأُخذ أسيرا إلى إسبانيا، وأرغمه "شارلكان" على توقيع معاهدة مدريد في سنة 1526 م، والتنازل عن ادعاءاته في نابولي، و ميلانو وجنوة. وبعد ذلك وطّد "شارلكان" علاقاته بجمهورية البندقية، التي تمتلك أسطولا بحريا قويا. كما تحالف مع "أندري دوريا" André Doria، الذي انتقل إلى خدمته في سنة 1528م، وبذلك التحالف

¹ _ Fernand Braudel: **Les Espagnoles et l'Afrique du Nord de 1492- 1577**, in **R..Af**, Alger 1928, T19, p217 .

² _ محمد خير فارس : المرجع السابق ، ص18.

³ _ الحسن بن محمد الوزان : **وصف أفريقيا** ، ترجمة : محمد حجي وآخرون، ط2، دار المغرب الإسلامي، بيروت 1983، ج2، ص30، ص30،

⁴ _ رأفت الشيخ : **تاريخ العرب الحديث** ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، مصر 1994 ، ص297 .

⁵ _ مارمول كاربخال : **إفريقيا**، تر: محمد حجي وآخرون ، ج3 ، دار نشر المعرفة ، الرباط 1988 ، ج2 ، ص109.

⁶ _ عبد الجليل التميمي: **الخلفية الدينية للصراع الاسباني- العثماني على الإيالات المغربية في القرن السادس عشر**، في م ت م ، جانفي 1978 ، تونس 1978 ، العدد 10-11 ، ص9 .

⁷ _ ولد شارل الخامس في سنة 1500م ، وهو ابن فيليب الجميل وماري المجنونة ، أجداده هم ماكسيمليان ملك النمسا ، وفرديناند وإيزابيلا، أصبح ملكا على إسبانيا سنة 1516م ، وانتخب إمبراطورا سنة 1519م ، توفي في سنة 1558م .

للتعرف أكثر على حياة شارلكان: Amedee Pichot : **CHARLES -QUINT, chronique de sa vie intérieure et sa vie politique**, FURNE et Ce libraries-éditeur, Paris 1854.

الاسباني الجنوبي ضمن لنفسه دعم؛ أكبر أسطول بحري إيطالي في غرب البحر المتوسط¹. كما تحالف "شارلكان" مع فرسان القديس "يوحنا"، ومنحهم جزيرة مالطة في سنة 1523 م، بعد أن طردهم العثمانيون من جزيرة رودس في سنة 1523 م²، ثم منحهم طرابلس في سنة 1530 م من أجل التعاون على محاربة المسلمين³، وفي سنة 1529 م توج شارلكان بالتاج الإمبراطوري على يد البابا "كليمانت السابع"⁴ "Clément".

رغم التتويج والدعم الديني المسيحي، الذي حظي به "شارلكان" من طرف الكنيسة الكاثوليكية، إلا أنه لسوء حظه كان معاصرا لشخصيات بارزة، خلال القرن 10 هـ/16 م، مثل السلطان العثماني "سليمان القانوني"، وملك فرنسا "فرانسوا الأول"، وملك إنجلترا "هنري الثامن"، وبيرباي الجزائر "خير الدين بربروس"، وقد شكّلت هذه الشخصيات خطرا كبيرا عليه، خاصة السلطان "سليمان القانوني"، و"خير الدين بربروس" فلذلك عمل على تسوية مشاكله الداخلية في أوروبا للتفرغ للعثمانيين. كما زادت متاعب إسبانيا بعد التحالف العثماني - الفرنسي، الذي كان له الأثر السلبي على السياسة الاسبانية في الحوض الغربي للمتوسط⁵.

لقد تعدّدت دوافع إسبانيا التوسّعية باتجاه بلدان الضفة الجنوبية، وساعدتها الأوضاع الدولية، التي ميّزت الحوض الغربي للمتوسط منذ نهاية القرن 15 م، سواء التطورات التي عرفتها أوروبا، أو التي عرفتها شمال أفريقيا. ورغم أن المؤرخين الأوروبيين يركّزون على الدوافع الدينية للمشاريع الاسبانية، و لكنّها ليست الوحيدة⁶. وعليه فإن

¹ _بحار جنوي ولد سنة 1466، كان منافسا لخير الدين، حارب الأسطول العثماني في حوض المتوسط، دخل في خدمة فرانسوا الأول، و في سنة 1528 م انتقل لخدمة شارلكان، توفي سنة 1560 م. أنظر إلى جون وولف: المرجع السابق، ص 41.

² _ محمد فريد بك الحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تح: إحسان حقي، ط6، دار النفائس، بيروت 1988، ص 203.

³ _ محمود علي عامر و محمد خير فارس: تاريخ المغرب العربي الحديث، منشورات جامعة دمشق، دمشق 2000/1999 ج2، ص 155.

⁴ _ عبد الحميد البطريق و عبد العزيز نوار: التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا، دار النهضة العربية، بيروت 1973، ص 77.

⁵ _ Elie de la Primaudie: Documents Inédits sur l'Histoire de l'Ocupation Espagne en Afrique (1506-1574), << Lettre du Comte d'Alcaudète à sa Majestè, Oran 12 aout 1536 >> in R. Af, Alger 1877, T 21, p204.

⁶ _ كورين شوفالييه: المرجع السابق، ص 19.

دوافع الحملات التوسعية الاسبانية عديدة ،ولكن الاسبان حصروها في الصبغة الدينية من أجل كسب التأييد الشعبي ،و الدعم المادي لتلك الحملات¹ ،و تتمثل الدوافع الحقيقية في :

كان للدوافع الدينية أهمية كبيرة ، فهي وليدة الصراع مع المسلمين خلال حرب الاسترداد ،و قد لعب الملوك الكاثوليك ،و رجال الدين الاسبان دورا هاما في إعداد الحملات الاسبانية ،وتوجيهها² فإسبانيا التي كسبت المعركة العسكرية ،و السياسية في غرناطة ،وجدت نفسها مجبرة على احتواء السواحل المغربية ؛مدفوعة بطابع استمرارية الحملة الصليبية على الإسلام³.

فقد أصدر البابا "ألكسندر السادس" "Alexandre" مراسيم بابوية سنتي 1493م و 1494 م، بحث فيها على الحرب الصليبية ضد إفريقيا الإسلامية ، وبيارك جهود ، الملوك الكاثوليك ،وطلب من جميع المسيحيين في أوروبا دفع ضريبة الصليب⁴ Crusada.و بموت "إيزابيلا" في سنة 1505م تعطل مشروع احتلال السواحل المغربية ، لكنها تركت وصية لورثتها من أجل مواصلة السيطرة على شمال أفريقيا من جبل طارق إلى طرابلس جاء فيها: ((أنه لا ينبغي وقف احتلال إفريقيا ، ولا إنهاء الصراع ضد الكفار (المسلمين) من أجل المسيحية))⁵.

وقد لعب الكاردينال "احسيمينس" "Ximènès"⁶، دورا بارزا في تنفيذ تلك الوصية ،كما ساهم في تنشيط محاكم التفتيش ضد مسلمي الأندلس ،وشارك مشاركة فعلية في إعداد الحملات على بلدان المغرب الإسلامي¹.

¹ _ يحي جلال : تاريخ المغرب الكبير ، 3 ج ، دار النهضة العربية ، بيروت 1981 ، ج3 ، ص 18 .

² _ محمد خير فارس: المرجع السابق ، ص 16 ، 17 .

³ _ عبد الجليل التميمي: الولايات العربية ومصادر وثائقها ، ط 1 ، مركز البحوث والدراسات عن الولايات العربية في العهد العثماني ، تونس 1984 ، ص73.

⁴ _ كروزادا cruzado ؛ ضريبة فرضتها الكنيسة الكاثوليكية على المسيحيين تعطى للحكام لإنفاقها في تدعيم الحروب الصليبية ضد المسلمين ، تتجدد كل خمس سنوات من طرف البابا . أنظر إلى عبد القادر فكايير: المرجع السابق ، ص 33 .

⁵ _ Grammont(H.D) : **Histoire D'Alger sous la domination turque** (1515-1830), Ernest Leroux Editeur , Paris 1887 , p 5 .

⁶ _ ولد الكاردينال في قشتالة في سنة 1436م ، أصبح مستشارا سياسيا لإيزابيلا ، وفي سنة 1505م عينه فرديناند مشرفا عاما عاما على محاكم التفتيش ، ولعب دورا بارزا في تنصير مسلمي الأندلس ، واحتلال سواحل المغرب الإسلامي توفي سنة 1517م .

للتعرف أكثر على شخصية الكاردينال انظر: CH.J.Hefele : **le Cardinale XIMENES et L'èglise d'Espagne**, traduit par : M.L'abbè A.sisson et M.L'abbè A.crambon, 2eme edition, J.B.pèlagaud Imprimeur-libraire, Paris 1860.

ومن المظاهر الواقعية للدافع الديني في توجيه السياسة الاسبانية لغزو السواحل المغربية، فعند احتلال المرسى الكبير في سنة 1505م، تحويل الكاردينال "احسيمينيس" المساجد إلى كنائس، و حمل الصليب، و إقامة الأفراح و الصلوات دامت ثمانية أيام². و عند احتلال طرابلس في سنة 1510م، تم تنظيم موكب ديني، وتم تبادل التهاني بين دوق البندقية، و ملك إسبانيا، ونائب الملك بصقلية، و المرشد الأكبر لفرسان القديس "يوحنا" بهذا النصر³.

أما الدوافع السياسية : كتحقيق سيادة الاسبان على الحوض الغربي للبحر المتوسط، و تزعم العالم المسيحي، و زيادة شعبيتهم، والتي لا تتم إلا باحتلال سواحل المغرب الإسلامي⁴.

أما بالنسبة لفرسان القديس يوحنا فتعتبر فرقة من أشد فرق المسيحيين عداءا للمسلمين أثناء الاحتلال الصليبي للقدس، و عندما فتح المسلمون مدينة القدس بعد معركة حطين، لجأت هذه الهيئة إلى مدينة عكا، و جعلتها مركزا لأعمالها في سنة 587هـ/1191م، و في سنة 690هـ/1291م استعاد المسلمون مدينة عكا آخر معقل للصليبيين في فلسطين فلجأت هيئة فرسان القديس يوحنا إلى ليماسول في قبرص، وظلت بها حتى سنة 710هـ/1310م، ثم انتقلت المنظمة إلى جزيرة رودس.

يعود تاريخ فرسان القديس يوحنا الأورشليمي إلى الحروب الصليبية، فقد تأسس نظام المنظمة ليخدم الخدمات الصحية للصليبيين في الأراضي المقدسة، و بمرور الزمن أصبح أعضاؤه فرسان محاربين. و لما حلّ القرن 09هـ / 15م تطوّروا إلى نظام من البحارة الصليبيين، و كوّنوا قاعدة حصينة في جزيرة رودس، بالإضافة إلى فروع أقاموها في فرنسا و بروفانس، إسبانيا، و إنجلترا، و إيطاليا، و ألمانيا، و كانت بعض هذه الفروع غنيّة جدا لأن النبلاء المسيحيين كانوا يتركون جزءا من أراضيهم لهؤلاء الرهبان. و بذلك أصبح فرسان القديس يوحنا يملكون، ويحتفظون بأملاك عريضة في أوربا الرومانية الكاثوليكية⁵. نتيجة لمثابرة فئة فرسان القديس يوحنا في مواصلة الحرب الصليبية ضد المسلمين، حظوا بتأييد وتشجيع من البابوية، و تمويل من معظم البلاد المسيحية، و نتيجة لاجتهادهم في التعرض لأساطيل الدولة العثمانية في البحر المتوسط، عمد العثمانيون إلى القضاء عليهم.

¹ _ للاطلاع على موضوع محاكم التفتيش ضد المورسكيين أنظر إلى كتاب: لوي كاردياك : المورسكيون الأندلسيون والمسيحيون، تعريب وتقديم : عبد الجليل التميمي، منشورات م ت م، تونس 1983

² _ Grammont(HD) : Op.cit, p 8

³ _ عبد الجليل التميمي : الخلفية الدينية للصراع الاسباني - العثماني، المرجع السابق، ص 9.

⁴ _ عمار بن خروف : العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن 10هـ/16م، المرجع السابق، ص 16.

⁵ _ جون .وولف : المرجع السابق، ص 77.

ففي 13 ربيع الأول سنة 885هـ/ 23 ماي 1480م حاصر العثمانيون الجزيرة، و بعد ثلاثة أشهر من الحصار فشل العثمانيون في اقتحام الجزيرة، و لكن السلطان العثماني سليمان القانوني استغل الظروف الملائمة بسبب انشغال ملوك أوربا بمشاكلهم الداخلية، فجهّز حملة بحرية محاصرة الجزيرة في 26 جوان 1522م¹، و قصفها بالمدفعية.

اضطر فرسان القديس يوحنا إلى الاستسلام، و سمح لهم السلطان العثماني "سليمان القانوني" بالخروج من الجزيرة و إخراجها، و منحهم حق الشرف الحربي. فتوجهت هذه الفئة في 13 صفر 929هـ أول جانفي 1523م إلى جزيرة مالطة، التي منحها لهم "شارلكان"²، وأصبحوا يعرفون بفرسان مالطة.

إنّ من أهم مشاغل السياسة الإسبانية هو مواجهة خطر توسع العثمانيين السريع، الذي بدأ يصل إلى الحوض الغربي للمتوسط، كما أن النزعة التفوقية الإسبانية، و انفرادها بالسيادة على المتوسط، كانت قد طبعت التحركات على الساحل المغربي، غير أن مشاكل أوربا، و انشغالها باكتشافات العالم الجديد، حال دون تأكيد هذه السيطرة بشكل دائم.

سياسة إسبانيا اتجاه بلاد المغرب الإسلامي لم تكن لها خطة استعمارية منظمة وواضحة، لأنّ حكوماتها كانت قد خططت لوضع سلسلة من الحاميات على الساحل دون التوغل في الداخل، فالاحتلال الإسباني ظل مرتبطا بتحسين القلاع التي يسيطر عليها مثل: وهران، المرسى الكبير، حلق الوادي، طرابلس رغم مدة الاحتلال الطويلة³.

أما الدوافع الاقتصادية فتتمثل في رغبة إسبانيا في إقامة إمبراطورية واسعة، خاصة بعد اكتشاف العالم الجديد، ودور ذهب، وفضة الأمريكيتين في الاقتصاد الإسباني، وتأمين تجارة التوابل، وحماية طرق مواصلاتهم مع جزيرة صقلية، التي كانت تزودهم بالحبوب، كما كانت إسبانيا ترغب في القضاء على النشاط البحري للمسلمين ومحاصرته⁴.

كانت إسبانيا تسعى إلى السيطرة على بلدان المغرب الإسلامي، لكونها بوابة رئيسية نحو الإمارات الإفريقية جنوب الصحراء. حيث كانت تمرّ عبرها كميات ضخمة من السلع⁵، فقد كانت إسبانيا ترغب في السيطرة على

¹ _ محمد فريد بك المحامي: المرجع السابق، ص 176، 206.

² _ علي محمد الصلابي: المرجع السابق، ص 185.

³ _ عبد الجليل التميمي: الولايات العربية ومصادر وثائقها، المرجع السابق، ص 74.

⁴ _ للإطلاع أكثر على موضوع الاكتشافات الجغرافية، أنظر إلى: إسماعيل العربي: تاريخ الرحلة والاستكشاف في البر والبحر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

⁵ _ الحسن الوزان: المرجع السابق، ج 2، ص 324.

على الطرق التجارية في إفريقيا، التي اشتهرت بتصدير بعض السلع إلى أوروبا، كالتبر، وريش النعام، و الجلود، وغيرها. كما أرادت إسبانيا السيطرة على المراكز التجارية، والمناطق التي تتميز بغنى إقليمها بالثروات الحيوانية، والمحاصيل الزراعية كعنابة، ووهران، واحتكار التجارة الخارجية للمنطقة¹.

أما الدوافع الإستراتيجية، فقد كانت سواحل بلاد المغرب الإسلامي ضرورية لكل اتصال بحري آمن بين سواحل إسبانيا، وسواحل إيطاليا الإسبانية، وكذا لنشاطها في حوض المتوسط، فقد كان البحارة المسلمون يهاجمون السفن التجارية، والموانئ الإسبانية انتقاما لإخوانهم الأندلسيين، الذين كانوا يزودونهم بالمعلومات اللازمة، وقد كانت هذه الهجمات تروغ سكان الموانئ الإسبانية²، فجاءت الشكاوي إلى الملوك الكاثوليك تدعوهم إلى وضع حد لهؤلاء القراصنة³.

وجدت إسبانيا في القرصنة المغربية حجة لتغذية النزعة الصليبية، و ذريعة لمحاربة المسلمين في عقر دارهم، وفي هذا الموضوع يقول بروديل : ((حقيقة لقد كان هؤلاء المطرودين يعدون من بين أكثر أعداء إسبانيا ضراوة، بسبب فقدانهم لدورهم، وأملأهم، وقد وجدوا تسهيلات من أبناء عموماتهم الذين بقوا في إسبانيا))⁴.

أما الدوافع العسكرية: فقد أرادت إسبانيا إقامة حاميات عسكرية لمراقبة سواحل المغرب الإسلامي، فاحتلت المرسى الكبير في سنة 1505م، وحجر باديس بالمغرب الأقصى في سنة 1508م، ثم مدينة وهران في سنة 1509م، ومدينتي بجاية، و طرابلس في سنة 1510م⁵.

ولاشك أن حالة الانقسام التي ميّزت بلدان المغرب الإسلامي ساعدت الاسبان على احتلال تلك السواحل الهامة، يضاف إلى هذا الوضع عنف الهجمات الإسبانية والمعاملة القاسية للسكان المحتلين، قد أحدث رجة من الرعب والفرع على طول الساحل المغربي، فأسرعت المدن التي لم تتعرض للقصف الاسباني إلى

¹ _عمار بن خروف: المرجع السابق، ص 16.

² _Grammont (H D) : **Histoire D'Alger sous la domination turque (1515-1830)**, Ernest Leroux Editeur, Paris, 1887, p 3,4.

³ _لتحديد مفهوم القرصنة ينظر إلى كتاب : Moulay Belhamissi : **Histoire de la marine Algerienne 1516-1830**, ENAL, Alger 1983, p144.

⁴ _صالح عباد: المرجع السابق، ص 21.

⁵ _ يحي بوعزيز: **علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا (1500-1830)**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1980، ص 12.

طلب الدخول في طاعة الاسبان ،لأن هدف السياسة الاسبانية هو وقف نشاط البحارة القراصنة بالدرجة الأولى¹.

ورغم ذلك ظلت إسبانيا محصورة في مناطق محصنة بسبب الحصار الذي فرضه عليها السكان المغاربة ،و اكتفت بسياسة الاحتلال المحدود ،خاصة بالمغرب الأوسط ،وهذا كان سببا في فشل مشروعها التوسعي الاستعماري².

دخلت الجزائر أواخر القرن 10 هـ/16 م مرحلة جديدة على مستوى نظامها السياسي عندما سنت نظام الباشاوات الثلاثين الذين يعينهم السلطان العثماني لمدة ثلاثة أعوام فقط، وقد دام من سنة 1587 م إلى سنة 1659 م. تميّزت هذه المرحلة باضطراب الأمور لأسباب عديدة منها:

- تنامي نفوذ ديوان الجند وطائفة الرّياس وميلها إلى التمرد على الباشاوات عندما تتعارض المصالح.
- نشوب حركات التمرد والعصيان من طرف الأهالي، خاصة في منطقة القبائل.
- استمرار التواجد الاسباني في وهران والمرسى الكبير وشنهم الغارات على المناطق المجاورة³.

الدارس لوضع العلاقات الجزائرية الاسبانية خلال القرن 11 هـ/17 م سيلاحظ أنّ الحروب التي طبعت علاقات البلدين في القرن المنصرم قد خفّت أوزارها وأصابها الركود و الفتور بسبب الظروف الداخلية و الخارجية لكل البلد ،فعلى مدى قرن كامل لم تشن اسبانيا سوى حملتين على الجزائر ،كانت أولهما في سنة 1009 هـ/1601 م والتي اشتركت فيها عمارة من سبعين سفينة وحوالي عشرة آلاف جندي من اسبانيا و جنوة وصقلية ونابولي تساندها قوّات "البابا"،فكانت حملة صليبية كبرى قادها الأميرال "جان أندري دوريا "حفيد "أندري دوريا "الأميرال المشهور وباءت بالفشل⁴.

أمّا الحملة الثانية فكانت مشتركة مع الانجليز والهولنديين استهدفت سواحل مدينة جيجل في سنة 1019 هـ/1619 م وعاث فيها خراباً ودماراً ،وإذا كان الفتور والركود هو ما ميّز الميدان العسكري بين البلدين خلال هذه المرحلة ،فإنّ الصراع أخذ شكلاً تمثّل في الحرب الشعواء على السفن التجارية في عرض البحر المتوسط من خلال عمليات القرصنة من كلا الطرفين ،فبالنسبة للجزائر شكّل القرن السابع عشر

¹ _جون ب. وولف : المرجع السابق ، ص 26 ، 27 .

² _محمد خير فارس : المرجع السابق ، ص 21 .

³ _عبد الرحمن الجليلي، المرجع سابق،ص 116-120.

⁴ _جون ب. وولف، المرجع سابق،ص 239.

الميلادي قرن القرصنة بحق حيث عرفت أزهى أيامه خاصة في النصف الأول منه ،وذلك بفضل ظهور مجموعة من الرّياس الذين طبّقت شهرتهم الآفاق مثل : "سليمان رياس"، "مراد رياس"، "علي بتشين" وغيرهم¹.

ظَلَّت قضيّة وهران والمرسى الكبير تشغل بال المسؤولين في الجزائر من باشاوات و بايات الذين لم يدّخروا جدّاً في سبيل تحرير المدينتين ،ففي سنة 1014 هـ/1604 م هاجم الجزائريون مدينة وهران لنجدة أهالي الناحية الغربية الذين كانوا يتعرّضون لغارات الاسبان ،ثمّ جدّدوا هجومهم عليها في 1085 هـ/1675 م عندما كانوا يتعقّبون حاكمها بعدما خرج يريد مهاجمة تلمسان ،فضرب الجزائريون على المدينة حصاراً وضيقوا عليها الخناق لكن أهم محاولة استهدفت استرداد المدينتين هي التي قام بها باي الغرب "شعبان الزنّاقى" في سنة 1098 هـ/1687 م في موقعة عُرفت بموقعة "كدية الخيار" والتي لقي فيها مصرعه عند أسوار وهران².

كذلك لا يمكننا إغفال دور الأسرى في مسيرة العلاقات الجزائرية الاسبانية من خلال بعض الحملات ولعل من أهمها:

حملة "جيو فاني دوريا" على مدينة الجزائر في سنة: 1010 هـ-1601 م:

عانت الجزائر في هذه الفترة من الفوضى و الاضطرابات الداخلية بفعل تمرد بعض القبائل على حكم العثمانيين في المنطقة، وقد لعب الاسبان في وهران دورا كبيرا في تحريض بعض هذه القبائل،وهنا استغل أحد البحارة الفرنسيين انشغال الإنكشارية باستخلاص الضرائب في المناطق الداخلية في البلاد، وخروج رياس البحر للقيام بنشاط القرصنة،و أجرى دراسة سرية على تحصينات المدينة و أعد بموجب ذلك خطة لدخول المدينة، ونظرا لقلة الإنكشارية في المدينة سيتمكن من السيطرة على القسم السفلي للمدينة، وتحرير الأسرى البالغ عددهم 25 ألف يقوم بتسليحهم و يرسل فرقة منهم إلى المخازن لإشعال النار فيها، وحالما تعم الفوضى أرجاء المدينة تقوم القوات الاسبانية بقصفها، ومع طلوع الشمس تكون المدينة قد خلت من جميع القوات³.

¹ _منور مروش،دراسات عن الجزائر في العهد العثماني (القرصنة-الأساطيل الواقع)، ج 2، المرجع سابق، ص ص 261-286.

² _ قتل أحد المغطسين من بني عامر،المتحالفين مع الاسبان ،و صلب على باب وهران محزوز الرأس دفن في مدينة الجزائر.أنظر: عودة المازري ،المرجع سابق،ص229-230.

³ _ عزيز سامح ألتر، المرجع سابق،ص312.

بعد دراسة المجلس الملكي لهذه الخطة وافق عليها واسند قيادتها لـ "جيوفاني دوريا" ابن أندري دوريا "الذي حاول مرارا تدمير مدينة الجزائر، ولكنه لم يفلح"¹. اختلق "جيوفاني" العديد من الأسباب للتهرب من تنفيذ هذا المشروع، وأخذ في إدخال التعديلات عليه حتى حولها إلى خطة هجومية وافقه عليها المجلس الملكي فأعد لذلك حملة سرية ضخمة شاركت فيها كل من القوات الاسبانية والسردينية، والصقلية²، والقوات الباباوية، وقوات جنوة، لكن الجزائريين اكتشفوا هذا المشروع وأخذوا الاحتياطات لصدّه كما صادف عودة الإنكشارية من جمع الضرائب كذلك صادفت هذه الفترة موسم العواصف كل هذه الصعوبات جعلت "جيوفاني" يعود بأسطوله من حيث أتى وفشلت الحملة³.

محمل القول أنّ العلاقات الجزائرية الاسبانية خلال القرن 11 هـ/17 م ظلّ يميّزها العداء والصراع بشكل عام وإن خفّ دويّ المعارك مقارنة بما كان عليه في القرن السابق، وبقيت قضيتة وهران والمرسى الكبير المحتلتين تشغل بال الحكام في الجزائر⁴ يمكن استخلاصها في مايلي:

- إن العلاقات بين إمبراطورية إسبانيا والدولة الجزائرية غلب عليها الصراع المتواصل ، والمستمر لأن الجزائر وقفت في وجه المشروع الاسباني الاستعماري ، الذي استفحل في مطلع القرن 16م ، و أراد احتلال كل الضفة الجنوبية للمتوسط ، بل السيطرة على حوض المتوسط بكامله .
- إن العلاقات بين الجزائر وإسبانيا ، هي جزء من العلاقات بين الإسلام والمسيحية في الفترة الحديثة ، أو بالأحرى هي مرحلة من مراحل الصراع الإسلامي المسيحي ،الذي قادته الإمبراطورية العثمانية حامية المسلمين ، والإمبراطورية الاسبانية ، المتحالفة مع الكنيسة الكاثوليكية.
- ظهرت الجزائر في المغرب الأوسط على أنقاض دولة كانت تعيش آخر أيامها ،في وضع يميّزه الضعف ،و التبعية للأسبان ، وأصبحت قوة بحرية لها مكانتها في حوض البحر المتوسط .
- حقّقت الجزائر انتصارات عظيمة في حوض المتوسط في مختلف المعارك ،التي جمعتها مع إسبانيا ،خاصة تلك الهزيمة التي بقيت تؤرق إسبانيا وكل أوربا لعدة قرون بعد الحملة الشهيرة لـ"شارلكان" على مدينة الجزائر في سنة 1541م .

¹ _ابراهيم سيعود، المرجع سابق،ص54.

² _ Grammont(H D):.Histoire d'Alger sous la domination Turque 1515-1830.e.E.le roux paris1887.p10-11.

³ _عزيز ألتر سامح، المرجع سابق، ص 313.

⁴ _جون.ب.وولف، المرجع سابق،ص329.

- لعبت البحرية الجزائرية دورا بارزا اعترف به المؤرخون الأوروبيون في البحر المتوسط ، وكانت بمثابة القاعدة، الأساسية للدولة العثمانية ، وللعالم الإسلامي أجمع في الحوض الغربي من المتوسط ، ولولاها لما تمكنت الدولة العثمانية من البقاء ووضع قواعد دائمة في منطقة المغرب الإسلامي .
- كما كان للبحرية الجزائرية دور هام في مقاومة الاحتلال الإسباني في منطقة المغرب الإسلامي ، وحماية دويلاته الضعيفة ، وتحرير موانئه التي كانت إسبانيا قد احتلتها. كما ساهمت في إلحاق بلاد المغرب الإسلامي بالدولة العثمانية ، وتخليصها من الأسبان .
- كما لعب البحارة الجزائريون دورا هاما في الصراع الإسلامي المسيحي بقيادة إسبانيا ، وبرزوا في مختلف مناطق المتوسط لمواجهة المشروع الاستعماري الإسباني العالمي ، خاصة إنقاذ مسلمي الأندلس ، حتى أن إسبانيا أصبحت تتخوف على نفسها ومصيرها بسبب قوة البحرية الجزائرية¹ .
- لجأت إسبانيا إلى كل الأساليب للقضاء على القوة الجزائرية المتنامية ، فلجأت إلى أسلوب المناورة ، وإلى الحملات الضخمة التي قادها أفضل البحارة الأسبان ، كما لجأت إلى التحالفات لتكسير شوكة البحرية الجزائرية ، لكنها كانت في كل مرة تفشل في خططها .

4- علاقتها مع الدويلات الإيطالية:

الحديث عن الدويلات الإيطالية ، وأهمها البندقية و جنوة ، فقد كانت حريصة على إقامة علاقات طيبة ، و سلمية ، و تجارية مع دول الضفة الجنوبية لحوض البحر المتوسط في كل من أفريقيا ، و آسيا متقدمة عامة عن إيطاليا في مطلع القرن 16 م / 10 هـ وتتنافس للفوز بالعلاقات الأقوى والأحسن مع هذه الأخيرة² .

يعود أول اتصال لجمهورية جنوة بالعثمانيين إلى فتح القسطنطينية في سنة 1453 م ، لأن جنوة كان لها منافع تجارية في المنطقة ، و أرسلت جنوة قوّة بحرية لمواجهة الحصار العثماني للقسطنطينية ، لكنها فشلت . وبعد فتح المدينة أنهى العثمانيون تجارة جنوة في البحر الأسود³ . وفي سنة 1475 م قرّر السلطان العثماني "محمد الثاني" فتح بلاد القرم ، و كان لجمهورية جنوة مستعمرة فيها ، وتم فتح جميع الأماكن التابعة لجنوة ، وصارت جزيرة القرم تابعة للعثمانيين .

¹ _ جون.ب. وولف، المرجع سابق، ص ص 329-330.

² _ رأفت الشيخ : المرجع السابق ، ص 18 .

³ _ محمود السيد الدغيم : أضواء على تاريخ البحرية العثمانية حتى نهاية عهد الخليفة سليم الثاني ، مقال في مجلة الحضارة الإسلامية وعالم البحار (بحوث ودراسات) ، منشورات اتحاد المؤرخين العرب ، القاهرة 1994 ، ص 387 .

و لذلك فإن جنوة مالت إلى التعاون مع الاسبان ضد العثمانيين .و أصبحت حليفا قويا لهم في مطلع القرن 16م ،و تجسد ذلك من خلال انتقال أندري دوريا بأسطوله البحري إلى خدمة "شارلكان" في سنة 1528م، بعدما كان حليفا لملك فرنسا "فرانسوا الأول" .

أما جمهورية البندقية التي كانت تملك أسطولا بحريا قويا ،فقد قاد ضدها السلطان العثماني "محمد الفاتح" حملة عسكرية في سنة 1470م ،التي انتهت بانتصار العثمانيين ،و في 5 من ذي العقدة 883هـ/ 28 يناير 1479م تم توقيع الصلح بين الطرفين .و كانت هذه أول خطوة خطتها الدولة العثمانية للتدخل في شؤون أوربا ،إذ كانت جمهورية البندقية أهم دول أوربا لاسيما في التجارة البحرية¹. كما وقعت البندقية عدة معاهدات مع الدولة العثمانية لتأمين تجارتها في شرق المتوسط منها معاهدة 1502 م ،و اتفاقية التجارة في سنة 928هـ/ 1521 م.

و قد تعرّضت تجارة البندقية إلى تهديد العثمانيين في سنة 1538م ،و رغم وجود حزب قوي في البندقية يدعو إلى السلام مع الأتراك ،فإن البابا "بول الثالث" قد نجح بحلول فبراير من سنة 1538م في جعل البندقية ،وإسبانيا تعقدان حلفا مع البابوية ضد العثمانيين ،و هكذا فإنّ القوة العثمانية أدّت إلى إنشاء جمعية مقدّسة ،لكن هذه الجمعية سرعان ما فشلت² ،فاضطّرت جمهورية البندقية إلى توقيع صلح مع العثمانيين في سنة 947هـ/ 1540م التي تخلّت عن آخر أملاكها في شبه جزيرة المورة ،و اعترفت بفتوحات "خير الدين" في بحر إيجه ،و وافقت على دفع غرامة ضخمة مقابل اعتراف العثمانيين باستمرار حكمها في جزيرتي كريت و قبرص ،و عودة الامتيازات التجارية ،التي كانت تتمتع بها في الدولة العثمانية ،و هكذا انهارت السيادة البحرية ،التي تمتعت بها البندقية³. أمّا بقية المدن الإيطالية مثل :فلورنسا ،و نابولي ،و بقية الجزر فقد كانت خاضعة للسيطرة الاسبانية .

اشتركت أغلب الدويلات الإيطالية في الحملات العسكرية التي وجهتها إسبانيا ضد مدينة الجزائر لتحطيمها والاستيلاء مثل حملة "أندري دوريا" على شرشال في سنة 1535 بالإضافة إلى الحملات التي شنتها بعض الدويلات الإيطالية على مدينة الجزائر من دون أن تكون قد تحالفت مع الاسبان.

أهم هذه الحملات نجد:

حملة "دوق توسكانيا" على مدينة الجزائر سنة 1012هـ-1603م:

¹ _محمد فريد بك المحامي: المرجع السابق ، ص 175 .

² _جون ب. وولف : المرجع السابق ، ص 53 .

³ _إسماعيل أحمد ياغي: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ، ط2 ، مكتبة العبيكان ، السعودية 1988 ، ص 70.

حالما استلم "خضر باشا" الحكم للمرة الثالثة دفع البحارة للقيام بنشاطاتهم في المتوسط فأخذ هؤلاء في الاستيلاء على السفن الأوروبية واستولوا على مبلغ 6 آلاف سكين، كان دوق توسكانيا الكبير قد أرسلها إلى التجار الفرنسيين لتعويض بعض الخسائر التي كانت تجارتهم قد تعرضت لها، وفي نفس الوقت كان "خضر باشا" قد أساء معاملته "دي فياس" و أرسل بعض القوات إلى الباستيون، و هنا عين السلطان العثماني "محمد قوصا" حاكما على مدينة الجزائر بدلا عن "خضر باشا".

جهز دوق توسكانيا جراء ذلك حملة و عزم على إحراق ميناء الجزائر و السفن الراسية فيه و لكن الرياس اكتشفوا هذا المخطط بمساعدة من بعض يهود توسكانيا الذين كانوا في تجارة مع الرياس (تجارة الغنائم) ولذلك احتاط البحارة الجزائريون و لم يتمكن فرسان القديس "إيتيان" من إحراق سوى أربع أو خمس غاليرات¹.

5- علاقتها مع الأقاليم المتحدة:

أما الأقاليم المتحدة فكانت في حالة حرب مع الجزائر منذ حملة الأميرال "دي رويتر" في 1655 م، وخلال الفترة (1656-1661 م) تمكن الرياس من مطاردة و أسر خمسة و ثلاثين سفينة تجارية هولندية، لكنهم تكبدوا أيضا من جهتهم خسائر ليست بقليلة، ففي 1660 م، فقد الجزائريون في مضيق جبل طارق ثلاث سفن كبيرة كان على متنها نحو 900 رجل، ضُبطوا من طرف قائد العمارة "يان فان كامين" (Jan van cam pen)².

الفصل الثاني: مرحلة الأغوات (1069-1081 هـ/1659-1671 م):

1: مميزات فترة الأغوات على المستوى الداخلي

أواخر عهد الباشا "إبراهيم" (1656-1659 م) قامت ضده ثورة عارمة تزعمها رياس البحر من جهة و الجنود الإنكشاريون من جهة ثانية، أما الرياس فقد ثاروا بسبب قيام الباشا "إبراهيم" بجرمانهم من المبالغ المالية التي خصصها لهم الباب العالي تعويضاً عن خسائرهم في الأدرياتكي وقيامه بدفعها كرشاوي لرجال الدولة في القسطنطينية حتى يبقوه في منصبه، ومن أجل ذلك هاجم الرياس قصره واعتقلوه و أودعوه السجن، وأما الجنود الإنكشاريون فكانوا باستمرار يحاولون اغتنام الفرص للاستيلاء على الحكم فوجدوا في هذا الحادث فرصة لهم و قاموا بانقلاب مفاجئ وقضوا على سلطة الباشا³.

كذلك من أسباب تغيير النظام حادثة مدير المحارس والمراكز الفرنسية بالقالة تعد من الأسباب والبواعث القوية الذي نتج عنه هذا الانقلاب في الحكم فتغير الوضع بحيث نهض الأهالي بقيادة رؤساء البحر وأعضاء

¹ _عثمان العكاك، المرجع سابق، ص 287.

² _محرز أمين، المرجع سابق، ص 61.

³ _جمال الدين سهيل، المرجع سابق، ص 39.

الديوان ضد الحكم القائم على عهد الباشاوات، فأجهزوا على هذا المنصب وانتزعوا السلطة العملية من يد صاحبها الباشا، واستبدلوه بمنصب الأغا وإسناد حكم البلاد عليه وأصبح لقب "الباشا" يومئذ مجرد لقب فخري وتشريف للحاكم وتفخيم لسلطانه¹.

قرّر الأوجاق الاستيلاء على الحكم حيث ثاروا ضدّ الباشا "إبراهيم" متّهمين إيّاه بنهب المعاشات والضرائب فجرّدوه من سلطاته، وأخذ الأغوات منذ سنة 1659م يمارسون السلطة التنفيذية لكن تجريد الباشا من سلطاته لم تتم دفعة واحدة حيث بقي يحتفظ بصلاحيات رئاسته الحكومية غير أنّ الأغا "الحاج علي" الذي انتصب في سنة 1665م جرّد الباشا من جميع صلاحياته ولم ينجح هو من بطش الأوجاق فاغتالوه².

يعتبر هذا العهد من أقصر العهود وذلك نظراً لإقدام قادة الجيش البري (اليولداش) على خلع الباشا وتعويض هذا القائد بقائد آخر من فئتهم أطلق عليه اسم "الأغا"، على ألاّ تزيد مدّة حكمه عن شهرين فقط، ليأتي بعده أغا آخر وجعل السلطة التشريعية في يد مجلس الديوان (الأوجاق) وأرغم السلطان على قبول هذا مكرهاً ولكنّه اشترط أن يتولى الديوان دفع رواتب الجند التركي، وبذلك بدأ عهد الأغوات ولأوّل مرة تصبح طائفة الرياس في مركز ثانوي بالنسبة لشؤون الحكم.

حمل هذا النظام منذ البداية في طياته بوادر الانحلال والتفكك والفوضى، فتولية الأغا لمدّة شهرين ثمّ عزله والإتيان بآخر لا يساعد على الاستقرار أبداً، كما أنّ الأغوات أصبحوا يرفضون التخلّي عن مناصبهم عندما تنتهي مدّة حكم كلّ منهم ويؤدّي ذلك إلى قيام خصومات واضطرابات ومؤامرات وإلى استعمال القوّة ممّا جعل معظم أغوات هذا العهد يموتون موتة غير طبيعية بالاغتيال والقتل والبعض منهم يُعزلون بالقوّة³.

الحقيقة أنّ هذا الانقلاب قد جاء بمثابة انقلاب على "الباشا" المعيّن من طرف الإمبراطورية العثمانية والمدعو من طرف فئة "الريّاس"، ولكي لا يستأثر "الأغا" بالسلطة فقد تقرّر أن يكون الحكم ديمقراطياً، أي يستعين الحاكم بالديوان العالي الذي كان يضم في البداية أعضاء الفرق العسكرية البريّة، ثمّ توسّعت العضوية فيه بحيث أصبح يضمّ ممثلين عن فئة "الريّاس" وبعض كبار الموظفين ومفتي الجزائر، وتماشياً مع هذه الخطّة فإنّ الجيش البري هو الذي أصبح يعين "الأغا" حاكماً للجزائر يترقى بعدها إلى رتبة "أغا شرف" ويحلّ محله "أغا" آخر. وهكذا استفحل الصراع بين الأغوات من جهة والريّاس من جهة أخرى⁴.

¹ _عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، المرجع السابق، ص 159.

² _عائشة غطاس، العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السابع عشر 1619-1694 م، المرجع سابق، ص 26.

³ _جمال الدين سهيل، المرجع سابق، ص 40.

⁴ _عمار بوحوش، المرجع سابق، ص 59.

كما أنهم حدّدوا من سطوته و نفوذه و حصروا سلطته في تنفيذ مقررات الديوان و مجلس الحكومة ليس غير، و ذلك يشبه نظام مجالس الحكم الجمهوري، أو هو على غرار ما تفعله اليوم أحزاب الحكومات الاشتراكية في تعيينها لرؤساء دولها على سبيل التقريب من غير أن يكون للشعب أي دخل في ذلك غير انتخابه، لمرشح الحزب و الهتاف له، ويُذكر أن الباشا السابق "إبراهيم" لم يرض بهذا النظام الجديد و أظهر اعتراضه بالرفض جهره، فنقم عليه الديوان، وألقاه في السجن فأجتهده الباشا في طلب العفو و انفق في سبيل عودته إلى الحكم ما يُقدَّر ب 200 ألف ريال و لم يحصل على طائل¹.

أمّا جنود الإنكشارية فكانوا باستمرار يحاولون اغتنام الفرصة للاستيلاء على الحكم، فوجدوا في هذا الحادث فرصة للانقلاب على طائفة الرياس فقصوا على سلطة الباشا الذي أصبح منصبه شرفياً فقط، واتفقوا على إسناد السلطة التنفيذية للأغا، على ألا تزيد مدّة حكمه عن شهرين أو قمرين، ويكون اختياره بالأقدمية من بين ضباط الإنكشارية، كما ساندوا السلطة التشريعية لمجلس الديوان (الأوجاق) (هو اسم يطلق على المؤسسة العسكرية للجيش الإنكشاري)².

لأوّل مرّة تصبح طائفة الرّياس في مركز ثانوي بالنسبة لشؤون الحكم، ومنذ البداية كان هذا النظام يحمل في طيّاته بوادر الانحلال والتفكك والفوضى لأنّه وضع الاغتيال كقاعدة أساسية لكي يحلّ أغا جديد محل أغا قديم رفض التخلّي عن السلطة وانتهت مدته الأمر الذي جعل معظم أغوات هذا العهد يموتون موتة غير طبيعية بالاغتيال والقتل³. تمكّن قادة الجيش من الاستيلاء على الحكم تدريجياً عن طريق مجلس الوجاق الذي يرأسه عادة أحد الأغوات ويعتبر نظام الأغوات محاولة لإيجاد نوع من التوازن والديمقراطية داخل مختلف أجنحة المؤسسة العسكرية المسيطرة على السلطة.

يعتبر هذا العهد عهد تسلّط الجيش على الحكم، ويمثل أحلك فترة في تاريخ الحكم العثماني في الجزائر، ويعود السبب في قيام حكم الأغوات إلى سياسة الباشاوات المالية فقد اتّهم الجند "إبراهيم باشا" بنهب المعاشات والضرائب، وكان السبب المباشر في تجريد الباشا من سلطاته هو محاولته أن يستوفي العشر من المنح التي كان السلطان يرسلها لمساعدة الأسطول الجزائري، ممّا أثار رد فعل شديد دفع الديوان إلى اتّخاذ قرار بإلغاء امتيازات الباشا وهي: دفع المعاشات تعيين القوّاد، ممارسة القضاء على أهل البلاد.

لم يترك للباشا سوى اللقب الشرفي، وأخذ الأغوات منذ 1659م يمارسون السلطة التنفيذية. ومن الغريب أنّ هذه الثورة التي قامت للدفاع عن حقوق الطائفة انتهت لصالح الجند حتى سنة 1671 م وكان نظام الأغوات

¹ _ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، المرجع سابق، ص 160.

² _ محمد خير فارس، المرجع السابق، ص 70.

³ _ جمال الدين شهيل، المرجع سابق، ص 146.

ينطوي على نقاط ضعف كثيرة، فقد كان الجند ينتخبون كل شهرين "أغا" جديداً بحسب الأقدمية، فإذا رغب في الاحتفاظ بالسلطة تعرض لثورة الجند والقتل، وأصبح القتل الإجراء الوحيد لتبديل الأغوات³. تلا مقتل "علي أغا" انتشار الفوضى الكاملة في الجزائر، فخلال ثلاثة أيام عيّن الجند خمسة أو ستة أغوات ولكن هؤلاء امتنعوا عن قبول هذا المنصب الخطير¹. أما فيما يخص أهم أحداث هذا العهد، فشل الأغوات في فرض نفوذهم على السلطة الأمر الذي شجع طائفة رياس البحر لاستعادة مكانتهم، وحفز الغزو الأوروبي للبلاد فشبت عدة ثورات ضدهم في جهات كثيرة مثل: العاصمة، وبلاد القبائل عام 1668م نالت من هيبته وجعلتهم عاجزين على القبض بزمام الأمور.

تميّز هذا العهد كذلك بمواصلة القراصنة الفرنسيون اعتداءاتهم على السفن، والمراكب البحرية والشواطئ الجزائرية، واشتدت حالة الحروب بين البلدين، ودخل في حلبة الصراع ضدّ الجزائر كل من الإنجليز والهولنديين والاسبان، وكاد الأمر يتحوّل إلى تحالف أوروبي ضدّ الجزائر². أما أهم الأحداث التي ميزت هذا العهد على الصعيد الداخلي لم يستطع الأغوات أن يركّزوا سلطتهم ويفرضوا نفوذهم على الأوضاع بسبب التناقضات التي تتخلّل نظامهم، و اشتداد الغزو الأوروبي للبلاد و تحفّز طائفة الرّياس باستمرار لاستعادة السلطة منهم، و تصارعهم فيما بينهم على السلطة، ومن أجل ذلك شبتّ عدة ثورات ضدهم في جهات كثيرة و خاصة حول العاصمة وبلاد القبائل عام 1668 م نالت من هيبته وجعلتهم عاجزين على القبض بزمام الأمور و ضبط النظام بأيدي قويّة³.

عقب اغتيال الأغا "الحاج علي" (1665-1671 م) تعرّضت البلاد لاضطرابات خطيرة جعلت الإنكشارية تلجأ من جديد إلى طائفة الرّياس، ووقع اختيارها على أحد الرّياس يدعى "تركي ريس" ومنحته لقب "الداي" بمعنى "الحامي"². لكن هذه التطوّرات لم تحل دون الباب العالي في الاستمرار في تعيين الولاة، الذين ظلّوا يعرفون بالبashaوات غير أنّه ابتداء من هذا التاريخ 1671م أضحي وجودهم صوريّاً، وأصبحت سلطتهم لا تتعدى حق حضور جلسات الدواوين الكبير³.

¹ _حنيفي هلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، المرجع سابق، ص 134.

² _نفسه، ص 135.

⁴ _يحي بوعزيز، موجز تاريخ الجزائر الحديث، البصائر للنشر والتوزيع، طبعة خاصة، الجزائر، 2009، ص 123.

³ _الديوان الكبير: هذا الديوان الذي هو امتداد لمجلس أعيان مدينة الجزائر، كان يتألف من حوالي 700 عضواً يجتمع أربع مرّات في الأسبوع، كانت الاجتماعات تتمّ في قاعة غاية في الجمال يطلق عليها "قاعة المرايا". أنظر: حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 127.

والصغير¹. أواخر عهد الأغا "علي" (1665-1671 م) الذي امتدّ حكمه بضعة سنوات، انقضّ عليه الرّياس و قتلوه ولم يستطع أحد أن يخلفه في الحكم لخوفهم من عاقبة الاغتيال التي أصبحت عادة ضدّ كل أغا، فاجتمع ديوان الأوجاق و درس الوضع و قرّر في النهاية، و إلغاء نظام الأغوات².

2: مميزات فترة الأغوات على المستوى الخارجي:

أهم الأحداث على الصعيد الخارجي حاول ديوان الأوجاق أن يحسّن علاقته مع فرنسا ولكنّها أعرضت عن ذلك وواصل القراصنة الفرنسيين اعتدائهم على السفن والمراكب الجزائرية في البحر، وعلى الشواطئ الجزائرية نفسها.

اشتدّت حالة الحروب البحرية بين البلدين و عادت بالأضرار على التجارة الفرنسية و على الأوضاع الداخلية بالجزائر فدخل حلبة الصراع ضدّ الجزائر إلى جانب الفرنسيين كل من قراصنة الإنجليز والاسبان والهولنديين وكاد الأمر أن يتحوّل إلى تحالف أوروبي ضدّ الجزائر لولا أنّ السلطات الجزائرية كانت حاذقة و اتّبعت طريقة مخالفة البعض ومعاداة الآخر على التوالي تجنّباً لقيام جبهة أوروبية ضدها فصاحت الهولنديين سنة 1663م لتتفرّغ لمحاربة الفرنسيين، و صالحت فرنسا لتحارب الإنجليز و الهولنديين، و صالحت عام 1671م الإنجليز لتعود إلى الحرب ضدّ فرنسا و هكذا⁴.

كان "لويس الرابع عشر" (1643-1715 م) شديد الحقد على الإسلام والمسلمين و في نفس الوقت كانت لديه أطماع استعمارية، كما أنّ وزيره "كولبير" كان شديد الاهتمام بإحياء التجارة الفرنسية بالشرق و تأسيس إمبراطورية استعمارية فرنسية فيما وراء البحار ولما كان ذلك لا يأتي ولا يتحقّق مادامت بحرية الجزائر القويّة صاحبة السلطة والنفوذ الواسع في البحر المتوسط الغربي، فقد جرى الاهتمام بوضع الخطط لتحطيمها والعمل على احتلال الجزائر نفسها وتمّ إرسال بعض الجواسيس إليها منذ عام 1658 م لدراسة أوضاعها و اختيار المكان المناسب لاحتلالها، فاقترحوا على "كولبير" عام 1662م احتلال الثّل و جيغل فحشد قوّات كبيرة ووجهها لاحتلال الثّل في ربيع عام 1663م فتعرّضت لفشل ذريع هناك³. تعرّضت هذه القوات لهزيمة ساحقة أمام مدينة الجزائر عندما اتّجهت إليها في نفس العام، وفي جويلية 1664م وجه "لويس الرابع عشر" حملة عسكرية أخرى ضدّ جيغل احتلّها قرابة ثلاثة شهور ثمّ طردها الأهالي بعد أن كبّدها خسائر جسيمة، واضطّرت فرنسا

¹ _ الديوان الصغير: يجتمع هذا الديوان برئاسة الباشا لمناقشة الأمور المعروضة عليه من قبل السلطة التنفيذية، كان عدد أعضائه 24 عضواً. أنظر: وليام سبنسر، المرجع السابق، ص 64-66.

² _ جمال الدين سُهيل، المرجع سابق، ص 40-43.

⁴ _ يحيى بوعزيز، المرجع السابق، ص 124.

³ _ يحيى بوعزيز، المرجع السابق، ص 43.

إلى مفاوضة الجزائر وإمضاء اتفاقية 7 ماي 1666م التي نصّت على تطبيق اتفاقية 1628 م، وإطلاق الأسرى من الجانبين ومسالمة سفن في البحار، وبعد إبرام المعاهدة حصل هدوء نسبي بين البلدين لتدخل قوات أخرى في الصراع¹. كما لعب الأسرى الأوروبيين في العلاقات الجزائرية الفرنسية ويظهر ذلك من خلال بعض الحملات والتي من أهمها:

— حملة الدوق "دي بوفور" على جيجل في 1664 م:

لقد كان احتلال فرنسا في سنة 1246 هـ-1830 م للجزائر خاتمة محاولات عديدة قامت بها لهذا الغرض، وكان من أهمها احتلال جيجل في سنة 1075 هـ-1664 م عندما اعتزم الفرنسيون القيام بحملة ضد مدينة جيجل سنة 1664 م، كلف الكاردينال "مازاران"² الفارس "كليرفيل" في سنة 1061 هـ-1658 م بالتعرف على الساحل الجزائري في سرية تامة فاختر ثلاث مناطق: عنابة سطورا و كولوا، وفي نفس الوقت سمح الملك للكوموندان "بول" بتجهيز قواته للهجوم على مدينة الجزائر على غفلة من أهلها و كان هذا الفارس على رأس القيادة العامة و يقود إحدى سفن مالطا، ونظرا لأنه كان متحمسا للقيام بالمشاريع الكبرى و محبا للمكافآت فقد شرع في تجهيز الجيش في طولون³.

اقترح القديس "فانسان دي بول" مكافأة قدرها 20 ألف ريال في هذا الوقت الذي اقترح فيه مدينة مرسيليا تأمين المؤن و العتاد و لكن الكوموندان الذي لم يكن يمتلك النقود، رغب في الحصول على المال مسبقا غير أن ذلك لم يتحقق، وقد كثف فرسان مالطا هجماتهم على السفن التجارية بالقرب من السواحل الاسبانية و الفرنسية فأصبحت السفن الجزائرية لا تخرج منفردة كما عُنّف الديوان القنصل الفرنسي "باروا" و ليس من المستبعد أن يكون "لويس الثالث عشر" الذي قد خرج إلى طولون هو من كان وراء تحريض فرسان مالطا على الهجوم على السفن الجزائرية و يرجع بعض المؤرخين أسباب هذه الحملة إلى الانتقام من الجزائر لتزايد نشاط قراصنتها، إذ في الفترة الممتدة من 1070 هـ أكتوبر 1660 م إلى غاية شعبان 1071 هـ أبريل 1661 م، استولى الجزائريون على حوالي ثلاثين سفينة، وأسروهم لحوالي 500 أسير، لقد خلفت هذه الحملة وفاة 500 شخص و تهدم خمسين بناية غير أن "لويس الرابع عشر" و "كولبير" لم يكونا راضيين عن النتائج خصوصا و أن مدافعهما لم تؤدِ الغرض المطلوب، وأمر بإعطاء عناية أكبر للمحاولة السنة المقبلة، أما "دوكين" فقد منحه الملك لقب "ماركيز" و هبة مالية

¹ — حنفي هلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، المرجع سابق، ص 138.

² — مازاران: ولد في بيسينا في فرنسا 1602م، ذو أصول إيطالية في بداية أمره كان قائدا للجيش البابوي، ثم انتقل إلى فرنسا و حصل على الجنسية الفرنسية في سنة 1639م. أنظر: عائشة غطاس، العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السابع عشر 1619-1694 م، المرجع سابق، ص 73.

³ — Ernest Watbled, "Expédition du Duc De Beaufort contre Djidjeli en 1664", in R.Af, Alger, 1873, Vol 17, p218.

مقدرة بألف فرنك نظيرا لخدماته التي قدمها و المتمثلة في إحراق جزء من أسطول الجزائر و عدد من سفن بحارة طرابلس في الميناء¹.

لم يتعظ الإنجليز بما لحق بفرنسا من خسائر في تجارتها وتجربتها فأخذوا يهاجمون الجزائر منذ عام 1669م ويعتدون على مراكب الجزائر في عرض البحر و أحدثوا تخريباً في مدينة بجاية عام 1671 م، و بالجزائر العاصمة كذلك وأدى إلى ظهور تدمر شعبي في البلاد ضدّ ضعف حكم الأغوات تحوّل بسرعة إلى ثورة عارمة انتهت بمقتل على أغا و إنهاء عهد الأغوات نفسه.

باختصار فإنّ هذه الفترة القصيرة من نظام حكم الأغوات في الجزائر قد تميّزت بمايلي:

- اضمحلال نفوذ السلطان العثماني وغياب السيادة العثمانية في الجزائر.
- استفحال الصراعات المحليّة سواء بين ضباط الجيش البري أو ضباط الجيش البحري، وتدمير أبناء المجتمع من الفساد السياسي وانتشار الفوضى في البلاد.
- نجح "اليولداش" في قلب نظام الحكم والانفصال عن العثمانيين والحدّ من سلطة الرّياس لكنّهم فشلوا في إنشاء نظام سياسي ديمقراطي ناجح.
- كان الانقلاب على الباشاوات عبارة عن انتقام من طائفة أو فئة الرّياس التي كانت كلمتهم مسموعة في عهد الباشاوات².
- لم يمض غير قليل حتى تبين للناس أن التغيير الجديد الواقع في رئاسة الحكومة الجزائرية و استبدال منصب الباشا بالأغا قد زاد حال الوضع خطورة حيث اختل الأمن و عمت الفوضى فضربت أطناًها في البلاد و اقتتل الأغوات فيما بينهم للوصول إلى مركز الرئاسة و كثرت الاغتيالات حتى أنه اغتيل كل من الأغوات الستة الذين تولوا الحكم في هذا الدور (1070-1082 هـ/1659-1671 م)، و إزاء كل هذا الصراع الحاصل بين الأغوات و الوجاقات عمل جنود البحرية و طوائفهم على التخلص من سلطة الأغوات و يستأثروا وحدهم بالسلطة فقتلوا الأغا "الحاج علي" وهو آخرهم و انتدبوا مكانه أحد الرّياس من قادة البحر المسمى "الحاج علي تريكي" و تلقب بالداي، ومن ذلك الحين أصبحت السلطة الجزائرية بيد حكومة الدايات³.

¹ _ محمد خير فارس، المرجع سابق، ص 127-128.

² _ عمار بوحوش، المرجع سابق، ص 59-60.

³ _ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، المرجع سابق، ص 168.

الفصل الثالث: مرحلة الدايات (1671-1700م):

1: مميزات فترة الدايات على المستوى الداخلي:

إلغاء نظام الأغوية وتغيير نظام حكومة الأغوات و الباشاوات قبلهم و إحداث هذا النظام الجديد "نظام الدايات" هو ما أحقق بمنصب الأعما من الخطر المرعب-خطر الاغتيال والقتل المتتابع في الولاية- كما ألمعنا إلى ذلك فيما قبل فكان ذلك هذا هو الدور الأخير الذي لعبته الحكومة العثمانية بالجزائر وهو أطول وأمد أدوار العهد العثماني بهذه الأرض فلقد استمر عصر الدايات هذا من سنة (1082-1246 هـ) (1672-1830 م) وكان من أهم البواعث وأدعى الدواعي التي دعت إلى تباعد الناس عن هذا المنصب.

أمّا لقب "الداي"¹ فهو لا يكاد يلفظ في الجزائر وإنما يستعمله الأجانب، والمرجح أنه كان في مبدأ الأمر مجرد كنية حيث أنّ معناها باللغة التركية: "الخال"، ودايات الجزائر يملكون ويمارسون جميع سلطات السيادة عقب انتخابهم مباشرة. وتنصيب الداي رسمياً لا يقع إلا بعد وصول تأكيد السلطان لانتخابه، ووصول القفطان التقليدي وسيف الدولة، والقفطان والسيف يرسلان عادة بأسرع ما يمكن بواسطة مبعوث الدولة².

عرفت المراحل الثلاث الأولى العديد من التطورات في التنظيمات الإدارية وكانت مرحلة الدايات آخر تطوّر طبيعي لهذه التنظيمات³. لقد اعتمد رياس البحر على الأعيان وبعض أعضاء الديوان في تغيير حكم الأغوات وتأسيس نظام الدايات القائم على انتخاب ومبايعة الحكام الذي يمارس مهامه في مدة غير محدّدة.

كانت تلك المرحلة الانتقالية بداية لوضع الدعائم السياسية القائمة على حرية اختيار شكل الحكومة بإشراك ديوان أوجاق الإنكشارية ومهندسة النظم المهيكله لدواليب الاقتصاد عامة ومتطلبات الجيش، ونظرا لتطوّر الانشغالات السياسية والعسكرية للسلطة وزيادة النفقات العامة المدنية والعسكرية في عهد "محمد بقطاش باشا" (1707-1710 م)، وبذلك أصبح نظام الحكم بالايالة نظاما مدنيّاً وعسكريّاً بمعالم جمهوريّة.

استفاد حكام الجزائر من تجارب الحكم السابقة في هذا البلد بحيث حاولوا ترضية السلطان العثماني وتقوية مركز حكم "الداي" وذلك عن طريق تعيينه في منصبه مدى الحياة، بناء على اقتراح من الديوان العالي وتعيين رسمي

¹ _الداي "Day" بالتركية: أي الخال، كان لقباً يطلق في الأصل على أحد قادة الإنكشارية العثمانيين، ثم صار أيضاً أحد مراتب السلطة في الإمبراطورية العثمانية منذ عام 1671م خاصة في تونس والجزائر وطرابلس الغرب، كان الداي يُنتخب لفترة مدى الحياة من طرف أعضاء هيئة مكوّنة من قادة عسكريين ودينيين ومدنيين. أنظر: أمين المعلوف، المقال السابق، ص483.

² _وليام شالر، المرجع سابق، ص41.

³ _حمزة منير وآخرون، المرجع سابق، ص 09.

من طرف السلطان العثماني، وبكلمة مختصرة فإن الجزائر قد أصبحت دولة مستقلة عن الباب العالي وخاصة أنّ الداى أصبح ينتخب من طرف الديوان العالي (المجلس) الذي صار بمثابة برلمان في عصرنا، والسلطان العثماني لا يلعب أي دور في اختيار داي الجزائر وينحصر دوره في إصدار مرسوم (أو فرمان) لتثبيت اختيار الديوان العالي بالجزائر. وفي حالة شغور المنصب فإنّ الديوان العالي هو الذي يختار خليفته بنفس الأسلوب الآنف الذكر¹.

عندما حاول السلطان العثماني في عام 1711م أن يقوم بتعيين حاكم على الجزائر قام داي الجزائر "علي شاش" (1695-1700 م) بطرده وتنصيب نفسه بدلاً منه.

احتفظت الدولة العثمانية لنفسها بسلطات شكلية في الجزائر تمثلت بصفة خاصة في الدعاء للسلطان العثماني في صلاة الجمعة والاعتراف بمراسيم التعيين والتعاون في مجال الحروب بحيث تقوم الجزائر بتقديم المساعدة العسكرية للبحرية العثمانية في حالة تعرض الدولة العثمانية لاعتداء خارجي².

كانت الجزائر قبل هذا العهد خاضعة للدولة العثمانية، و ينقذ الولاة أوامرهم بحذافيرها خاصة ولاة البايلاوي و الباشاوات و كانت سياسة الجزائر الخارجية تتحكم فيها الدولة العثمانية بحيث كانت الوساطة بينها وبين الدول الأخرى ذات المصالح بها، و لقد لاحظنا في عهد الباشاوات ظهور سلطة الديوان ووقوفه في وجه السيطرة والنفوذ العثماني وسعيه الدائم لاحتفاظ الجزائر بشخصيتها في الميدانين الداخلي والخارجي، و لكن الدايات هم الذين استطاعوا أن يحققوا للجزائر استقلالها الحقيقي عن الدولة العثمانية التي لم يكن لها يد في هذا الانقلاب ولم تستطع أن تواجهه، ولم يكن للسلطان نفوذ سوى إصدار الفرمانات بالموافقة على تسمية الدايات الذين يعينهم الديوان وتعيين الباشا الشكلي الذي يجلس إلى جانب الداى ولا يحكم.

أصبح تعيين هذا الباشا مشكلة لدى الداى لأنّ السلطان كان بواسطته يحاول استعادة ما فقدته من نفوذ والدايات يشعرون بوجود مضايقة وازدواجية في الحكم فأخذوا يسعون للقضاء عليه وإلغائه بالوسائل المختلفة وكثيراً ما منعوا نزوله إلى البر عندما يقدم من القسطنطينية كما حصل عام 1686م أثناء ولاية الداى "حسين ميزمورتو"³.

تعتبر فترة الدايات من أهم الفترات التي تمرّ بها الجزائر، حيث استمرت من سنة 1082-1246هـ/1671-1830م، و هي تعادل نصف تاريخ التواجد العثماني بالجزائر، و يمكن أن نطلق على هذه المرحلة بمرحلة الاستقلال الحقيقي للجزائر عن الدولة العثمانية. كان للهجومات المتوالية التي شنها الأوروبيون على الجزائر أواخر العهد الأعوام تأثير كبير على الوضع الداخلي للبلاد وعلى السلطة نفسها، فقد فقدت البلاد كثيراً من سفنها

¹ _ مبارك الملي، تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، مكتبة النهضة الجزائرية، د.س.ن، ج3، ص175.

² _ عمار بوحوش، المرجع سابق، ص60.

³ _ يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر - الجزائر القديمة والوسيلة والحديثة-، (1-2)، المرجع سابق، ص 43.

التجارية، وتأثرت طائفة الرّياس بصفة خاصة لأنّها هي التي تضرّرت أكثر من غيرها باعتبار أنّها مالكة الأسطول والمراكز البحرية، ومن أجل ذلك تأمر الرّياس على آخر الأغوات "علي" أغا وقتلوه أوائل 1671 م، ورفض عدد آخر من الأغوات قبول هذا المنصب باعتبار أنّه يؤدي إلى نفس المصير الذي وقع فيه "علي" أغا¹.

بدأت الحادثة بسيطة باغتيال "علي" أغا "وإذا بها تتحوّل إلى انقلاب جذري في أسس السلطة العليا. إذ استغلت طائفة الرّياس الحادثة و انتزعت السلطة من المسؤول الرئيسي و اتّفقت مع الديوان الذي تمثّل الأغلبية داخله على إلغاء نظام الأغوية، و تعويضه بنظام آخر أكثر استقرار يمثل في تعيين داي في منصب الوالي طوال حياته على ألاّ يكون له الحق في تعيين من يخلفه و إنّما يكون ذلك من حق مجلس الديوان مما جعل النظام يخالف الملكية الوراثية. ولا شك أنّ بقاء الداي في منصب الرّئاسة طوال حياته يساعد على إيجاد نوع من الاستقرار أكثر و شيئاً فشيئاً استطاع الدايات أن يُكوّنوا لأنفسهم سلطة واسعة و يحدّوا من سلطة الديوان نفسه الذي أصبح لا يستدعى للاجتماع إلّا بصورة شكلية. أبقى الدايات على منصب الباشاوية الشرقي مدّة من الزمن بحيث يعين الباب العالي باشا يكون إلى جانب الداي ولكنّه لا يحكم وليس له أي نفوذ ثمّ سرعان ما قاوم الدايات هذه الازدواجية وأصبح الداي هو نفسه باشا وبذلك استأثروا بكل مظاهر السلطة والنفوذ في البلاد².

تسلم الدايات السلطة منذ سنة 1671م عندما حلّت سلطة زعماء الطائفة محل الأغوات، واستمر انتخاب الدايات من قبل الطائفة حتى سنة 1689م، و كان الدايات الأربع الذين حكموا بين (1671-1689 م) من زعماء الطائفة، و قد عملوا على تقليص نفوذ الديوان و في عهدهم نشطت البحرية الجزائرية ممّا أدى إلى قيام عمليات انتقامية أوروبية، و رغم مظاهر القوّة والنفوذ التي اتّصف بها الداي إلّا أنّه لم يستطع عمل شيء، و قد وصف الكاتب الإسباني "جوان كانوا" الداي أنّه: "...رجل غني، لكنّه ليس سيد خزينته، أب بدون أطفال، زوج بدون امرأة، طاغية بدون حرّية، ملك لعبيد، عبد لأتباعه...". يسجل حلول الدايات المنتخبين محلياً محل الباشاوات الذين كان السلطان يرسلهم من اسطنبول ضعف الصلات بين الجزائر وعاصمة السلطنة، وكانت سلطة الداي مطلقة وإن كانت -نظرياً- مقيدة بالديوان فهو ييث في مسائل الحرب والصلح وهو الذي يختار وزرائه بنفسه³.

بدون شك فإنّ عصر الدايات الأول هو عصر القوّة العسكرية، والحاكم هو الذي يختار وزراءه بحريّة تامة ويشكّل مجلس الدولة بأسلوبه الخاص. لكن انصافاً للحقيقة ينبغي أن نقول بأنّ نفوذ الجيش البري وازدياد نفوذ

¹ _عبد الرحمن الجيلاني، المرجع سابق، ص 158.

² _يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر - الجزائر القديمة والوسطية والحديثة-، ج2، المرجع سابق، ص 42.

³ _نفسه، ص 45.

الدايات لم يخدم أبناء الجزائر الأصليين ولم يستجيب لمطالبهم، ولهذا فإنّ هذه القوّات العسكرية والسياسية قد توجّهت لخدمة مصالحهم وتحقيق الغنائم لقاداتها، وبالتالي فإنّ العناصر الجزائرية الأصل بقيت على الهامش ولم تكن لها مشاركة حقيقية في قيادة البلاد¹. تمتعت الجزائر في عهد الدايات بحريّة العمل في المجال السياسي وبنّت جيشاً قوياً، وعندها ميزانية مستقلّة لا تقل أهميّة عن ميزانيات الدول القويّة في تلك الفترة. وقد كان الداوي يعقد المعاهدات باسم الجزائر ويبحث بقناصل الجزائر إلى الدول الكبرى ويوافق على اعتماد القناصل في الجزائر بدون مشاورة الدولة العثمانية ويعلن الحرب، ويستعمل العملة الخاصة بالجزائر وهذه العوامل كلّها تبيّن استقلالية القرار الجزائري².

غير أنّ الوضع لم يكن يعني انقطاع كل تعاون أو تعاطف مع الدولة العثمانية باعتبارها تمثل الخلافة الإسلامية وبقيت تساند الجزائر بإرسال الجند الإنكشاري و الإمدادات المالية التي كان الدايات في أمس الحاجة إليها لردع أي خطر خارجي³.

عهد الدايات في الجزائر لم يكن يختلف عن عهد الباشاوات، كلاهما يعكس فوضى الدولة العثمانية وبداية انهيارها المبكر، فقد كانت الدولة القويّة في العالم تسيطر على إمبراطورية واسعة وخاصة أنّها تسيطر على ضفتي البحر الأبيض تقريباً، وتتحكّم في مياهه.

لا يمكن التوسّع الذي أن يكون قائماً على أسس سلمية والذي كان يستتر تحت الخلافة الإسلامية ويسيطر على دول مسيحية غربية بكثير من انعدام الثقة واستغلال الصراع بينها ليكون لصالحه أو ليعادي إحداها بقوة ويدافع عن الباب العالي الذي يسيطر دينياً وسياسياً على بعضها كما هو الأمر بالنسبة لإسبانيا، ثمّ يجامل ويصادق دولاً أخرى كفرنسا ويناصرها في عدائها لإنجلترا، أو هي تستغل صداقة الدولة العثمانية للانتصار عسكرياً أو سياسياً وتجارياً على خصمها الأبدى إنجلترا.

هذا الوضع عاشت فيه الدولة العثمانية —خاصة بعد عهد الازدهار— وضعها في مركز لا تحسد عليه، وانعكس بشكل خطير على كثير من أجزاء الإمبراطورية وبدأ بالجزائر في أوائل القرن 16 والقرن 17 م⁴.

عصر الدايات في الجزائر كان المظهر الأكبر لهذا الانعكاس السيئ، فقد كان الدايات يمثلون قوّة جزائرية مستوطنة لا تكاد تدين لانتمائها التركي العثماني وطنياً وسياسياً. وقد عرفنا ما أحدثه نظام الدايات من الفوضى السياسية سبب للدولة كثيراً من المتاعب السياسية الخارجية، وسبب للجزائر كجزء من الدولة العثمانية مشاكل أكثر خطورة وأشدّ فتنة.

¹ _حنيفي هلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، المرجع سابق، ص 136.

² _عمار بحوش، المرجع سابق، ص 61.

³ _عزيز سامح أتر، المرجع السابق، ص 463.

⁴ _دخية فاطمة، المرجع السابق، ص 09.

كانت الجزائر تعتمد على نفسها مالياً واقتصادياً، بل إنّ الباشاوات وبعض الدايات المعينين الذين كانوا يعتمدون على فرمانات عثمانية كانوا يمدّون الدولة بالمال، ومركز الباشا كان يشتري بما يستطيع أن يبعث به للدولة العثمانية من مال، وبالتالي بما يحتجزه من مال لنفسه، ثمّ بما يدفع به من أجور للموظّفين والجنود وحراس الدولة لهذا كانت الجزائر مصدر موارد مالية مهمّة تعتمد عليه الدولة المركزية، وتعتمد في إدارتها على هذه الموارد¹.

2: مميزات فترة الدايات على المستوى الخارجي

كان حكام الجزائر بعيدين عن فكرة التمرد عن إرادة السلطان العثماني، لكن التحول الذي حدث في طبيعة العلاقات العثمانية الأوروبية في نهاية القرن السادس عشر واحتلال موازين القوى لصالح الأوروبيين، كانت وراء ازدياد الضعف العثماني، ولا سيما اثر معاهدي اسطنبول (1091هـ-1670م) مع روسيا، والتي تخلى فيها العثمانيون عن بعض أقاليمهم، ومعاهدة "كارلوفيتز" (1112هـ-1699م) مع النمسا، والبندقية، وبولونيا. نتج عن هذه التطورات ضعف الروابط بين نيابة الجزائر والسلطة العثمانية حتى أصبحت الجزائر شبه جمهورية عسكرية وأصبحت الإيالة لا يربطها بالدولة العثمانية سوى رباط ديني ووازع أدبي، و مما زاد في استقلالية الجزائر، أن الدايات أصبحوا يعتبرون أنفسهم كحلفاء²، للباب العالي³، فقط بعد أن كانوا تابعين له، ووصلت الجراة أن يقوموا بالاتصال بالدول الأوروبية دون اعتبار لمصلحة السلطنة.

أصبح ممثلو الدول الأوروبية لدى إيالات الغرب: الجزائر، وتونس، وطرابلس الغرب يتجاهلون السيادة العثمانية في تعاملهم مع هذه الإيالات، وهذا ما جعل العلاقات بين الجزائر وفرنسا تكتسي صبغة خاصة. ويتضح لنا مدى استقلال الجزائر عن الدولة العثمانية، عندما منع الداوي "علي شاوش"⁴ "إبراهيم باشا" المعين من الباب العالي من تولي مهمته في الجزائر بحجة تسببه في إثارة المشاكل. و تجسّدت هذه الاستقلالية في نجاح "علي شاوش" في الحصول على لقب الباشا من السلطان بفضل الهدايا وسياسة الأمر الواقع.

¹ _ عبد الكريم غلاب، المرجع سابق، ص 365.

² _ نور الدين عبد القادر: صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، قسنطينة، مطبعة البحث، نشر كلية الآداب الجزائرية، 1965، ص 86.

³ _ تسمى باللغة العثمانية "باب أصفى"، اسم يطلق على المقر الرسمي لرئاسة الوزراء في مركز الدولة العثمانية (الصدر الأعظم) وهذا بدأ من سنة 1130هـ / 1718 م، انظر: توفيق دحماني: دراسة في عهد الأمان، دار العثمانية، الجزائر، 2009، ص 147.

⁴ _ الداوي "علي شاوش" المعروف بأزون على الدولاتلي إمتدت فترة حكمه (1122 - 1130 هـ) (1710 - 1718 م) رفض استقبال إبراهيم باشا، وطلب لنفسه لقب الباشا، انظر: عثمان الكعاك: المرجع السابق، ص 292.

بدا عهد "الدايات الباشاوات"⁽¹⁾، وبذلك انحصرت مظاهر تبعية الجزائر للدولة العثمانية في تلقي الخلعة، و تبادل الهدايا وتوجيه الرسائل التي تضي على السلطان العثماني ألقابا كالسيد والرئيس، وولي نعمة داي الجزائر⁽²⁾. كما انحصرت في مد المساعدة كلما اقتضت الضرورة، فقد شارك الأسطول الجزائري عدة مرات إلى جانب الأسطول العثماني، وهذه المساعدة نفسها كانت مرهونة بأوضاع البلاد⁽³⁾.

أصبحت الجزائر قوة حليفة للباب العالي أكثر منها قوة تابعة له، وإرسال الهدايا لم يكن يعبر عن الحصول على الترسيم بقدر ما كان يعبر عن الولاء للسلطان كخليفة للمسلمين⁴. واهم ما ميز العلاقات الجزائرية العثمانية في عهد الدايات (1671 - 1830م) و الذي يعد أطول العهود العثمانية في تاريخ الجزائر الحديث هو استقلال الجزائر الرسمي عن الدولة العثمانية سياسيا وهذا ما أكدّه عبد الرحمان الجامعي المعاصر لهذا الحدث⁵.

كما لم تكن علاقات الجزائر مع باقي بلدان المغرب العربي حسنة ووديّة كما يجب لعدّة ظروف تاريخية. فلقد كانت الجزائر تعتبر تونس إقليماً تابعاً لها بحكم أنها هي التي طردت منه الاسبان وضمّت إلى الدولة العثمانية التي جعلت تعيين باشاواتها من اختصاص بايلرييات الجزائر، وعلى هذا الأساس كانت الجزائر تحاول باستمرار أن تجعل هذه التبعية حقيقة ملموسة.

ارتبطت العلاقات بين الجزائر والدول المغاربية بالصراع الحاد خاصة تونس حين ضم خير الدين تونس إلى الخلافة، إضافة إلى طبيعة الأنظمة السياسية المتناقضة بين الحكم الجمهوري والحكم المطلق في هذه الدول.

- العلاقات مع تونس: ظلت العلاقة بين الجزائر وتونس علاقة عدا إلى غاية تمكن الاسبان سنة 1535م من التدخل في سياسة تونس و احتلالها وهو ما دفع الجزائر الى تنظيم حملات متتالية لفرض سلطتها عليها كما توصل الجزائريون إلى فرض إتاوة وضريبة على تونس مقابل المساعدات لكن بايات تونس رغبوا في الاستقلال وهذا ما شدد العدا خاصة حين قام الباي مراد عام 1701م بالهجوم على قسنطينة و محاصرتها ولم تتراجع عنها إلا بعد انهزامها ووقوع جيشه في الأسر وتجدد الصراع بعد خلاف حول جزيرة زنيّة¹.

2 _ درج مؤرخو العهد العثماني على تقسيم فترة حكم الدايات إلى ثلاثة أقسام: عهد الدايات الرياس (1671-1684)، عهد الدايات البيولداش (1689-1711م)، عهد الدايات الباشاوات (1711-1830م). انظر عثمان الكعاك: المرجع السابق، ص 292.

3_ E. Kuran : " La lettre du dernier dey d'Alger au grand - vizir de l'empire ottoman", in, R. Af, 1952, n° 96, p p 194,195

4_ عائشة غطاس: العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن 17 (1619-1694)، المرجع السابق، ص 19.

4 _ نور الدين عبد القادر: المرجع السابق، ص 86.

5 _ عبد الرحمن الجامعي: شرح أرجوزة الحلفاوي، مخطوطة، رقم 2521، المكتبة الوطنية، الجزائر، ق 10 أ.

كانت تونس ترفض ذلك وترى أنّها مثل الجزائر تتّبع رأساً للقسنطينية وأكثر من ذلك كان لتونس أطماع في إقليم قسنطينة موروث من العهد الحفصي، أمّا المغرب الأقصى فقد قاوم منذ البداية وبإصرار سعي الأتراك للسيطرة عليه وأصبح ينظر إلى الجزائر على أنّها خطر جاثم عليه يجب تفاديه بكل الوسائل ومنها التآمر مع أي كان ولو كان مسيحيّاً وأكثر من هذا فإنّ المغرب له أطماع قديمة في غرب الجزائر وتلمسان بصفة خاصة ولم يخف سلاطينه هذه الرغبة في كلّ الظروف والمناسبات.

علاقتها مع المغرب الأقصى:

- العلاقات مع المغرب الأقصى: تميّزت العلاقات بين الجزائر والمغرب الأقصى منذ البداية بالتنافس خاصة عندما عقد الكونت ديالكودات الموجهة للسياسة الإسبانية في شمال إفريقيا عقد التحالف مع المغرب ضد الجزائر بوساطة أحد اليهود بن يعقوب كانسيو وتاجر جنوي بولو جريلو وكانت الخلافة في القرن 16 م حول مراقبة تلمسان مما دفع ملوك المغرب للتقرب من الاسبان وعقد معاهدة صداقة سنة 1589 م والانجليز عام 1585 م وقد أدى ذلك بالجزائر وقد أدى ذلك بالجزائريين الى احتلال فاس سنة 1554 م بعد أن تأكد ومن تآمر المغرب مع الاسبان ، وكانت النتيجة زوال الأسرة السعدية وظهور الأسرة الشريفة التي أصبحت معرضة للتهديد الجزائر نتيجة لمواقفها من البرتغاليين واستمر الوضع الى غاية سقوطها وظهور أسرة العلويين وبنفس العلاقة خاصة في عهد السلطان "إسماعيل" الذي وضع خطة لغزو الجزائر ولكن تمكن الداوي شعبان من القضاء على القوة المغربية وآمال السلطان في ضم تلمسان والجهات الغربية ، وظلت العلاقات المغربية الجزائرية تتراوح بين الجذب والليونة والتوتر وحالة التقلب ولكن هزيمة السلطان "إسماعيل علي" يد الداوي "شعبان" عام 1694 و1703 م وضع تحد لحرب المغرب واضطرته لتوقيع معاهدة وجدة التي قضت بالاعتراف المتبادل ورسم حدود والاتفاق على جعل واد التافنا حدا فاصلا بينهما ودخل المغرب إلى فترة عزلة واتجهت الجزائر إلى تحرير مدنها من الاحتلال الاسباني¹.

على هذا الأساس كانت العلاقات بين الجزائر العثمانية وجاراتها مضطربة في معظم الأوقات، فتونس ترفض بإصرار التبعية للجزائر وقام ديوان الأوجاق فيها منذ عام 1590 م بتمرد على الجزائر وأصبحت البلاد تتّبع رأساً للقسنطينية، واغتنم «محمد» باي التونسي مشاكل الداوي "شعبان" باشا بالجزائر فشنّ حملة على إقليم قسنطينة وردّ عليه "شعبان" بالزحف على تونس وخلعه ونصّب في مكانه "أحمد بن شركس" باي عليها.

عجزت تونس والمغرب الأقصى على انفراد في تحقيق النصر على الجزائر حاولتا التعاون والاشتراك في مؤامرة ضدّها فتحالفت الجزائر مع باشا طرابلس وذهب الداوي "شعبان" على رأس حملة إلى تونس وطرد منها "محمد" باي ونصّب "أحمد بن شركس" للمرة الثانية عام 1695 م، ولم تنتهي المؤامرة الشائنة حتى ظهرت مؤامرة ثلاثية

1_ نور الدين عبد القادر: المرجع السابق، ص 87.

¹ _ كليل صالح، سياسة خير الدين في مواجهة المشروع الاسباني لاحتلال المغرب الأوسط، رسالة ماجستير تاريخ حديث معاصر، جامعة باتنة، 2006.2007، ص ص 177-184.

اشتركت فيها تونس والمغرب الأقصى وطرابلس معاً فزحف الباي "مراد" من تونس إلى قسنطينة عام 1702 م بينما زحف السلطان "إسماعيل" من المغرب إلى تلمسان وما وراءها فتصدى الداوي "الحاج مصطفى" لباي تونس و هزمه في قلعة سنان وطاردته قواته إلى حدود تونس ثم اتجه إلى سلطان المغرب وواجهه في "خديوية" قرب الأصنام وهزمه وبذلك نجحت الجزائر من هذه المؤامرة.

أما طرابلس فرغم أنها لم تشترك في هذه الحرب بقوتها إلا أن الداوي فكر في شن حملة عليها وحقق صلحاً مع تونس في الوقت الذي كان الباشا التونسي "إبراهيم الشريف" يحاصر طرابلس تنفيذاً للاتفاق، وتواجهت القوات التونسية والجزائرية في الكاف عام 1705م وتبادلت النصر والهزيمة معاً مما أدى إلى عزل الداوي "مصطفى" وتعيين "حسين" "خوجة" ثم "محمد بقطاش" في منصب الداوي¹.

كان بمقتضى الأمر الواقع من وحدة اللغة والجنس والدين والإقليم، بين سكان المغرب العربي أنه لا فرق بين ساكن الجزائر أو تونس أو مراكش أو طرابلس، فكلهم مغاربة أبناء وطن واحد، هو المغرب العربي الكبير، وللسياسة المغرضة اعتبارات أخرى كانت لها آثارها في فصل هذه الأقطار عن بعضها البعض.

كان لهذا الفصل السياسي أثره الفعال في شتى الغارات الحربية وبعث العداوة والأحقاد بين سكان حدود هذه الأقطار الشقيقة وأغلب ما كان يتنازع فيه ويكثر حوله الخلاف يومئذ هو مسألة هذه الحدود المرسومة والمعتبرة سياسياً بين أقطار المغرب العربي الثلاث تونس، الجزائر، والمغرب، حرماً آمناً وحداً فاصلاً².

خرج المولى "إسماعيل" سلطان مملكة المغرب الأقصى في سنة 1089هـ/1676م غازياً بلاد الجزائر، فترك مدينة تلمسان عن يساره وذهب موعلاً في الصحراء إلى ناحية الجنوب الجزائري، مستجيشاً في غزاته هذه بقبائل بني عامر و أولاد جرير والحشم، فاندفع معه هؤلاء إلى الحرب و سارت خلفه الجموع إلى أن بلغ نهر الشلف بناحية (القويعة) فأناخ المولى "إسماعيل" بالبطحاء، وهناك على الضفة المواجهة من النهر فاجأهم الجيش العثماني ليلاً فأقمعهم بإطلاق نيران مدافعه و مهارسه فأهزم المغاربة و انقلب أغلبهم إلى مواطنه، وتضعضع بذلك الجيش المغربي، فانكسرت شوكته و قتل الوزير "منصور الرامي" وعاد السلطان في من بقي معه من الجند إلى حضرته.

يرى صاحب (طلوع سعد السعود) أن غارة "المولى إسماعيل" هذه إنما كانت بباطل الاقتصاص من قتله باي وهران "شعبان الزناني"، ثم أعقب ذلك ترسيم الحدود السياسية بين تخوم المملكتين على اعتبار وادي تافنة الموازي

¹ - يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر - الجزائر القديمة والوسطية والحديثة -، (1-2)، المرجع سابق، ص 44-48.

² - نور الدين عبد القادر: المرجع السابق، ص 89.

لمدينة وجدة فاصلا بين المغربين-الأقصى والأوسط-بناء على المعاهدات السالفة منذ عهد أمير زناته ورئيسها السابق "زيري بن عطية المغراوي" مؤسس مدينة وجدة¹.

اتَّفَق على أنّه كان في هذه الآونة عصبة من دول أوروبا، ألمانيا و بولونيا و البندقية، دولة البابا و جماعة فرسان مالطة -و هم فرنسيون- كلها كانت مُتَأَلِّبة ضد الدولة العثمانية، ولم تكن الحكومة الفرنسية لتترك هذه الفرصة السانحة لتمر دون أن تتهاجم فيها الجزائر في حال غفلة دار الخلافة عنها، انتقاما لهزيمتها المتقدمة الذكر، فبعث أولا بطليعتها إلى الجزائر في أواسط صفر/فيفري سنة 1094هـ/1683م و هي تتركب من ثلاث سفن متظاهرة بطلب إبرام عقد المسالمة و الصلح فأعرض عنها الداوي و لم يُعرها أي التفات لِعلمه بما تُبْطِئُه و ما تضره في نفسها من الخيانة و ما تنطوي عليه نيات أصحابها من الغدر و الخداع، ثم التحقت العمارة الفرنسية بالطليعة، وهي تحتوي على ما يقارب من مئة مركب فهاجمت مدينة شرشال ثم هاجمت العاصمة في فاتح رجب 26 جوان فأصابتها بستان قنبلة².

تلقت المدينة في اليوم الثاني منها ضعف ذلك من القنابل، وأصيبت في هذا اليوم دار الحاكم التي بباب الجزيرة سقط منها ساريتان مُذهبتان، وقامت القوات الحربية الجزائرية بصدد هجمات العدو ومقابلتها بالمثل و كانت الخسائر من الطرفين فادحة، واستبد الداوي بإعلان الهدنة والصلح من تلقاء نفسه من دون استشارة أعضاء الديوان ورضخ لقبول شروط الأميرال "دوكان" التي كانت فادحة ومفرطة في القساوة والشدة.

كان من مواد هذه المعاهدة وبنودها الأساسية اقتضاء جميع نفقات الحرب التي قدرت بمليون وخمسمائة ألف جنيه. وتقديم عدد من الرياس إلى فرنسا كرهائن، فتحمل الداوي على عاتقه مسؤولية كل ذلك مع تسليمه جميع أسرى النصارى على اختلاف جنسيتهم من فرنسيين و غيرهم إلى رجال الغارة، وكان يبلغ عدد الأسرى 550 نسمة و نهض الجزائريين إثر ذلك بمطالبة الأميرال بالإفراج عن الأسرى المسلمين على قاعدة التبادل، فلم يُعرهم هذا جوابا و لم يلتفت إلى طلبهم و حينئذ أعلن الديوان سحقه معترضا على الداوي في قبول شروط عقد هذه المعاهدة المجحفة و لم يعترف له الديوان بهذا الصلح و لا بما أمضاه الداوي مع الأميرال الفرنسي و كان ذلك من موجبات قتل الداوي فصريح "بابا حسن" على يد "إبراهيم خوجة" ليلة 23 رجب 1094هـ أو آخر جويلية 1683 م و أظفر يومئذ الأميرال "دوكان" إلى رفع الحصار³.

كذلك تم في سنة 1684 م إبرام معاهدة و المعروفة بمعاهدة السلم المثوي و التي تمكن من خلالها "دوترفيل" إبرام صلح بعد مفاوضات دامت أيام تضمنت هذه المعاهدة 29 بندا و نصت على أن يكون السلام لمدة مئة

¹ _عبد الكريم غلاب، المرجع سابق، ص 370.

² _عزيز سامح أتر، المرجع سابق، ص 465.

³ _عبد الرحمن الجيلاني، المرجع سابق، ص 191-195.

سنة نقل "جمال قنان" أهم بنودها في "كتابه نصوص و وثائق"، وكان من أهم ما جاء فيها ما تعلق بالبحرية و الأسر ليدل مرة أخرى على دور البحرية الكبير في معادلة العلاقات الجزائرية الفرنسية، ومن الملاحظ جليا من بنود هذه المعاهدة أن أمر نشاط البحرية الجزائرية و نظيرتها الفرنسية شكل المحور الأساسي الذي دارت حوله المعاهدة، وحضي بدرجة اهتمام بالغة فاقت حتى الجانب التجاري بدافع أنه لا تجارة دون سلام بين البلدين خاصة السلام البحري والذي من شأنه أن يعكس إيجابا على مظاهر العلاقات الأخرى¹.

فشلت هذه المعاهدة في ايجاد حلا نهائيا لنشاط البحرية المزدوج بين البلدين، وبالرغم من هدوء العلاقات بين البلدين واستقرارها نسبيا، وإطلاق بعض الأسرى وتبادل الهدايا لكن سرعان ما توترت العلاقات مرة أخرى بالرغم من ذلك استمرت هذه المعاهدة وكان أهم سبب وراء ذلك هو دخول فرنسا في حرب ضد الإنجليز، وهو ما جعل فرنسا تسعى جاهدة للحفاظ على السلام بينها وبين الجزائر، ولم تقف عند هذا الحد بل وصلت إلى حد محاولة إقناع الجزائر بقطع علاقتها مع إنجلترا².

لم تستمر معاهدة السلم المئوي إلا ثلاث سنوات حتى قامت فرنسا بإرسال حملة أخرى يترأسها "ديستري" في 26 يونيو 1688 م لكنها فشلت، ونتيجة لما آلت إليه الأحداث بعد هذه الحملة وبعد تكبد الطرفين لخسائر كبيرة في عرض المتوسط انتهت هذه الحملة بإمضاء معاهدة في 24 سبتمبر 1689م لكن تسوية الخلافات لم تأخذ صورة نهائية إلا بعد سنة 1694م³.

وباختصار فإن فترة حكم الدايات قد تميّزت بخصائص يمكن ايجازها فيما يلي:

- في عهد الدايات تحوّل جنود الإنكشارية من جنود مناضلين ومقاتلين ضدّ القوات المسيحية المناهضة للإسلام إلى رجال يبحثون عن الغنائم لأنفسهم وللحكام.
- اهتمّ حكام الجزائر في القرن 17م بجمع الثروة من العمليات الحربية في البحر، ولم يهتموا بتطوّر الدخل من الثروة الفلاحية وتوفير الغذاء للسكان.
- نتيجة لاعتماد الحكام على الحروب والصراعات الداخلية بين فئات الجيش فقد لقي العديد من الحكام مصرعهم على يد المجموعات المعادية لهم بحيث أصبحت قضية اغتيال المسؤولين عملية عادية.

- تمكّن حكام الجزائر في هذه المرحلة الأخيرة من القضاء نهائياً على الوجود الاسباني في الجزائر⁴.

¹ _جون.ب.وولف، المرجع سابق، ص346.

² _جمال قنان، معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619-1830، المرجع سابق، ص98-100.

³ _ألتر عزيز سامح، المرجع سابق، ص 394.

⁴ _عمار بحوش، المرجع سابق، ص 61-62.

- الداوي كان هو المسئول العسكري والسياسي للبلاد، والقاضي الأعلى في أمور الحرب والسلم والمسئول على الضرائب وعلى التوظيف، أي له صلاحيات غير محدودة قد كان القتل هو الوسيلة للحد من صلاحياته¹.
- فنظرياً هو مطلق الصلاحيات في تعيين البايات والموظفين².
- لكنّه يخضع لقواعد صارمة حيث يعزل عن عائلته التي لا يراها إلا مرة في الأسبوع لأنّه في نظرهم "أب الجميع"، ورغم الصلاحيات المخولة له إلا أنّه كان يتصرّف وفق رغبة ضباط الإنكشارية، أي الديوان المتكوّن من ثلاثين من كبار الجند الرؤساء الدينون الثلاثة، المفتي والقاضي وكبير المرابطين³.
- كان الداوي ذوي نفوذ محدّد صورياً من قبل الديوان، وإذا اغتيل تعاد ثروته إلى الخزينة⁴. فهو كما وصفه الكاتب الاسباني "جواب كانوا" (Jouab Canau): "أنّه رجل غني، ولكنّه ليس سيّد ثروته، وأب بدون أطفال زوج بدون زوجة، طاغية بدون حرّية، ملك لعبيد، عبد لأتباعه"⁴.
- كان أغلبهم بعيداً كل البعد عن العلم والثقافة وتسلّموا مقاليد الحكم بعدما كانوا يمارسون وظائف عادية كإسكافي، حمّال، حارس⁵. فمثلاً الداوي "أحمد باشا" (1695-1698 م) كان انساناً مُسنّاً ومريضاً كان يرقّع الأحذية لذا فمهمّته كانت تقتصر على الإمضاء فقط، أمّا الحكم فكان بيد الإنكشارية⁶، و يُضاف إلى خصائص هؤلاء الحكام ظاهرة الفساد و الرشوة، والتبذير لأموال الخزينة، ومن أمثلة ذلك الداوي "علي باشا" أنفق كل أموال الخزينة على رفاهية أولاده وزوجته ما يميّز هذا العهد كذلك الفوضى في الحكم⁶.

¹ _ Bouabba(Y), **Les Turcs au Maghreb central du 16ème au 19ème Siècle**, S.N.E.D, Alger ,1972 P39.

² _ Mahfoud Kaddache, **L'Algérie Durant la période Ottoman**, O.P.U, Alger, 1991, P92

³ _ Le Pen, **Aperçu Historique, Statistique et Topographique sur L'état d'Alger**, 2eme éd, CH, Pecquet, Paris, 1830, P41

⁴ _ شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص 375.

⁵ _ شعيب محمد المهدي، أم الحواضر في الماضي والحاضر، مطبعة البعث، قسنطينة، 1980، ص 392.

⁶ _ ابن ميمون، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تح وتقر: محمد عبد الكريم، ش.و.ن.ت، الجزائر، ص 25.

إضافة إلى الصراع بين الإنكشارية و الرّياس من أجل السلطة كان له الأثر السلبي على علاقة الدايات بالرعيّة هذه السلبية ظهرت على كل الميادين الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وهكذا نستنتج أن عهد الدايات يعدّ بداية لعهد الاستقلال الكامل للدولة الجزائرية عن الدولة العثمانية ولم تبقى إلاّ بعض الشكليات، وأوّل من تولى هذا المنصب هو الداوي "الحاج باشا" (1671-1682 م) وجاء بعده أربعة وعشرون داياً. وحكّمت الطبقة العسكرية، واحتكرت السلطة وجعلت الأهالي على الهامش يتفرّج على الأحداث والاعتقالات المتكرّرة في صفوف الداوي، والجنود الأتراك، وقد انجرّ عن هذا انتشار الفتن، والاضطرابات الداخلية محاولات الدولة العثمانية المتكرّرة التدخّل في الجزائر من استرجاع سلطتها ونفوذها السابق أيام حكم البايلىريات و الباشاوات وتأثير ذلك على مركز الدايات وحقّزت القوى المعادية لهم على التمرد والعصيان¹.

¹ _شارل أندري جوليان، المرجع سابق، ص 375.

الباب الثاني

التطورات الاقتصادية لإيالة الجزائر في القرن 11 هـ/17 م

الفصل الأول: الأسطول البحري و دوره و عائداته

الفصل الثاني: الحرف و الحرفيون

الفصل الثالث: الزراعة و الري

الفصل الرابع: المبادلات التجارية الداخلية و الخارجية

الباب الثاني: التطورات الاقتصادية لإيالة الجزائر خلال القرن 17 م

الاقتصاد هو عصب الحياة بالنسبة إلى أي نظام سياسي ذلك أنه هو الذي يحدّد مدى ثراء الدولة أو فقرها ولا شك أنّ الحياة الاقتصادية تستمدّ وجودها من إمكانيات اقتصادية تتماشى بها المؤسسات المختلفة في الدولة سواء فيها بما يتّصل بالزراعة أو التجارة أو الصناعة. وإذا كانت موارد الدولة تحدد من خلال هذه المجالات فإنّها تتأثّر إيجابيا بالوضعية السياسية وما يقوم بين الدولة وجيرانها من حروب، وكلما كانت الدولة مستقرة أصبح نظامها الاقتصادي أكثر تطوّرا ورقياً¹.

كان للجانب الاقتصادي من تاريخ الجزائر في الفترة العثمانية آثار حاسمة و انعكاسات مباشرة على الأحداث السياسية و النظم الإدارية و الحالة الاجتماعية، بحيث لا يمكن التعرض لهذه الجوانب كلها إلا بعد التعرّف على الأوضاع الاقتصادية، فنلاحظ مثلا أن الدافع الاقتصادي كانت توجهه العلاقات الخارجية من خلال نشاط الجهاد البحري ونظام الإتاوات و الهدايا الإلزامية، كما أن الوضع الاقتصادي ظل هو الآخر يتحكم في الصراع و التنافس بين فرق الأوجاق و جماعات الرياس، هذا فضلا عن أن الحياة الاقتصادية كانت تبرز لنا الدوافع و الأهداف الحقيقية للثورات الداخلية، ابتداءً من ثورة سويد و فليسة و انتهاء بشورتي درقاوة و التجانية، في حين أن حالة العمران ووضع الثقافة في الجزائر ارتبط بمدخول الأعباس والأوقاف الذي كان يشكل المورد الأساسي للإنفاق على المساجد والمدارس ورعاية المدرسين والطلاب².

الأمر الذي لا يختلف فيه اثنان هو الأثر البارز الذي يشكّله النشاط الاقتصادي في الجزائر إبان الحقبة العثمانية، كانت له تأثيرات واضحة وانعكاسات جمّة، ساهمت بشكل كبير في تغيير الخارطة السياسية للجزائر وبناء النظم الإدارية والاجتماعية، فقد كان الطابع الأبرز في كل الجوانب³.

الدافع الاقتصادي كانت توجهه العلاقات الخارجية، وذلك من خلال نشاط البحري و الإتاوات كما ظل هذا الوضع يتحكم في الصراع و التنافس بين فرق الأوجاق، وجماعات الرياس هذا ما يمكن أن نستشفه عن الوضعية الاقتصادية التي ميزت الجزائر إبان العهد العثمانية أنّها كانت تستفيد من مداخل الجهاد البحري الذي تحول إلى مؤسسة قائمة بذاتها فقد بدأت البحرية الجزائرية في العهد العثماني تتميز بنوع من الاستقلال عن باقي الأساطيل المغربية، و أصبحت تشكل قوة بحرية خاصة. فنظمت طرق التوظيف و التمويل و العمليات البحرية، و

¹ _ مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية - الأحوال الاقتصادية و الثقافية -، ط1، ج2، دار الحضارة للطباعة و النشر و التوزيع 2007م، ص11.

² _ ناصر الدين سعيدوني، دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر - الفترة الحديثة و المعاصرة -، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ج2، د.س.ن، ص357.

³ _ دخية فاطمة، المرجع السابق، ص14.

أصبحت بذلك الطريقة الجزائرية مثلاً يُتخذى باعتبارها مؤسسة توفر مدخولا ماديا لخزينة الدولة من الغنائم و الأموال، كما كان لها دور مهم في مواجهة كل التحديات التي كانت تحيط بها، و ذلك راجع إلى:

- موقع الجزائر و طبيعة سواحلها المفتوحة على أوروبا و المتحكمة في الحوض الغربي للبحر المتوسط على امتداد 1200 كلم.
- الظروف الدولية الملائمة، و المتمثلة في التنافس بين الدول الأوروبية، و ما نجم عن ذلك من صراع و توترات مثل العداوة بين "فرانسوا الأول" ملك فرنسا، و الإمبراطور "شارل لكان" عاهل إسبانيا.
- استخدام البحارة الجزائريين الأساليب البحرية الملائمة، مثل الالتجاء إلى الغارات المفاجئة، و استعمال بنادق البارود السريعة الطلقات.
- مهارة البحارة الجزائريين، و كفاءتهم الحربية، و مقدرتهم القتالية العالية التي مكنتهم من تحقيق انتصارات حاسمة¹.

أما الجوانب التي تعكس الحياة الاقتصادية فهي مع تشعبها و تعدد وجوها يمكن أن نلخصها في أهم النشاطات الاقتصادية التي نعملها في النقاط التالية:

- الضرائب بمختلف أنواعها (اللزمة، الغرامة، الإتاوة، العادة، الزكاة، العشور، الضيفة).
- الحرف والصناعة.
- المحاصيل والسلع.
- الأسواق والجمارك والمبادلات التجارية للدولة والمؤسسات والأفراد.
- الخزينة والعملة والأسعار.
- الجهاد البحري والإتاوات وقضية الأسرى وشؤون البحرية.
- أمانات وودائع وأملاك بيت المال ومؤسسة الأوقاف.
- شؤون الأوقاف "الخبوس" وسبل الخيرات، مع باقي المؤسسات الدينية.
- ترضيات الشيوخ والمرابطين وهدايا الحرمين الشريفين وهدايا إستانبول .
- وضعية الملكية العقارية في الريف والمدينة².

¹ _ دخية فاطمة، المرجع السابق، ص 15.

² _ ناصر الدين سعيدوني، دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر - الفترة الحديثة و المعاصرة -، المرجع السابق، ص 358.

الفصل الأول: الأسطول البحري ودوره وعائداته

لعب الجهاد البحري لبلاد المغرب دورا كبيرا، لوقف المد المسيحي¹، خاصة بعد طرد المسلمين من الأندلس، حيث أصبح أمرا مشروعا². وقد لعب الموريسكيون المطرودين من إسبانيا دورا كبيرا، في هذا النشاط بالجزائر للانتقام من الإسبان الذين نهبوا أموالهم، واستحلوا حرماهم، وطروهم من بلادهم³.

كل هذا جعل الدولة العثمانية ترفع لواء الجهاد الإسلامي بالإيالات المغاربية، ضد العالم المسيحي⁴. فقد اعتبر "خير الدين بربروسة"، أن النشاط البحري حربا مقدسة ضد المسيحيين، لتحرير العديد من القواعد الإسلامية في بلاد المغرب من الاحتلال الإسباني⁵.

إن استمرار الصراع الديني خلال القرن السابع عشر للميلاد جسّدته تلك الممارسات، التي كان يقوم بها كل من فرسان القديس "يوحنا" بجزيرة مالطة، وقراصنة الدويلات الإيطالية؛ ضدّ التجار والحجاج المغاربة، اعتقادا منهم أن هذه الحرب تجلب لهم الثروة والغفران. أما المغاربة لم يبقوا مكتوفي الأيدي ضد هذه الاعتداءات، التي غذتها الروح الصليبية، بل شنوا هم أيضا غارات مشابهة على السواحل الجنوبية لدول أوروبا الغربية. وعليه كان العامل الديني، بالنسبة للطرفين الإسلامي والمسيحي، أمر جهاد وحرب مقدسة⁶.

مثّل القرن 17 م أرقى عصور الجهاد البحري في العصر الحديث وكانت قد عرفت فيه أوج قوتها، والحديث عن الظروف التاريخية التي أفرزت ظاهرة الجهاد البحري على امتداد سواحل المغرب الإسلامي كشكل من أشكال الدفاع تارة، ومظهر من مظاهر الرفض الرسمي للهيمنة الأوروبية وتهديدها في ظلّ اختلال القوّة تارة أخرى، ينبغي ألا يخفي الوجه الآخر للقرصنة الأوروبية المتمثّل في نشاط القراصنة الأوروبيين.

¹ _ زكي مبارك: الجهاد البحري في الغرب الإسلامي، المفهوم الإسلامي والمفهوم المسيحي، رحلة البحث لعلمي السنة الإحدى والثلاثون، جامعة محمد الخامس، الرباط 1998، عدد 45، ص 16.

² _ المنور مروش: دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر - الفترة الحديثة و المعاصرة -، المرجع السابق، ص 458.

³ _ عمار بن خروف: العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي، ج2، دار الامل للطباعة والنشر والتوزيع، 2008، ص 29.

⁴ _ مجهول: غزوات خير الدين وعروج، تص وتع: عبد القادر نور الدين، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1335 هـ / 1989 م، ص 129.

⁵ _ عزيز سامح ألتز: المرجع السابق، ص 129.

⁶ _ جون. ب. وولف: المرجع السابق، ص 239.

هنا لابد من الإشارة إلى حقيقة هامة وهي أنّ كلا القرصنتين ليستا وليدة ظروف الكشف الجغرافية والطردي الأندلسي فحسب بل هما امتداد لاحتكار حضاري وصراع عسكري تجلّت أبرز مظاهره خلال الحروب الصليبية المتوالية ابتداء من العصر الوسيط، ومن هذا المنطلق يمكننا التشديد على دور العامل الديني في تحريك الجانبين نحو الصدام وكونه ظلّ عاملاً فاعلاً في ذلك الاحتكاك¹.

أما أصل كلمة القرصنة فهو ايطالي "Corsea"، وتعني التسابق البحري والاعتداء على السفن وسواحل الدول الأجنبية، ومنها اشتقت كلمة قرصان، وقد استعمل الفرنسيون قبل القرن السادس عشر كلمة "Attaque"، أي الهجوم، وكلمة "Ecumeur" بمعنى القرصان أو المهاجم، ومع بداية القرن السادس عشر بدأ تعميم كلمة "Corsaire" في أوروبا².

المصادر الإسلامية التي تناولت نشاط البحرية الإسلامية، لم تعتبر هذا النشاط عملاً مشيناً، فاستعملوا كلمة "غزاة البحر"، وهو اصطلاح لا يعني دائماً الجانب السلبي من النشاط البحري³. في حين يرى البعض الآخر أن عملية القرصنة؛ هي عملية نهب بعيدا عن سلطة الدولة، لكن في الأصل نشاط القرصنة مرتبط بالدولة، وغير ذلك فهو لصوصية.

رغم هذا التباين فإن الأوروبيين اعتبروا نشاط القرصنة حرب مطاردة بين ضفتي الحوض الغربي للمتوسط، تمارسه دولة ضد دولة أخرى في شكل حرب غير معلنة تكون بديلاً للمعارك المباشرة، تتعرض من خلالها لتجارة أعدائها؛ أو تهاجم سواحلهم لأهداف استطلاعية ومن أجل الحصول على الغنائم⁴.

أما بالنسبة للإيالات المغاربة فاعتبرت القرصنة وجه من وجوه الحرب ضد المسيحيين وأنها جهاد في سبيل الله، من أجل استرجاع شبه الجزيرة الأيبيرية. ومع بداية القرن السابع عشر حدث تفوق واضح للبحرية الأوربية جعل القراصنة المغاربة عموماً يتفادون السفن الحربية التابعة لأوروبا، ويكتفون في غالب الأحيان بالهجوم على السفن التجارية للضفة الشمالية من البحر الأبيض المتوسط⁵ وفي نفس السياق يشير "بيارغرانشان" (Pierre)

¹ _ محمد أمين، القرصنة و شروط افتداء الأسرى بالجزائر في القرن الثامن عشر، في: المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، 21، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، تونس، سبتمبر، 2000م، ص24.

² _ Le Petit La Rousse, **France Matière Corsaire**, Grand Format Edition 2005, p 297.

³ _ عبد العزيز بن عبد الله: سلا أولى حاضرتي أبي الرقراق، منشورات الخزنة العلمية الصبيحة، ط2، سلا، 1989م، ص33.

⁴ _ عبد الناصر جبار: بنو حفص و القوى الصليبية في غرب المتوسط- في القرنين الثامن والتاسع للهجرة/الرابع عشر والخامس عشر للميلاد، رسالة ماجستير في الآداب، قسم التاريخ، جامعة القاهرة، 1990، ص101.

⁵ _ Pierre Grand champ: **Auteur de Consulat de Franc a Tunis (1577-189-81)** imprimerie J. aloccio, Tunis, 1943, p239.

Grand Champ) أن القرصنة هي شكل من أشكال الحرب العسكرية الممارسة من طرف البلدان المغاربية ضد الدول المسيحية وهذا يعطيها بعدا دينيا وقانونيا تمارس فيه.

تركز نشاط الجهاد البحري أساسا بسواحل الشمال الإفريقي، وتحديدًا في البلاد المغاربية، حيث كانت تنطلق عملياتها باتجاه الساحل الجنوبي للدول الأوروبية، أو مهاجمة سفنها وخاصة السفن الإسبانية¹.

يرى بعض المؤرخون أنها حرب ذات طابع اقتصادي²، وهناك من يرى أنها شكا من أشكال الحرب التجارية تعتمد على التفوق في العتاد الحربي³، وهناك من يرى أنها حربا استنزفيه غير معلنة. أما القرصنة الإسلامية فهي حركة جهاد بحري تبناه سكان شمال إفريقيا عند تعرض سواحلهم إلى الاعتداءات المسيحية الإسبانية والبرتغالية على وجه الخصوص⁴.

سعت أغلب المصادر الأوروبية في الفترة المذكورة إلى تضخم حجم "القرصنة البربرية"، و النتائج المترتبة عنها بشكل يصعب تصديقه، وقد لعبت كتابات رجال الدين على وجه الخصوص أمثال "هايدو"، "غراماي"، ودان⁵ دورا كبيرا في ترسيخ صورة الجزائر كأفة للعالم المسيحي، كان يرضخ فيها عشرات الآلاف من العبيد المسيحيين لكافة أنواع العذاب، والأعمال الشاقة، أوفي السجون⁶.

1 _ نيكولاي ايغا نوف: المرجع السابق، ص 255.

2 _ Nettement(A) : **Histoire de la conquête d'Alger**, paris, 1556, p75.

3 _ Moulay(B) **Histoire de la marine Algérienne**, 1516-1830 , Alger, 1983, p19.

4 _ حنيفي هلا يلي: أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، المرجع السابق، ص 67.

5 _ Pierre Dan : **Histoire de barbarie et de ses corsaires**, 2ed, paris, 1649, pp318-319.

انظر كذلك:

-Fontenay(M) : " **le Maghreb barbaresque et éclairage méditerranéen aux XVI – XVI siècle**" ,in **C.T.** 157-185, 1991, pp15

6 _ يذكر القنصل الأمريكي "شالر" في مذكراته شأن وضع الأرقاء المسيحيين في الجزائر كما يلي: "أرى من الواجب أن أقول كلمة عن المعاملة الفظيعة التي كانت تنتظر المسيحيين البؤساء، الذين يلغون هذا المصير... كانت سلطات الإيالة دائما احميهم من الأذى ومن سوء معاملة الأهالي، وإنه لمن الإنصاف أن أقول أن حالتهم لم تكن أسوء من حالة أسرى الحرب الذين يقعون في أيدي البلدان المسيحية المتحضرة..". أنظر: وليام شالر: المرجع السابق، ص 99-101.

وعليه يجب الابتعاد عن الادعاءات الأوروبية التي ترى في النشاط البحري للإيالة ودول شمال إفريقيا عملاً لصوصياً¹. الصراع المسيحي الإسلامي كان ناشباً في المتوسط، فالدول المسيحية كانت تشجع بطرق مباشرة وغير مباشرة مؤسسات قرصانية، وكانت البحرية القرصانية مؤسسة حكومية. فاعتبرته للإيالات المغاربة وجه من وجوه الحرب ضدهم، فأعلنت الجهاد في سبيل الله، من أجل استرجاع شبه الجزيرة الأيبيرية. ومع بداية القرن السابع عشر حدث تفوق واضح للبحرية الأوربية جعل القرصنة المغاربة يتفادون السفن الأوربية².

اقتحم العرب المسلمون مجال البحر ولم تكن لهم حاجة في ممارسة الجهاد البحري فكانت هجماتهم البحرية تهدف إما لتأمين الفتوحات الإسلامية، أو على شكل حروب بحرية دفاعية هدفها ضرب اقتصاديات العدو فكانت ملتزمة بمفهوم الجهاد في سبيل الله الذي يعتبر ركناً من أركان الإسلام الأساسية، كما يستمد مقوماته الشرعية من وصايا الصحابة والخلفاء الراشدين ومن فتاوى الفقهاء واجتهادهم³.

يقول "ابن خلدون" في هذا الصدد: "إنّه بدأ بصفة منظّمة في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، بعد أن ضعفت أساطيل المسلمين، وأصبحت الغلبة للفرنجية في البحر المتوسط، وعندما أصبحت الأمم النصرانية دولاً متعددة، يجمع النفر والطائفة من غزاة البحر ويصنعون الأسطول ويتخيرون له الأبطال الرجال ثم يركبون إلى سواحل الفرنجية و جزائريهم على حين غفلة فيخطفون منها ما قدروا عليه، و يصادمون ما يلقون من أساطيل الكفرة فيظفرون بها غالباً ويعودون بالغنائم والسبي والأسرى".

تقول "كورين شوفالييه" في كتاب "الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر": "إنّ القرصنة هي حرب مشروعة تتم بواسطة بيان صريح للحرب.. إذ بالنسبة للمسلمين فإنّ القرصنة قبل كل شيء هي شكل من أشكال الجهاد في البحر"⁴.

ذكر الأسير " ديوغو دي هايدو " (Diego de Haédo) بعض من صفات البحارة الجزائريين قائلاً: (...يبحرون شتاءً، وربيحاً دون خوف، و يجوبون البحر المتوسط من شرقه إلى غربه، دون أن يعيروا أي اهتمام لمراكبنا مستهزئين ببهارتنا الذين يستأنسون بملاهي الموانئ المسيحية حتى يخيل للمرء أنّهم -قرصنة الجزائر- يخرجون لصيد الأرناب البريّة فيقتلون واحد هنا والآخر هناك، وهذا راجع لكون المراكب الجزائرية خفيفة تسبق الريح على عكس المراكب المسيحية الثقيلة التي لا تستطيع مطادرتها ومنعها من الغزو حسيماً يحلوا لهم، و القرصنة يهتمون

1 Bayer(P) : **la vie quotidienne a Alger a la ville de l'intervention française** hachette, 1963, p231.

2 La caste (L) : **La marine Algériennes ou les turcs**, paris, éd Géographie Maritime et coloniale, 1931, P5.

3 محمد خير فارس، المرجع السابق، ص 89.

4 زكي مبارك، المرجع السابق، ص 16.

جداً بالنظام والنظافة وتنظيم المراكب وللإبحار ببطء وضد الرياح فإنه مسرح لأيّ كان حتى ولو كان نجل الباشا نفسه أن يغيّر مكانه، أو يتحرّك من المكان المتواجد فيه..¹.

للحديث عن أعداد هذه الطائفة فستستند إلى "دوماي" الذي قدّر عددهم بحوالي أربعة آلاف رجل، أضف إلى هذا العدد مجموعات أخرى، عزّزت هذه الطائفة كالملاحقين و الذين كان أغلبهم مسيحيين، و يهود مقيمين في الجزائر، و كانوا يقومون بأدوار تقنية، معينة (صناعة السفن، مدافع...) و قد ساهمت هذه الطائفة في تطور النشاط البحري بشكل كبير، فإلى جانب معرفتهم ببعض القواعد النظرية لفن الملاحة كمعرفة حركة النجوم و قراءة البوصلة و اتجاهات الرياح. كانوا معروفين بشجاعتهم.

يقول "حمدان خوجة" في هذا الصدد: (...). و هناك أمثلة رائعة عن استعداداتهم الطبيعية، و منهم من يتولون على السفينة في رحلتهم الأولى، و هم يجهلون مبادئ الملاحة الأولية، و سيما أنهم يعرفون الجبال و قممها معرفة جيدة، و قد كانوا يتمكنون من التمييز بدقة بين نقطة و أخرى (...). و هذا إن دل على شيء إنما يدل على ذكاء هؤلاء الرجال و علمهم و استعدادهم للتكيف مع الحياة البحرية².

كما لم يكن الرياس بحارة عاديين بشهادة المؤرخين المسلمين، و منه ما نقله لنا السفير "التمقروتي" أثناء إقامته بالجزائر أواخر القرن 16 م و بداية القرن 17 م حيث يقول: "...و رياس الجزائر موصفون بالشجاعة و قوة الجأش، و نفوذ البصيرة في البحر، يقهرون، النصرارى في بلادهم". ساهمت هذه الفئة في ازدهار النشاط البحري بدرجة كبيرة خاصة في القرن 17 م الذي تعزز برياس عظام أمثال: "علي بتشين، و مامي أرناؤوط، و جعفر جنويز..." و غيرهم بالرغم من تمتع هذه الطائفة بنوع الاستقلالية في القرن 16 م إزاء سلطة الوالي².

كان قد أُطلق على الحروب البحرية في القرن 15 و 16 م لفظ القرصنة هذا المصطلح الذي يُعرفه المؤرخ الجزائري "ابن أشنهو" بما يلي: "...فلا يوجد لهذا المصطلح مرادف في اللغة العربية إنما استعربت في القرن 9 هـ و

¹ _Diego DGMIL

e Haédo, **Histoire des Rois d'Alger**, traduit par: H.D.D.E, Grammont Adolphe, Jourdan, Libraire-éditeur, Alger, 1881, p19.

² _حمدان بن عثمان خوجة، المرأة،

² _صلاح العقّاد، المغرب العربي دراسة تاريخية الحديث و أوضاع المعاصرة، (الجزائر، تونس، المغرب الأقصى)، ط5، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1985، ص، ص321-230.

كان يسمى من يتعاطاها قرصانا "و هم مُعَرَّوفون عند"ابن خلدون "بغزاة البحر،و قد مَهَرَ فيها الأتراك و الجزائريون و خصوصا منهم أهل بجاية و شرشال و وهران¹.

تعتبر القرصنة البحرية قديمة قدم التاريخ، فلم تكن إذا وليدة القرن 16 م بل تعود جذورها إلى أبعد من ذلك بكثير إلا أن ازدهار نشاط القرصنة بدأ منذ القرن 16 م، و ارتبط بتطور السفن الملاحية، و ازدهار التجارة البحرية و تحول الحرب الدينية بين الهلال و الصليب من الحروب البرية إلى الحروب البحرية ضمن إطار المبدأ الذي ينص على أنه (من يملك، يملك البر)، إلا أن للقرصنة قوانين تحكمها و نظامها الدولي الذي يطرأها، و في هذا يقول "فرنان بروديل": (...). فالقرصنة ظاهرة قديمة في المتوسط لكنها تختلف عنها في الأطلسي، في أن الأولى لها قواعدها و أعرافها التي كانت تقوم بينها إلى تبادل القرصنة صلات...².

شكّلت القرصنة، أو ما يسميه الأوروبيون تحاملا بلصوصية البحر³، أبرز النشاطات الاقتصادية للإيالة الجزائرية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين بما كانت تدروه من ثروات عبر تجارة المفاهيم والرقيق، فكان البحر الأبيض المتوسط المحور الحقيقي للنشاطات.

كان القراصنة ينشطون بطريقة قانونية معروفة و مدفوعون من طرف حكومتهم، إذ كانوا يحصلون على تصاريحات مكتوبة قانونية المعروفة باسم "رسالة العلامة"، و التي تسمح لهم بمجابهة السفن التجارية للدول الأعداء و في واقع الأمر كانت القرصنة تعتبر بمثابة انتفاضة لأفعال غير العادلة التي يمارسها لصوص البحر، إذ أنها كانت تسعى من أجل تقليص العنف في البحر. و كانت أول رسالة مكتوبة و مرخصة من طرف "فيليب أوغست" في ماي من سنة 1206 م، التي سمحت للقراصنة بالتجول في البحر برعاية الملك: "إذ تعود أصول القرصنة إلى القرن 13 م، لكنها بلغت أوج نشاطها في الفترة الممتدة من القرن 16 م إلى غاية القرن 19 م في حوض الأبيض المتوسط⁴.

يجمع مؤرّخو الجزائر على أن هذه الحقبة التاريخية تمثل العصر الذهبي للبحرية الجزائرية، فلم ينقض العقد الثاني من القرن 17 م حتى بلغت البحرية الجزائرية قوة خارقة، و في سنة 1634 م حسب ما أورده الراهب "دان" فإن الأسطول الجزائري كان يتشكل من 70 وحدة منها ما هو مسلح بـ 25 مدفعا و منها بـ 40 مدفع و استمرت الجزائر محافظة على هذه القوة حتى حلول النصف الثاني من القرن إذ نَوَّه "لاكروا" بأن البحرية الجزائرية لا يمكن أن

¹ _Moulay Belhamissi, **Histoire de la marine Algérienne 1515-1830**, E.N.A.L, Alger, 1983, p49.

² _المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني (القرصنة-الأساطيل-و الواقع)، ج 2، المرجع السابق، ص 193.

³ _جمال قنان: **معاهدة الجزائر مع فرنسا 1619 - 1830**، المرجع السابق، ص 249-251.

⁴ _جمال الدين سُهيل، المرجع السابق، ص 140.

تضاهيها بحرية أية دولة أخرى "لا وجود لبحارة أقوى من البحارة الجزائريين لقد انطلقوا في البحر سنة 1656 م بـ 23 سفينة، يتراوح تسليح كل واحدة منها بين ثلاثين و خمسين مدفع و يصل طاقم بعضها إلى 400 شخص¹.

بنت الجزائر سياستها الخارجية على مجموعة المبادئ الأساسية التي شكّلت في جوهرها دستور الدولة، فيما خص علاقاتها بالدول المجاورة لها، خاصة الأوروبية منها، فكانت الشخصية و السيادة العامة للبلاد، و كرامة السكان و العباد أهم مبادئها، و مصلحة الدولة فوق كل اعتبار، و كرّست هذه المبادئ، في إطار الولاء للدولة العثمانية و دون الخروج عن سياستها العامة أثر النشاط البحري للجزائر بدرجة أكبر في القرن 17 م على مصير العلاقات بين البلدين التي كانت عليه في القرن 16 م التي اتّسمت بالتعاون الحذر، خاصة في عهد "خير الدين" الذي قدم يد العون للفرنسيين في حربهم ضد "شارل الخامس" الإسباني في عام 1543 م.

لكن مع بداية القرن 17 م و حتى نهايته، فشل البلدين في تحقيق التقارب الطويل الأمد، و يعود السبب الرئيسي في ذلك إلى دور النشاط البحري للجزائر، و الذي شكل آنذاك شوكة في حلق الفرنسيين، و أهم مظاهر ذلك معاهدة 1619 م التي فشلت بسبب اعتداء البحارة الجزائريين على سفن تجارية مرسيلية، دون علمهم ببداية المفاوضات بين الطرفين، لعقد الصلح بينهما مما أدى إلى فشلها، و دخول البلدين في قطيعة دامت لأكثر من عشر سنوات، لم تستطع الجزائر و فرنسا تحقيق سلم دائم، رغم وجود نية ذلك عند الجزائريين نتيجة عدم جدوى العهود التي كان يقدمها الفرنسيين، خاصة في عهد الملك "لويس الرابع عشر" الذي أظهر نواياه علانية ضد الجزائر بتجهيز حملة لاحتلال جيجل عام 1664 م².

خصائص القرن 17 م على الصعيد الخارجي أيضا اتساع نطاق تعامل الجزائر، فلم تعد فرنسا الطرف الوحيد الذي تتعامل معه بل أشتت كذلك إنجلترا و هولندا، كدولتين تجاريتين و كانتا الاثنان قد شققتا الطريق بغية الإنفراد بالتجارة الدولية و خاصة التجارة مع المشرق، بتأسيسها الشركات التجارية الكبرى ذات التنظيم المحكم كشركة الهند الشرقية البريطانية.

مما دفع بريطانيا بالتفكير في توطيد مركزها في البحر الأبيض المتوسط صراعها مع إسبانيا في عهد "فيليب الثاني"، فسعت إلى التقرب من الدولة العثمانية، و كلّلت مساعيها بالتوفيق إذ رَحّب السلطان العثماني بالتجار الإنجليز في أقاليم الدولة العثمانية جمعا، و منذ الثمانينات من القرن 16 م دخل الإنجليز البحر الأبيض المتوسط و

¹ Grand Champ, Une mission délicate en barbarie, jean baptiste salvago, in: R. T. 1937, 2eme partie, pp471-472.

² يحيى بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية مع دول و ممالك أوروبا (1500-1830)، المرجع السابق، ص 11.

لم يلق تجار منهم أو بحارة أية صعوبات خاصة و أن إنجلترا كانت في حرب مع عدو الجزائر التقليدي إسبانيا. و قد أضحى الإنجليز حلفاء طبيعيين لرياس الجزائر في تلك الحقبة¹.

ظهر الهولنديون مع مطلع القرن 17 م في البحر الأبيض المتوسط بعد أن آمنوا شر الإسبانين بفضل المعاهدة التي وقعت بينهما سنة 1603 م، و كان اصطدامهم بالبحارة الجزائريين منذ الوهلة الأولى، و تكبد الهولنديون من جراء ذلك خسائر معتبرة فبلغت خسائر العقد الأول من تواجدهم في البحر الأبيض المتوسط، 40 سفينة مما دفع بهولندا إلى التفاوض مع حكومة الجزائر في 1622 م و لم تتمكن هولندا من إبرام المعاهدة إلا بعد الحملة العسكرية التي وجهتها ضد مدينة الجزائر في 1622 م². مما لا ريب فيه أن ظهور إنجلترا و هولندا كمنافستين خطيرتين قد أثر تأثيرا بالغاً على العلاقات الفرنسية الجزائرية إذ أصبحت الامتيازات التي احتكرتها فرنسا وحدها خلال معظم القرن 16 م محل تنافس ثلاثي: -فرنسي، إنجليزي، هولندي-³.

كما يعتبر القرن السابع عشر عصر التفوق البحري لإيالة الجزائر و سيطرتهم على البحر الأبيض، و عبورهم المحيط الأطلسي إلى إسبانيا و البلطيق و بفضل هذه القوة استطاعت أن تصبح القوة الأولى بحريا في المتوسط فكما يذكر صاحب تحفة الزائر "...كانت لها اليد الأولى في البحر الروسي، و كانت بعوثها و غوازيها كثيرا ما تشمل الثغور الإفريقية بالخشف و الدمار..."⁴.

بلغت قوة البحرية الجزائرية درجة كبيرة من التطور و بشهادة السفير الإنجليزي "كتونغهام" الذي قال: "...إن قوة و جرأة قراصنة شمال إفريقيا هما الآن على هذا النحو من الضخامة سواء في البحر المتوسط أو المحيط الأطلسي، و أشهد أن لم أعرف في حياتي شيئا قد جلب إلى البلاط الإسباني الأسى العميق و الخراب الكثير غير هؤلاء القراصنة..."⁴.

تطورت أهداف البحرية الجزائرية غير أن هذا التطور لم يكن بين عشية و ضحاها، بل كان نتيجة تطورات سياسية و اقتصادية و اجتماعية، شملت الجزائر و كل دول حوض البحر الأبيض المتوسط، و على هذا الأساس يمكن القول أن البحرية الجزائرية قد مرت بثلاث مراحل أساسية و هي:

مرحلة الجهاد البحري (حرب الرمادات): كانت البحرية الجزائرية غداة تأسيس الدولة الجزائرية سنة 1519 م موسومة بطابع جهادي صرف، لأن معظم أراضي شمال إفريقيا كانت تحت السيطرة الإسبانية، لذلك عمل

2_Le Père Dan, **Histoire de Barbarie et de Ses corsaires**, paris, pierre racolat, MDCLIX, 1637, p315.

² _ابراهيم سعيود، المرجع السابق، ص 145.

³ _عائشة غطاس، العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السابع عشر 1619-1694 م، المرجع السابق، ص 19-22.

⁴ _جيروم ب وايز، المغرب و قراصنته المغاربة في القرن السابع عشر، تع: طارق العسكري وعبد الهادي التازي، في: مجلة البحث العلمي، جامعة محمد الخامس، السنة 16، ع 29-30، الرباط-المغرب، 1399 هـ/ 1979 م، ص، ص 14-17.

بيلربايات الجزائر على نحو التواجد الإسباني المسيحي في أراضي المسلمين ، كما حاولت البحرية الجزائرية بقيادة رياسها المخنكين ، الاستيلاء على عدد من الجزر المتوسطية و التي كانت محل صراع بين المسلمين و المسيحيين ، نظرا لما لها من أهمية إستراتيجية في السيطرة على الملاحة البحرية في البحر المتوسط و في هذا يقول المؤرخان الجزائريان "ناصر الدين سعيدوني" و "المهدي بوعبدلي": (لقد كان الجهاد البحري في الجزائر، ردّ فعل مباشر على التهديدات المسيحية التي اتخذت إثر سقوط الأندلس في أواخر القرن 15 م شكل حملات صليبية تباركها الباباوات بروما و تركيها الحكومات الأوروبية ، و تنزعها إسبانيا الكاثوليكية)¹.

كانت البحرية الجزائرية موجهة لضرب البحريات الأوروبية الصليبية، و لإنقاذ المسلمين الأندلسيين ، ففي تلك الظروف السياسية و النفسية التي كان يعيشها مسلمو الأندلس ، و في ظل القمع و الاضطهاد الرهيب الذي فرضته عليهم العصب الكنسي و الملكي و الحمجي . لقد كانت محنة مسلمي الأندلس و الرغبة في تلبية ندائهم لإنقاذ ما يمكن إنقاذه منهم ، محكا و مخبر لإفراز الرجال و الطاقات التي تكون في مستوى المرحلة ، فكانت البحرية الجزائرية أهلا لها في تلك الظروف السياسية ، المتأزمة التي تعذرت فيها لغة الحوار استفحلت البحرية الجزائرية لتضرب في عمق سواحل الإمبراطورية المسيحية الإسبانية و تعرقل طرقاته التجارية².

سجل التاريخ ما بين 1563 و 1571 م أعظم الأحداث الجسام في تاريخ التصادم بين الروح الصليبية و المد الإسلامي ففي عهد كل من البيلرباي "حسن باشا" و "علج علي" سجل الحضور المكثف للبحرية الجزائرية في عرض البحر المتوسط ، أعنف هجماته على الملاحة البحرية الصليبية ، كما أحدثت أخبار المقاومة المورسكية المسلحة ببجبال البشارت 1568 و 1570 م المدعمة من قبل البحرية الجزائرية أعظم التضحيات.

كذلك انهزم الأسطول العثماني أمام التحالف الصليبي الكبير في معركة ليبانت و نجاة أسطول الجزائر من التحطم في هذه المعركة بفضل حنكة رياسها "علج علي" و الذي غدا أميرال الأسطول العثماني ، فكل هذه الأحداث أضرمت من سعي الحقد الصليبي ضد الإسلام ، و في المقابل جعلت من الجزائر دار الجهاد الإسلامي التي تعلق عليها آمال المسلمين في الجزء الغربي من البحر الأبيض المتوسط³.

كان بحارة الجزائر ينشطون بدافع ديني يدفعهم للهجوم على المسيحيين ، و لذلك فإن النشاط الذي مارسته البحرية الجزائرية خلال القرن 16 م عبارة من جهاد بحري و امتداد للحروب الصليبية و ذلك نظرا لأسبابها الدينية

¹ _جون.ب.وولف ، المرجع السابق ، ص 191.

² _Lemnouar Merouche , **Recherches sur L'Algérie à l'poque Ottomane**, v2, La course mythe et réalité, édition Bouchene, France, 2007, P106.

³ _حنيفي هلايلي، **التنظيم العسكري للبحرية الجزائرية في العهد العثماني**، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ع24، دار الهدى للطباعة، عين مليلة، الجزائر، 2007، م، ص 257.

و دوافعها العاطفية ، و بالتالي لم تكن الفوائد المادية التي جنتها الجزائر من جراء الجهاد البحري هدفا رئيسيا للقرصنة¹. أدى قراصنة الجزائر دورا هاما في قيادة الأسطول العثماني أو في إعادة بنائه و تدعيمه ، كما شاركت البحرية الجزائرية التي كان يقودها رياس محنكون في معظم الحروب البحرية التي تسنتها الخلافة العثمانية على الدول الأوروبية الصليبية ، أو في محاصرة و احتلال الجزر التي كان المسيحيين يسيطرون عليها ، أو في تحرير أراضي المسلمين كتونس و طرابلس من وطأة الصليبيين الأوروبيين ، وقتها كانت الجزائر بمثابة سيف الإسلام المسلول في وجه الإمبراطوريات الصليبية بالجزء الغربي من الحوض المتوسط ، و هذا ما دفع بالمؤرخ المؤرخ الأمريكي "وليام سبنسر" إلى القول: "... إن مدينة الجزائر كعاصمة لدولة مستقرة و قوية في شمال إفريقيا قد مثلت... طرف القوة الإسلامية العثمانية القاطع و المنهمك في المقارعة الصليبية ضد المسيحية ، كالشفرة الحادة المدفوعة بعمق في التراب المسيحي "

مرحلة الغزو البحري أو (حرب المغامرات) : أعتبر القرن 17 م عصر البحرية الجزائرية الذهبي ، فقد شمل نشاطها البحر المتوسط كله ، و امتد إلى سواحل أوروبا الشمالية و البرازيل و ايسلندا ، و الأراضي الجديدة ، ففي الفترة بين 1621 و 1627 م كان في الجزائر 20 ألف أسير فلامنديون و إيقوسيون ، إنجليز و دانمركيون ، إرلنديون و هنغاريون ، أسبان و فرنسيون ، إيطاليا و سوريون ، و مصريون و يابانيون ... ، و أناس من إسبانيا الجديدة ... ، فكل أمة كان لها في الجزائر طابور من الأسرى ، و من المرتدين (العلوج) و تجاوزت الغنائم في أوائل هذا القرن ما قيمته ثلاثة ملايين جنيهه ففي بداية القرن 17 م أصبحت الجزائر مدينة في حجم المتوسط الذي مدت فيه شبك قراصنتها حتى سواحل إنجلترا و سواحل إسكلندا ، لقد شكلت ظاهرة عالمية أدت إلى ولادة مؤسسات لاسترجاع الأسرى منها و افتدائهم ، و عملية تبادل الأسرى و السلع غيرت من جغرافية الأسواق و التجارة فولدت روابط و اتصالات و وسطاء².

تطور الأسطول الجزائري في ظرف قرن ، فخلال الفترة 1529 و 1579 م ، كان الأسطول الجزائري حسب الظروف يبلغ ما بين خمس و ربع مجموع الأسطول العثماني ، أما في النصف الأول من القرن 17 م فقد صار الأسطول الجزائري يشكل ما يعادل ثلث أو نصف الأسطول العثماني ففي هاته الفترة المفصلية ، اتخذت القرصنة طابع المؤسسة الخاص من أجل الربح بصورة شديدة الوضوح ، و كانت سفن القرصنة إما ملكية لكبار القراصنة و الحكام ، أو لشركات ذات أسهم يتم فيها توزيع الغنائم حسب قواعد³.

¹ _ يحي بوعزيز ، الموجز في تاريخ الجزائر - الجزائر القديمة والوسطية والحديثة - ، ج2، المرجع السابق، ص178.

² _ جيروم ب وايز، المرجع السابق ، ص 25.

³ _ زكي مبارك، المرجع السابق ، ص 20.

أما عن علاقة النظام الحاكم بالقرصنة، فقد كانت القرصنة تستفيد كثيرا من المساعدات المباشرة و غير المباشرة التي كانت الدولة تتكفل بها فوسعت و وطدت المنشآت البحرية و كان للحكام مصلحة مباشرة في تنمية القرصنة سواء باعتبارهم من أرباب السفن أو لكونهم أكبر الملاك لآلاف العبيد الذين كانوا يُستعملون كمجدفين في هذه السفن كما كان الباشا الذي له مثل كل كبار الحكام نصيب في القرصنة، و قد تكون عدة سفن ملكا خاصا له... كما كانت القرصنة تضمن تشغيل ربع القوة العاملة في الجزائر..¹.

ساهمت البحرية الجزائرية و قراصنتها في تطوير الاقتصاد الجزائري و جعل مدينة الجزائر، مدينة ثرية مزدهرة، و في هذا يقول الإخباري الجزائري "ابن الرقية التلمساني" (...الجزائر عامرة، كثيرة الأسواق، كثيرة الجند حصينة،... و مرساها عامر بالسفن، و رياسها موصفون بالشجاعة و قوّة الجأش و نفوذ البصيرة في البحر، و يقهرون الناصري في بلادهم، فهم أفضل من رياس القسطنطينية، كثيرا و أعظم هيئة و أكثر رعبا، في قلوب العدو فبلادهم بذلك فضل من جميع بلاد إفريقية و أعمار و أكثر تجارا، و فضلا و أنفذ أسواقا و أجود سلعة و متاعا حتى أنهم يُسمونها إسطنبول الصغرى)².

لم تكن رفاهية الجزائر التي استمرت إلى منتصف القرن 17 م و الرخاء الذي ساد مدينة الجزائر و نواحيها، إلا تحصيل حاصل لنشاط البحرية الجزائرية و المغامرين الجزائريين الذين طبعوا هذه الفترة بطابعهم إن توقف، إذن في سنة 1574 م في المتوسط هو الحروب الكبرى (حرب الإيرادات) أي حروب كل من الدول و الحضارات، التي ما إن انتهت حتى توجه محاربوها و تجارها و رجالها و أحيانا سفنها، توجهوا جميعا إلى الحروب الصغرى (حرب المغامرات) التي شكلت القرصنة وجهه الأبرز. مرحلة الدبلوماسية أو (شرطة البحر): و فيها كانت البحرية الجزائرية تراقب تطبيق السفن الأوروبية لبنود المعاهدات التي و وقعتها بلدانهم مع الجزائر.³

عملية النشاط لم تكن البحري عملية عشوائية، و إنما كانت منظّمة لها هياكلها و مؤسّساتها التي أضفت عليها طابع العملية الحكومية البعيدة عن النرجسية و الأعمال الفردية، ففي إطار إعادة التنظيم الأساسية لبنية الحكم أنشئت هيئات قيادية جديدة في البحرية، و قد أخذت هذه الهيئات وقتاً كما كان للقائمين على إيجادها عدّة محاولات لذلك.

أهم هذه الهيئات لتنظيم النشاط البحري و شؤون البحرية نجد: ديوان الرياس الذي يعتبر من الهيئات الجديدة المنبثقة عن الديوان العام، و تعود فكرة إنشائه أو مبادرة ذلك إلى "مزمورتو" فحسب رسالة للقنصل الفرنسي مؤرّخة بتاريخ 23 أبريل 1687 م، أن "مزمورتو" جمع ديوان الرياس ثلاث مرات لمناقشة مسألة السلم مع فرنسا

¹ _ محمد طمار، الروابط الثقافية بين الجزائر و الخارج، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1983 م، ص 248.

² _ ابن رقية التلمساني الجديري، المصدر السابق، ص 18.

³ _ أرزقي شويثام، دراسات و وثائق في تاريخ الجزائر العسكري والسياسي الفترة العثمانية 1519-1830 م، دار الكتاب العربي، 2010 م، ص 41.

ليدل ذلك أن ديوان الرياس كان له نفوذ كبير في السلطة، إضافة إلى أنه بالاستثناء إلى تاريخ الرسالة كان موجودا قبل ذلك و إلا فكيف كانت له تلك المكانة¹. و طائفة الرياس: التيتكونت البحرية الجزائرية منذ وصول العثمانيين إليها من الجهاد البحري الذين التحقوا بـ "خير الدين"، و مع تعاضد دورهم، و تزايد أهميتهم للإيالة كعصب للنشاط البحري، حيث أنشئت طائفة الرياس، و التي أخذت من مرسى الجزائر قاعدة لها. مع تزايد النشاط البحري، شكّلت هذه الطائفة المحرك الأساسي للإيالة، و ساهمت بشكل كبير في ثراء الإيالة، و صاحب تزايد هذا النشاط مع تزايد حجم الغنائم، و عدد الأسرى خاصة بعد توسيع نطاق نشاطها من المتوسط إلى الأطلس².

1_عوامل قوة البحرية الجزائرية:

بلغت البحرية الجزائرية أوجها في النصف الثاني من القرن 16 م، والنصف الأول من القرن 17 م حيث امتدّ نفوذ الجزائر البحري والسياسي إلى الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط من ناحية، و إلى شواطئ أوروبا الغربية من ناحية أخرى فقد كان الأسطول الجزائري يجوب المحيط الأطلسي في بريطانيا، و ايسلاندا إلى جزر الكناري و الأوراس .

لعبت البحرية الجزائرية دوراً أساسياً طيلة الفترة العثمانية حيث كانت تقوم بعمل مزدوج، الدفاع عن الجزائر و الدفاع عن باقي البلدان المغاربية، و المشاركة في الدفاع على البلاد الإسلامية خاصة الدولة العثمانية في شرق البحر المتوسط وذلك دفاعاً عن المقدّسات الدينية و الوطنية³.

كان الأسطول الجزائري دائماً في المقدمة يخوض المعارك تلو الأخرى الأمر الذي أربع أوروبا، وهدّد مصالحها التجارية و الاقتصادية على سواحل البحر الأبيض المتوسط نتيجة قوة البحرية، و تعود قوة البحرية الجزائرية في العهد العثماني إلى عدّة أسباب نذكر منها:

- الموقع الجغرافي الممتاز للجزائر، وطبيعة سواحلها المفتوحة على أوروبا والمتحكمّة في الحوض الغربي للمتوسط ممّا جعلها محط أنظار و صراع بين دول شمال و جنوب المتوسط حتى أطلق عليها اسم "المخرّوسة"، و "المنصورة"، و "دار الجهاد".

¹ _LM.Chaillou ,texte pour servir à l'histoire de d'Algérie au XVIIIème siècle ,1979 ,p24.

² _محمود السيّد الدعيم، تاريخ البحرية العثمانية حتى نهاية عهد الخليفة العثماني سليم الثاني 1574، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، 1994، ص 13-15.

³ _أبو القاسم سعد الله، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر، ط2، المرجع السابق، ص282.

- الظروف الدولية الملائمة والمتمثلة في التنافس بين الدول الأوروبية وما انجر عن ذلك من صراع و توترات مثل العداوة بين "فرنسوا الأول" ملك فرنسا و الإمبراطور¹ "شارل كان" (شارل الخامس) و كذلك التنافس الهولندي الفرنسي-الإنجليزي، فيما بعد على اكتساب المستعمرات و السيطرة على التجارة العالمية أثناء القرن 17 م.
- التسامح و الترحاب اللذان كان يلقيهما البحارة الأوروبيين الراغبون في العمل بالبحرية الجزائرية والمعروفين بالأعلاج(Renégats) و هذا ما سمح لكثير منهم بتبوء منزلة مرموقة ومكانة عالية بعد اعتناقهم الإسلام و ارتباطهم بالجزائر رغم أصولهم المختلفة (إغريق، أسبان...).
- الاستعداد النفسي والإيمان بحق الدفاع عن حرمة الإسلام بعد انهيار الأندلس، و حلول الأسبان بالسواحل.
- استخدام البحارة الجزائريين الأساليب الحربية الملائمة مثل الالتجاء إلى الغارات المفاجئة و استعمال بنادق البارود السريعة الطلقات والمدافع الخفيفة في هجماتهم، و كذلك امتلاكهم السفن المتطورة و القدرة على الإبحار في أعالي البحار المعروفة بالسفن المستديرة، و هي سفن شراعية حربية فضلا عن تمكنهم من صناعة الأنواع الأخرى من السفن الصالحة للغارات البحرية المحدودة المدى بالبحر المتوسط، مثل السفن المعروفة بالكرفات والشالوب و القاليوطة والفرقاطة و الشباك والبلاكر والبريك.
- مهارة البحارة الجزائريين وكفاءتهم الحربية و مقدرتهم القتالية العالية التي مكنتهم من تحقيق انتصارات حاسمة، و من هؤلاء نذكر على سبيل المثال الأخوين بروسية "عروج وخير الدين" و "درغوث" باشا و "صالح رايس" و "علج علي"².
- تجنيد الأوروبيين في البحرية الجزائرية والمعروفين بالأعلاج وهذا ما جعل الكثير منهم يصل إلى مراتب عالية في الحكم بعد اعتناقهم الإسلام و ارتباطهم بالدولة العثمانية.
- الانتظام والتمويل في العمليات الحربية حيث أصبحت الطريقة الجزائرية في الجهاد البحري والتنظيم مثلاً يحتذى به و خاصة بالنسبة لرجال الطائفة في تونس وطرابلس.
- نجد كذلك أنّ بحارة الأسطول الجزائري كانوا يخضعون لإجراءات قانونية تجبرهم على الدفاع عن حدود إيالة من أي خطر أجنبي يهدد مصالحها.
- عصر الاضطراب السياسي و أهم ما يميّز الحياة السياسية خلال هذه الحقبة هو التغيرات الخطيرة التي عرفها النظام السياسي¹.

¹ ناصر الدين سعيدوني، وورقات جزائرية -دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني-، طبعة ثانية-، المرجع السابق، ص 140-141.

² ناصر الدين سعيدوني، وورقات جزائرية، ص 14

أجمع مؤرّخو الجزائر على أن هذه الحقبة التاريخية تمثل العصر الذهبي للبحرية الجزائرية. فخلال عشرية الأربعينات من القرن السابع عشر، يكون أسطول البحارة قد وصل إلى أقصى تطوره. فقد كان الجزائريون عندئذ يجوبون البحر الأبيض، من البحر الأدرياتيكي إلى مضيق جبل طارق، بل إنهم اجتازوا إلى المحيط الأطلسي. وقد بلغوا أراضي أيرلندا وإنجلترا، والدنمارك والبرتغال وإسبانيا وأخذوا منها الأسرى والغنائم. لقد أصبح الأسطول الجزائري عندئذ بعيدا كل البعد في حجمه عن تلك القطع الصغيرة من السفن التي أحضرها "عروج" في فاتحة القرن السادس عشر². استطاعت الجزائر بفضل هذه القوة أن تسيطر سيطرة تكاد تكون كلية على الحوض الغربي من البحر البيض المتوسط، فأصبحت الجزائر مثلما ذكره صاحب "تحفة الجزائر"، "...كانت لها اليد الطولي في البحر الرومي، وكانت بعوثها وغوازيها كثيرة ما تسم الثغور الإفريقية بالخسف والدمار..."³..

بلغت الجزائر خلال النصف الأول من القرن السابع عشر أوج قوتها العسكرية والسياسية، والاقتصادية، بدليل استكمالها لوحدها الترابية (الجغرافية).

وفي ظل الجهاد البحري القائم ضدّ المسيحيين، عرفت قطع الأسطول البحري الجزائر تطورا سريعا بلغ ذروته في النصف الأول من القرن السابع عشر، وهذا ما يتضح من تتبع أكثر الأرقام التي أوردتها المصادر (حسب التسلسل الزمني):

ففي فترة زعامة "إبراهيم عرباجي" و"علي بتشين" (1621-1645م) لطائفة الرّياس عاين نائب القنصل الفرنسي "فرانسوا شيه" "Fracois Chaix" 85 سفينة قرصنة كاها حسنة التسليح، و التجهيز. و يذكر "بيتيس دي لacroix" "Petis De Lacroix" أن البحرية الجزائرية ضمت 45 سفينة قرصنة سنة 1645 م.

والملاحظ أنّه منذ ذلك الحين، بدأ تناقص عدد وحدات الأسطول شيئا فشيئا نتيجة عدّة أسباب يمكن إجمالها فيما يلي:

¹ _ على خلاصي، البحرية الجزائرية عبر التاريخ، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار "منشورات المتحف المركزي للجيش"، وحدة الرواية، الجزائر، 2007 م، ص 17-19.

1_ جون وولف: المرجع السابق، ص 186.

2_ عبد القادر الجزائري، الأمير محمد: تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، شرح وتعليق ممدوح حقي، دار اليقظة العربية، بيروت، 1964، ص 126.

- الخسائر الفادحة التي تكبدتها في حروبها ضدّ الدول الأوربية¹، في ظلّ اشتداد الصراع المسيحي الإسلامي الذي شهده المتوسط، خلال حرب كريت (1645-1669م)، والتي كانت الجزائر طرفا فيها، تبعا للانحياز الديموغرافي على المستوى البشري بسبب الوباء، وعدم الاستقرار الداخلي².

2_ صناعة السفن و الأسلحة:

استطاعت البحرية الجزائرية المتصاعدة القوى تدريجيا من حيث بناء السفن و مداخل النشاط البحري، و عائدات افتداء الأسرى، فرض نفسها ابتداء من النصف الثاني من القرن 16 م و يدلل الكثير من المؤرخين على ذلك خاصة "هايدو"، بتفوق الجزائريين في بناء السفن في كثير من أحواض - كما يسميه - الجزائر مثل شرشال و بجاية و مدينة الجزائر، و غيرها من المراكز، و عملت هذه المراكز على حد قوله، على طرد الأسباب من حصن البنيون.

أجمعت المصادر، على أن قوة الأسطول البحري للجزائر ازدادت تدريجيا في بداية خضم الصراع العثماني الأسباني و الذي لعبت دورا حاسما فيه، و الأمر الذي يجعلنا في خضم هذه الحقائق، التساؤل حول حجم البحرية الجزائرية في القرن 17 م تحديدا من حيث جوانب عدة: كصناعة الأسلحة و السفن و عددها أو ما يسمى بحجم الأسطول البحري من جهة، و غنائم هذا الأسطول، و حتى أهم غزواته من جهة أخرى³.

يعدّ تطور بناء السفن و الأسلحة البحرية في الجزائر انعكاس لما توصل إليه الأتراك العثمانيون في إسطنبول من تطور كبير في هذا المجال، فبدون استثناء أولى سلاطين بني عثمان، اهتماما بالغ الأثر لصناعة السفن، فالعثمانيون و منذ بداية ظهورهم اهتموا بالقوة البحرية، للربط بين شطري سلطتهم الممتدة من آسيا إلى أوروبا، بعد فتح كل من صربيا و بلغاريا، و هما دولتان مهمتان على الصعيد الجغرافي لأوروبا الشرقية، و كلل الفتح كذلك بفتح القسطنطينية سنة 1453 م من الشطر الأوروبي، و هذا التوسع عمل كل سلاطين بنو عثمان على توطيد سلطاتهم بالبحر، و للحفاظ على قوة البحرية كان لابد من إنشاء دار الترسانة، أو ما يسمى بدار الصناعة و التي يعود إنشائها حسب بعض المصادر إلى ما قبل 1553 م.

3_ على سبيل المثال فقدت الجزائر حوالي 38 مركب تمّ الاستيلاء عليها و إحراقها من طرف الأساطيل المعادية لانكلترا والأراضي المنخفضة. انظر:

-Van. G Kieken: **les relations entre Alger et les Pays-Bas 1604-1830**, Editions Bouchene Paris, 2002, pp53-64-67.

2_ صالح عباد: المرجع السابق، ص ص 224، 225.

3_ أرزقي شويتم، دراسات و وثائق في تاريخ الجزائر العسكري والسياسي الفترة العثمانية 1519-1830م، المرجع السابق، ص 50.

يقول "خير الدين" باشا في مذكراته المعنونة بـ(مذكرات خير الدين برباروس) واصفا بقوله دار الصناعة الخاصة بالسفن "...زُرت إسطنبول مع بعض البحارة الجزائريون، انبهر البحارة عندما رأوا إسطنبول، و تحولوا في مضيقها و زاروا حصونها و قلاعها، و أسوارها المنيعة و كم كانت دهشتهم عظيمة لما رأوا المصنع السلطاني لبناء السفن، الذي كان يُعجُّ بعشرات الآلاف من العمال، بل قريبا من مئة ألف عامل كلهم يشتغلون فيه كأهم خلية نحل، فحمدوا الله كثيرا، على كونهم تابعين لدولة على هذا القدر من القوة و العظمة"¹.

لنقل هذه الصناعة إلى الجزائر، تدرب الشباب الجزائريون بهذا المصنع و بأمر من "خير الدين" حيث يقول: (...أما الشباب الراغبين في التجنيد بالأسطول، فأرسلت ثلاثمائة منهم من يعرفون أولهم معرفة بالبحرية، و أما الآخرون فقد عينتهم في مصنع بناء السفن، لكي يتعلموا و يتدربوا هناك ...)، و هذا بالطبع قصد الاستفادة من خبرتهم لصناعة السفن البحرية في الجزائر.²

استطاعت البحرية الجزائرية في سنة 1645 م مضاعفة العدد عن طريق الغزو و البناء، و وصل عدد السفن الإضافية إلى 74 قطعة لكن عدد السفن و وحدات الأسطول عموما، بدأت تعرف تناقصا شينا فشيئا، و ذلك يعود إلى عدة أسباب أهمها:

- اشتداد الصراع الإسلامي المسيحي في المتوسط، خاصة في حرب الكريت (1645-1699 م) التي اعتبرت الجزائر من أطرافها.
- الخسائر الكبيرة التي تكبدتها الجزائر جراء هذا الصراع.
- كثرة الأوبئة و الأمراض و الجُمود الاقتصادي، و الانهيار الديمغرافي الذي عرفته البلاد الجزائرية، نتيجة ما عرفته أوروبا من تقدم صناعي كبير.³

عرف عدد قطع الأسطول الجزائري منذ عهد خير الدين تطورا سريعا بلغ ذروته في النصف الأول من القرن السابع عشر و حسب ما أفادتنا بعض المصادر بلغ الأسطول أقصاه خلال زعامة كل من "إبراهيم عرابجي" و على بتشين "لطائفة الرأس" (1621-1645 م) فقد عاين نائب القنصل الفرنسي "فراسوشية" François chaix "خمسة وثمانون سفينة قرصنة، كلها حسنة التسليح والتجهيز في سنة 1621 م"⁴

¹ - أرزقي شويتم، دراسات و وثائق في تاريخ الجزائر العسكري والسياسي الفترة العثمانية 1519-1830 م، المرجع السابق، ص 51.

² - علي خلاصي، المرجع السابق، ص 19-21.

³ - ناصر الدين سعيدوني و المهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ - العهد العثماني -، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ج 4، 1984، ص 45.

⁴ Plantet.(E): Op.cit,P17.

و إشارة الأسير البرتغالي "ماسكار يناس" في الفترة ذاتها تقريبا إلى وجود ثمانون مركبا، وستة قادرغات¹، و أربعة بركانطي²، بالإضافة إلى العديد من القوارب في الميناء³.

يذكر "بتس دي لأكروا" "Pâtis de croix" أن البحرية الجزائرية ضمت خمسة وأربعون سفينة قرصنة، وثلاثة قادرغات، وستة غليوطات⁴، وعشرون من نوع بركانطي سنة 1645م⁵.

منذ ذلك الوقت بدأ تناقص عدد وحدات الأسطول شيئا فشيئا نتيجة عدة أسباب لعل أهمها تلك الخسائر الفادحة التي تكبدتها الإيالة في حروبها مع الدول الأوروبية⁶.

في ظل اشتداد الصراع المسيحي الإسلامي الذي شهدته المتوسطية، خلال حرب كريت (1645 - 1669م)، والتي كانت الجزائر طرفا منها، إضافة إلى عدم الاستقرار والأوبئة التي عرفت بها البلاد⁷.

يظهر ذلك جليا من خلال ما أورده "دايير" "Dapper" سنة 1959م عن وجود اثنان وعشرون أو ثلاثة وعشرون سفينة بارجة مسلحة ما بين الثلاثين والخمسين مدفعا وتحمل وكل وحده منها ثلاثمائة أو

1 _ جمع القادعة (galère)، كما كانت تسمى بالعثمانية، سفينة ذات مجاديف مزودة بشراع مثلث طولها حوالي 45م، وعرضها 5.5متر. تحمل من 3-5 مدافع أنظر:

- Planhol.X: **L'islam et lamer**, paris, 2000, pp179-201

3_ البركانطي (brigantin) تعرف باسم فرجاطة لدى الجزائريين سفينة صغيرة ذات مجاديف.

3_ Mascarenhas: **Esclave a Alger (1621- 1624)**, trad., du portugais et présente par P.teyssier, 2e éd, Editions chandeigné, paris, 1999, p82.

5 _ الغليوطة (galiote)، سفينة لا تختلف عن القادعة لكنها أصغر وأسرع

6 _ Merit (E) : **"Un mémoire sur Alger par pétris de la Groix 1695"**, in, **A.I.E.O**, 1958, n^o11, p, 21.

7_ فقدت الجزائر على سبيل المثال ما بين عامي 1655 و 1671م حوالي 38 مركبا تم الاستيلاء عليها وإحراقها من طرف الأساطيل المعادية للإنجليز والأراضي المنخفضة، أنظر كذلك:

- Kriken (G.van): **Corsaires et marchands. les relations enter Alger et les pays- bas (1604-1830)**, Edition Bouchéne, paris, 2002, pp53-67..

_ يذكر سامح ألتر شأن وباء 1654م: "... يقال أن هذا الوباء نقله بحارة الأسطول العثماني، ولهذا سمي بالوباء الكبير أو وباء القونيه، وقد استمر مدة ثلاث سنوات وذهب ضحيته ثلث سكان الجزائر. أنظر: عزيز سامح ألتر: المرجع السابق ص 377-378.

أربعمائة رجلاً¹. وذكر "محمد بن رقية التلمساني" أنه في عام 1661م كان في الجزائر من السفائن اثنان وأربعون سفينة²، و ورد في مصدر إنكليزي بقي مؤلفة مجهولا أن البحرية الجزائرية سنة 1675م ضمت واحد وثلاثون سفينة قرصنة، بالإضافة إلى ثلاث قادرغات، وسبع بركانطي، وشطّيتان³، أي ثلاثة وأربعون سفينة إجمالاً. وقد تناقص هذا العدد كثيرا في النصف الأول من القرن الثامن عشر. إذ وضع "لوجية دوتاسي" Laugier De Tassy سنة 1724م، قائمة مفصلة لأربعة وعشرين سفينة حربية كان نصفها فقط من البوارج التي ترواح تسليحها بين ثلاثين وخمسين مدفعا⁴، وفي سنة 1738م، لم يعد الأسطول يضم سوى ثمانية عشر سفينة⁵. نتيجة الغارات الأوروبية على مدن الجزائر الساحلية لعدة أسباب منها: القضاء على نشاط البحرية الجزائرية، وإطلاق سراح الأسرى وإلغاء الامتيازات مما أدى بها إلى إبرام اتفاقيات مع الدول.

يعتبر القرن 16 م و بأقل درجة من القرن 17 م العصر الذهبي للنشاط البحري الجزائري، بالنظر إلى حجم قطع الأسطول المتزايد، وكذلك إلى الغنائم البحرية التي كان يغنمها الرياس، وتعد المصادر التي تناولت أمر الغنائم البحرية قليلة وغير دقيقة، إذ تراوحت ما بين المبالغة تارة، وبالأسطورية المقترنة بالخيال تارة أخرى، ولعل من باب اختيارنا للقرن 17 م كموضوع للدراسة، جعلنا نستنتج أن جل المعلومات المتوفرة حول الغنائم لا تعطي كل الفترات، وتعطينا جزءا بسيطا من حجم الغنائم في القرن 17 م⁶.

توجد ورشات لصناعة السفن و تصليحها في موانئ بجاية و مدينة الجزائر و شرشال، وكانت غابات شرشال توفر كمية من خشب البلوط و الصنوبر لصناعة السفن إلا أن كمية الخشب المنتجة عرفت تراجعاً ابتداءً من عام 1650 م و ذلك نتيجة الاستغلال المفرط للغابات، و قد عرف ميناء شرشال في عهد "خير الدين" تطوراً ملحوظاً، فكانت توجد به مخازن للخزن و ورشات لصناعة الحبال و الأشرعة، كما عيّنت الإدارة قائداً خاصاً

1 _Dapper(O): **Description de l'Afrique contenant les noms et la situation** avec des carte des états des provinces et des villes, Traduite de Flamand, Wolfgang, Amsterdam 1686,p177.

2_جمال قنان، نصوص و وثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500-1800م، المرجع السابق، ص 90، 91.

3_G.P: **The present state of Tangier in a letter to his grace the lord chancellor of Ireland and one of the lords justices there**, to which is added the present state of Algeria, H. Herring man, London, 1676, pp158,159.

4_Laugier de Tassy(J.P): **Histoire du royaume d'Alger**, Henri du Sauzet Amsterdam, pp 158-159.

5_De.Voulex.(A): "**la marine de la régence d'Alger**", in **.R.Af.**,1869,n⁰13,p396.

6 _صلاح العقّاد، المرجع السابق، ص 329-330.

لاستغلال الغابات الساحلية الممتدة من بلاد القبائل إلى القل مروراً بجيجل في بايلك قسنطينة و الأشراف عليها و أولت الجزائر أهمية خاصة لمادة الخشب المخصص لصناعة المراكب لأنها كانت بحاجة إلى أسطول قوي لمواجهة الأخطار الخارجية و لهذا كانت جل معاهداتها مع الدول الأوروبية الشمالية تنص على أن يكون جزء من إتاوتها من مادة الخشب و لوازم البحرية مثل (الصواري، الجبال و الأشرعة). لم تكن صناعة السفن مقصورة على نوع واحد بل تعددت أنواعها و أشكالها، فجزء منها كان يصنع في الموانئ الجزائرية أو يتم الاستيلاء عليه في عرض البحر من الأعداء و الجزء الآخر يشتري من الخارج، كما أن الجزائر كانت تتلقى بعض السفن في شكل هدايا من الدول الإسلامية.

تميزت نوعية السفن التي كانت تصنع في الجزائر بعدة خصائص منها: أن تكون صغيرة الحجم و فائقة السرعة مما يمكنها من القيام بالهجوم على سفن الأعداء، و في نفس الوقت يسهل لها مهمة الانسحاب و قد كان اهتمام الجزائريين مركزاً أساسياً في صناعتهم على السفن المؤهلة لخوض المعارك في البحر، و الدفاع عن سواحل البلاد و لهذه الاعتبارات لم تول القيادة الجزائرية عناية خاصة للسفن الكبيرة الحجم¹. أوكلت مهمة صناعة السفن للعثمانيين الذين كانوا يستعينون بخبرة الأوروبيين الأخرى و الأسرى و الأندلسيين و الأهالي، فكان الأندلسيين المستقرين في مدينة الجزائر و شرشال دور بارز في صناعة السفن، و بالرغم من كل الصعاب فإن البحرية الجزائرية و صلت في القرن 17 م إلى أوج عظمتها حتى أصبح ذلك العصر يعرف بالعصر الذهبي للبحرية فكان الجزائريون خلال تلك الفترة يحاولون قدر الإمكان الحفاظ على عدد سفنهم و كان الحكام يرغمون رياس السفن كلما فقدوا عددا منها على تعويضها في أقرب وقت ممكن لمواجهة الغارات الخارجية².

أما عن طاقم السفينة و تجهيزها فكان رياس البحر في بداية الوجود العثماني في الجزائر من الأتراك العثمانيين الذين استقدمهم "عروج" و "خير الدين" و بعد فترة قصيرة أصبح معظم الرياس من المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام، و مع مرور الوقت تمكن الإنكشاريون و الأهالي و الأندلسيون من المشاركة في طواقم السفن إلا أنهم لم تمنح لهم أجرة شهرية، بل كانوا يكتفون بأخذ حصصهم من الغنائم البحرية.

عرفت البحرية الجزائرية تنظيمًا محكمًا من حيث التسيير الإداري، و انضباط رجالها، و كان الداوي أحد الرياس الأكفاء ليعينه وكيلا للخرج، و هو المسؤول الأول على البحرية الجزائرية و أعطيت له صلاحيات واسعة فكان يرأس ديوان الرياس للنظر في كل القضايا التي لها علاقة بالنشاط البحري مثل قضية الأسرى المسيحيين و الغنائم البحرية و رخص الملاحة، كما أنه يقوم بدور وزير العلاقات التجارية³.

¹ ناصر الدين سعيدوني و المهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ - العهد العثماني -، المرجع السابق، ج4، ص50.

² -أرزقي شويتم، دراسات و وثائق في تاريخ الجزائر العسكري والسياسي الفترة العثمانية 1519-1830م، المرجع السابق، ص60.

³ نفسه، ص61.

تنوّعت السفن أو مراكب البحر باعتبارها أهم وسيلة لتحقيق المكاسب و النفوذ على سطح البحار السفن التي انتشرت في الفترة الحديثة بالجزائر ،فقد عرفت تطوّرًا كبيراً كانعكاس إيجابي لدار الصناعة أو الترسانة ،أو نتيجة لعائدات الغنائم البحرية¹. أن أهم السفن التي انتشرت في الجزائر و التي أولاها الرياس اهتماماً كبيراً هي الفرقاطات و كوربيطات و سفن من نوع ربيك ،و كانت تهم المراقبين الأجانب بالدرجة الأولى لأنها هي التي تشكّل القوّة البحرية الأساسية لأسطول الجزائر⁴.

يضاف إلى هذه السفن عدة أنواع أخرى بالاعتماد على ما كتبه "غرون شو" (Grand Champ)، و "بينك" (Pinque)، و "لانشون" (Lanchon)، أهمها: غوالييت ، كيشف ، كيرلارجي ، كورفيت ، كيتز ، فلوك ، بومبارد ، برفانتي ، شيبك ، غوالييت ، بولاكر ، سيرونار ، تارتان ، و تراباكولو².

أما الأسلحة فهي من أهم الصناعات الحيوية و أكثرها دقة ،و لذلك أوليت بأهمية بالغة هي الأخرى و كانت تتسم أساسا في دار النحاس ،والتي تمّ إنشاؤها في وقت مبكر من تاريخ الإيالة ،فأول إشارة إليها بتاريخ مارس 1534 ،و هو التاريخ الذي تمّ فيه استدعاء "خير الدين" ليمنح له منصب بايلرباي من طرف السلطان و كانت دار النحاس الواقعة في جهة باب الوادي ،عبارة عن مبنى ضخم به مخزن عالي جيد البناء لسبك المدافع ،و في ملحق دار النحاس كانت توجد عدّة أفران و كيران لصناعة القذائف من مختلف الأحجام بالإضافة إلى البنادق التي كان يوفرها البايك للمجندين الجدد.

أما مستودعات الأسلحة حسب "كورين شوفالييه" بالاعتماد على آثار الحفر القديمة ،فإنّه تمّ بناءها في سنة 1573 م من قبل "عرب باشا" ،لكن تاريخ إنشاء دار النحاس و تاريخ إنشاء المستودعات بينهما فارق من السنوات يصل إلى حد 39 سنة ،و تشير "شوفالييه" إلى وجود ورشة لإصلاح السفن على الميناء ،حيث استطاعوا أن يحصلوا ما بين 1533-1534 حوالي 21 قطعة مدفعية ،منها 6 مدافع صغيرة مصنوعة من الحديد. ظلّت الصناعة الخاصة بالسلاح في نمو إلى غاية النصف الثاني من القرن 17 م، و ساهمت بشكل كبير في خدمة البحرية الجزائرية³.

⁴ _ المنور مروش ،دراسات عن الجزائر في العهد العثماني(القرصنة-الأساطير و الواقع)، ج 2، المرجع السابق ،ص 403.

² _ المنور مروش ،دراسات عن الجزائر في العهد العثماني(القرصنة-الأساطير و الواقع)، المرجع السابق،ص 4.

³ _ كورين شوفالييه ،المصدر السابق ،ص 85-86.

3: عائدات البحرية و عدد الأسرى خلال القرن 11 هـ/17 م:

تميز التاريخ الحديث خاصة القرن 17 م بانتشار ظاهرة النشاط البحري في حوض البحر الأبيض المتوسط من الصنفين الإسلامي و المسيحي حيث أصبح الأسر آفة عالمية ، و الأسرى بضاعة للتفاوض و التناور و الاتجار، و الاستقلال الإنساني ، و خاصة في العالم المسيحي الذين في أقل من أربعة قرون أُسر و اشترى و باع في ظروف قاسية خمسون مليون من البشر إلى درجة أنها اعتبرت أكبر جريمة لم يرتكب مثلها ضد الإسبانية و بدرجة أقل مارس المسلمون الأسر كرد فعل ، و معاملة بالمثل للأوروبيين عامة¹.

بسبب كثافة النشاط البحري ، شكلت هذه الفئات أي-الأسرى- السلعة الأكثر رواجاً في الجزائر و لقد كانت الجزائر في القرن 17 م تُعجُّ بأعداد الأسرى ، بلغ عددهم حسب بعض التقديرات الواردة في المصادر الغربية عشرات الآلاف، و لكن الطابع الذي يميل إلى المبالغة في المصادر الغربية ، يجعلنا نقف وقفة مشكّك في هذه الأرقام.

بين نهاية القرن 16 م و العقد الثاني من القرن 17 م ارتفع عدد الأسرى تدريجياً نتيجة النشاط المكثف للبحرية الجزائرية ، و حسب التقديرات فقد يوجد بالجزائر ما بين 15 ألف و 20 ألف على أكثر تقدير ، و عاد نشاط الغزو ليتنفس تدريجياً و ينتعش معه عدد الأسرى خاصة في عهد "الحاج علي أغا" و عهد الدايات الثلاث الأوائل لكن مع انحطاط الغزو في نهاية القرن 17 م تراجع عدد الأسرى بشكل أسرع إذ تراجع العدد إلى 4000 أسير فقط في عام 1693 م و تراجع إلى 2600 أسير سنة 1680 م.

شكلت عائدات النشاط البحري دافعاً قوياً لدى الولاة ، و رياس البحر من جهة أخرى لتطوير هذا النشاط فقد وظّفت هذه العائدات للنهوض بصناعة السفن و دعم الخزينة بما يناله من أسلاب ، و ساهمت في حركية

¹ - جيروم ب وايز، المرجع السابق، ص 32.

التجارة خاصة منها البحرية كالبارود و الأسلحة ، و ساهمت هذه الغنائم في نمو التجارة و أهمية المدن خاصة الجزائر¹.

كانت طريقة التعامل مع الغنائم تتم بعناية و بكل دقة فعند وصولها توضع في مخازن قرب باب الجزيرة بعدما يتم عدّها و جردها، أما الأسرى فيودعون في سجن الباشا ،حتى ينتظر بيعهم في سوق النخاسة بالمزاد العلني في البادستان ،و هكذا فإن عائدات البحرية من غنائم و أسرى، كما عرفت تطورا و تزايد في المداخليل بدأت تعرف تراجعاً ،متدرجاً بوتيرة بطيئة نحو التقهقر، و ساهم في هذا الضعف عدة عوامل منها من كان انعكاساً لأحداث سياسية عرفت الجزائر نتيجة عدم استقرار نظام الحكم فيها طيلة القرن 17 م و أخرى تعود لأوضاع داخلية و دولية و حتى طبيعية².

يمكن التعرف على مظاهر قوة البحرية الجزائرية من خلال المجالات الآتية:

- أ- الأسطول البحري الذي عرف تطوراً ملحوظاً في القرن 16 م و أوائل القرن 17 م ثم بدأ يضعف مع نهاية القرن 17 م قبل أن يتلاشى نتيجة حملة "إكس ماوث" (1816 م) و يعاد تكوينه بصفة جزئية في السنوات التي سبقت الاحتلال الفرنسي. و هذا ما يتّضح لنا من عدد السفن الحربية العاملة بمياه المتوسط حسب السنوات الآتية وذلك اعتماداً على المصادر الأوروبية المعاصرة لتلك الفترة.
- 1571 م: 50 مركباً مسلّحاً. 1580 م: 35 قليوطة فقط ،وبغض النظر عن العديد من أنواع السفن الأخرى. 1634 م: 70 سفينة مستديرة (منها 35 قليوطة).
 - 1659 م: 23 سفينة. 1662 م: 32 (9 قليوطات و 22 فرقاطة).

مع العلم بأنّ هذه التقديرات تقريبية وتخصّ نشاط ميناء الجزائر فقط وتشمل مختلف أنواع السفن التي يستخدمها البحارة الجزائريون مثل :الفرقاطة ،القاليوطة ،البولاكر ،الشالوب والشباك³.

رغم خطورة القرصنة البحرية فهي تمثل بالنسبة للتجار فرصة للربح فالغنائم المختلفة من نقود ،و بضائع ،و أسرى كانت تشكل لهم تجارة موازية ،لقد كانت عائدات القرصنة من الأسرى تخضع لبيع أول عن طريق المزاد الأسواق المحلية "البادستانات"⁴ ،و الثاني عند اقتنائهم على يد رجال الدين ،أو عن طريق الوساطة اليهودية.

¹ _ يحي بوعزيز ،علاقات الجزائر مع دول و ممالك أوروبا ،المرجع السابق ،ص ص 10-16.

² _ ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، دار الفكر للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت 1424هـ/2004م، ص 243.

³ _ ناصر الدين سعيدوني ،ورقات جزائرية المرجع السابق ،ص 144-147.

³ _ هي الأسواق الرئيسية التي تباع فيها الأسرى. انظر:

فالبضائع البشرية أو ذلك القطيع الآدمي³ يتم تسويقه وتصديره نحو المراكز التجارية الأوروبية ولا سيما مالطا التي كانت تعد عاصمة للقرصنة المسيحية، وليفورن التي سمح دوق توسكانيا بسجن الرقيق بمقابل عن هذه الخدمة¹، فقد كان تجار جنوه يضمنون أرباحا تقدر بـ 30% عند الاتجار مع الجزائر².

تعتبر المصادر الأوروبية التي تطرقت إلى عائدات القرصنة الجزائرية غير دقيقة نتيجة مبالغها حول حجم الغنائم ومما زاد من صعوبة الأمر أن جلّ المعلومات المتوفرة، لا تغطي سوى فترات زمنية، وجيزة من القرن 17 م³.

ومن جهته قدر الأب "دان" "Dan" الذي زار الجزائر سنة 1634م أنه خلال الخمسة وعشرين أو الثلاثين سنة الماضية، ارتفع عدد الغنائم حوالي ستمائة مركب، وأضاف أنه من سنة 1629م حتى منتصف 1634م، استولى الجزائريون على ثمانين مركبا فرنسيًا 52 منها في المحيط الأطلسي، و28 حوض البحر الأبيض المتوسط، وألحقوا بالتجارة الفرنسية خسارة قدرت بـ 4.752.000 ليرة⁴.

أفاد "دي غرامون" "De Grammont" أنه في خريف عام 1661م وحده، أخذ الرياس اثني عشر مركبا إنجليزيا وتسعة مراكب هولندية، واثنا عشر مركبا فرنسيًا، وإيطاليا⁵، وفي نفس السنة ذكر "محمد بن رقية التلمساني" إن الجزائريين استولوا في ظرف ستة أشهر على اثنان وستين مركبا من مراكب الانجليز، كما أضاف "أن أهل الجزائر كانوا يغرقون أكثر الغنائم بعد أخذ النصارى ورفع أجود أمتعتهم"⁶.

كما يظهر من كشف قام به "ألبير دوفو" "Albert De Voulex" اعتمادا على وثائق أرشفية أن الغنائم بلغ عددها ثمانية وثلاثين سنة 1674م، وثلاثة وثمانين سنة 1675م وثمانية وخمسين

_Grammont (H.D): **Correspondance des consuls d Alger(1690-1742)**,Alger A. Jourdan paris le roux,1890,p130

4_ جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص214.

5_ Jean Monleau :**Les états barbaresques**, paris,1964,p514.

1_Abdelhadi Benmansour:"**Alger VVI^e-XVII Siècle**",journal de jean baptiste Grammaye, Paris,1998,pp141-143.

2_Pierre Dan: OP.cit,p320.

3_Grammont, H.D :"**Relation entre la Frances et la régence d'Alger au XVII sicles**", 4er Parti ,in **R.Af**, 1879, n^o28,p292.

4_ جمال قنان: نصوص و وثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500-1800م، المرجع السابق، ص91.

سنة 1676م، و واحد و ثلاثين خلال الأشهر الثلاثة الأولى من سنة 1677م¹ وفي نفس السنة ذكر مصدر انجليزي مجهول أنه أتى بنحو 187 غنيمة إلى ميناء الجزائر في أقل من ثلاثين شهراً².

كما قدر القنصل الانجليزية "روبرت كول" "Robert kol" أنه خلال حرب (1677-1681م) أسرت بحرية الإيالة 157 سفينة من أسطول بلاده التجاري حوالي 300 بحار، وبلغت الخسائر نحو 300.000 جنينه إسترليني³.

تقلّصت عائدات النشاط البحري تبعاً، و شكّلت معاهدات السلام التي أبرمتها الجزائر و دول أوربا مشكلاً و عائقاً كبيراً لها، فالنشاط البحري و بالرغم من تقلّص غنائمه إلا أن عائدات افتداء الأسرى بقيت قائمة ما أبقي على حيوية المداخل هؤلاء الأسرى الذين شكّلوا جزءاً لا يتجزأ من غنائم البحرية في القرن 17 م.

ب- الأسرى المسيحيون الذين وقعوا في الأسر وقدّر عددهم بمدينة الجزائر وحدها حوالي مليون نسمة طيلة القرن 17 م، أي ما يعادل ربع سكان المدينة البالغ عددهم آنذاك حوالي 100000/ن، و كان هؤلاء الأسرى موزعين بين مصالح البايك و سكان المدينة و جلّهم كان يتوجّب عليه قضاء الليل في سجون البايك الأربعة التي أنشئت خصيصاً لهذا الغرض منذ سنة 1607 م، و قد كان أغلب هؤلاء الأسرى يطلق سراحهم مقابل فدية معيّنة وبعضهم يعتنق الإسلام (8000 اعتنقوا الإسلام سنة 1634 م من مجموع 25000 أسير)، ومنهم من اندمج في السكان و أصبح عنصراً فعالاً في المجتمع مثل الكثير من البايكاريات الذين تولوا الحكم قبل عهد الباشاوات⁴.

نتيجة النشاط البحري المكثّف، شكّل الأسرى الأوربيون السلعة الأكثر رواجاً في الجزائر، فالبضائع البشرية أو ذلك القطيع الآدمي يتم تسوية، وتصديره نحو المراكز التجارية الأوربية لاسيما مالطا التي كانت تعد عاصمة للقرصنة المسيحية و ليفورنه⁵ فكان تجار جنوه يضمّنون أرباحاً تقدر 30% عند الإبحار مع الجزائر⁶.

5_Albert Devoulx:Op.cit,pp391-393.

6_G.P : Op.cit,pp91,92.

4 Fisher(G): **légende barbaresque Guerre Commerce et Piraterie en Afrique du Nord de 1415 à1830**,Trad et annoté par F.Hellal, o.p.u, Alger 2000,P346.

⁴حنيفي هلايلي،التنظيم العسكري للبحرية الجزائرية في العهد العثماني،المرجع السابق،ص 261.

1 جون ب وولف: المرجع السابق،ص 214.

2 Jean Monleau:**Les états Barbaresque** ,paris,1964,p95.

كانت المدينة في القرن السابع عشر، تعجّ بأعداد هائلة منهم بلغت حسب بعض التقديرات الواردة في المصادر المسيحية عشرات الآلاف، لكن هناك مبالغة في صّحة الأرقام الفادحة، وللتبث من ذلك، يكفي أن نلقي نظرة على الجدول أسفله الجدول رقم (01) المستخرج من مصادر أوروبية والتي يقدم تقديرات التقريبية، خصوصا تلك العائدة إلى الفترة ما بين سنتي 1578 م و 1684م، والتي فاقت في مجملها الخمسة وعشرين ألفا دون أدنى شك مبالغ فيها، ولا تستند على شيء ملموس بل إن بعضها متناقض¹.

لقد كان عدد الأسرى و الأرقاء يشكّلون الأغلبية من المسيحيين على اختلاف أجناسهم فكان منهم الإيطاليون الإسبان، و الانجليز، و البرتغاليون، و الفرنسيون، و الهولنديون والإغريق، والصقالبة... الخ. وكان مصدر هؤلاء الأسرى يرجع بالدرجة الأولى إلى عمليات الجهاد البحري سواء نتيجة المعارك البحرية أو مطاردة السفن الأوربية، أو عن طريق الإغارة على سواحل و جزرا لحوض الغربي للمتوسط و شمال الأطلسي. ولقد بلغت المصادر الأوربية في تقديرها لعدد الأسرى بمدينة الجزائر و بوجه خاص خلال القرن السابع عشر ميلادي².

الجدول رقم (01): عدد الأسرى بالجزائر حسب المصادر الأوربية (1580-1684م)³

السنة	المصدر	عدد الأسرى
1580	دييغو دي هايدو	حوالي 25.000
1619	غراماي	35.000 / 32.000
1625	سالفاجو	25.000
1634	الأب دان	25.000
1640	جوزي دي تامايو	40.000

1_Abelhadi Benmansour: OP.cit,p 138.

2 _نقلا عن :أمين محرز: المرجع السابق، ص 98.

- Abdelhadi Benmansour: OP.cit, p 139,140

3_تم إنجازا لجدول انطلاقا من المراجع التالية:

- G.P : Op.cit, pp91, 92

- Pierre Dan : OP.cit, p318.

- De Voulex (A): OP.cit,p225

-Cresti:"Quelle réflexion sur la population et la structure social d'Alger a période turque XVI-XIX" in J.A Avril-Juin, 1922, p159.

1640	إيمانويل دار ندا	40.000 / 30.000
1660	لويس دوماي	5.000
1665	دو فال	أزيد من 40.000
1671	الأب لوفاشي	14.000
1675	الفاس دار فيو	12.000/10.000
1675	ج.ب.وولف	18.000
1683	مانسون - مالية	40.000 / 35.000
1684	يتيس دي لا كروا	35.000
1693	لورانس (أرشييف)	4.000
1698	لورانس (نفسه)	2.600

وللتثبت من ذلك ،يكفي أن نلقي نظرة على الجدول أعلاه المستخرج من المصادر الأوربية ،والذي يقدم تقديرات إجمالية عن عدد الأسرى على مدى قرن ،فهذه التقديرات التقريبية ،خصوصا تلك العائدة إلى الفترة ما بين سنتي (1578 -1684م)، والتي فاقت في مجملها الخمسة وعشرون ألفا، أغلبها دون أدنى شكّ مبالغ فيها، ولا تستند على شيء ملموس ، كما أنّ بعضها متناقضة¹، زمن الواجب التساؤل ،كيف لمدينة بلغ متوسط عدد سكانها آنذاك نحو الستين ألفا أن تستوعب ذلك العدد الضخم من الأسرى؟ كيف ولماذا انخفض عدد الأسرى بذلك الشكل في القرن السابع عشر؟

يجب علينا الاعتراف أنّها أسئلة من الصعب الإجابة عليها في ضوء المعطيات القليلة لدينا، التي يمكن الوثوق بها في سنة 1510م عندما ذهبت السفارة الجزائرية برئاسة سالم التومي إلى برغوس لإعلان التبعية لملك أرغونه فرديناند، حملت معها كلّ الأسرى نزولا عند مطلب الأسباب²، تذكر المصادر الإسلامية أنه في سنة 1519م سنة انضمام الجزائر إلى الدولة العثمانية - كان "جملة الأسرى ثلاثة آلاف وثلاثة وثلاثين أو ستة وثلاثين"³ أغلبهم من الأسباب.

و في سنة 1533م ،أرسل الأسرى إلى قائد الحامية الإسلامية بجاية يخبرونه فيها عن وجود سبعة آلاف أسير في سجن الجزائر⁴، و هو يطابق الرقم الذي ذكره صاحب "غزوات عروج وخير الدين" بالنسبة لعدد الأسرى

1_ لمنور مروش: دراسات عن الجزائر في العهد العثماني (القرصنة الأساطيل الواقع)، ج 2، المرجع السابق، ص213.

2 _Chevalier (C): **les tentes premières Années de l'états d'Alger:1510-1541**, Alger 1988,P18.

3_ محمد بن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص11.

4_عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 100-102.

في سنة 1534م¹، وقد تجاوز هذا العدد على الأرجح اثني عشر ألفا عقب الهزيمة الساحقة التي لحقت بالكونت "الكوديت" أسوار و مستغانم في سنة 1558، وأدت إلى وقوع ما بين خمسة آلاف وستة آلاف إسباني في الأسر بين نهاية القرن السادس عشر والعقد الثاني من القرن السابع².

وقد بدأ عدد الأسرى بالتراجع منذ ذلك الوقت تقريبا بالموازاة مع انخفاض عدد السكان في زمن كثرت فيه الأوبئة والاضطرابات، حيث سجل النائب الرسولي "فليب لوفاشي" بالجزائر وجود نحو ثمانية آلاف أسرة مسيحية في عام 1650م³. وبعد وبائي عامي 1654م و 1663م اللذين ذهب ضحيتهما ثلث ونصف سكان الجزائر على التوالي⁴ انخفاض العدد بشكل كبير إلى خمسة آلاف أسير فقط، وهذا حسب ما أوردته المصادر الفرنسية⁵.

أما بالنسبة لعملية الافتداء فقد كانت الواجب الأساسي للقناصل الأوروبيين، ويتم اعتماد وسائل أوروبية من الدبلوماسيين، غالبا ما يكونون القساوسة المختصين في عمليات الفداء⁶.

وقد كانت ثلاث مجموعات مسيحية متخصصة في عمليات الافتداء، وهي جماعة الثالث المقدس " Les Trinitaires"⁷ التي كانت تشرف على أهم عمليات الفداء بالجزائر.

5 _ مجهول: غزوات خير الدين وعروج، المصدر السابق، ص 117.

1_Casenove(J): "**Contribution à L'Histoire du Viel Oran** ", in. **R.Af.** 1925 , n66, P291.

2_Abbé Boumbar: **les vicaire apostolique de Tunis et d'Alger** "in. **R.T** 1894, n1, p332.

3_Boubaker(S): "**la peste dans les pays du Maghreb. Attitudes face au fléau et impacts sur les activités commerciales XVI-XVIII^{ème} siècles**" in **R.H.M** , 1995, N79-80, P313.

4 _ نقلا عن، جمال قنان: **معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619-1830 م**، المرجع السابق، ص 100.

⁵ - جون. ب. وولف: المرجع السابق، ص 217.

1 جماعة التنظيم التليشي تأسست عام 1148م، وتنظيم الرحمة تأسست عام 1232م، الأول تنظيمها فرنسا، والثاني إيطاليا، أنظر: -Veronne(CH.D): "**Un Faux captif à Alger en 1782**", in **R.H.M**, janvier 1976, n°5, pp93,94.

إن تحرير الأسرى يتطلب دفع الفدية إلى جانب نفقات أخرى تحددها قوانين الدولة، كما توجد عدة طرق للافتداء، إما عن طريق التجار اليهود بما لديهم من وكلاء في كل من مرسيليا، وفي إيطاليا، وأمستردام، وفي الغالب هم وكلاء للدفع¹، أو عن طريق التجار الإنجليز، والفرنسيين في لندن ومرسيليا، إلى جانب عدد من القناصل الأوروبيين بالإضافة إلى ذلك القساوسة الذين كانوا يشرفون على الأموال التي جمعها الرهبان في البلاد المسيحية، وحتى القيام بالوساطة للأفراد².

كانت عملية الافتداء، عاملا مهما من العوامل التي تحكممت في العلاقات الخارجية فإلى جانب الصعوبات الإجرائية لإعداد رحلة الافتداء³.

كان لابد من الحصول على وثيقة "الجواز" الرسمية "Passeport"⁴، والتي بدونها قد يتعذر الوصول إلى البر الجزائري وهناك شروط منصوص عليها في نفس الوثيقة الجواز. فعملية الافتداء من صفقة تجارية، إذ كانت النقود المحمولة كفدية للأسرى تدفع 3% كرسوم للجمارك⁵.

أما الأعمال التي كان يقوم بها هؤلاء الأسرى فهي توزع على الخدمات الاجتماعية والمهام الاقتصادية داخل مدينة الجزائر و على أعمال الفلاحة بفحص مدينة الجزائر، هذا وقد كان عدد الأسرى يختلف من سنة إلى أخرى حسبما يتضح من المصادر الأوروبية والذي تقدم تقديرات إجمالية خاصة بمدينة الجزائر حسب السنوات الآتية:

● 1580 م: 25000 أسير.

1 _Albert Sacerdati: "L'esclavage Chrétien en Barbarie au XVIII Siècle" in R.Af, 1949, pp135-137.

2_ جون. ب. وولف: المرجع السابق، ص 234.

أنظر كذلك: إسماعيل العربي: العلاقات الدبلوماسية بين دول المغرب والولايات المتحدة (1776-1816) الجزائر، ش.و.ن.ت. 1978، ص 31.

3_ لم يكن الإعداد لرحلة الفداء في البر الجزائري أمرا هينا في ظل حالة التوتر الغالب على العلاقات الجزائرية الإنسانية، لأن عمليات الفداء تتم بعد إذن الملك الإسباني للمجموعة الدينية المتخصصة بالإعداد للرحلة، فأول ما يبدأ به رجال الدين، جمع الأموال اللازمة، إضافة إلى أموال أولياء الأسرى ثم يتم اعتماد الصدقات، والهبات، وتخضع عملية جمع الموال لرقابة صارمة من المجلس الاستشاري الملكي. أنظر: حنيفي هلايلي: أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، المرجع السابق، ص 75.

4 _عبارة عن نسخة للجواز وهو الترخيص الرسمي الذي منحه داي الجزائر محمد باشا (1748-1754م) للبعثة الدينية الإسبانية المنتسبة لمجموعة الثالوث المقدس، وتتكون الوثيقة من سبع صفحات. جاء مضمونها ليحدد شروط الفداء، توجد هذه الوثيقة ضمن مجموعة (ل) Serie (L) رقم 1381 بارشيف الغرفة التجارية لمدينة مرسيليا بفرنسا. نقلا عن: حنيفي هلايلي: أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، المرجع السابق، ص 77.

5_ ناصر الدين سعيد وني و المهدي بوعبدلي: الجزائر في التاريخ - العهد العثماني -، المرجع السابق، ص 78.

- 1620 م: 35000 أسير.
- 1634 م: 25000 أسير.
- 1630-1634 م: أثناء الحرب مع ملك فرنسا ثم آخر 1331 من على ظهر 80 سفينة فرنسية.
- 1662 م: 21000 أسير.

من أشهر هؤلاء الأسرى نذكر على سبيل المثال:

- الكاتب الإيطالي "إيمانويل أراندا دوبروج" (Emmanuel d'Aranda de Bruge)، أسير أثناء سفره من فرنسا إلى إسبانيا سنة 1640 م.
- اشاعر الهزلي الفرنسي صاحب القصة المعروفة "بالبروفنسية"، "الجميلة رونيارد" (Regnard)، أسير عام 1678 م.
- الكاتب "روني دي بوا" (René des Boys)، أسير عام 1642 م... وغيرهم¹.

هكذا و قد كان للأسرى الأوروبيين دور، وخاصة منهم الذين أخذوا من فرنسا و شبه جزيرة أيبيريا، و الدويلات الإيطالية قد أثروا تأثيرا كبيرا في العلاقات بين الجزائر و بين هذه الدول، إذ أننا لاحظنا بأن الحملات العسكرية الفرنسية، و الإسبانية على مدينة الجزائر، و على مدن ساحلية أخرى مثل عنابة و شرشال كان الهدف منها:

1. معاينة الجزائر على نشاط الجهاد البحري.
2. تحرير الأسرى، ثم الاستعانة على احتلال المدينة، التي جردت ضدها الحملة².

إلا أن عدد الأسرى بدأ بالتراجع بالموازاة مع عدد السكان في سنوات ازدادت فيها الكوارث و الأوبئة و الأمراض حيث سجّل مبعوث النائب "فيليب لوفاشي" بالجزائر وجود ما يقرب 8000 أسير مسيحي في عام 1698، و بعد الوباء الذي أصاب الجزائر عامي 1633 و 1654 ذهب ضحيتها ثلث سكان الجزائر و نصف و انخفض العدد إلى 5000 أسير فقط، و هذا حسب المصادر الفرنسية.

مع انحطاط النشاط البحري في نهاية القرن 17 م تراجع عدد الأسرى بشكل أسرع، إذ تراجع العدد إلى 4000 أسير فقط في عام 1693، و تراجع إلى 2600 أسير سنة 1680، و هذا ما سيبيّنه الجدول رقم 03 المرفق بالملاحق والذي يمثل عدد الأسرى بالجزائر حسب المصادر الأوروبية خلا القرنين 16 و 17.

¹ - حنفي هلايلي، التنظيم العسكري للبحرية الجزائرية في العهد العثماني، المرجع السابق، ص 261-262.

² - صبحي الصالح، الحماية من القرصنة في نظر الشريعة الإسلامية، أعمال أكاديمية المملكة المغربية، الدورة 9، الرباط-المغرب-1986م، ص 20.

مع تراجع عدد الأسرى ارتفع ثمن الافتداء بداية من النصف الثاني من القرن 17 م، كما تبيّن الأرقام التالية:

- 155: 1644 ريال (حوالي 465 ليرة فرنسية).

- 500: 1662 فلورين¹.

- 600: 1666 فلورين.

- 750: 1683 ليرة فرنسية.

- 800: 1685 ريال (حوالي 720 ليرة فرنسية).

ت- الغنائم البحرية التي تكاثرت في الفترة الأولى للعهد العثماني ثم أخذت في التناقص حتى كادت تتلاشى، ثم عرفت مع نهاية العهد العثماني نمواً ملحوظاً (مع محاولة تطوير البحرية وزيادة نشاطها الحربي خاصة في اشتغال أوروبا بحروب الثورة الفرنسية وفتوحات نابليون)².

تداول رياس البحر و الجند على منصب الحاكم إلى أواخر القرن 17 م لينفرد الجند به، و بالرغم من انشغال الرياس بقضايا البحر فإنّ تأثيرهم بقي مستمراً طوال العهد العثماني إذ لا يمكن للإنكشارية الاستغناء عنهم، لما كانوا يوفرونه من أموال خزانة الدولة و الأمن و الاستقرار للبلاد، و كان الرياس عموماً محل احترام الجميع لعدّة أسباب:

- الانضباط الذي كان يميّز به الرياس و استقامة سلوكهم، و حسن معاملتهم للسكان.
- أن سكان المدن بمختلف شرائحهم كانوا بحاجة إلى خدمات الرياس ليستثمروا أموالهم في تجهيز المراكب للقيام بنشاطات البحرية.
- أن الرياس كانوا مصدر رزق للتجارة الذين ينتظرون عودتهم إلى الميناء لاقتناء بعض السلع التي يبيعونها في الأسواق و محلاتهم.
- أن الرّياس كان لهم دورهم الجهادي المتمثل في الدفاع عن البلاد من الاعتداءات الخارجية، ممّا جعل السكان يتعلّقون بهم، و هذا ما جعل "هايدو" يقول عن الرياس الأعلاج إنّهم كانوا من أشدّ الأعداء للمسيحية و إذ كان هذا القول يحمل جانباً من الحقيقة فإنّ "هايدو" لم يذكر الأسباب الحقيقية التي دفعت الرياس إلى اتّخاذ مثل هذا الموقف من المسيحية و المسيحيين، و اعتقد أن تشدّد الرياس في معاملتهم مع الأوروبيين الأعداء يعود إلى تلك الإجراءات الردعية التي كان حكام الدول الأوروبية يتّخذونها ضدهم. إذ كلما وقع الرياس الأعلاج في الأسر كان مصيرهم الحرق بحجة أنّهم مسيحيون

¹ عملة هولندية قيمتها تقارب الليرة، أنظر: المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني - العملة، الأسعار و المداخيل - ج1، دار القصة للنشر، الجزائر، 2009، ص 300.

² ناصر الدين سعيدوني، ورفات جزائرية - دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني -، المرجع السابق، ص

مرتدّون و هذا ما زاد تمسّكهم بالإسلام و الدفاع عنه ، و من أولئك الأعلاج الذين رفعوا راية الجهاد في البحر المتوسط "علج علي" الذي تولى مهمة الدفاع عن العالم الإسلامي بعد أن انهزم الأسطول العثماني في معركة ليبانت في عام 1571 م التي جمعته بالأسطول الأوروبي المتحالف¹.

- إن ما يمكن قوله عن الأعلاج عامة هو أنّه رغم ما كانوا يتميّزون به من مميّزات فإنّهم يشكلون مع الأتراك العثمانيين فئة منسجمة و متماسكة تأثر كل طرف بالطرف الآخر ، و قد وحد بين الجماعتين المصير المشترك و المصالح المادية ، أما عن إسهامات الأعلاج فإنّهم خلقوا توازناً حقيقياً في المجال السياسي و العسكري ، و ساهموا مساهمة ايجابية في تطوير القطاعات المدنية و العسكرية ، و كان لهم دور مهم في ازدهار البحرية الجزائرية بفضل التقنيات الحديثة التي أدخلوها في صناعة السفن، و قد ساعدتهم معرفتهم للسواحل الأوروبية و البحر المتوسط على التحكم في الملاحة ، و يمكن اعتبارهم حلقة وصل بين الضفتين الشمالية و الجنوبية تنتقل من خلالها التأثيرات الحضارية، و قد فتح الحكام الأبواب لكل من يرغب في الانضمام إلى البحرية الجزائرية شريطة أن يكون قد اعتنق الإسلام ، و كان الوصول إلى المراتب العليا أمراً صعباً للغاية إذ يجب على البحار البسيط أن يتحلّى بشجاعة كبيرة و مهارة عالية في اتقان فنون البحرية و قبل أن يتعين كقبطان كان عليه أن يجتاز بنجاح امتحاناً يجريه عليه ديوان الرياس².

- و قد كان الحكام الأوائل يتولون قيادة الأسطول بأنفسهم أمثال "خير الدين" ، "صالح رايس" ، "حسن بن خير الدين" ، "حسن قورصو" و "علج علي" ، ممّا سمح للبحرية الجزائرية بأن تتحقّق في فترة قصيرة نجاحاً كبيراً ، و قد ساعدها على ذلك عوامل أخرى كالقوة البشرية و الثروة الغابية و الموقع الجغرافي الممتاز الذي كانت تحتله الجزائر في البحر المتوسط علاوة على الإدارة المحكمة و قد ساعدت هذه العوامل مجتمعة على أن تعرف الجزائر توسعاً كبيراً و أن تكون لها بحرية قويّة ، أصبح دورها لا يقتصر على ممارسة النشاط البحري فقط بل كان بإمكانها خوض حرب حقيقية ، و كانت البحرية الجزائرية تلعب دوراً مزدوجاً تمثل في التصدي للغارات الأوروبية المتتالية و تموين البلاد بالبضائع ، و قد تمكن الرياس بفضل نشاطهم هذا من كسب شعبية واسعة ، و نيل احترام و تقدير عامة سكان الجزائر.

تقلّصت عائدات النشاط البحري تبعاً ، و شكّلت معاهدات السلام التي أبرمتها الجزائر و دول أوربا مشكلاً و عائقاً كبيراً لها ، فالنشاط البحري و بالرغم من تقلّص غنائمه إلا أن عائدات افتداء الأسرى بقيت قائمة ما أبقي على حيوية المداخل هؤلء الأسرى الذين شكّلوا جزءاً لا يتجزأ من غنائم البحرية في القرن 17 م³.

¹ - إبراهيم سعيود ، المرجع السابق ، ص 145.

² - إسحاق زنتوني ، المرجع السابق ، ص 14-15.

³ - ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد ، المصدر السابق ، ص 246.

الفصل الثاني: الحرف و الحرفيون

تعتبر الصناعة قطاعا حيويا و ركيزة أساسية في اقتصاد أي دولة و يؤدي أي ضعف في أحد أنواعها إلى اضطراب الدولة للجوء إلى الاستيراد من الخارج مما يؤثر على الميزان التجاري و منه على الاقتصاد بصفة عامة¹. و قد أجمعت كل المصادر التاريخية على الضعف الذي كانت تعرفه الصناعة بالجزائر خلال العهد العثماني²، و هكذا ظل النشاط الصناعي في الجزائر متواضعا يتعدى الصناعات المحليّة اليدوية و بعض الصناعات المعدنية التحويلية البسيطة³.

ازدهرت مدينة الجزائر في مطلع الفترة العثمانية لفترة من الزمن لا تزيد عن القرن و النصف في ميدان الصناعة فتعددت فيها الحرف و كثرت فيها الورش و ازدحم بها الصنّاع و حسب بعض المصادر التاريخية فإنّ مدينة الجزائر في بداية القرن 17 م كان بها حوالي (3000) نساج و (1200) خيّاط، و(600) مربّي لدودة الحرير و(200) نساج للحرير و (180) سكاكاً، و(80) حداد، و كان السبب في ازدهار الصناعة في هذه الفترة يعود إلى هجرة الأندلسيين الذين نقلوا مهنهم إلى المدينة و مهاراتهم الفنيّة⁴.

كان المسؤولون في الإيالة يبذلون كل جهد لتنمية الصناعات المختلفة، إذ يقول "حمدان خوجة" أنهم كانوا يدفعون لصانع السفن، عن كل مركب 9 ريالاً، و عندما يرمي المركب في البحر يتقاضى مئة ريال، من السلطات، و مثلها من الرّتان⁵.

شهدت الصناعة في القرن 17 متقدما في المدن و الأرياف، فكان الحرفيون يتجمعون في أحياء معينة منظمين في هيئات يشرف على كل واحدة أمين، و الجماعة كهيكل إداري و تنظيمي مهمته إثراء الحرف و ازدهارها و محاربة الغش و تخفيض السلع و مراقبة أسعارها في الأسواق، فكثرت المدن الحرفية و التجارية، كتلمسان التي اشتهرت بصناعة الصوف و الأغطية و المحازم، و مستغانم بالزراي و قسنطينة بمنسوجاتها و جلودها و أثاثها بسبب احتكاك الحرفيين بمهارة الأندلسيين الذين أبدعوا في عدة صناعات رغم نقص المواد الأولية التي كانت تستورد من المشرق و أوروبا⁶.

¹ _محرز أمين، المرجع السابق، ص 43.

² _دخية فاطمة، المرجع السابق، ص 16.

³ _ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830)، طبعة ثالثة منقحة و معدلة و مزيدة، المرجع السابق، ص 33.

⁴ _يحيى بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية مع دول و ممالك أوروبا (1500-1830)، المرجع السابق، ص 16.

⁵ _محمد العربي الزيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1972م، ص 62.

⁶ _صلاح العقاد، المرجع السابق، ص 321.

تمثلت الصناعات التقليدية التي تتمثل في الحرف الممارسة في مختلف مدن الإيالة، وكان أصحابها ينظمون في هيأت تتولى كل واحدة صناعة نوع محدد من الأدوات و الملابس التي يحتاج إليها السكان في حياتهم اليومية في الريف فقد كانت القبائل الرعوية تصنع المنسوجات الصوفية الخيام، الحياك و الزرابي و كانت قبيلة (آيت عباس) تشتهر بخياطة البرانس و ترفيعها بمهارة فائقة، و من الصناعات التي انتشرت في الأرياف الأدوات الفلاحية و صناعة الأسلحة و كانت قبائل "بني يني" من أكثر القبائل المهتمة بصناعة الأسلحة و لاشتغالها بالمعادن كانت تصنع العربات و بعض البنادق¹.

أما فيما يتعلق بالصناعات اليدوية تؤكد الشهادات الأجنبية أن الجزائر في ذلك العهد كانت تعرف معظم الصناعات التي تعرفها أوروبا، مثل: الدباغة، و صناعة الأحذية، و نجارة و حدادة و صناعة سلاح، فصانعوا الجلود كانوا ينتجون بالإضافة إلى الجلود المعدة للتصدير لوازم فرسان المخزن، و الأحذية، و تدل المباني و المنازل الجميلة بالجزائر على ازدهار صناعة الخشب و الزجاج و فنون البناء و صناعة الآجر، و لا ينبغي أن ننسى الصناعات المرتبطة بالمواد الغذائية مثلا الطواحين التي تسير بالهواء أو الماء¹.

كانت الأهمية الاقتصادية للجزائر تعود جزئياً إلى النشاط و التنوع الذي ميز صناعاتها الحرفية، ولا سيما الكمالية منها، كالحجارة و العطار و الصياغة، و قد كانت هذه الصناعات تشكل إحدى أهم المشاغل بالنسبة لسكان المدينة نظراً إلى العدد الكبير من المحترفين الذين ضمتهم، و لم تقتصر النشاطات الاقتصادية على داخل المدينة فحسب بل امتدت خارج أسوارها، و بالأخص الأنشطة التي كان ينتج عنها مضرة أو إزعاج بالضجيج و الروائح الكريهة².

أشهر الصناعات في الجزائر نسيج الزرابي و الأقمشة في تلمسان، و قسنطينة، و في العاصمة تطرز الملابس، و يوجد عدد من المصانع الخاصة بصناعة الشواشي الصوفية بأثمان زهيدة جداً، و بالمحازم الحربية المذهبة و المفصّضة و المصنوعات الجلدية، مثل الأحذية و غيرها³. انتظم أصحاب الحرف في جماعات خاصة بهم: جماعات متخصصة في الإنتاج و جماعة متخصصة في الخدمات جماعات متخصصة في التجارة و التسويق⁴.

1_ صلاح العقاد، المرجع السابق، ص 322.

2_ مبارك بن محمد الهلالي الميلي، المرجع السابق، ص 307.

3_ ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830)، طبعة ثالثة منقحة و معدلة و مزيدة، المرجع السابق، ص 35.

3_ محمد العربي الزبيدي، المرجع السابق، ص 62.

4_ عائشة غطاس، الحرف و الحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1800م، مقارنة اجتماعية - اقتصادية، دكتوراه دولة في تاريخ، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 2002، ص 147-155.

الخصائص التي تميز بها التنظيم الحرفي تقسيم العمل إذا كانت الصناعة الواحدة تتفرع إلى عدة جماعات منظمة و مثال على ذلك صناعة الجلد تفرعت إلى عشر جماعات و هي(الدباغون و الرقاقون،الشبارلية،و البرادعية، و البابوجية و البلاغجية و البشماقجية،و الحلاطجية،و التماقون،و الخزازون).

نالت مدينة الجزائر شهرة واسعة في مجال المنسوجات و ما يتصل بها،و بوجه خاص كل ما يتعلق بصناعة الحرير من نسيج و غيره،و من المنتجات التي اشتهروا بها نجد الأحزمة الحريرية ذات الحواشي المزينة بالألوان اللامعة الحمراء،و البنفسجية و الأحزمة المرصعة بالذهب...،و كانت حياكة الصوف هي الأخرى من الصناعات المزدهرة التي عرفتھا الجزائر و المناطق المحيطة بها،فقد كانت البلاد تنتج كميات كبيرة من الصوف و الوبر اللذان استخدما في صنع البرانس و الحياك و الزرابي و عرفت الجزائر أيضا بمنتجاتها الجلدية المتنوعة. عرفت الجزائر بصفقتها عاصمة البلاد تتركز أهم المنشآت الصناعية،و التي كانت متمثلة في دار الصناعة،و دار النحاس(مسبك المدافع)،دار البارود،و دار السكة،و أفران البايك،و كانت كل هذه المنشآت المذكورة تابعة مباشرة للباييك الذي كان يسهر على تمويلها بما تحتاجه من المواد و المعدات و الأيدي العاملة، و لقد كان الإنتاج الصناعي مرتبطا إجمالا بعاملين أساسيين هما:الاستغلال المنجمي و الإنتاج الغابي اللذان كانا يزودان العاصمة بالجزء الأكبر من المواد الأولية الضرورية¹.

كان استغلال المناجم يتم سطحيا و بطرق بسيطة نوعا ما ،فبالنسبة للحديد مثلا كان المعدن الخام يستخرج من منجمي برباشة قرب بجاية¹،أما الرصاص،فكان يستغل على نطاق واسع بجبل بوطالب بمنطقة الحضنة،و كانت طريقة التعدين تتم بوضع طبقة حطب و أخرى من المعدن فوقها و هكذا دواليك ثم توقد النار في الكداس فينصهر الرصاص،و كان البايك يحمل على معدن النحاس من مناجم الأطلس المتيجي الواقعة بجبل موزاية،و موقع المعدن. فيما يتعلق بالخشب المعد لصناعة السفن و البناء،فكان مصدرا الرئيسيان هما غابات دار السلطان(غابة بني صالح،و الشريعة،و جبال الظهرة)و غابات منطقة القبائل الصغرى(جبال بابور)و كان فحم الخطب هو الوقود الوحيد المستعمل في الصناعة.

أولى معظم الحكام العثمانيون اهتماما بالغا بصناعة السفن الحربية منذ العهد الأول إذ يعود إنشاء الترسانة أو دار الصناعة إلى ما قبل ما قبل عام 1535 م استنادا إلى تقرير جاسوس إسباني،و كانت دار صناعة السفن في الجزائر تتلقى كميات مهمة من الخشب و جميع المعدات اللازمة لبناء السفن و تجهيزها و تسليحها،كما كانت المشاغل التابعة لها كاملة التجهيز لإصلاح السفن الحربية بجميع أنواعها و أحجامها.

1_ مبارك بن محمد الهلالي الميلي،المرجع السابق،ص 308.

²_Shaw : **Voyage dans la régence d Alger ou description géographique.** Physique philologique. Etc.de cet état. Tard. De l anglais par g. mac. 2^e éd. Editions bous lama,Tunis,1980. P35-36.

عرفت الترسانة في ظل الجهاد البحري القائم ضد المسيحيين نشاطا منقطع النظير رغم الظروف الصعبة التي مرت بها البلاد آنذاك، ففي النصف الثاني من القرن 17 م تذكر المصادر أنه كانت توجد باستمرار تقريبا تحت أسوار الجزائر من أربعة إلى ستة أبدان سفن في طور البناء¹. أما صناعة الأسلحة فقد كانت هذه الصناعة الحيوية تتمثل أساسا في دار النحاس و التي يعود إنشاؤها إلى زمن مبكر من تاريخ الإيالة فأول إشارة إليها هي تاريخ مارس 1534 م.

إضافة إلى ما سبق كانت هناك منشآت أخرى ذات طابع صناعي، وهي طواحين المياه، و الهواء التي كانت منتشرة في الغالب بالمناطق القريبة من المدن، و كانت هذه الطواحين تلي جل احتياجات الاستهلاك المحلي من الطحين، فقد كانت ذات مردود أعلى بكثير من المطاحن الواقعة داخل المدن التي كانت تديرها القوة الحيوانية (البغال، و الجمال) أو القوة البشرية (الأرقاء) أحيانا، و علاوة على ما ذكر كان يوجد بالحامة معمل تكرير السكر يتشكل من عدة مخازن و طاحونة حيث كان يهرس "قصب الهند" قصب السكر فتخرج منه عصارة يستخلص السكر منها بعد تجفيفها². هكذا يمكن تصنيف الصناعات على وفق ما تطرقنا إلى على النحو الآتي: (حرف إنتاجي، حرف تخصص الخدمات و حرف تخصص التجارة و التسويق).

من بين الطوائف الحرفية نجد اليهود الذين مارسوا أنشطة حرفية و جب التفصيل فيها لأهميتها. مارست هذه الطائفة مجموعة من النشاطات الاقتصادية، و هنا يذهب "الميسري" إلى القول، بأن ثمة خصوصيات وظيفية اتسمت بها الجماعات اليهودية في كل زمان و مكان، استمدتها من المجتمعات التي عاشت بينها. فمن المعروف أن المجتمعات التقليدية، اتسمت بكون العلاقات بين أعضائها قوية و مباشرة و كل فرد يعرف بقية أعضاء المجتمع معرفة وثيقة، إذ تربطهم صلة الرحم و المودة المرتكزة على أسس القرابة و الجوار، والانتماء المشترك، و المصالح المعنوية و المادية المشتركة، و نظرا لإدراك اليهود لهذه الحقيقة، أصبحوا يشكلون جماعة وظيفية متماسكة و متجددة باستمرار داخل المجتمعات التي يعيشون في وسطها، خاصة و أن معرفتهم بالأوضاع السياسية في البلاد، أدت بهم إلى زيادة الرغبة في تركيز الثروة، كمصدر من مصادر القوة و تحسين الخبرة و الأداء ليظل المجتمع المضيف بحاجة دائمة لهذه الجماعة الوظيفية. و بخصوص يهود مدينة الجزائر، فقد شكلوا جماعة وظيفية نشيطة، و يمكن التمييز بين نوعين من النشاطات الاقتصادية التي مارسها هؤلاء: أولا الصنائع و الحرف، ثانيا النشاطات المالية³.

¹ _محمد العربي الزبيدي، المرجع السابق، ص 65.

² _وليام شالر، المصدر السابق، ص 93.

³ _عبد الوهاب الميسري، موسوعة اليهود و اليهودية و الصهيونية، ج 2، دار الشروق، بيروت، 1998، ص 375.

بالنسبة للصنائع و الحرف يعرف " ابن خلدون " الصناعة، بأنها ملكة في أمر عملي و فكري، و بكونه عمليا فهو جسمانيا محسوس، أما الصنائع فمنها البسيط و منها المركب، و البسيط هو الذي يختص بالضروريات أما المركب فهو الذي يكون للكماليات، و تشمل الصنائع و الحرف كل ممارسة تتطلب تدريباً طويلاً و جهداً عضلياً و مهارة يدوية خاصة، و غالبا ما يقع بين أفرادها توريث للخبرات عبر الأجيال مثل صناعة الحلبي و سك النقود و الخياطة... الخ.

تعتبر حرفة الصياغة من الصنائع المركبة و الدقيقة و الكمالية و المربحة في الوقت نفسه، و هي من أهم الحرف التي مارسها اليهود، إذ اشتهروا باشتغالهم بجميع الحرف التي لها علاقة بالجواهرات و بالمعادن الثمينة كالذهب و الفضة، و ما شجعهم على مزاولتها، ما توفره من أرباح و فوائد مادية، حتى احتكروا هذا المجال احتكاراً تاماً خاصة و أن المسلمين قد ابتعدوا عن هذه الحرفة، و لعل السبب في ذلك هو ورود بعض الأحاديث النبوية الشريفة، التي تنهى الرجال عن لبس الذهب فتجنبوا الاشتغال بكل ما له علاقة بذلك، بدليل أن الصاغة اليهود بمدينة الجزائر لم يوظفوا سوى الأسرى المسيحيين لمساعدتهم في هذا العمل.

و لعل الكثير من هؤلاء الصاغة، مارسوا هذه الحرفة بالسوق المخصص لها إذ تطلعننا الوثائق بأن "...سوق الصاغة..." يقع بمركز المدينة، فهو قريب من الجامع الأعظم و من بيت المال و مسجد السيدة، كما أن سوق الصاغة يجاور سوق القسارية، و له منفذ على سوق الفرارية، كما له منفذ آخر على يمين الصاعد من القهوة الكبيرة¹.

بالنسبة للعطارة فقد وجد بمدينة الجزائر سوق عُرف بـ "سوق العطارين"، يقع بمقربة من سوق السمن . كما وجد أيضا سوق آخر عرف بـ "سوق العطارين"² اليهود "يقع، أسفل سوق السمن، و بمقربة من سوق الدخان، كما انتشرت محلات العطارين بمواقع أخرى، فعلى سبيل المثال "ملك الذمي موشي بن ناون محلا لبيع العطرية قرب القهوة الكبيرة"، و وجد "محلا لبيع العطرية بسوق الخراطين"، إضافة إلى ما عُرف بـ " محلات العطارين اليهود الواقعة بسوق الحاشية".

أما القزازون هم المشتغلون بصناعة الحرير و المنتجات الحريرية الرفيعة مثل الحواشي و الأحزمة و خيوط الحرير الرفيعة، و بالرغم من وجود "سوق القزازين" فقد أثبتت بعض العقود الخاصة بمحلات الحرفيين

¹ _عائشة غطاس، الحرف و الحرفيون بمدينة الجزائر (1700 م - 1830 م)، المرجع السابق، ص 302-303.

² _العطار هو بائع العطر و مواد أخرى كالسكر و الأرز و غيرها. أنظر :عائشة غطاس، الحرف و الحرفيون بمدينة الجزائر (1700 م - 1830 م)، المرجع السابق، ص 476.

القزّازين اليهود، انتشارهم خارج السوق المذكور، فمثلا وجدت " محلات القزّازين اليهود أسفل سوق السمن بسكة غير نافذة هناك"، كما كان "للذمي موشي القزّاز "بن إسحاق" محلا بسوق اللوح

فيما يخص الخياطة يقول "ابن خلدون" عند حديثه عن صناعة الحياكة و الخياطة، بأن هاتين الصناعتين ضروريتين في العمران لما يحتاج إليه البشر، و يذكر " كاهن " بأن الخياطة و الطرز كانتا من أهم الصنائع التي أتقنها اليهود رجالا و نساء و من الخياطين اليهود "الذمي الخياط هارون بن مردخاي اشكانصو"، المذكور في عدد من العقود، فقد اشترك مع جماعة من "الذمين في ملكية إحدى الدور الواقعة بسوق التماقين"، كما ورد اسمه في بيان صدر عن هيئة بيت المال، ضمّ أسماء أشخاص ترتبت عليهم ديون لصالحه آخرين مثل :الذمي حليم الخياط، و الذمي، كما تعرفنا أيضا على بعض الخياطين ا عمران الخياط بن ميير، و الذمي إبراهيم التونسي الخياط بن إسحاق بن عزره والذمي مردخاي الخياط¹.

أشاد "فونتير دي برادي" بجودة الحرير المصنوع بالجزائر، و ذكر رواجه في أوروبا و إقبال الأوروبيين على شراء المنتجات الحريرية الجزائرية من أحزمة و مناديل، و المحارم الحريرية (مناديل توضع على الرأس) ..، و الحرارة كانت من أكثر الحرف رواجاً، و قد اشتغل بها العنصر الأندلسي من المسلمين و اليهود، فقد وردت الإشارة في أحد العقود على اشتغال بعضهم بهذه الصناعة من ذلك أن .."، الذمي مردخاي الذباح بن إسحاق اليهودي، اشترى محلا بالقرب من الجامع الأعظم احتوى علي آلات معدة لصناعة الحرير ..".

أشارت الوثائق الشرعية إلى ممارسة اليهود لحرف أخرى، مثل صناعة القزادير، من ذلك "شراء الذمي دايد بن إسحاق اليهودي محل يقع بكجاوة معد لصناعة القزادير من السيد المكرم "محمد بن أحمد"، كما عاد "للذمي دايد بن اليهودي إسحاق اليهودي" عرف بوخريص"، بالإرث من والدته الذمية "قاسي بنت باروخ اليهودي" محلا قريبا من قهوة الصفارين معد لبيع القزادير.

كما رصدت مجموعة من الوثائق التي تبرز انتشار اليهود، عبر العديد من الأسواق المتخصصة في المدينة و امتلاك محلات بها، فقد تواجدوا بسوق الخرازين، و بسوق الشبارلية، و بسوق التماقين، و بسوق القزّارين، و بسوق السمن، و بسوق الحاشية، و بسوق الشماعين، و بسوق الحوت².

¹ _شريد حورية، " زخارف شجر اليهود في الفن الجزائري أثناء العهد العثماني"، حوليات المتحف الوطني للآثار، عدد 11، 2002، ص 43.

² _شريد حورية، المرجع السابق، ص 45.

كانت لليهود نشاطات مالية و نعي بالنشاطات المالية، كل نشاط له علاقة بالأموال و التجارة و التسويق فمن بين النشاطات المالية التي وردت الإشارة إليها في المحاكم الشرعية، تلك النشاطات المتعلقة بالمعاملات النقدية كالصيرفة (تبديل العملة) و السمسرة، إذ ذكر أحد العقود الذمي "يعقوب شتروود" الصراف، كما ذكر عقد آخر، الذمي "حميز السمسار بن دابيد زيتون"، وقد أشار "شالر" إلى احتكار اليهود لمثل هذه الأعمال بقوله: "كما هي عادة اليهود في مختلف البلدان فإنهم يمارسون جميع فروع التجارة، و هم يحتكرون في هذا البلد السمسرة و أعمال المصارف و تبديل العملة.

أفادتنا وثائق مختلفة باشتغال اليهود في التجارة، إذ عملوا على توفير العديد من المواد الغذائية التي يحتاجها الأهالي يوميا فمثلا " :اشترك الذميون" بيرس بن إسحاق كوهين" و "يوسف كوهين" و "عمار بن إسحاق"، في ملكية أحد الأفران المعد لعجن القمح والشعير الواقع بسوق السمن، كما يبدو أن بعضهم كانوا يعملون كبائعين للخضار والفواكه فقد ملك أحد الذميين محلا معدا لبيع الخضار بسوق السمن، و اشترى آخر قنطار بطاطا و باع كل من الذمي "مخلوف" و الذمي "يوسف" كيس من التين المجفف بسوق السمن¹.

و بذلك يكون قد سجل اشتغال بعض اليهود بتوفير مختلف المواد الاستهلاكية اليومية للمسلمين من جهة، و من جهة أخرى اشتغال بعضهم بتوفير مواد غذائية يستهلكها غير المسلمين، و نخص بالذكر تجارة الخمر فقد أبرز أحد العقود النادرة "امتلاك الأخوين الذميين يوسف و إسحاق أولاد موشي اليهودي لحانتين (محلين لبيع الخمر) تقعان بزقة الحاشية، عادتتا إليهما بالهبة من والدهما موشي". كما اشتغل بعضهم ببيع الدخان إذ "ملك الذميون مردخاي بن هارون و إسحاق بن إبراهيم ننوشي و هارون بن شالوم محلا لبيع الدخان يقع بكجاوة.."، كذلك الذمي شلومو كسي الدخاخني بن شمير، و الذمي الدخاخني يوسف¹.

أهم فروع التجارة التي مارسها اليهود— كما تشير الوثائق —هي تجارة القماش بمختلف أنواعه، و منه القماش الخاص بصناعة الحايك الجزائري و الذي ذكر في الوثائق "بقماش حياكة التلحيف"، و الأقمشة الحريرية، والقماش المعروف "بالأنجاد" و النوع المعروف "بالأطلاس الأسود"، كما تاجروا في المحارم الحريرية، و الشاشية الجزائرية.

¹ _ شريد حورية، المرجع السابق، ص43.

2 _ المازري بديرة، "حياة اللهو و خدمات الخمارات و المقاهي و الفنادق في الجزائر في أوائل القرن الثامن عشر ميلادي"، منشور في أعمال ملتقى الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني، ج1 و ج2، زغوان، 1988، ص97.

و يبدو أن اليهود، مارسوا تجارة القماش في داخل البلاد و خارجها، فقد أفادتنا إحدى المعاملات المالية بأنه "... ترتب دين على الذمي موشي بن يعيش الجزائري، ببلاد تونس و هو ثمن قماش ابتاعه من المكرم التاجر الجزائري السيد قدور بوعمامة"¹.

محمل القول إن اليهود مارسوا بمدينة الجزائر نشاطاتهم الحرفية و التجارية بكل حرية، إذ لم نسجل أي إشارة تدل على منعهم من ممارسة نشاطاتهم الاقتصادية ، أو إجبارهم على ممارسة حرفة معينة دون أخرى، إذ اشتغلت كل فئة في النشاط الذي يناسب وضعها، فالبسطاء من اليهود اشتغلوا بالصنائع و الحرف اليدوية البسيطة و الدقيقة مثل صناعة الحلبي و المجوهرات... الخ، و كبائعين متجولين، أما اليهود الأثرياء و أغلبهم من اليهود الليفورنيين فاشتغلوا بالأعمال التجارية الكبرى و احتكروا تصدير مواد هامة مطلوبة في الأسواق الأوروبية، كالحبوب و الجلود و الأقمشة و الحرير و ريش النعام و الخمر.

المعاملات الاقتصادية اليومية بين المسلمين و اليهود، أدت إلى تعاملهم بالقروض، حيث يقوم صاحب المال (الدائن)، بإقراض مبلغ من المال إلى الشخص المستدين مع تحديد تاريخ إعادته، و عبرت الوثائق الشرعية عن هذه الممارسة بعبارة "سلف إحسان و توسعة". تعددت وسائل و طرق التعامل بين المسلمين و اليهود، فبالرغم من شيوع استعمال النقود كأهم وسيلة للتبادل التجاري فقد استعملت طرق أخرى كالقروض و المعاوضة و البيع بالمزايدة و البيع بالأجل و الوكالة².

و العقود الخاصة بالمعاملات المالية، هي عبارة عن إقرارات بالديون، يتم فيها إثبات قبض مبالغ معينة إثباتا مستوفيا للشروط الشرعية، و يحتاط صاحب المال بكل الصيغ التي تمنع وقوع أي التباس أو تهرب من تسديد مبلغ القرض. مثال ذلك نذكر، "اعتراف الذمي موشي بن هارون معطي على نفسه، أنه قبض من السيد حميده بن حاج علي البرادعي مبلغا من المال على وجه القرض، بحكمه الجائز بين المسلمين، رأس المال يكون بينهما إنصافا و سوية و اعتدال، و عليه بالصرف والأمانة في السر والعلانية.

و ما نسجله، هو الحرص على ذكر المدة الواجب إعادة القرض خلالها، فعلى سبيل المثال "...تعهد الذمي يعقوب الصرّاف، أن يعيد ما قبضه من التاجر أحمد بن الحاج محمد على وجه سلف إحسان و توسعة، بعد انقضاء خمسين يوما من تاريخ تقديم القرض".

و نلاحظ أيضا أنه قد يتم تسديد مبلغ القرض على دفعات مثلما حدث في المعاملة المالية التي جرت بين "...علي يولدش بن محمد و الذمي هارون بن مردخاي اشكانصو فقد اتفقا على أن يؤدي الذمي المذكور في كل

¹ _ المازري بديرة، المرجع السابق، ص 100-102.

² _ شريد حورية، المرجع السابق، ص 54.

جمعة ما قدره ريال واحد، إلى أن يسدد جميع المبلغ"، و إذ نسجل هنا حرص صاحب المال في كتابة مثل هذه الشروط، فإن هذا الأمر يفسر بخوف المقرض من تملص المقرض، و عدم وفائه بالدين المترتب عليه.

أما عن تفسير شيوع ظاهرة القروض من طرف المسلمين لليهود، فالواضح أن اليهود قد استغلوا تعاليم الشريعة الإسلامية، التي تحرم إقراض المال بالفائدة أو ما يعرف شرعا بالربا، فقد تمكن اليهود من تنمية أموالهم و تنشيط أعمالهم التجارية عن طريق حسن استغلال القروض التي تحصلوا عليها من المسلمين، في الصفقات التجارية المربحة، في حين يفسر قلة القروض من جانب اليهود لصالح المسلمين إلى مطالبة المقرضين اليهود من المقرضين المسلمين تسديد فوائد القروض، وهذا الأمر مخالف للشريعة الإسلامية.

و لم يعثر في الوثائق على أي إشارة صريحة أو ضمنية، تدل على مطالبة اليهود بفوائد على المال الذي أقرضوه للمسلمين، و ربما يعود هذا الأمر إلى لجوء المتعاملين في كتابة العقود إلى قضاة المسلمين حيث يتم التوثيق حسب أصول الشريعة الإسلامية¹.

ومما سبق يتبين أن يهود مدينة الجزائر تمكنوا من نسج شبكة علاقات اقتصادية واجتماعية واسعة و متنوعة، شملت جميع الأطراف الممثلة لمجتمع المدينة، بداية من الطبقة السياسية مثل الحكام و مساعديهم من الجهاز الإداري و من المؤسسة العسكرية بفرعها الإنكشارية و الرئاس، إضافة إلى الأعيان و العلماء و التجار و الحرفيين وحتى النساء، و من ثمة فإن شبكة علاقاتهم لم تكن مغلقة بل كانت مفتوحة على جميع الفعاليات السياسية و العسكرية و الاقتصادية².

نتيجة لتحسن الأوضاع الاقتصادية و ازدهار تجارة الغنائم البحرية و افتداء الأسرى، سجل توافد عدد قليل من اليهود من فرنسا و صقليا و وصل عدد أهم من المدن الإيطالية كجنوة و البندقية و ليفورنة طيلة القرن السابع عشر.

أحدثت العائلات الليفورية انقلابا في ميزان القوى داخل طائفة اليهود فاستولت على المناصب الهامة كمنصب "مقدم اليهود" بعد أن كان بيد عناصر من الميغورشييم، على غرار ما فعله هؤلاء مع اليهود التوشابيم خلال القرنين الرابع عشر و الخامس عشر الميلاديين. و ما ساعدهم في ذلك نجاح أعمالهم التجارية المدن الإيطالية و الجزائر، فقد استفادوا من التفوق التقني العائلي ما بين موان الناتج عن النهضة الأوروبية، وهذا الأمر لم يكن متاحا لغيرهم.

مع ذلك فإن التنظيم الداخلي للطائفة اليهودية كان تنظيما محكما، فقد استفاد اليهود من "نظام الملل" الذي اعتمدته الدولة العثمانية، حيث منحت كل جالية حكما ذاتيا في أمورها الدينية، فكان لكل ملة رئيس و

¹ _ عبد الوهاب الميسري، المرجع السابق، ص 377.

² _ عائشة غطاس، الحرف و الحرفيون بمدينة الجزائر (1700 م - 1830 م)، المرجع السابق، ص 310.

رجال دين يتولون النظر في جميع الأمور الخاصة بأتباعهم، مما جعل اليهود يتمتعون بحقوق لم يعرفوها في كثير من المناطق، فلهم في جميع مسائل حياتهم استقلال تام.

أنشأ اليهود بالجزائر مؤسسات إدارية حقيقية، اتخذت هيئاتها شكلا هرميا إذ خضعوا لسلطة "المقدم" الذي يعينه الداي، و يتولى السهر على مصالحهم و تسيير شؤونهم، يساعده في ذلك "مجلس الطائفة" و هو بمثابة هيئة استشارية مكونة من أربعة أعضاء يعينهم المقدم، كما يعين من بينهم عضوين في كل شهر عرفا بمقدمي الشهر " مهمتهما الأساسية النظر في القضايا المستعجلة والتي لا تتحمل انتظار موعد انعقاد مجلس الطائفة الشهري¹.

أما عن النشاطات الاقتصادية التي مارسها اليهود، فقد احتكروا احتكارا تاما صناعة الحلبي والمجوهرات فكان جميع الصاغة بمدينة الجزائر من اليهود و عمل بعضهم سماسرة وبالصيرفة و بالعطارة و بالأعمال التجارية الكبرى، و في ذات الوقت اشتغلوا بالحرف البسيطة مثل: الخياطة والقزازة و صناعة المنتجات الحريرية و صناعة القزادير و كبائعين متجولين. إذ نسجل اشتغال اليهود بنشاطات متنوعة كل حسب ما يناسب وضعه، فلم نصادف ما يفيد بمنعهم من مزاوله حرفة معينة دون أخرى أو ممارسة نشاط اقتصادي دون آخر.

معاملاتهم الاقتصادية اليومية كانت تتم ببسر و دون تعقيدات كبيرة، بدليل حصولهم على عدد من القروض المالية من بعض المسلمين، و التي وظفوها-دون شك- في تنمية أموالهم و توسيع أعمالهم التجارية، مُستغلين بذلك تعاليم الشريعة الإسلامية السمحة التي تحرم إقراض الأموال بالفائدة (الربا)².

كما نجح اليهود في تأسيس شبكة علاقات اجتماعية و اقتصادية واسعة شملت مختلف الشرائح الاجتماعية، بداية من الصفوة الحاكمة و الموظفين الإداريين و عناصر الجند الانكشارية، و من الأعيان و التجار وكافة شرائح المجتمع و شملت حتى النساء.

بناء على ما سبق يمكن القول بأن الطائفة اليهودية لم تعيش بمنأى عن المجتمع، فقد ثبت لدينا انتشار أملاك اليهود عبر مختلف أحياء و أسواق المدينة -مثلهم مثل باقي الفئات السكانية- و عليه يمكننا دحض فكرة "العزلة" أو "الانغلاق" الاجتماعي و الاقتصادي لليهود بمدينة الجزائر فترة هذه الدراسة³.

بالإضافة إلى طوائف أخرى نذكرها على سبيل المثال:

- الميزابيون: اختصوا في تصفية الزيوت، الجزائر، الأفران، والحمايمية.

¹ _ شريد حورية، المرجع السابق، ص 65-67.

² _ نفسه، ص 66.

³ _ شريد حورية، المرجع السابق، ص 67.

- القبائليون: يعتبر هؤلاء من أهم المجموعات عددا بمدينة الجزائر وقد مارست جماعة القبائل نشاطات تجارية وحرفية مثل العمر في ورشات الحرفيين، كما احتكروا صناعة الفحم و بيعه إذ يشير المخطوط قانون الأسواق إلى جماعة القبائل الفحميين ، كما ساهموا في الحراسة الليلية للمدينة.
- البسكريون :اشتغلوا بحراسة الغنائم و تجارة الأسواق و عملوا أيضا كحمالين و خدام ، كما أوكلت إليهم الحراسة بالليل في الأزقة و الأسواق و تحضير الخبز.
- جماعة الجيجلية :استقر هؤلاء بمدينة الجزائر من استنجد أهل مدينة الجزائر بالإخوة ببروسة (1516م) و بالرغم من النشاطات التي استقطبت العناصر الجيجلية الغزو البحري ، إلا أنهم اهتموا بشراء الأفران و منافسة الجماعة الميزابية في ذلك.

إن عدد الطوائف حسب "أندري ريمون" (Raymond) كانت تقدّر في قسنطينة بـ 354 مجموعة حرفية لم تكن مدينة الجزائر تحتوي على 32 طائفة حرفية لأن الأسطول البحري كان له أثر في إنعاش النشاط الاقتصادي من خلال جلبه للغنائم و كذلك الإتابة المفروضة على الدول الأوروبية طيلة 3 قرون من الوجود العثماني¹.

أما جملة الهيئات التي كانت تنظم الحرف و التي لا يزال معظمها قائما لحد الآن:

1. النجارون، و مهمتهم صناعة الصناديق، و الأبواب و النوافذ، و غيرها من المنتجات الخشبية.
2. الحدادون، و يتولون صناعة المحارث ، و المنجال و القواديم، و الأجمة....
3. الجلابون، و هم المختصون في تربية المواشي و تسويقها....، و غيرها من الحرف².

¹ _حنيفي هلايلي ،أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، المرجع السابق ،ص 27.

² _محمد العربي الزبيدي، المرجع السابق، ص 68.

1_ الفضاء المكاني للنشاط الأندلسي:

كانت لفئة الأندلسيين رغم حرمانها من التطلّع السياسي دورها الاقتصادي فلم تطمح إلى ارتقاء المناصب السياسية و ذلك لأن احتكار العثمانيين للسلطة أغلق الأبواب في وجهها ،نتج عن استقرارهم نشاط اقتصادي غير معهود برز في مختلف المجالات الاقتصادية و في معظم أنحاء المدينة¹.

عرفت مدينة الجزائر العديد من المهن و الصناعات التي و إن لم ترتقي إلى المستوى المعروف آنذاك بالبلاد العربية إلا أنّها كانت تتمثل نشاطاً تقليدياً مهماً يعتمد على المهارة اليدوية و التقاليد المتوارثة ،و انشغل الأندلسيون بمدينة الجزائر في الأعمال التجارية و الحرف اليدوية و تفرقوا في الصناعات التي تتطلب المهارة و الإتقان فانتشرت حوانيتهم و مشاغلهم في أرجاء المدينة ،و كان أغلبها بالشارع الرئيسي للمدينة.

ازدهرت مدينة الجزائر في مطلع الفترة العثمانية لفترة من الزمن لا تزيد عن القرن و النصف في ميدان الصناعة فتعددت فيها الحرف و كثرت فيها الورش و ازدحم بها الصنّاع و حسب بعض المصادر التاريخية فإنّ مدينة الجزائر في بداية القرن 17 م كان بها حوالي (3000) نساج و (1200) خياط ،و(600) مربّي لدودة الحرير و(200) نساج للحرير و (180) سكاكاً ،و(80) حداد ،و كان السبب في ازدهار الصناعة في هذه الفترة يعود إلى هجرة الأندلسيين الذين نقلوا مهنهم إلى المدينة و مهاراتهم الفنية و نشروا بها ما وصلوا إليه من حرف و صناعات التي كانت شائعة في شبه جزيرة أيبيريا ،و قد تخصص المسلمون الأندلسيون في صناعة الأسلحة و البارود و الصناعات الحديدية و المنسوجات الصوفية بالخصوص ،كذلك احتكر بصفة أوليّة حرفة العطار و الخياطة و صناعة الشواشي.

كانت هيمنة العنصر الأندلسي في الميدان الحرفي إحدى الخصائص المميّزة لجماعة البنائين إبان القرن 17 م حيث أنّ معظم المعلمين المهرة الذين أسندت إليهم إدارة جماعة البنائين و تسييرها كانوا أندلسيين.و لقد اشتهت الجالية الأندلسية في مدينة الجزائر عدّة حرف هامة جداً أهمها صناعة أدوات الزينة بالإضافة إلى الصناعة الفخارية و الأحذية².

يمكن القول أن الأندلسيين أدخلوا بمدينة الجزائر عدة صناعات جديدة و عملوا على تطوير ما كان موجود من المهن التقليدية ،و هذا ما جعل المدينة تتميّز بنشاط حرفي حقيقي موجه لتغطية الاستهلاك المحلي وللتبادل مع

¹ _حنيفي هلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، المرجع السابق، ص 30.

² _ناصر الدين سعيدي، "الأندلسيون (الموريسكيون) بمقاطعة الجزائر (دار السلطان) أثناء القرنين السادس عشر و السابع عشر"، حوليات جامعة الجزائر، العدد 7، الجزائر، 1993، ص 129.

الأقطار الإسلامية الأخرى بالإضافة إلى بعض البلدان الأوروبية التي استفادت هي الأخرى من المعارف الحرفية الأندلسية¹.

2_التعاملات الاقتصادية الأندلسية:

اختلفت وسائل التعامل بين الأندلسيين و الفئات الاجتماعية الأخرى على غرار النقود التي تعتبر الوسيلة المعتمدة و المتداولة منذ القدم. وكانت المقايضة من أهم وسائل التعامل قبل ظهور العملة النقدية، و كانت العملة النقدية تُسَكُّ باسم السلطان العثماني و لقد تعرّضت لصعوبات جمّة بفعل مزاحمة النقود الأجنبية المتواجدة بالإيالة التي كان الحكام العثمانيون يسمحون بالتعامل بها مثل النقود الإسبانية، و إلى جانب العملات الأجنبية نجد العملة المحلية الجزائرية المعروفة بالدينار السلطاني و هي وحدة نقدية ذهبية إذ تعرف عادة "بسلطان الجزائر" أو "سكة الجزائر". أعيد ضربها أواخر العهد العثماني فأصبحت تعرف "بالسكة الجديدة".

بما أن النشاط الاقتصادي للجالية الأندلسية و حيويتها في مجال الأعمال المالية جعل الحكام يميلون إلى تفضيل العملة الإسبانية عن غيرها من العملات الأجنبية الأخرى خلال تعاملاتهم مع الدول الأوروبية إذ كان الأمر يتعلّق بتسديد القروض و دفع الإتاوات فقد ساعد الأندلسيين إلى حد كبير على شيوع النقود الإسبانية بين السكان و جعلها العملة المفضلة في التعامل بين حكام الجزائر و باقي الدول الأوروبية عند تسديد المشتريات و دفع الإتاوات. إضافة المقصود إلى مبادلة أملاك بأملاك دون أي مقابل مالي و الاسم الشائع لها هي البيع بالمقايضة و هي من المعاملات الجائزة و المسموح بها في الكتاب و السنة.

كما اعتمدوا البيع و المزايدة و تسمى أيضا بالمزاد العلني، تتم هذه العملية عندما يعجز المالك عن دفع التزاماته المالية أو في حالة تعرض العقار للهدم و نقص منفعته. و الوكالة و هي عبارة عن إذن في تصرف يملكه الإذن فيما تدخله النيابة أي هي تفويض شخص غائبا لشخص آخر سواء من نسبه أو غير ذلك بعقد شرعي و ذلك للتصرف في أملاكه².

إضافة إلى الاعتماد و المقصود بها دفع عقار محبس لشخص يستغله و ذلك مقابل إيجار سنوي يدفعه لمؤسسة الوقف التي يعود إليها ذلك العقار. و الشراكة التي تعتبر الاجتماع في الاستحقاق أو التصرف في ملك مشترك و هي جائزة في الكتاب و السنة، و الشراكة وسيلة من وسائل التعامل الاقتصادية المتداولة لدى الأندلسيين.

¹ _ناصر الدين سعيدوني، "الأندلسيون (الموريسكيون) بمقاطعة الجزائر (دار السلطان) أثناء القرنين السادس عشر و السابع عشر"، المرجع السابق، ص، ص 157-163.

² _عبد الجليل التميمي، دراسات في التاريخ الموريسكي الأندلسي، د.د.ن، زغوان، 1993، ص 40-41.

خلال التعاملات الاقتصادية التي كانت تتم بطرق و وسائل مختلفة تمكن الأندلسيون من تنمية أموالهم و توسيع أعمالهم التجارية و بذلك تشكيل علاقات اقتصادية مع مختلف شرائح المجتمع من بينهم اليهود و الجيش الإنكشاري و التجار، و بعد أن أصبحت الجزائر بيد الأتراك عمتها الفرحة و العظمة و انتشر العمران فيها و تحسنت لأحوال سكانها كذلك فإن أوجاق الجزائر نشرت الرعب و الخوف في قلوب المسيحيين برّاً و بحراً.

3_الصناع الحرفيون:

كاد الصناع و الحرفيون الأندلسيون يكونون فئة وضيعة في الأندلس ذات خصوصيات فإنهم لم يطمحوا في مدينة الجزائر إلى مناصب سامية أو قيادية بل كان كل همهم ضمان موارد عيشهم لكنهم وجدوا وجهاً لوجه مع صناع و حرفيين منافسين مما أدى إلى وجود نوع من الصراع الاقتصادي، و رغم هذا فإنهم اشتهروا بممارستهم لأغلب المهن و الحرف بالمدينة.

نلاحظ أنّ الجالية الأندلسية كان لها الفضل في ازدهار القطاع الاقتصادي فقد تجلّى نشاطها في كافة المواقع الهامة بالمدينة إذ لم نجد حياً خاصاً بهم و بالرغم من تأسيسهم لزاوية خاصة بهم بحي "مسيد الدالية" لكن لا يعتبر حياً أندلسياً، بل إنهم استقروا في أهم المناطق حيث تتواجد المعالم الدينية في الجانب السفلي و العلوي للمدينة بالإضافة إلى الفعاليات الاقتصادية التي كانت هي الأخرى تتوزع في مناطق مختلفة من المدينة و أهمها سوق سيدي "محمد الشريف"، سوق القبائل، بالإضافة إلى أماكن أخرى كانت القبلة لعدد هام من الأنشطة الأندلسية المتميزة¹. ارتبطت الصناعات المستحدثة التي بالوجود الأندلسي بمدينة الجزائر نسيج القطيفة (المحمل) الذي اختصّ بهما مهاجروا غرناطة.

أما الصناعات التي تخضت بوجود الأندلسيين هي حرفة صناعة الشاشية التي أصبح لها سوق خاص بها بمدينة الجزائر عرف بسوق الشواشي و يعود الفضل أيضاً للأندلسيين في تحسين و صناعة الأسلحة و تحضير البارود و تطوير صناعة السفن بميناء الجزائر².

¹ ناصر الدين سعيدوني، دراسات أندلسية-مظاهر التأثير الأيبيري و الوجود الأندلسي بالجزائر، دار الغرب الإسلامي، الجزائر، 2003، ص351.

² محمد رزوق، الأندلسيون و هجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 و 17م، ط3، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1998، ص52.

كما عملوا بالدباغة و السروجية (صناعة السرج) و الأعمال الأخرى ،و على الرغم من أن سكان الجزائر الأصليين يملكون ذوقاً رفيعاً و حساً مرهفاً لكنّهم كانوا ميالين إلى حب الثروة و المشاجرة ،فالجزائريون يفضلون ممارسة الأعمال التي لا تحتاج إلى جهد كبير مثل الخياط و حياكة الكترات الصوفية و القطنية و التطريز بالقصب¹.

ساهم الأندلسيون في تطوير الزراعة بإدخال وسائل ري جديدة و إنشاء السواقي، إلا أن هذه الإمكانيات ظلت بسيطة حتى انهيار الحكم العثماني و مقتصرة على المناطق التي استقروا بها فقط و قد استطاع السكان تسخير الإمكانيات الطبيعية لإنتاج محاصيل مختلفة بحيث نجد سكان السهول العليا يشتغلون بزراعة الحبوب،و المنطقة الواقعة بين سطيف و قالة و هي المنطقة الرئيسية لإنتاج القمح،و أصبح قمح الجزائر أجود من قمح سردينيا خاصة محصول الأطلس التلي و المضاب الداخلية و قد زادت أهمية هذه المادة نظراً لأهميتها في الاستهلاك المحلي و التصدير الخارجي و قد عملت السلطات الجزائرية على تشجيع تصدير هذه المادة إلى أوروبا².

كما انتشرت بالجزائر زراعة المحاصيل الصناعية كالتيغ الذي يزرع في عنابة و فحوص مدينة الجزائر بكميات هامة و كذلك زراعة القطن التي أدخلها الأندلسيون إلى الجزائر.و بفضل الخبرة الأندلسية في الزراعة ،عمّت أشجار البرتقال في فحوص البليدة و القليعة ،و فضلاً عن ذلك، انتشرت أشجار الكرم في فحوص مدينة الجزائر،و كان جزء من إنتاج العنب يحفظ على شكل زبيب³.

أما فيما يخص النشاط التجاري و الخدمات الإدارية التي عرفت بها الجالية الأندلسية بالجزائر فإننا نلاحظ أنّها لم تكن أقل شأنًا و أهميّة عن بقية المعارف الاقتصادية الأخرى فمنذ حلولها بالمدينة اشتغلوا بتحصيل الضرائب و جمع موارد الخزينة و تقديم الخدمات الضرورية للإدارة التركية و تسهيل تعاملها مع بقية السكان بالإضافة إلى المبادلات التجارية التي أصبحت من احتكارهم نظراً لاستعدادهم و مهاراتهم و امتلاكهم لرؤوس الأموال التي نقلوها معهم من الأندلس⁴.

استطاع أفراد الجالية الأندلسية بفضل نشاطهم الاقتصادي الواسع من تكوين ثروات ضخمة ساهمت في فعاليات اقتصاد إيالة الجزائر،و كان الأندلسيون يمارسون المهن المعروفة آنذاك حيث تخصصوا في مختلف الحرف

¹ _مبارك بن محمد الهلالي الميلي،المرجع السابق،ص307.

² _عبد الله عنان،نهاية الأندلس و تاريخ العرب المنتصرين،ط3،مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر،القاهرة،1966،ص358.

³ _محمد رزوق،المرجع السابق ،ص 55.

⁴ _عزيز أتر سامح،المرجع السابق،ص127.

السائدة في مجتمع الجزائر، و قد شبه أحد المؤرخين نشاط الأندلسيين بإيالة الجزائر مقارنة مع نظام الطوائف الحرفية بأنها تمثل النخبة البرجوازية التي تحتكر دواليب الحركة الاقتصادية، وكانت هذه الجالية بمثابة المؤشر المالي للرأسمالية في الجزائر العثمانية.

امتد نشاط الجالية الأندلسية في الجزائر إلى كافة مجالات الأنشطة الاقتصادية و استطاعوا أن يلجوا أبواب معظم الحرف المهنية و الحرفية، و احتكروا الأشغال بها ، و يمكن تقسيم الحرف المهنية التي اشتغل بها الأندلسيون إبان العهد العثماني إلى مجموعتين أساسيتين:

1. الحرف الصناعية و التي ارتبطت في بعض جوانبها بالنشاط التجاري.

2. حرف خاصة بالأعمال غير الصناعية كاللدالة و الحياكة.

أهم الحرف التي اشتغل بها الأندلسيون في الجزائر في العهد العثماني صناعة النسيج و الملابس و حياكتها، و اشتهرت المناطق الغربية من الجزائر بصناعة الزرابي ذات الطابع الأندلسي خاصة في مناطق تلمسان و قلعة بني راشد كما اهتم الأندلسيون بدباغة الجلود و صناعة الشاشية و الأنسجة الحريرية، و اشتهرت عائلة "القلانسي" و "بوناتيير" بجي باب الواد بصناعة الشاشية و النسيج. و يرجع الفضل في المحافظة على هذه الصناعات المحلية المختلفة إلى بعض الأسر من الحضرة الأندلسيين التي توارثت صناعتها و حافظت عليها من الاندثار¹.

اتسع نشاط الأندلسيين ، و بخاصة تجارة بيع الأسرى المسيحيين و تمويل مشاريع الجهاد البحري، و هي مؤسسات حيوية و هامة ظلت لمدة طويلة موردا هاما للرزق و مصدرا للثروة، و عاملا حاسما في تنشيط الحركة الاقتصادية بالجزائر، كما كانت حكرا على أفراد الإدارة العثمانية، و تشير الدراسات بأن عدد الأرقاء المسيحيين الذين كانوا يباعون في أسواق مدينة الجزائر ما بين 1520-1660 م كان يتراوح ما بين 500 ألف و 600 ألف نسمة و كان هؤلاء يعملون في تجارة الفداء و التي كانت مظهرا هاما من مظاهر مجموع اقتصاد إيالة الجزائر².

الحقيقة أن المتتبع لدور التجار الأندلسيين و خاصة في مدينة الجزائر، و استثمار أموالهم في عمليات القرصنة (غنائم الجهاد البحري) ليقف مندهشا لهذا الدور الذي لعبه هؤلاء في المجال التجاري، حيث اشتهروا بتحصيلهم للضرائب و مساعدتهم للأتراك في تنظيم موارد الخزينة العامة³.

¹ _ناصر الدين سعيدوني ناصر الدين سعيدوني ،النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830)، طبعة ثالثة منقحة و معدلة و مزيدة، المرجع السابق، ص 34.

² _حنيفي هلايلي، الحضور الأندلسي في العهد العثماني على ضوء سجلات المحاكم الشرعية، المرجع السابق، ص 2.

³ _ليلي الصباغ، ثورة مسلمي غرناطة عام 976 هـ أواخر 1568م و موقف الدولة العثمانية منها، مجلة الأوصال، العدد 27، سبتمبر-أكتوبر، 1975، ص 166-175.

لا غضاضة أن تعتبر هذه الفئة التجارية طبقاً لاتساع نشاطها المالي بفضل خبرتها التجارية أنها أصبحت تمثل النخبة المديرة لشؤون القرصنة و النخاسة و مبادلة الأسرى في الجزائر العثمانية، و قد شجعت إيالة الجزائر القرصنة و هي التي كانت قُدِرَ عليها غنائم ثينة، بفضل المورسكيين الذين يتقنون اللغة الإسبانية و يُعتبرون أكثر الفئات علماً بدخائل الصراع السياسي و العسكري بالبحر الأبيض المتوسط¹.

شجعت إيالة الجزائر القرصنة² التي كانت تدُرُ عليها بغنائم كثيرة بفضل المورسكيين الذين يتقنون اللغة الإسبانية، و يعتبرون أكثر الفئات علماً بدخائل الصراع السياسي و العسكري بالبحر الأبيض المتوسط.

أذنت فرنسا في عهد "لويس الثالث عشر" 1601 هـ- 1643 م بتجارة الرقيق، و تبعتها بقية الدول الأوروبية فنشطت بذلك تجارة الرقيق التي أصبحت شرعية و شائعة لدى الدول الأوروبية و هي منظمة بمراسيم حكومية و قوانين معروفة.

نظراً لما كانت تدره القرصنة من أرباح فقد حول التجار الأوروبيين كل من وقع في قبضتهم من سكان إفريقية الزنجية أو إفريقية البيضاء إلى عبيد، و أدت هذه الحرفة إلى نقل ما يقرب من 30 مليون إفريقي إلى العالم الجديد و لم يكن المسلمون في المغرب الإسلامي بمعزل عما كانت تدره النخاسة على تجارة الأوروبيين، لذلك وجهوا اقتصاد مدينة الجزائر نحو تجارة الرقيق- و العبيد المسيحيين بصورة خاصة- إلا أن الجزائر لم تكن لها مستعمرات تصرف فيها هؤلاء العبيد فاحتفظت بهم كرهائن في البلاد، حتى تبادلهم بالنقود مع حكوماتهم أو حتى تبادلهم مع الأسرى الجزائريين الذين هم في قبضة المسيحيين كما حدث مع الجزائر و فرنسا سنة 1692 م حيث حررت الجزائر 30 عبداً فرنسياً مقابل تحرير فرنسا ثمانية أتراك³.

من الأمور المتعلقة ببراء الأندلسيين في مدينة الجزائر أنّ كثير من أفراد الجالية الأندلسية إلى جانب استثمارهم للعقارات، قاموا بوقف الكثير منها إما على أنفسهم حيال حياتهم ثم على ذريتهم من بعدهم، أو على أوجه البر و طلبة العلم، أو على فقراء الأندلس و فقراء الحرمين الشريفين⁴.

¹ _عائشة غطاس، سجلات المحاكم الشرعية و أهميتها في دراسة التاريخ الاقتصادي و الاجتماعي بمجتمع مدينة الجزائر في العهد العثماني، مجلة إنسانيات، مركز البحث في الأنثروبولوجية الاجتماعية و الثقافية، العدد 3، 1997، ص 86.

² _تعتبر القرصنة التي مارستها البحرية الجزائرية جهاداً بحرياً و امتداد للحروب الصليبية، و ذلك نظراً لأسبابها الدينية و دوافعها العاطفية، و إن كانت الفوائد المادية هدفاً رئيسياً للقرصنة منذ القرن السابع، و مع هذا فالقرصنة الجزائرية بعيدة كل البعد عما يلصقه بها بعض الأوروبيين من أنها لصووية و اعتداء و تعدي على القوانين الدولية. أنظر: ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830)، طبعة ثالثة منقحة و معدلة و مزيدة، المرجع السابق، ص 62.

³ _بسام العسلي، خير الدين بربروس و الجهاد البحر 1470-1547م، دار النفائس، 1980-1400هـ، ط 2، ص 76.

⁴ _ناصر الدين سعيدوني، دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر -الفترة الحديثة و المعاصرة -، المرجع السابق، ص 40.

كانت الدوافع المادية للعنصر الأندلسي المستقر بالإيالة الجزائرية هي القوة التي يستمد منها تلاحمه الاجتماعي، و التي تزيد في شدة تأزره و ارتباطه و ربما يرجع السبب في تراجع دور العنصر الأندلسي بالمدن الجزائرية إلى ضعف نشاط أفرادها في الميدان المالي نتيجة مضايقة و استبداد الحكام الأتراك¹.

و بالجملة فإنّ الصناعة الجزائرية في الفترة العثمانية بفرعيها التقليدي و التحويلي امتازت بصفات و خصائص تتلخص في عدّة نقاط:

1. اعتمدت الصناعة الجزائرية على المواد الأولية المتوفرة بالبلاد كالصوف و الجلد و الخشب.
2. اتّجهت الصناعة المحليّة البسيطة في البوادي إلى تلبية الحاجات الضرورية للعيش، بينما الصناعة التقليدية في المدن حافظت على طابعها عبر توارثها من جيل إلى آخر، و اعتمدت في إنتاجها على الأشياء الكمالية و الترفيهية التي تجدد رواجاً لدى سكان المدن مثل الحلي و الجواهر و الأحزمة و المناديل و العطور.
3. خضعت صناعة المدن الكمالية لتحكم و مراقبة النقابات المهنية، بعد أن تطوّرت هذه النقابات المهنية حسب تقاليد متوارثة ممّا أكسبها شكل مجموعات اقتصادية مستقلة بعيدة عن أي صبغة دينية أو سياسية، بحيث انحصرت صلاحيات أمناء هذه النقابات في الإشراف على أصول المهنة و الحرص على جودة البضاعة و تحديد كميتها، لكن أنظمة هذه النقابات المهنية تحوّلت مع مرور الزمن إلى عائق في وجه التطوّر الصناعي، إذ حالت القيود المفروضة على المصنوعات من حيث الكميّة و الكيفيّة، دون أي توسّع أو تجديد أو ابتكار أو اقتباس في المجال الصناعي².
4. اضطرت الصناعة الجزائرية إلى رفع أسعار بضائعها لتغطية الالتزامات المالية و الضرائب الثقيلة المفروضة عليها، و بذلك انخفضت قيمة المنتوجات الزراعية بالنسبة للمواد المصنعة و ارتفع مستوى معيشة الحضر على حساب الفلاحين.
5. أضرت منافسة المصنوعات المستوردة بالمصنوعات الجزائرية، و قد ساعد على هذه المنافسة غلاء أسعار المصنوعات الجزائرية من جهة، و عدم انتهاج الحكومة سياسة الحماية الجمركية من جهة أخرى، بل يستنتج من سلوك بعض الحكام أنّهم كانوا يشجعون الاستيراد الخارجي، حتى أصبحت تلمسان مستودعاً لبضائع تجار فاس و منفذا لتصريف الأحذية و السروج و الألبسة و المنسوجات الحريرية المستوردة من المغرب الأقصى، كما وجدت شاشية تونس الحمراء رواجاً جعل الشاشية الجزائرية ينحط نوعها و يقتصر

1_ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830)، طبعة ثالثة منقحة و معدلة و مزيدة، المرجع السابق، ص 212.

2_حمدان بن عثمان خوجة، المرجع، السابق، ص 97.

استعمالها على الطبقات الشعبية الفقيرة. بينما غدت المصنوعات الأوروبية متوفرة في الأسواق و شائعة الاستعمال، فهي تستورد بكميات كبيرة مقابل تصدير الإنتاج الوطني الفلاحي و الحيواني¹.

كانت نتيجة هذه المنافسة الأجنبية و فتح باب الاستيراد الخارجي و الإكثار من الضرائب و تحكم النقابات المهنية في الصناع أهم العوامل التي حالت دون قيام صناعات حقيقية في الجزائر العثمانية حتى في مجال المنسوجات و المواد الغذائية و بناء السفن رغم توفر المادة الأولية و الخبرة الضرورية لهذه المصنوعات².

تميزت الصناعة الجزائرية بكونها صناعة يدوية بصفة كبيرة و هي بعيدة عما وصلت إليه الصناعة الأوروبية من قبل الثورة الصناعية حيث تعمقت الهوة بين الجزائر و أوروبا، كما أن الصناعة الريفية كانت تعمل فقط لتلبية الحاجات الضرورية للسكان، و نفس الشيء بالنسبة للصناعة في المدن.

زاد في ضعف الصناعة هو عدم تدعيم الدولة الصناعية الشعبية لاعتبارها لا تمثل العصب الرئيسي لاقتصاد البلاد، و من أهم خصائص الصناعة الجزائرية في عهد الدايات، أنها لم تكن صناعة بآتم معنى الكلمة، إنما هي عبارة عن حرف بسيطة أو صناعات تقليدية بالمفهوم المعاصر، كما هو الشأن في المدن الجزائرية هذا عن مميزات الصناعة، أما عن المشاكل التي كانت تعاني منها بصفة عامة فيمكن تقسيمها إلى مشاكل خارجية و داخلية، و أخرى طبيعية و بشرية.

كان الصناع الجزائريون خاصة النجارون و صانعي الأسلحة و السراجين يحتاجون في أعمالهم إلى بعض الآلات التي لا تتوفر في عين المكان فتستورد عادة من أوروبا، و لأن الاتصال بأوروبا يتم عبر الأجانب، فلم يكن هؤلاء يهتمون بتطوير الصناعة بالجزائر حتى يواصلوا استنزاف خيراتهم في الصناعة الجزائرية كما أن الصناعة الجزائرية عانت من إهمال الحكام و عدم إتباع سياسة تنمية لهذا القطاع مما أدى إلى غزو مصنوعات الأقطار العربية المجاورة خاصة المغاربة و التونسيين³.

إلا أن كل هذه المعطيات لم تساهم في تطور الصناعة و استثمارها، و من العوامل أيضا التي وقفت حائلا في طريق تطور مختلف الأنشطة الصناعية هي فتح باب الاستيراد الخارجي و الإكثار من الضرائب الملقاة على عاتق الممارسين للمهن الصناعية، و نتيجة لهذا التأزم الحاصل لم يكن هناك نهضة صناعية في الجزائر في تلك الفترة⁴.

¹ محمد العربي الزبيدي، المرجع السابق، ص 64.

² ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830)، طبعة ثالثة منقحة و معدلة و مزودة، المرجع السابق، ص 36.

³ حمزة منير و آخرون، المرجع السابق، ص 46.

⁴ دخية فاطمة، المرجع السابق، ص 16.

الفصل الثالث : الزراعة و الرعي .

عرفت الزراعة في الجزائر ازدهار ملحوظاً تحت حكم البايبرايات (1518-1588 م)، و أثناء فترة الباشاوات (1588-1659 م)، بعد فترة طويلة من الانهيار الاقتصادي والاضمحلال العمراني. فكثر الإنتاج واستقرّت الملكيات مع توطن القبائل بالسهول الداخلية التي تحوّلت في أغلبها إلى أراضي مشاعة ببايلك التيطري و قسنطينة و مازونة وإلى ملكيات خاصة بالمناطق الجبلية الحصينة وبفحوص المدن حيث ظلّ السكان مرتبطين بالأرض في الوقت الذي بدأت تنتشر فيه الأوقاف خارج المدن ، و تستحوذ فيه الدولة على مساحات مهمّة من الأراضي بعد طرد القبائل المناوئة لها و أغلبها يقع بسهول وهران والشلف حيث كانت تقيم قبيلتا سويد والأحمال المعاديتان للأتراك ، و بسهول متيجة وقسنطينة حيث أصبح السكان يخضعون مباشرة لموظفي الدولة من قادة وحكام وشيوخ¹.

امتازت الفترة الأولى من الحكم العثماني للجزائر بشيوع العمران و تطوّر الزراعة بفحص مدينة الجزائر و كان ذلك نتيجة للظروف الملائمة المتمثلة في أرباح الجهاد البحري التي مكّنت كثيراً من الحضر و الأتراك من حياة الضياع خارج مدينة الجزائر و الانتقال إليها بعد أن ضاقت المدينة بمجاعات الأسرى والعبيد ، كما كان لنشاط المهاجرين الأندلسيين دخل كبير في استصلاح الأراضي بسهل الحامة ، و غرس الأشجار المثمرة بنواحي بئر الحادم و بئر طربلية و الثغرين ، حيث أصبحت أغلب الأراضي الزراعية بهذه الجهات ملكاً لأفراد الجالية الأندلسية و هذا الازدهار العمراني و التطوّر الزراعي هو الذي دفع الرحالة و رجال الدين الأوروبيين إلى ذكر أرقام قد يجد فيها الدارس للأوضاع الاقتصادية تجاوزاً للحقيقة و ميلاً للمبالغة ، ف"هايدو" (ت. 1581) مثلاً يذكر أن فحص الجزائر كان يشتمل على 1000 بستان ، و الأب "دان" (زار الجزائر سنة 1634) يسجل أن الجهات القريبة من الجزائر تتوفر على 18000 مزرعة².

1_اهتمام العثمانيين بالزراعة

يعود اهتمام الحكام العثمانيين بالفلاحة منذ بداية وجودهم بالجزائر إلى إدراكهم لأهمية هذا القطاع في تعزيز حكمهم و إخضاع السكان لطاعتهم، و ما يؤكّد ذلك التنظيم الذي طبقوه في تحديد طبيعة ملكية الأراضي الزراعية، و طريقة توزيعها، و أساليب استغلالها، و النظام المتبع في جمع الضرائب، و بالرغم من الإمكانات التي توفرها الزراعة فإنها لم تستغل بشكل جيد بحيث تعود بالفائدة على عامة الناس، فكانت المساحات الخصبة في الأقلية، أما الأغلبية التي كانت تتوفر على القدرات البشرية الذي كان يتطلبه النشاط الزراعي، فإن نصيبها كان

¹ _ناصر الدين سعيدوني، الملكية والجباية في الجزائر أثناء العهد العثماني، ط2، المرجع السابق، ص36.

² _ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية -دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني -، المرجع السابق، ص366-367.

ضيئلا، كما أن عدم تطوير وسائل الإنتاج، و ثقل الضرائب، و الكوارث الطبيعية التي كانت تحل بالبلاد، فقد كانت سببا في تدهور الزراعة، و ضعف مردودها¹.

عرفت الجزائر أثناء حكم الأغوات (1659-1671 م) و هم قادة فرق الإنكشاري الذين أخذوا الحكم من الباشاوات الذين أصبحوا ممثلين شرفيين للباب العالي فقط قبل أن يتخلّوا على السلطة لفائدة منتخبي الديوان من الدايات الأوائل، فقد تضرّرت الزراعة ، و تحوّلت كثير من الأراضي المنتجة للحبوب إلى ملكيات للبايلك أو مزارع مشاعة بين أفراد القبائل الحليفة (قبائل المخزن) أو العشائر الخاضعة (قبائل الرعيّة) بعد أن انقطع سيل الهجرة الأندلسية.

تسببت الحملات العسكرية التي كانت تنطلق من مراكز البايلك لجمع الضرائب و أخذ المغارم في إلحاق أضرار فادحة بأهالي الريف ، و غالباً ما تمكث المحلّة أو الفرق العسكرية مدّة طويلة قد تصل إلى ستة شهور تتحوّل أثناءها بالأرياف و تستخلص الضرائب و توقع العقاب بالمتنعين ، فمحلّة بايلك الشرق تنطلق من قسنطينة و تنقسم إلى فيلقين: أحدهما يجوب الهضاب العليا والتل الجنوبي ، و الآخر يقصد مناطق التل الشمالية المتاخمة لساحل البحر ، أمّا محلّة بايلك التيطري فتتوجّه من مدينتي الجزائر والمدية نحو سهول غريب و بني سليمان و البرواقية ، بينما محلّة بايلك الغرب تخرج من مازونة أو معسكر نحو سهول غريس و واد مينا وجهات السرسو و تاهرت².

تحكّمت الضرائب الزراعية في النشاط الاقتصادي للجزائر في العهد العثماني و أثّرت إلى حد كبير في الوضع الاجتماعي و السياسي ، حيث اعتبرت المحرّك الأساسي للجهاز الإداري و المالي و العامل المؤثر في القوانين و التنظيمات المعمول بها في الأرياف ، و المتحكّم الرئيسي في الإنتاج الفلاحي و الحيواني ، فمن خلال طريقة فرض الضرائب و كيفية استخلاصها و الكمية التي توفّرها للخزينة العامة يمكن رسم صورة متكاملة للعلاقات بين السلطة و الأهالي تعكس حقيقة توازن القوى في الأرياف³.

هكذا يعد النشاط الزراعي و ملكية الأراضي و ملاكها أمر يسهل لنا تحديد العلاقات و الروابط السائدة بين أفراد المجتمع ، و كون المجتمع الجزائري مجتمع فلاحيا في العهد العثماني ، يقدر نسبة سكان الأرياف بأكثر من 90% أما انتشار الأراضي الصالحة كمناطق الأطلس التلي و الهضاب العليا الداخلية التي تشتهر بزراعة القمح و

¹ _أرزقي شويّتام، المجتمع الجزائري و فعالياته في العهد العثماني 1519-1830م، دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2006-2007م، ص 347.

² _ناصر الدين سعيدوني، الملكية والجباية في الجزائر أثناء العهد العثماني، ط2، المرجع السابق، ص 39.

³ _ناصر الدين سعيدوني، الضرائب الزراعية في الجزائر في العهد العثماني، د.د.ن، معهد التاريخ، جامعة الجزائر ، د.س.ن، ص 217.

كذلك تنوع الأرض حيث ينتج الزيتون و البرتقال في شرشال و القليعة ، في حين نجد المحاصيل التجارية في مليانة و معسكر و مستغانم ، و هذا ملائمة الأرض وزراعة الحبوب و البقول بالسهول الساحلية، و اختصاص المناطق الجبلية بالأشجار المثمرة و يتركز الرعي في مناطق الهضاب العليا¹.

يعني أن الفلاحة مزدهرة ما عدا في سنوات القحط، و كانت الإيالة تنتج جميع أنواع الفواكه و الخضر و الحبوب بكميات تزيد عن حاجيات السكان، و كانت الصناعة تقليدية يقوم بها أصحاب الحرف الذين كانوا ينظمون في هيئات يشرف على كل واحد منها أمين يتولى تنسيق الأعمال و يسأل أمام السلطات، و كانت هناك، أيضا مناجم، مطاحن، و محاجر تقوم المصالح الإدارية باستغلالها، و أخيرا فإن التجارة بنوعيتها كانت تحتل مكانة مرموقة، و كانت من أهم عناصر الثروة في البلاد، و لكن جزء منها كان بين أيدي الأجانب يعثون به².

كما انتشرت بالجزائر زراعة المحاصيل الصناعية كالتبغ الذي يزرع في عنابة و فحوص مدينة الجزائر بكميات هامة و كذلك زراعة القطن التي أدخلها الأندلسيون إلى الجزائر. أما الثروة الحيوانية فقد كانت متوفرة و لكنها كانت تواجه بعض المشاكل أيضا، و نلاحظ أنها كانت منتشرة في كامل البلاد أغلبها كان في الهضاب العليا، و لكن كثرة الجفاف و المعرفة القليلة بالعناية بالحيوانات أدت إلى الإضرار بها، و كانت البقر تشكل المصدر الرئيسي لرأس مال الأهالي لأنهم لا يستهلكون في الغالب إلا الأغنام. و كان لانتشار تربية الحيوانات تأثير على الاقتصاد الريف حيث صنع السكان الصوف و الخيام من شعر الماعز³.

كما نجد أن عدد الملكيات الزراعية بإقليم دار السلطان في القرن 17 م قد بلغ ما بين 16.000 و 18.000، و كانت الأراضي تنقسم وفقا لنمط ملكيتها إلى: أراضي الملك (ملكية خاصة)، أراضي العرش (ملكية جماعية)، أراضي البايلك (ملكية الدولة)، و أراضي الحبس (ملكية وقفية)، و كانت أغلب الأراضي فيما عدا أراضي العرش يتم استغلالها بواسطة الأرقاء الأوروبيين، أو بواسطة ختماسيين يُؤجرون بخمس المحصول لقاء عملهم في حين تعود الأربعة أخماس المتبقية إلى المالك⁴.

2_ التقنيات المستعملة و أنواع المحاصيل الزراعية

لم تكن التقنيات التي كانت مستعملة في الزراعة تختلف كثيرا بشكل عام عما كان سائدا في جنوب أوروبا آنذاك، و هذا كان راجع أساسا إلى التحسينات التي أدخلها الأندلسيون بالأخص في مجالي الري و زراعة الأشجار

¹ _أرزقي شويثام، المجتمع الجزائري و فعالياته في العهد العثماني 1519-1830م، المرجع السابق، ص 347.

² _محمد العربي الزيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري، المرجع السابق، ص 64.

³ _أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)، ط3، المرجع السابق، ص 144.

⁴ _ناصر الدين سعيدوني، ملكية الأراضي في الجزائر أواخر العهد العثماني و تأثيرها على البنية الاجتماعية بالريف، في أعمال ملتقى الثالث للتاريخ و حضارة المغرب، ج1، د.م. ج، الجزائر، 1983، ص 218.

لكن مع ذلك لم يكن الإنتاج الزراعي كاف في بعض الأحيان لسد حاجات الاستهلاك المحلي، لا سيما خلال فترات الجفاف أو زحف الجراد، ولقد تميز الإنتاج الزراعي في نواحي الجزائر بالتنوع على أن زراعة الحبوب من حيث أهميتها بالنسبة للسكان كانت تحتل المرتبة الأولى¹.

كان القمح يأتي على رأس المحاصيل الزراعية في الجزائر لأنه كان يمثل على شكل خبز أو كسكسي، المصدر الأساسي لغذاء السكان و الذين كانوا حسب قول "وليام شالر" قلما يزرعون أية حبوب أخرى، غير الحنطة و الشعير، و بالإضافة إلى القمح و الشعير، كان الأرز يزرع أيضا بشكل محدود بالقرب من مدينة مليانة: وكانت زراعة الأشجار المثمرة تنتشر في المناطق الريفية الآهلة مثل بلاد القبائل و دار السلطان، و من الأنواع التي كانت تغرس على نطاق واسع شجر الزيتون و التين اللذان اشتهرت بهما بلاد منازع بلاد القبائل حيث شكلت زراعة الزيتون و تجارة الزيت المستخرج منه الركيزة الاقتصادية للإقليم ككل².

كذلك كانت هناك مساحات مسقية في المزارع تخصص دوما لزراعة شتى أنواع الخضروات و البقول الجافة مثل: البازلاء و الفول و البصل، و الفلفل بنوعيه، و الجزر، الحمص. كما عرفت الجزائر أنواع أخرى مخصصة للزراعات الصناعية و التجارية، مثل التبغ و القطن و الكتان إضافة إلى النشاط الرعوي الذي كان يعد القوام الأساسي لمعظم السكان من غير الخضر غير أن الطبيعة الزراعية لدار السلطان لم تكن تسمح بنماء تربية الماشية على نطاق واسع، و كان الإنتاج الحيواني فيها لا يكفي الاستهلاك المحلي، لذلك أُسْتُعِضَ عن ذلك النقص بإيراد رؤوس الماشية من المناطق الرعوية، حيث كانت قبائل الرحّل تمتلك قطعان كبيرة من الغنم و الماعز، و تنتقل في بحثها عن أحسن المراعي إلى التل شمالا في فصل الصيف و إلى مشارف الصحراء جنوبا في فصل الشتاء، و كانت تربية البقر منتشرة خصوصا لدى السكان المستقرين، حيث كانت فصائلها ذات حجم صغير التي تمتاز بالقوة و الاحتمال، تُستخدم عادة في الحرث و لكن إنتاجها من الحليب كان ضعيف. الحالة المزدهرة التي كانت عليها الزراعة الجزائرية قبل الاحتلال قد شهد بها كثير من الملاحظين، فقد علق "هايدو" إثر ذهابه إلى خارج مدينة الجزائر في إحدى المناسبات بقوله: هناك العدد الذي لا يحصى من الحدائق و بساتين الكروم المملوءة بشجر البرتقال و أشجار الزيتون، و بالأزهار من كل نوع³.

¹ - أرزقي شويتام، المجتمع الجزائري و فعالياته في العهد العثماني 1519-1830م، المرجع السابق، ص 350.

² - رشيد حفناوي، الطرق و القوافل التجارية بين الحواضر المغاربية و أثرها الحضاري في العهد العثماني خلال القرنين 11-12 هـ، 17-18 م، ماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر، جامعة قسنطينة، 2013-2014م، ص 18.

³ - وليام سبنسر، المرجع السابق، ص 156.

3_ الدور الاجتماعي للزراعة

حتى آخر القرن 17 م كان المحصول موجهاً للمائدة و لتحويله إلى خل ثم أدى ازدياد الاتصال بالأوروبيين و اتساع المذاق بين الطبقات العليا في مدينة الجزائر إلى إنتاج الخمر الجزائري الذي كان يتم محليا وضعه في زجاجات و شربه في بعض الأحيان، و لكن أغلبه كان يصدر لأوروبا¹.

إلا أنه رغم تنوّع المحاصيل فإن الفلاحة الجزائرية في الفترة العثمانية كانت تعاني عدّة مشاكل و صعوبات عاقت تطوّرها و ازدهارها. و تعود هذه الصعوبات إلى الأساليب العتيقة المتبعة و الآلات البدائية المستعملة في خدمة الأرض، فأدوات الفلاح الجزائري آنذاك كانت لا تتجاوز المحراث الخشبي و المنجل البدائي و الفرشاة البسيطة كما أن وسائل الري و تحسين الإنتاج و استصلاح مستنقعات السهول الساحلية حول الجزائر و عنابة و وهران ظلت بعيدة عن متناول سكان الأرياف، و من الأمثلة على ذلك أن سهل متيجة الخصب كان يعتبر منطقة غير صحية لانتشار حمى المستنقعات به.

كل هذه المشاكل و الصعوبات دفعت بكثير من الفلاحين إلى تفضيل تربية المواشي على الاستقرار في الأرض لخدمتها أو إلى الالتجاء إلى الزراعة المؤقتة و الرعي المتنقل لاسيما في المناطق التي انعدم فيها الأمن و أصبحت تعرف ببلاد البارود أو أرض الخلاء. يضاف إلى ذلك الظروف الصعبة التي كان يعيشها الفلاح الجزائري، فقد كان معرضاً للهجمات العسكرية و مهدداً من طرف قبائل المخزن المسلحة، كما أنه كان عرضة للأمراض و المجاعات التي كانت تحتاجها البلاد بين الحين و الآخر².

كما عملت نفس الظروف الصعبة في المناطق الجبلية الحصينة على تكوين طبقة من الفلاحين قادرة على ممارسة الزراعة و حمل السلاح عند الحاجة تحت قيادة بعض الأشراف المرابطين، فكان هذا الصنف من الفلاحين الدعامية الأساسية للمشايخات و العائلات الوراثة ببلاد القبائل الكبرى و الصغرى و جبال الونشريس و الأوراس و مواطن النمامشة و الحنانشة³.

¹ _ بسام العسلي، المرجع السابق، ص 78.

² _ أحمد الشريف الزهار، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، نقيب أشراف الجزائر، تق و تع: أحمد توفيق المدني، ش. و. ن. ت، الجزائر، 1974، ص 142.

³ _ ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830)، طبعة ثالثة منقحة ومعدلة ومزودة، المرجع السابق، ص 32-33.

إضافة إلى ذلك تدهور الأمن في الجزائر إبان الحقبة العثمانية، فالنشاط الزراعي لم يشهد استقرارا كبيرا بسبب عدم اطمئنان الممارسين لهذا النشاط في حقوقهم، الأمر الذي أدى إلى تدهور هذا القطاع، و من ثم تدهور أوضاع الفلاحين إلى أن آل أمر بعضهم إلى الفقر و البؤس. كما اجتمعت أسباب عدة أدت إلى ضعف المردود الفلاحي منها قساوة الطبيعة التي كانت تشكل مؤثرا سلبيا أدى إلى تدهور الوضع، إضافة إلى ضعف مستوى و سائل الإنتاج التي لم يكن بمقدور السلطة التركية تطويرها¹.

كذلك كان من الممكن أن تزدهر الفلاحة في المناطق البعيدة عن نقطة الاحتلال الأجنبي، لولا أن السياسة الجبائية التركية كانت تشتمل على مظالم اجتماعية جعلت الفلاحين ينصرفون عن الفلاحة، و يفضلون تربية المواشي إذ يستطيعون أن يوفروا بها في وجه الجبابة، دون الحبوب التي تشدهم إلى مكان معين و تجعل منهم عبيد الأرض و عبيد الجبابة.

هذا لا يعني أن الجزائر لم تكن بها فلاحية مزدهرة، و لكنه يعني أن الثروة الزراعية، كان من الممكن أن تكون أفضل بكثير مما كانت عليه لولا تلك السياسة الجبائية الظالمة. كذلك كان للتدهور التجارية الخارجية، أنه تقلصت مساحات الخضر و البقول التي ظلت قائمة لذلك الحين في السهول القريبة من الموانئ التي كان بها نشاط تجاري كثير مثل: الجزائر و عنابة و ارزيو، لأن تدهور النشاط التجاري أثر على الوضع الزراعي لتلك السهول و جعلها تتقلص تاركة المكان للمراعي و الأعشاب و تربية المواشي².

¹ _ دخية فاطمة، المرجع السابق، ص 15.

² _ مبارك بن محمد الهلالي الملي، المرجع السابق، ص 308.

الفصل الرابع: المبادلات التجارية الداخلية و الخارجية

يكاد يتفق معظم الباحثين الذين قاموا بدراسة التجارة الخارجية للجزائر بين نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر، استنادا إلى المصادر المسيحية، على أن تجارة الرقيق الأوروبيين والغنائم البحرية مثلت القسم الرئيسي في العلاقات التجارية للمدينة مع الخارج في تلك الفترة، وإنهم في الوقت نفسه يقللون من أهمية الصادرات والواردات الأخرى من غير الغنائم¹.

شهدت التجارة الجزائرية التي لم تكن كما ذكرنا آنفا بأحسن حال، مع منتصف القرن السابع عشر، تراجعا كبيرا نظرا إلى عوامل عدة أهمها تلك التي كانت على الصعيد الخارجي والمتمثلة بالانعكاسات السلبية لحرب كريت بين الدولة العثمانية والبندقية التي أدت إلى ركود نسبي للتجارة المتوسطية، وازدياد نشاط القراصنة الأوروبيين².

وأما على الصعيد الداخلي فقد سببت المغارم والمكوس التي كان يفرضها الباشاوات على التجار ليعوضوا الخسارة الناتجة عن تناقص الإيرادات الجمركية، إضافة إلى احتكار هؤلاء الحكام لبعض المواد الأساسية القابلة للتصدير مثل: (الحبوب، والزيت، والشمع والصوف، والجلود والملح...) الخ، و هو نظام اعتمدوه منذ عهد "حسن باشا" المعروف "بفنزبانو" في القرن السادس عشر، و كان هذا الاحتكار يعدو عليهم بأرباح طائلة إلا أنه كان يمثل عائقا جديا في وجه التجارة.

كان حوض البحر الأبيض المتوسط من أكثر المناطق في العالم حيوية و نشاطا من حيث التجارة و القيام بهجمات عسكرية على المدن الساحلية و احتلالها، و فرض الرسوم المالية عليها لكي يعيش سكانها في سلام. إن قوة الدولة الجزائرية في العهد العثماني كانت مستمدة من وجود جيش بحري بلغت قوته في عهد "الرايس حميدو"، ما يقرب 500 قطعة بحرية يعمل على متنها ما بين 30.000 و 40.000 بحار و بفضل هذا الأسطول البحري مكّنت الجزائر من:

1. مساعدة مهاجري الأندلس و حمايتهم من اعتداءات القراصنة المسيحيين.
2. التصدي للغارات البحرية التي كان يشنها الأوروبيين على مدن المغرب العربي و سفن المسلمين التجارية.

1_Med Amine: " **Conditions et mouvements des échanges de la Régence ottomane d'Alger**" in R.H.M ,1993, n° 69,70,pp11-15.

2_ Fray Diego Haedo: **Histoire des rois d'Alger**, traduit par de Grammont ,et présente par rebbahi Abderrahmane, Alger grand livres edition,Alger,2004,p8.

3. القيام بعمليات تحريرية لطرد الغزاة الأسبان من مدن المغرب العربي التي تمكنوا من النزول بها مثل :جيجل ،عنابة بجاية،وهران....

4. الاشتراك مع القوات البحرية العثمانية لصد غزوات التحالفات الأوروبية الصليبية ضد الجيوش الإسلامية.

5. حماية التجارة الوطنية و اغناء الخزينة الجزائرية بعائدات مالية جاءت من الغنائم البحرية¹.

كانت التجارة في الجزائر كما هو الشأن في جميع البلدان ،نوعان:خارجية وداخلية²،و هكذا فإن الجزائر استقطبت في العهد العثماني حركة النشاط التجاري،سواء على الصعيدين كما أشرنا(الداخلي،أو الخارجي)،و - سنفصل هذا-منها بشكل لفت أنظار الذين نزلوا بها أو زاروها،و قد ترك لنا الرحالة و السفير المغربي"علي بن محمد التمقروتي"الذي زار المدينة عام 1591 م،وصفا لا يخلو من المدح:"الجزائر عامرة كثيرة الأسواق... فبلادهم لذلك أفضل من جميع بلاد إفريقيا،و أعمر و أكثر تجارا،و فضلا و أنفذ أسواقا،و أجود سلعة حتى يسمونها إسطنبول الصغرى".

بالرغم من افتقار المصادر إلى مؤشرات عن النشاط التجاري،فمن المرجح أن حالة الحرب شبه المستمرة مع فرنسا،و الأزمات الداخلية(الأوبئة و الثورات)التي عرفتها إيالة خلال الثلثين الأوليين من القرن 17 م،أثروا سلبيا على حجم المبادلات التجارية،و مما زاد الطين بلة المغارم الباهضة التي فرضها الباشاوات الأواخر على التجار الأجانب و المحليين،و على كلٍ لقد انتعشت حركة النشاط التجاري مجددا في عهد الحاج"علي أغا"عقب انتهاء الحرب الجزائرية الفرنسية في عام 1666 م³.

تمثلت التجارة الداخلية أساسا في الأسواق التي كانت تعقد في يوم من أيام الأسبوع في الأرياف،و قد كانت كلها تحت مراقبة الإدارة العثمانية التي عرفت كيف تجعل منها وسيلة لإخضاع القبائل الممتنعة،و استخلاص الضرائب منها،و مهما كانت أهدافها فإنها ساهمت في تطوير شبكة الاتصالات،و ظهور تجمعات سكانية جديدة،و ربطت الريف بالمدينة⁴.ولقد هيمنت مدينة الجزائر دوما على العلاقات التجارية الداخلية مع باق مدن إيالة،و كان ذلك راجع من جهة لدورها السياسي نظرا إلى أنها مقر السلطة الحاكمة،و من جهة أخرى لوزنها الديمغرافي الذي جعل منها أول مركز استهلاكي في أسواقه مختلفة البضائع و المنتجات سواء من المناطق القريبة (دار السلطان)أو من البياليك الثلاث،و من أهم الأسباب المساعدة على قيام التجارة الداخلية هي تلك

¹ _عمار بوحوش،المرجع السابق،ص 67.

² _محمد العربي الزبيدي،المرجع السابق،ص 64.

³ _مبارك بن محمد الهلالي الميلي،المرجع السابق،ص 310.

⁴ _أرزقي شويثام،المجتمع الجزائري و فعالياته في العهد العثماني 1519-1830م،المرجع السابق،ص 348.

الاختلافات بين الأقاليم من حيث الإنتاج الزراعي والصناعي حيث اشتهر أهل تلمسان بصناعة البرانس في حين يوصف سكان الوسط بالفلاحين الذين لا يعرفون أي نوع من الصناعات¹.

نتج عن النشاط التجاري الداخلي التبادل بين الشمال و الجنوب ازدهار المراكز العمومية الواقعة بين التل و الصحراء، كبوسعادة ، و ازدياد أهمية أسواق التبادل الموسمية كسوق اللوحة قرب تيارت، و الربيع جنوب التيطري، و العثمانية قرب قسنطينة ارتباط الصحراء بالسودان و البلدان المجاورة كتونس و المغرب، و نتج عن ذلك احتكاك السكان بالسلطة العثمانية أثناء ترددهم على الأسواق للتزود بالمواد الضرورية حتى أن بعضهم غدا من القبائل المخزنية مثل قبيلة "سعيد عطية" نواحي ورقلة ، و من ناحية أخرى حقق البايك هدفه من إنشاء أسواق التبادل حيث أوجد موارد مالية شبه قارة تفرض الإدارة 5% كضريبة على السلع المعروضة و تزداد هذه النسبة حسب علاقة القبيلة بالإدارة، و هذا يساهم في تنمية الحزينة الجزائرية².

مما عزز هذا التبادل التجاري الداخلي عاملان هما :أولا تشجيع الحكومة للأسواق التجارية سعيا لفرض نفوذها على سكان الأرياف عندما يختلفون إلى هذه الأسواق. و ثانيا مرور القوافل عبر الأراضي الجزائرية نحو المشرق العربي أو بلاد السودان. فالطرق ذات الاتجاه الأفقي الرابطة بين شرق البلاد و غربها ،أهمها طريقان :طريق التل الواصلة بين تلمسان و الجزائر و قسنطينة و تونس ،و طريق الواحات الصحراوية المنطلقة من تافالت و الرابطة بين عين صالح و متليلي و ورقلة و غات.

بفضل الطريق الأول تدعّمت المدن الداخلية كتلمسان و قسنطينة بينما حافظت الواحات الصحراوية على مكانتها التجارية و مركزها العمراني بفضل الطريق الثاني. كما أن لطرق التبادل التجاري الداخلي اتجاهًا آخر رأسي يصل بين التل و الصحراء باعتبار أن كلا الإقليمين مكمل للآخر اقتصاديا و بشريا. و نتج عن هذا التبادل بين الشمال و الجنوب ازدهار المراكز العمرانية الواقعة بين التل و الصحراء كبوسعادة و البرواقية و بوغار و بسكرة ، و ازدياد أهمية أسواق التبادل الموسمي كسوق اللوحة قرب تيارت و الربيع جنوب التيطري و العثمانية قرب قسنطينة³.

يمكن التمييز بين ثلاثة أنواع من الأسواق حسب دورها وموقعها وطبيعة البضائع المعروضة فيها وهي:

¹ _عمار بوحوش، المرجع السابق، ص 70.

² _حنيفي هلايلي، الحضور الأندلسي في العهد العثماني على ضوء سجلات المحاكم الشرعية، المرجع السابق، ص 50.

³ _ناصر الدين سعيدوني ،النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830)، طبعة ثالثة منقحة و معدلة و مزيدة، المرجع السابق، ص 36.

مدينة الجزائر تضم سوقين مخصصين أساسا في المبادلات مع الأرياف أولهما ليست لها أهمية كبرى وهو يقع خارج باب عزون ويقع ثانيها خارج باب عزون في شكل شارع طويل مؤلف من 30 إلى 40 منزلا تصطف على الطريق الرابط بين الجزائر و تافورة . أما مدينة البليدة فتوجد بداخلها سوقان سوق ثالثة بفحوصها أولها سوقا لزراع وثانيها سوق تعرف بسوق الجمعة وتعرض فيها كل البضائع الأخرى ، أما بالسوق الثالثة التي لا بعد كثيرا على باب الجزائر وسط البساتين فتعرف بسوق الخميس . أسواق الأوطان وهي أسواق أسبوعية يطلق عليها اسم اليوم الذي تقام فيه ، ويختلف عددها في كل وطن باختلاف أهمية واتساع الإقليم الذي تخدمه، وطن يسر ، وطن الحشنة ، وطن بني موسى ، وطن بني خليل ، وطن حجوط أسواق القبائل أهمها سوق السبت بين قبائل بني خليفة وبني موسي الجبل كما يطلق عليها اسم موقعه ، السبت ملوان أو سبت البلوط وغيره أسواق كثيرة منها سوق الاثنين وسوق الثلاثاء وسوق الأحد الأسواق ضرورة اقتصادية وأداة رقابة وتمثل الأسواق تقليدا راسخا للحصول على الأخبار والآراء أو نشرها¹.

كان لكل مجموعة حرفية سوق خاص بها ، حيث عرفت هذه الأسواق حركة نشيطة في الولايات العربية خلال العهد العثماني . باعتبار السوق الإطار الذي تنشأ فيه الروابط العرقية و تخضع لنظام تسلسل العمل ، فكل حرفة هي تخصص عرقي و تخصص مهني ، و العمل هو الإطار الذي تتحد فيه العرقيات لأن الإسلام لا يعرف مفهوم الفردانية ، و ضرورات الحياة الدينية تجبر الإنسان أن يجانب إخوانه . و هذا النظام الاقتصادي من جهة أخرى يحيل دون عزل الإنسان بسبب متطلبات الحياة اليومية ، فكان المواطن ينتمي أولا إلى وسط عرقي ثم ديني ثم مهني و لا يخرج عنه لأنه الوسيلة الكفيلة للحياة و القاعدة نفسها حمايته من ابتزازات موظفي الحكومة . و استوجب لذلك طقوس و قواعد رسمية في التوظيف و تنظيم و تقدم العمل . فالورشة الحرفية لها نظامها الخاص الذي يفرق بين المتعلم و الصانع و المعلم ، أما خارجها و على مستوى المدينة ككل فهناك قوانين إدارية تمارسها السلطة في الحياة الاقتصادية تضبط الطائفة برقابة صارمة لاحترام نظام الحسبة².

¹ _ ناصر الدين سعيدوني، الحياة الريفية بإقليم بمدينة الجزائر، دار البصائر، الجزائر ، 2012، ص ص 281 - 283 .

² _ زهية بن كردرة ، أسواق مدينة الجزائر من الفتح الإسلامي إلى العهد العثماني من خلال المصادر -دراسة تحليلية- رسالة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية ، جامعة الجزائر ، كلية العلوم الإنسانية ، قسم الآثار ، 1999-2000م ، ص ص 170-172.

كان للفن الحرفي دور في اقتصاد المدينة وسبب في نشوء معظم أسواقها إذ تعددت بها ورشات الحرف التي كانت مادة كسب و ربح كبيرين ،و كانت لها خاصياتها و مميزاتها و طابعها المحلي مما جعلها أحيانا تتعدى الاستهلاك المحلي إلى التصدير لأنّ القائمين عليها كانوا ذوي مهارة كبيرة تفتنوا و برعوا في صنع منتجاتهم و طبعوها بطابع خاص بمدينة الجزائر.و من خلال منظومة الأسواق التي ذكرها "ديفولكس" تبين أنّ صناعات حرفية أخرى و مربحة جدا ،قامت بالمدينة على أيدي سكانها سواء مسلمون أو يهود وفي أسواق خاصة.و لمختلف الأنشطة التي وجدت ألزم وجود أسواق تقام فيها العمليات التجارية ،و أماكن تنتج ،هذه المنتجات كلها و مؤسسات تحفظها و تخصص للبيع و الشراء¹.

تسمى أسواق مدينة الجزائر أن بعض أسواقها كان باسم السلعة التي تباع فيها كسوق المقاييسية و سوق الحرارين و سوق السمّن...إلخ،أو تنسب إلى الطائفة كسوق اليهود و فندق الجرابية.إلى جانب التخصص التقني مثل الخراطين و السمارين و الحدادين ،أما التخصص النوعي فيتمثل في الشباغلية و البشماقية و البابونجية التي تصنع أحذية اختلفت وظيفتها و شكلها فقط و هذا تخصص دقيق جدا على عكس الصناعات الحديثة التي نجدها تختص في صناعة كل أنواع الأحذية في سوق واحد أو مصنع واحد ،أما التخصص العرقي فيتمثل في وجود أسواق تنسب إلى الجنس أو العرق ،مثل سوق القبائل و سوق اليهود و حتى الشوارع التي تقوم فيها السوق نجدها في مدينة الجزائر تنسب إلى الطائفة كزقة الجرابية و زقة الفورنية. و بهذا التنظيم أقيمت فضاءات اقتصادية حضرية داخل المدينة ،يؤكدّه "حسن الوزان" في القرن العاشر الهجري/السادس عشر ميلادي بحيث لاحظ أنّ كل سوق تختص بسلعة معيّنة ،و كل شارع له حرفيه ،و هذا يعني تخصص السلع و تعدد الجنسيات و تصنيفها. اعتبرت مهمة الأسواق في العهد العثماني من أعلى المهام الإدارية بتشديد المراقبة عليها عن طريق القايد كونها واسطة توجيه للرأي العام ،و مركز الرأي العام مما كان يدفع الدولة آنذاك ،بتعيين ممثلين لها من كل قبيلة لإجراء اتصالات و علاقات مع الرعية ،لمراقبتها و التطلع على أفكارها لأنه في كثير من الأحيان تعلن التمردات و الثورات في الأسواق².

أما عن الحقوق التي كانت تجبى على الأسواق فكانت من وظيفة القايد في العهد العثماني و تسمى اللزمة يدفعها مباشرة إلى الصندوق المكلف بدفع أجور الإنكشارية التي تجلب منها السلطات الفائدة لبناء أسواق و مؤسسات أخرى.كما نجد بهذه الأسواق العبارين المكلفين بتحديد و ضبط الكميات المباعة إلى جانب كتاب العدول يُكلّفون بتسجيل هذه المعاملات التجارية لحساب ملتزم السوق.

¹ _ زهية بن كردرة ،المرجع السابق،ص55-59.

² _ نفسه ،ص83.

كان حراس الأسواق في العهد العثماني يعينون من طرف الطائفة بموافقة شيخ المدينة الذي كان يحدّد قيمة المرتب و ينظم لهم العمل ،ليبقى الحارس هو المسئول في حالة السرقة في تسديد قيمة البضائع ،و كان يسهر على الأمن العام و على انتظام المبادلات التجارية ،و يقوم مقام الوسيط بين السلطات و أهل السوق و يساعده في ذلك دائما نقيب و كاتب. و أما عن الحياة الاقتصادية داخلها فكانت محكمة وفقا لتعاقب الليل و النهار ،و كانت ساعات العمل في الشتاء أقصر منها في الصيف حيث كان يبدأ العمل بعد صلاة الفجر حتى سقوط الليل لا تقطعه سوى أوقات الصلاة.و في المساء تغلق بالسياج و بأبواب خشبية ثم يأتي الحراس حاملين معهم المشاعل ترافقهم كلاب يمدون من ساعة إلى أخرى. و أخيرا نشير إلى أن كل الأسواق قامت جهة البر أي باب عزون في حين عرف شارع البحرية بالشارع التجاري و هذا لا يعود إلى ضيق المساحة التي ربما تكون عائقا بسيطا ،لكن السبب المباشر هو أنّ التنظيم يوحي بأن أسواق مدينة الجزائر ظهرت في فترة كانت تتعامل فيها برّيا أي مع القوافل و هذا حصل في العصر الوسيط لأن العهد العثماني كانت التجارة فيه لها صبغة بحرية¹.

بذلك يعتبر السوق الوسط الذي يتحرّك فيه الإنسان اقتصاديا ،و هو الإطار الذي تنظم فيه التركيبة السكانية لأنّه عندما تزداد حاجات الناس و تتطوّر تصبح بحاجة إلى تجمع أو إتحاد ،يخصص كل واحد منهم في عمل ما لأنّ الأعمال متّصلة ببعضها و كل يحتاج الآخر.و في هذا الصدد يقول "ابن خلدون": "عندما يستبحر العمران و يكثر السكان ،يزداد تطلّعهم إلى ما وراء الضروري أي إلى الكماليات ،فيتّسع بذلك ميدان الصناعة"،و كان الصناع يشعرون بوجود رابط من نوع خاص يؤلف بين قلوبهم بالأخوة المهنية و بوحدة المصالح.و هذا الشعور بالحاجة إلى جماعة ينتمون إليها تساعدهم حين لا تنفع قرابة النسب أو الدم في توفير الأمن ،الأمر الذي أدى بوجودهم جنبا إلى جنب في سوق واحدة².

التجارة في الجزائر كما هو الشأن في جميع البلدان داخلية وخارجية.الداخلية تتم في الأسواق المحلية أو الجهوية ،وفي الحوانيت والمعارض السنوية وتتناول كل ما يحتاج إليه السكان من منتجات ومصنوعات محلية كانت أو مستوردة ، والتجار الذين يقومون بها في المدن ينظمون ضمن هيئات يشرف عليها كل واحدة أمين يجمع الرسوم المفروضة على كل واحد ويسلمها إلى المصالح الإدارية أما في الأسواق والمعارض فإن التاجر يدفع الرسم قبل الدخول إليها³.

¹ _زهية بن كردرة، المرجع السابق، ص، ص94-137.

² _نفسه، ص138.

³ _محمد العربي الزبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري، المرجع السابق، ص67.

أما التجارة الخارجية لمدينة الجزائر كانت محدودة و قليلة جداً و قد اقتصرت تجارتها على نشاط المهجرين الأندلسيين و اليهود و قلة قليلة من المسلمين و قد وجد في الجزائر حوالي (2000) يهودي، و تركزت تجارتهم على الغنائم التي كان القراصنة يحضرونها من غزواتهم البحرية، فالغنائم التي كان الرياس يحضرونها لم يكن بالإمكان بيعها في مدينة الجزائر و لهذا فقد تعهد اليهود بيعها في كل من إيطاليا و إنجلترا و النمسا و غيرها من المدن الأوروبية و ذلك عن طريق عملاءهم بواسطة أبناء جلدتهم من اليهود، و قد حققوا من جراء ذلك أرباح طائلة، كما عمل بعضهم ببيع الذهب و تصنيعه و تصريف العملات، و كان اليهود يقطنون في أحياء خاصة بهم فقد سمح لهم بفتح الدكاكين إلا أنهم أجبروا على ارتداء لون خاص من اللباس يختلف تماماً عن الألوان التي يرتديها السكان¹.

التجارة الخارجية و على الرغم من تنوعها (حبوب شموع، أصواف، زيوت) فإن الأرباح الضخمة التي كانت تدرها كانت تذهب في معظمها إلى التجار اليهود، و إلى كبار الموظفين و الضباط الأتراك الذين لم يكن يهمهم تطوير وسائل الإنتاج و تجديدها بقدر ما كانت تهمهم تكديس الثروات، و معنى ذلك بعبارة أخرى أن التجارة الخارجية لم تكن تدر أرباحاً هامة على المنتجين، و بالتالي لم يكن هناك محرك اقتصادي يدفع المنتجين إلى تجديد وسائل توسيع وسائل أسلوب الملكية الإقطاعية².

معظم الباحثين الذين قاموا بدراسة التجارة الخارجية للجزائر بين نهاية القرن 16 م و نهاية القرن 17 م استناداً إلى المصادر المسيحية على أن تجارة الرقيق الأوروبيين و الغنائم البحرية مثلت القسم الرئيسي في العلاقات التجارية للمدينة مع الخارج في تلك الفترة، و إنهم في الوقت نفسه يقللون من أهمية الصادرات و الواردات الأخرى من غير الغنائم. بما أن التجارة الخارجية التي كان معظمها في يد الدولة كان بإمكانها أن تعود بالفائدة على الدولة و المجتمع إلى أنها لم ترق إلى المستوى المطلوب نظراً للعراقيل الخارجية التي اعترضت سبيلها، فمعظم أرباحها كانت تذهب إلى الشركات التجارية الأوروبية، و التجار اليهود³.

شهدت التجارة الجزائرية التي لم تكن كما ذكر آنفاً بأحسن حال مع منتصف القرن 17 م، تراجعاً كبيراً نظراً لعدة عوامل أهمها: على الصعيد الخارجي، الانعكاسات السلبية لحرب كريت بين الدولة العثمانية و البندقية، التي أدت إلى ركود نسبي للتجارة المتوسطية، و ازدياد نشاط القراصنة الأوروبيين، و اما على الصعيد الداخلي، فبسبب المغارم و المكوس التي كان يفرضها الباشاوات على التجار ليعوضوا الخسارة الناتجة عن تناقص الإيرادات

¹ -عزيز سامح أتر، المرجع السابق، ص 145.

² -مبارك بن محمد الهلايلي، المرجع السابق، ص 310.

³ -أرزقي شويثام، المجتمع الجزائري و فعالياته في العهد العثماني 1519-1830م، المرجع السابق، ص 348.

الجمركية، إضافة إلى احتكار هؤلاء الحكام لبعض المواد الأساسية القابلة للتصدير مثل: الحبوب، الزيت، الشمع، والصوف، والجلود... إلخ¹.

كان فرار حاكم الباستيون "توماس بيكه" في عام 1658 م بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير، إذ قام هذا الأخير بإحراق الباستيون بعد أن أفرغ المخازن وأخذ معه 50 جزائري عنوة باعهم في سوق النخاسة، و ترتب عن هذه الحادثة كساد التجارة بالشرق الجزائري، وانخفاض حادّ، فالمبادلات التجارية مع فرنسا التي كانت تُعتبر أول شريك اقتصادي بالنسبة للإيالة، ومحاولة منه لبعث النشاط التجاري مجدداً. قام الديوان في عام 1659 م بتخفيض الرسوم، وإقرار تعريف جمركية جديدة، ولكن هذه التدابير لم تأتي بالنتائج المأمولة نتيجة لحالة الحرب غير المعلنة مع فرنسا والاضطرابات السياسية التي عرفت إيالة آنذاك، ولم تستعد المبادلات التجارية نشاطها المعهود من جديد حتى استقرت الأوضاع السياسية في الإيالة وأعيد فتح الباستيون عقب معاهدة عام 1666 م².

أما المواد التي كان يتم تداولها في التجارة الخارجية، فهي خليط من الضروريات والكماليات، فقد كانت الإيالة تُصدّر إلى أوروبا بشكل شبه حصري مواد غذائية وحيوانية (الحبوب والشمع والمرجان، الصوف والجلود... إلخ)، وتستورد منها الأقمشة والخردوات وبعض المنتجات الصناعية، وكانت المبادلات التجارية بين الجزائر والأسواق الخارجية تتم عن طريقين:

1. الطرق البحرية: التي كانت تربط الجزائر بموانئ ليفرنة و جنوة، و مارسيليا، و تطوان، و تونس، قابس، و طرابلس الغرب و الإسكندرية، و أزمير و إسطنبول، و لئن كان ميناء الجزائر يستقبل جل البضائع المستوردة عن طريق البحر، حيث كان يعاد توزيع جزء منها على الأسواق المحلية، فقد كانت الإيالة في القرن 17 م تقوم بتصدير مختلف منتجاتها عبر عدة موانئ على طول الساحل، أهمها من الشرق إلى الغرب.

2. الطرق البرية: و تستعمل فيها قوافل كبيرة عابرة للصحراء تربط في مختلف الاتجاهات بين أسواق بلدان شمال إفريقيا، و الساحل السوداني، و الحجاز، و كانت المبادلات التجارية بين هذه الأسواق و الأسواق الجزائرية المتصلة معها في التل و في الصحراء تتم بكيفية منتظمة كل سنة أو سنتين على الأكثر، و كانت أكبر تلك القوافل هي ركب الحج المغربي التي تنطلق من مدينتي فاس و تازة بالمغرب الأقصى نحو الجنوب، و تحاذي الصحراء مارة بالأغواط، و بسكرة، و الجريد التونسي، و طرابلس الغرب بإتجاه مصر، و

¹ -عزيز سامح ألت، المرجع السابق، ص 150.

² -أرزقي شويثام، المجتمع الجزائري و فعالياته في العهد العثماني 1519-1830م، المرجع السابق، ص ص 231-254.

على مر الطريق كان يتزايد حجمها بما ينضم إليها من قوافل التجار و الحجاج من الجزائر، و تونس، و طرابلس، و بلاد السودان¹. كانت هناك حركة تجارية أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها هي حركة قوافل الجنوب إلى منطقة الساحل السوداني الغنية بالذهب و العبيد، و كانت المبادلات التجارية بين الإيالة و أسواق بلاد السودان مروراً بواحات توات، و ميزاب و سوف و وادي ريغ تتم عبر عدة طرق صحراوية، نذكر منها :خط الأغواط، غرداية، القليعة، و خط توقرت، غدامس، خط الوادي، خط ورقلة، القليعة، عين صالح. و يذكر "الزيري" اعتماداً على المعلومات التي جمعها عن تجارة القوافل، أن حجم مبادلات هذا النوع من النشاط التجاري كان يفوق بخمسة أضعاف ذلك الذي كان يتم عن طريق الموانئ².

كذلك بالنسبة للتجارة الخارجية التي كانت تتم مع بقية بلدان المغرب العربي و الأقطار العثمانية بالمشرق بالإضافة إلى الدول الأوروبية، التجارة مع تونس و المغرب الأقصى و بقية الأقطار العثمانية بالمشرق كانت تعتمد على المواد الكمالية و الترفهية، و كانت هذه التجارة لاسيما المتصلة بموسم الحج، تدرّ أرباحاً وافرة على المساهمين فيها. التي ما فتئت أهمية التبادل التجاري تتزايد معها شيئاً فشيئاً³.

تؤكد العديد من الروايات التاريخية أهمية التجارة مع البقاع المقدسة، فقد جاء في إحداها أن تاجراً من ميزاب يسمى "الحاج ناصر" ذهب إلى الحج برأسمال لا يتجاوز تسعة آلاف فرنك و عاد بأرباح بلغت 5250 فرنك أي بفائدة تزيد على 50%. و مع هذا فإنّ التجارة مع الأقطار الإفريقية و الإسلامية لا تمثل سوى جزءاً ضئيلاً بالنسبة للتبادل التجاري مع الدول الأوروبية رغم جو العداوة و الاضطراب الذي كان يسود العلاقة بين هذه الدول الأوروبية و إيالة الجزائر⁴.

كانت الدول الأوروبية و بالخصوص فرنسا تستورد المواد الأولية المتوفرة بالبلاد الجزائرية بكميات تجارية كالأصواف و الجلود و الشمع و الزيوت و الحبوب، مقابل تصدير الأشياء الكمالية و الترفهية كالعطور و

¹ _ فاروق عثمان أباطة، أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر و عالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر، دار المعارف، مصر، 1986، ص 25.

² _ عمار بجوش، المرجع السابق، ص 76.

³ _ ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830)، طبعة ثالثة منقحة و معدلة و مزيدة، المرجع السابق، ص 36.

⁴ _ عبد الرزاق بن حمادوش، رحلة بن حمادوش، المسماة: لسان المقال في البناء عن النسب و الحال، تق و تع: أبو القاسم سعد الله، ش. و. ن. ت، الجزائر، 1983، ص 84.

المصبرات من فرنسا ،و الزليج من ايطاليا ،و العتاد الحربي من اسكندنافيا ،و الرصاص و الأقمشة القطنية من اسبانيا ،و السكر و القهوة و الأقمشة من إنكلترا عن طريق جبل طارق¹.

ونستنتج أن ضالة المواد الخارجية للدولة الجزائرية كان بأسباب عدة لعل أهمها:

- الرسوم الجمركية على الواردات.
- الغنائم التي كانت يحصل عليها الرّياس من الغزو.
- الفدية التي كانت تدفع لتحرير الأسرى والعبيد.
- الجزية المفروضة على الدول الأوروبية مقابل عدم التعرّض لسفنها ،هي التي جعلت الحكومة تعيش في ضائقة مالية حادة. ونتيجة لاضمحلال المدخول المالي للدولة أبدى الداي وحكومته اهتماماً خاصاً بالشؤون الداخلية للبلاد ،وصمّم على تعويض المداخل الآتية من الغنائم والجمارك والهدايا بمدخيل محلية يتحمّل أعبائها سكان الجزائر.

وكانت تلك المداخل تتمثّل في:

- الزكاة: التي تفرض على الماشية والحبوب والأموال.
- الحكر: وهو الايجار الذي يدفعه الفلاحون مقابل استثمارهم للأراضي التي تملكها الدولة.
- الخراج: وهي الضريبة التي يدفعها الأجانب من مسيحيين و يهود.
- العشور: وهي الضرائب على المحصول
- اللازمة: وهي ضريبة استثنائية تدفع كمساهمة من المواطنين في نفقات الجيش والدفاع عن الوطن².

أما في ما يخص العلاقة بين التجارة الداخلية و الخارجية فتكمن في أن التجارة الداخلية تسلك أحيانا نفس الطرق البرية التي تستخدمها قوافل تونس و السودان ما يؤكد وجود هذه العلاقة هو توفر الأسواق المحلية على سلع أجنبية كالسكر و القهوة....³.

القطاع التجاري هو الآخر لم يسلم من إهمال العثمانيين بسبب العلاقات التجارية مع إفريقيا و الدول الأوروبية،و ذلك بسبب سيطرة القرصنة (النشاط البحري) على الحياة الاقتصادية في الإيالة،مما جعل الجزائر أقل بلدان المغرب حظا في ميدان التجارة العالمية⁴.

¹ _ناصر الدين سعيدوني ،النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830)، طبعة ثالثة منقحة و معدلة و مزيدة،المرجع السابق،ص 37.

² _عمار مجوش ،المرجع سابق،ص 77.

³ _عبد العزيز القشتالي،مناهل الصفا في موالينا الشرفا،تح:عبد الكريم كريم،الرباط،1971،ص 157.

⁴ _وليام شالر،المرجع السابق،ص 87.

حسب الدراسات فقد كان الاحتكار الحكومي العائق الأساسي أمام النشاط التجاري إذ كان الديوان الحكومي أكبر تاجر في الإيالة، وله الحق وحده في بيع الحبوب، وهو الذي يسعرها، و يمنع بيع المنتوجات للشركات الأجنبية، إلا بفوائد تتراوح ما بين 50% إلى 60%¹.

مما سبق ذكره نستنتج مايلي:

- الدافع الديني كان له دور كبير في توجيه العلاقات بين البلدين، إذ يعتبر كل طرف سواء المسلم أو المسيحي أن القيام بعملية الغزو البحري انه دفاع عن النفس، وانه عمل مقدس.
- ازدياد نشاط القرصنة البحرية خلال نهاية القرن السادس عشر، و العقد الثاني من القرن السابع عشر. والتي مثلت ابرز نشاطات الايالة أثناء القرن السابع عشر بما تدره من ثروات عبر تجارة المغام، والرقيق فكان البحر البيض المتوسط محورها الأساسي، مما جعل الكثير من الدول الأوروبية ترتبط بالدولة العثمانية بمعاهدات، و امتيازات، مما جعلها تصدر أوامر صريحة لولاة الايالات المغاربية بعدم التعرض لسفن تلك الدول. التزم الجزائريين في البداية لهذه الأوامر من باب التبعية. غير أنهم لم يستطيعوا غض النظر عن تعديات الأوروبية واعتبروها خروقا واضحة خاصة من جانب فرنسا².
- كما كان لنشاط القرصنة، والقرصنة المضادة المسيحية المتزايدة ضدا لسفن، و السواحل الجزائرية بالغ الأثر في توتر العلاقات الخارجية للإيالة.
- تراجع نشاط البحرية الجزائرية ابتداء من النصف الثاني من القرن السابع عشر نتيجة الاضطرابات السياسية، و الثورات التي عرفتها البلاد.
- ارتباط العمل البحري ارتباطا وثيقا بالتجارة لما توفره من غنائم تغذي السوق الداخلية، و تبحث عن تجار لتصريفها نحو الأسواق الأوروبية، وتم يقتصر الأمر على البضائع فقط بل وحتى الأسرى الذين شكلوا بضاعة رابحة عند بيعهم أو افتدائهم.
- التجارة الخارجية كانت سببا في تعكر صفو العلاقات بين الجزائر وفرنسا خاصة عندما يتعلق الأمر بعدم احترام الفرنسيون شروط استغلال " الباستيون" بعدم تسليحه³.

¹ _محمد مقصودة، الكراغلة و السلطة في الجزائر خلال العهد العثماني (1519-1830 م)، جامعة الجزائر، رسالة ماجستير، جامعة وهران، 1435 هـ- 2014 م، ص 47-48.

² _Thomas Shaw: **Voyage dans la régence d'Alger**, Trad. de l'anglais par J. mac Carty, 2eme Ed, Bous lama, Tunis, 1980, pp172-173.

³ _ Sauvaget (J): " **Une description de Cotes barbaresque au XVIIe siècle**" in **R.Af.**, 1949, n93, pp240-245.

1_ العملة:

تعتبر العملة وسيلة اقتصادية التي كانت متداولة في الجزائر، فقد استدعى النظام الاقتصادي الذي كان سائدا في الجزائر خلال الفترة المدروسة وجود عملات أجنبية مختلفة و خاصة الاسبانية، إلى جانب العملات المحلية و كانت هذه العملات قد دخلت إلى البلاد عبر طرق مختلفة، إلى جانب ذلك فإنّ الأسبان قد تولوا ضرب بعضها في وهران بناء على ظروف معيّنة مروا بها في المنطقة.

هناك عملات مختلفة من المناطق الأوروبية و الإسلامية كانت متداولة في الجزائر و ذلك في قوله: ((توجد بالجزائر عملات مثلما توجد لغات البلدان المسيحية، فالأوقية الإيطالية و الأوقية الاسبانية على الخصوص، لها كلها رواج في الجزائر مثل مثقال فاس، و سلطاني تركيا، ثمّ إن العملة الأجنبية التي يستقبلها الجزائريون بشغف و يحصلون منها على فائدة كبيرة هي عملة اسبانيا ذات الأربع و ثماني ريالات، فإن مالكةا متأكد من جنيه للربح. إن الحديث المتداول في بلاد البربر عن سلعة ثمينة ذات قيمة كبيرة هي الريالات الاسبانية))¹.

كان لا يضر أن تجمع وثيقة واحدة في التعامل المالي بين عدّة أنواع من العملات المحلية و الإسلامية والأجنبية منها الاسبانية، فقد ورد في بيان حسابات عدّة عملات و هي سكة طرابلس، و مصر، و إسلامبول، و دورو اسبانيا، و ريا ل الجزائر. كما أنّ العملة الجارية في الجزائر حين إقامته بالمدينة في نهاية السبعينات و بداية الثمانينات من القرن 16، كانت تتكوّن من نقود ذهبية و فضيّة و نحاسية².

ندرك من ذلك أن الجزائر عرفت تنوّعا في مصادر العملات سواء الأوروبية منها أو الإسلامية، و يذهب الدكتور "ناصر الدين سعيدوني" في دراسته للنظام المالي في الجزائر خلال العهد العثماني مُتحدّثاً عن العملات الأجنبية في الجزائر بقوله: ((الملاحظ أن هذه العملات الأجنبية قد امتازت بتنوّع أصنافها و تعدّد مصادرها حتى يبدو للباحث أن كل العملات المعروفة آنذاك كانت مستعملة في الجزائر)). يمكننا أن نضيف أن من أهم العملات الأجنبية و خاصة الأوروبية التي حظيت بمكانة خاصة و تداول واسع في الأسواق الجزائرية هي النقود الاسبانية. و لم يكن انتشار العملة الاسبانية مقتصرًا في الجزائر أو في بلاد المغرب الأخرى بل توسع تداولها في مناطق أخرى من العالم، بسبب استفادة شبه الجزيرة الأيبيرية من معادن قارة أمريكا الثمينة، و التي تدفقت خلال قرنين و نصف ابتداء من مطلع القرن السادس عشر³.

¹ عبد القادر فكاي، المرجع السابق، ص 255-256.

² المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني (العملة-الأسعار و المداخل)، ج 1، المرجع السابق، ص 38-39.

³ محمد العربي الزبيدي، المرجع السابق، ص 70.

ففي سنة 1594 م قدرت صادرات المستعمرات الاسبانية في أمريكا إلى اسبانيا من الذهب و الفضة بنحو 95,62% من مجموع الصادرات ،بينما كانت الصادرات الأخرى من المنتجات الزراعية و الحيوانية لا تصل إلى 5% .و هذا ما أدى إلى سكّ النقود من المعدنين النفيسين ،و كان الإقبال شديدا في الجزائر¹.

عرفت الفترة ما بين 1580 و 1612-1620 تحولات و اضطرابات في العملة هيأت الظروف لسيطرة الريال الاسباني على المعاملات النقدية في الجزائر.و هنا ينبغي التذكير بأن اضطراب العملة ليس بالضرورة مؤشراً على تدهور الوضع الاقتصادي ،فسنوات 1580-1620 هي كما يصفها "بروديل" :"(الفترة ... التي عرفت فيها الجزائر ازدهارا و ثراء عجيبين)،و كانت القرصنة الجزائرية بلغت أوجها في هذه السنوات.و كان من نتائج هذا الانتعاش الاقتصادي في الجزائر أن الأسعار العقارية داخل المدينة و حولها عرفت ارتفاعاً كبيراً أي أن الغلاء و تدهور قيمة العملة لهما أسباب متعدّدة .

أما تزايد تهريب الفضة نحو البلاد الشرقية فهو مرتبط بالنظام السياسي حيث كان تعيين الباشاوات يتم في اسطنبول مقابل مبالغ كبيرة ،و كانت مدة حكمهم في الجزائر قصيرة لهذا كانوا يحاولون جمع ثروة كبيرة في أقصر مدّة ممكنة.و من جهة أخرى كانت قيمة الفضة عالية جدا في الهند و الصين و كان تصديرها إلى هذه البلاد يدر أرباحا طائلة ،في حين هبطت قيمة الفضة في أوروبا و في غربي البحر المتوسط بسبب الكميات الهائلة المجلوبة من أمريكا و كذلك لضخامة التعدين المتزايدة في وسط أوروبا نفسها ،و كانت كميات كبيرة من الفضة تجلب للجزائر سواء لافتداء الأسرى أو لشراء السلع التي كان يغنمها الرياس الجزائريون².

أما أهم العملات الاسبانية التي كانت تستعمل في الجزائر خلال هذه الفترة:

- الدبلون (Doublon) :و عبارة عن دينار مصنوع من الذهب.
- الدوكة (Ducat) :و هي عملة مصنوعة من الذهب ،تعادل قيمتها الدينار الذهبي.
- الكرونة (Corona) :و هي عملة مصنوعة من الفضة الخالصة ،كان لها رواج واسع في كافة بلدان البحر المتوسط ،فقد ورد ذكرها في كثير من العقود و الرسوم في أوائل الفترة العثمانية.
- الدورو الاسباني (Douro) :و هي عملة مصنوعة من الفضة أصبحت قيمتها أقل من المحبوب الذهبي.
- الدرهم الريال الاسباني (Rial) :و هي عملة انتشر استعمالها منذ بداية القرن السادس عشر ،و كان يتم سكّها في عدّة مدن أوروبية ،مثل جنوة و مرسيليا و بيزة و منبيلي ،و قد اشتهر اليهود بنقلها و بيعها في مدن الضفة الجنوبية للبحر المتوسط كبجاية و وهران و تنس.

¹ _عبد القادر فكاير ،المرجع السابق ،ص256.

² _المنور مروش ،دراسات عن الجزائر في العهد العثماني (العملة-الأسعار و المداخليل) ،ج 1،المرجع السابق ،ص40.

- القرش المكسيكي :الذي كان محبوبا لدى الناس يطلقون عليه قرش بومدفع. ظل يمثل القرش المفضل إلى أن غيرت اسبانيا صكّ قروشها في مطلع القرن18.
- الدولار: ذكر "بنانتي" (Pananti) خلال إقامته في مدينة الجزائر أن "الدولار الاسباني" يعد أكثر العملات تداولاً في مدينة الجزائر ،لما كان لها من قيمة عالية.و أضاف أنه قابل العديد من الصرافين في كل أنحاء المدينة ،و كانوا يأخذون الدولار لا غير.
- و هناك عملات أخرى مثل "الأسبر" (Aspre) ،و البستول ،و الكاتريل¹.
- و إلى جانب العملات المذكورة سابقاً ،فقد ضرب الأسبان في وهران عملة ،و ذلك ابتداء من سنة 1568م،عندما تعرّضت هذه المستعمرة الاسبانية إلى أزمة مالية خانقة من العجز الذي شهدته الخزانة و التي لم تتمكّن من تغطية دفع نفقات حاجاتها من المؤن و مختلف البضائع التي تحتاجها ،و خلال هذه الفترة العصيبة لم تقدر اسبانيا على تقديم العون ،و تسديد التكاليف المترتبة عن صيانة مركزي وهران و المرسى الكبير ،كما أنّها عجزت عن دفع رواتب الجنود الأسبان،و قد نجم عن هذا النقص المالي في وهران قيام ثورة الأندلسيين في الجنوب الاسباني ،حيث زعزعت هذه الحركة كل اسبانيا في نهاية سنة 1568م،و قد تطلب القضاء عليها نفقات مالية كبيرة ،أصبحت الخزانة الملكية غير قادرة على إرسال الأموال إلى وهران².

لتجاوز هذه الضائقة المالية لجأ الحاكم العام لوهران إلى ضرب ثلاث قطع نقدية لعملة الريال مصنوعة من رقائق معدنية خفيفة ،و قد تم طرح هذه القطع غير الحقيقية للتداول في وهران قبل نهاية السنة المذكورة ،من أجل مواجهة النقص الحاصل في مختلف المستحقات ،و خاصة دفع أجور الجنود المتأخرة الذين أصبحوا مثقلين بالديون و معرضين للمجاعة. رفض سكان وهران في بداية الأمر هذه القطع التي ليست لها أية قيمة نقدية ،و من أجل أن تكون هذه العملة مقبولة لدى الناس ،فإن الحاكم العام فرض تداولها بواسطة إصداره لقرارات صارمة ،حيث فرض على السكان و التجار و الجنود الاعتراف بها،و ذلك بواسطة نزول رجاله عبر الشوارع و هم ينادون على أنغام البوق والطبول ،و يدعون السكان إلى احترام هذه العملة ،و استعمالها تحت طائلة التهديد و بتسليط العقوبات القاسية³.

¹ _ عبد القادر فكاير ، المرجع السابق ،ص 257

² _ المنور مروش ،دراسات عن الجزائر في العهد العثماني (العملة-الأسعار و المداخليل) ، ج 1، المرجع السابق ،ص 40-41.

³ _ نفسه،ص ص256-262.

سمحت هذه العملة المزورة الأسبان في وهران بعض الوقت من مواصلة نشاطهم التجاري و تسديد ديونهم و تلقي رواتبهم بطريقة ما، و عند نزوله بوهران سنة 1577 م، ذكر "سواريز" شاهد عند المخلص (Pagador) كميات كبيرة من هذه العملة الوهرانية، كانت محفوظة في صناديق، لكنها من غير أية قيمة رسمية، و عشر على العديد من القطع النقدية المتداولة في القرن 17م في بلدة بوسفر من طرف "م.فويوم" (M.Vuillaume) كما عشر أشخاص آخرون على نفس العملة في عين الترك و ذكر التقرير أنها ضربت في وهران سنة 1691 م، في عهد الملك "شارل الثاني". ضرب الأسبان سنة 1691 م أيضا في وهران نوعين من العملات من معدن النحاس، في عهد حاكم وهران "الدوق دي كانثاو" (Duc de Canzano) إحداها مرسوم على قفاها أسلحة قشتالة وليون، يعلوها التاج الملكي، و مكتوب عليها اسم وهران، أما العملة الثانية فينقصها فقط رسم التاج الملكي، باستثناء النقود المضروبة في وهران¹.

دخلت هذه العملات الاسبانية عبر طرق مختلفة من أهمها:

- تعامل الجزائر مع الشركات التجارية الأوروبية، و على رأسها الشركة الملكية الإفريقية التي أدخلت أنواعا مختلفة من النقود خاصة القرش المكسيكي (Piastre)، و التجار الأوروبيين في إطار العلاقات التجارية الخارجية، مما فتح لهم الحصول على امتيازات، و قام "سانسون نابولو" (Sanson Napollon) عند وصوله إلى مدينة الجزائر بإدخال عشرات الآلاف من قطع الثمانية ريالات على أصحاب المقام.
- إلى جانب هذه الشركة، كانت هناك مؤسسات تجارية أجنبية تدفع الإتاوات من العملات الاسبانية، و كذلك من جراء العمليات التجارية التي يقوم بها وكلاء الإيالة داخل البلاد أو خارجها.
- نظام الإتاوات و الهدايا التي كانت تفرضها الجزائر على الدول المسيحية، مقابل السماح لسفنها الإبحار في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، و التجارة مع الجزائر و حماية سفنها من أي عدوان قد تتعرض له في البحر، فكانت تلك الضرائب في كثير من الأحيان من العملات الاسبانية.
- عوائد الفدية التي كان يدفعها مبعوثو و قناصل الدول الأوروبية و بعثات الهيئات الدينية المسيحية، مقابل إطلاق سراح الأسرى الذين كانوا يقعون في الأسر خلال النشاط البحري الذي كان يقوم به البحارة الجزائريون، فقد ذكر أن عددهم قدر طيلة القرن 17 م بواحد مليون و مائة ألف أسير².

¹ ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830)، المرجع السابق، ص 184-185.

² المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني (العملة-الأسعار و المداخل)، ج 1، ص 43.

- طرد الأندلسيين المسلمين و اليهود من اسبانيا ،و لجوئهم للاستقرار في المدن الساحلية الجزائرية ،ثم انتشارهم في بعض المدن الداخلية ،و هم يحملون معهم نقودهم ،مما ساهم في تزايد حجم العملة الاسبانية في الجزائر¹.

- علاقة اسبانيا مع الجزائر منذ بداية العصور الحديثة التي تميّزت باحتلالها لكثير من المدن الساحلية.

أدى تداول العملة الأجنبية في الجزائر و الاسبانية منها على الخصوص ،إلى حدوث علاقات بينها وبين العملات المحلية ،و بعبارة اقتصادية أدق وجود أثر للعملات الاسبانية على العملات المحلية من حيث الاسم أو من حيث القيمة ،و هذا نتيجة لأي اتصال يقع بين الشعوب و الدول ،و خاصة إذا كانت قريبة من بعضها البعض و هكذا يمكن تحديد أثر العملة الاسبانية على العملات المحلية في أمرين أساسيين هما :أن بعض العملات التي ضربت في الجزائر قد اشتقت اسمها من أسماء بعض العمل الأجنبية و خاصة الاسبانية².

لكن تعرضت العملات المحلية لصعوبات جمة بفعل مزاحمة النقود الأجنبية التي كان الحكام يسمحون بالتعامل بها مثل النقود الاسبانية التي شاع استعمالها إثر هجرة الأندلسيين و اليهود إلى الجزائر ،و بفعل الوجود الاسباني بوهران و المرسى الكبير.و فيما يتعلّق بقيمة العملات المحلية ،فيلاحظ أنّها كانت متغيرة و مضطربة في الوزن و في القيمة ،كما أنّها كانت ضعيفة القيمة نسبياً،و ذلك حسب الظروف الاقتصادية التي شهدتها البلاد ،و هذا ما كان يدفع بالحكام إلى الرفع من قيمتها أو خفضها.فمن أوائل التقارير المالية للجزائر تلك التي ذكرها "هايدو" فقد تحدث على أن عملة الزياني شهدت استقرارا بالمقارنة مع القرش الاسباني ،و ذلك من دون شك و فرة الذهب بالمقارنة مع الفضة. و ابتداء من سنة 1580 م و حتى سنة 1620 م،شهدت العملة المحلية اضطرابات مما سمح بسيطرة عملة القرش الاسباني ،و هذا ما يوضحه الجدول التالي³:

الفترة	العملة	مقابل الدويلا
ديسمبر 1595	واحد زياني	3,65 دويلا
أكتوبر 1597	واحد زياني	// 5,00
فيفري 1600	واحد زياني	// 6,36
أكتوبر 1599	واحد سلطاني	// 8,00
فيفري 1600	واحد سلطاني	// 8,00
نوفمبر 1617	واحد سلطاني	// 7,00

¹ _ المنور مروش ،دراسات عن الجزائر في العهد العثماني (العملة-الأسعار و المداخليل)، ج 1، المرجع سابق ،ص 44.

² _ نفسه،ص 46.

³ _ عبد القادر فكاير ،المرجع السابق ،ص 262-263.

حدود سنة 1630 م، أبدت الوثائق الرسمية أسعار و قيم ريبالات الثمانية، مع العلم أن تداول هذه الريالات كان موجود قبل هذا التاريخ. فقد تم تثبيت قيمتها ما يساوي 4,64 دويلا، أو 23 قرش. و بقيت هذه القيمة دون تعديل على الأقل ما بين 1620 م حتى 1685 م¹.

ليس من الممكن تحديد تاريخ محدد لدخول القروش الاسبانية إلى الجزائر و كمياتها، غير أنه يمكن التقدير بأنها قد استعملت في نطاق محدود خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر. من "غوميز" (Gomez) خلال سنة 1535 م، إلى "سواريز" (Suarez) الذي عاش في وهران من سنة 1577 م إلى 1604 م، مروراً بـ "هايدو" و "هاكلويت" (Hakluyt) و غيرهم من الأوروبيين الذين تحدثوا عن تنامي تداول هذه العملة خاصة من جراء عمليات اقتداء الأسرى من الجزائر. و في هذا الإطار نسوق مثلاً حيث قام التاجر الإنكليزي "ف. كنايت" (F.Knight) الذي كان أسيراً في الجزائر بين سنة 1631-1638 م بسرد قصة هروبه مع أسرى أوروبيين آخرين، و كانوا قد نقلوا معهم مجموعة قطع من ريبالات الثمانية التي كانت ملكاً لحراسهم. فقد تمّ تحصيل الجزائر من خلال عمليات الاقتداء في الفترة الممتدة ما بين 1580-1620 م على مبالغ معتبرة من بينها عملات اسبانية².

بقيت قطعة الثمانية كعملة دولية التي تم ضربها في إسبانيا أو في المكسيك تحافظ على مادة صنعها من الفضة منذ القرن 16 إلى القرن 19 م، دون أن يعتريها أي تغيير. فهذا الاستقرار الطويل لهذه العملة سمح لها باعتبارها كميّار لحالة العملة الجزائرية ابتداء من العقد الثاني من القرن السابع عشر، وعند النظر إلى أنواع العملات الأكثر تداولاً يمكننا الوقوف على الاستنتاجات التالية:

1. في أوراق العقود و الوثائق القضائية، فإن عملة الدويلا التي قيمتها 50 أسبر (aspres) ظلت متداولة بشكل واسع في البداية، ثم تراجع استعمالها شيئاً فشيئاً، و في النهاية ظهرت هيمنة ريال الثمانية ثم مختلف أنواع الريال.
2. في سجلات البايلك و الأوقاف و غيرها، تم استعمال في النفقات القليلة القيمة عملة Aspres و "الصايمة" (çàyma)، و هو الاسم الثاني للدويلا. و لكن بالنسبة للمبالغ الكبيرة كان يستعمل في العموم الريال.

¹ _ عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص 270.

² _ نفسه، ص 267-270.

3. و في بعض الحالات المتعلقة بالمبالغ الكبيرة أو في بعض العمليات ذات الطابع التجاري كان يستعمل السلطاني و الزياني.

4. إلى غاية سنة 1685 م كانت القيمة بين الريال و (Aspres) ثابتة، إذ كان الريال يساوي 4,64 دويلا، أو 232 أسبر. غير أن بعض التغير في القيمة قد حدث، و لكن بشكل بسيط وصل إلى غاية واحد ريال مقابل خمسة دويلا، و لكن هذه العلاقة كانت قليلة.

لم تكن للعملات الجزائرية في العموم قيمة ثابتة لأن الحكام كانوا يرفعون من قيمتها و يخفضونها حسب الظروف باستثناء عملة الزياني التي ذكر بشأنها "هايدو" أنها شهدت استقرارا بالمقارنة مع الفضة. و ابتداء من سنة 1580 م و حتى سنة 1620 م لم تعرف العملات المحلية استقرارا من حيث قيمتها، و هذا أدى من دون شك سيطرة القرش الاسباني تداوله رواجاً كبيراً¹.

يمكن أن يظهر جانب من العلاقة بين النقود الاسبانية و الجزائرية من خلال مقارنة قيمة القرش الاشبيلي مع قيمة الدويلا، فإن بعض دلائل المصادر العثمانية تبين:

1. أن عقد توثيق سنة 1643 م حدد قيمة 400 ريال تساوي 1856 م دويلا، معنى ذلك فإن 1 ريال يساوي 4,46 دويلا.
2. في سنة 1648 م، 9 ريالات تساوي 48 دويلا.
3. في سنة 1656 م، 12 ريال تساوي 56 دويلا.
4. في سنة 1662 م، 1724 ريال تساوي 8000 دويلا.
5. في سنة 1665 م، 2 ريال يساوي 9,28 دويلا.
6. في سنة 1670 م، ثمن ريال يساوي 29 أسبر.
7. في سنة 1672 م، 1 ريال يساوي 5 دويلا.
8. في سنة 1676 م، 1177 دويلا يساوي 5450.

بسبب العلاقة المستقرة بين القرش الاسباني و العملات الجزائرية، فإن كل تعديلات الصرف بين هذه القروش و العملات الأجنبية الأخرى في مدينة الجزائر قد عكست نفس العرض في العلاقة بين هذه العملة مع العملات الجزائرية².

حرصت الأيالة على استدامة الإنتاج و سَعَتْ إلى الاستقرار السياسي ضمن نظام شوري منذ منتصف القرن 17م، و سَكَّت النقود الجزائري الذي عرف عدة تطورات تماشيا مع المتغيرات الاجتماعية الاقتصادية و العلاقات

¹ ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830)، المرجع السابق، ص 268-269.

² المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني (العملة-الأسعار و المداخليل)، ج 1، المرجع السابق، ص 38.

التجارية الخارجية فكان النقد الأكثر استعمالاً في الفترة الممتدة ما بين 1535 م إلى 1617 م الدوبلة الجزائرية كنقد حسابي في المعاملات و الذي كان يساوي 50 أسبر إلى جانب الدوبلة (تسمى بالدينار الخمسيني و الأسبر أكثره استعمالاً في المعاملات العقارية) أُستعمل السلطاني القديم SEQUIN الذي كان يساوي 150 أسبر و الذي شاع استعماله في عهد "جعفر باشا" سنة 1580 م، و كذلك النقد الزباني الذي كان يعادل 3.65 دوبلة إلى 6.35. عرفت الأحوال النقدية و الصرف مع بداية منتصف القرن 17 م¹، تسجيل السيطرة الكاملة للريال الذي أضحت قيمته تساوي 5 دوبلة ما يعادل 232 أسبر أو 0.33 ريال، إلى جانب تلك العملات المحلية اتسع استعمال البياستر الإسباني الفضي سن 1690 م، و السلطاني الذي فاقت قيمته مرتين البياستر².

أما من ناحية الشكل فإنّ عملة الجزائر كباقي عملات البلاد الإسلامية آنذاك لم تخل من طرافة الشكل و جمال النقوش و إذا كانت تنعدم منها صور الحكام و الشعارات و الرموز الشكلية، فهي مزينة بحروف عربية على الوجهين. و تمتاز عملة الجزائر عن غيرها من الفترات التي سبقت الوجود العثماني بالبلاد، بأنّها كانت ذات شكل مستدير، مع أنّ نقود أقطار المغرب العربي كان يغلب عليها الشكل المربع، لاسيما في عهد الدولة الموحدية، و الدول التي انبثقت عنها من حفصيين و زيانين و مرينيين. لعل اختيار الحكام للشكل المستدير كان تماشياً مع طراز المسكوكات التركية بإسطنبول قاعدة السلطنة. غير أنّ الجانب الذي حظي بالاهتمام الأكبر لصناع العملة ليس الشكل و إنّما هو المحافظة على نوع و معيار النقود. فمن حيث النوع نجد العملة الجزائرية تدخل في تكوينها عدّة معادن ثمينة، فاستناداً إلى بعض نماذج هذه العملة المحفوظة في المتاحف الآن و إلى أقوال بعض المؤرخين، فإنّ العملة الجزائرية كانت إما ذهبية أو فضيية أو برونزية أو نحاسية³.

أما معيار مزج المعادن الثمينة فإنّه قد خضع لقوانين تحدّد نسبة المزج و عدد القطع المضروبة للقنطار، و كيفية استعمال بقايا المعدن أو إضافة بعض المعادن الثمينة كالفضة و الذهب و العملات الأجنبية التي بليت من كثرة الاستعمال.

¹ رشيد حفناوي، المرجع السابق، ص 34-35.

² ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830)، المرجع السابق، ص 270.

³ مما يجعلنا لا نثق برواية السيّد "ديبوا ثان فيل" التي تقول بأنّ الجزائر العثمانية لم تعرف سكّ النقود النحاسية، و الدليل على ذلك النص الوارد في دفتر التشريعات الذي يعود تاريخه إلى سنة 1686، و الذي يثبت بأنّ الباشا ضرب دراهم صغيرة من النحاس، و أوكل هذا العمل إلى "الحاج عمر" أمين السكّة، و "الحاج التونسي" و الصناع المهرة من اليهود. أنظر: ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830)، المرجع السابق، ص 181.

القصد من هذه القوانين هو المحافظة على قيمة و رواج العملة الجزائرية ، و هذا شيء طبيعي ما دام البايليك قد احتكر صك النقود و أوكّل أمر الإشراف عليها لموظفي دار السكة ، فهم وحدهم الذين كان لهم حق مراقبة عمليات صنع العملة عن قريب. لكن هذه القوانين المتعلقة بتحديد مقدار المعادن الثمينة الداخلة في تكوين العملة¹ أثّرت عليها سياسة الحكام الذين تدخّلوا في تحديد نسبة المزج بسبب الظروف الاقتصادية السائدة آنذاك.

أما النقود النحاسية فإنّها تخضع لعملية التصفية قبل صبّها ، ممّا جعل كميتها تنقص بحوالي 50 %، إذ يستخلص من عشرة قناطير من معدن النحاس خمسة قناطير من النحاس الصافي لعمل الدراهم الصغيرة ، بينما يمزج ما تبقى من خليط النحاس لضرب النقود الفضية.

لتوفير هذه المعادن النفيسة التي تتطلبها عملية مزج المعادن و صبّها اضطرّت دار السكة إلى شراء السبائك الذهبية و الفضية من الصاغة و بعض الأهالي الذين كانوا يملكون كميات كبيرة منها و الذين كانوا قد تحصّلوا عليها بفضل غنائم البحر و ممارسة التجارة. كما كانت دار السكة تستورد كميات من المعادن الثمينة من البلاد الأوروبية ، و من أقطار السودان الغربي ، لأن المناجم المحليّة لم تكن تغطي إلا جزءا ضئيلا مما تحتاجه دار السكة.

فالفضة و هي أكثر المعادن الثمينة طلبا لا تعرف لها البلاد الجزائرية حسب المعلومات المتوفرة —إلا منجمين أحدهما ببلاد القبائل الكبرى بجبل قرب مصيبح ، كان يستغله بعض الجزائريين المشهورين بتزوير العملة ، و الآخر ببلاد الحراكطة و قد حاول "أحمد باي" آخر بايات قسنطينة استغلال هذا المنجم الأخير رغم رداءة نوعية و قلة مردوده ، ليغطي نقص العملة في إقليم قسنطينة أثناء حكمه.

رغم إنتاج الفضة محلياً و استيراد المعادن الثمينة من الخارج ، فإنّ حكام إيالة كثيرًا ما كانوا يضطرون إلى سحب كميات من الذهب و الفضة من الخزانة لسدّ حاجة دار السكة ، أو لتسديد قيمة بعض المواد المستوردة من طرف إحدى البايليكات. على أن توفر العملات الأجنبية بأسواق إيالة كان عاملا مساعدا على توفير النقود الضرورية للتبادل المالي و التجاري و تغطية النقص في العملة المحليّة، و الملاحظ أن العملات الأجنبية قد امتازت بتنوّع أصنافها و تعدّد مصادرها حتى يبدو للباحث أن كل العملات المعروفة آنذاك كانت مستعملة في إيالة الجزائر².

الأسباب التي جعلت الجزائر العثمانية تحصل على هذه النقود الأجنبية تعاملها مع الشركات الأجنبية ، و حصولها على حصتها من الإتاوات و الهدايا الدولية. و من جهة أخرى نتج عن إجراءات عتق الأسرى المسيحيين توفر كميات من النقود الأجنبية بالجزائر.

¹ _ناصر الدين سعيدوني، ص، ص181-182.

² _المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني (العملة-الأسعار و المداخل)، ج1، المرجع السابق، ص40.

أهم العملات الأجنبية الرائجة في الجزائر آنذاك، عملات إسبانيا و تونس و المغرب الأقصى و الأقطار العثمانية بالمشرق، و الدويلات الإيطالية و النمسا و البرتغال و فرنسا، إلا أنّ العملات التي احتلت مكانة خاصة في أسواق الجزائر هي: الأسبانية، التونسية، المغربية و التركية¹.

تأتي النقود التونسية في المرتبة الثانية من حيث انتشار النقود الأجنبية بإيالة الجزائرية و ذلك بحكم روابط الجوار و تشابه نظام الحكم العثماني بالبلدين، كما يعود ذلك أيضاً إلى أهمية التبادل التجاري بين البلدين.

أما عن العملات التونسية المستعملة بإيالة الجزائرية فهي: الدرهم الناصري²، ثم "النصري الحيدري" الذي عرف بهذا الاسم نسبة إلى "حيدر باشا" الحاكم العثماني الأول للقيروان سنة 1574، فقد أمر هذا الحاكم بضرب الدراهم باسم السلطان العثماني، لتخلف الدرهم الناصري الذي ضربه السلطان الحفصي "أبو عمر عثمان" (839-893 هـ/ 1435-1488 م) من الفضة على شكل مربع تقليداً للموحدين، لكن الريال التونسي الفضي أزاح الدراهم الناصرية و الحيدرية من أسواق التبادل النقدي، و أصبح هو العملة التونسية الرائجة بالجزائر الشرقية. و قد ظهر الريال التونسي في أسواق العملة منذ الربع الأول من القرن السابع عشر، و ظلّ مقتبساً من الريال الأسباني أكثر من قرن³.

بالإضافة لعملتي إسبانيا و تونس نجد من بين العملات المستعملة بالجزائر، بقايا النقود الزنّانية المعروفة بالزنياني الذهبي المقدر بحوالي 100 أسبر، بالإضافة إلى مختلف النقود المغربية التي كان لها رواج بنواحي تلمسان و ندرومة على يد تجار فاس و تلمسان. اشتهر من هذه النقود المغربية المستعملة بالغرب الجزائري: البندقي أو العشراوي، ونصف البندقي أو نصف العشراوي، و المثقال، و الموزونة، و الفلس، و الريال، و الدرهم. هذا و قد كانت بعض العملات العثمانية رائجة في أسواق الجزائر و أشهرها: المحبوب أو الزر محبوب الذهبي و نصف المحبوب³.

لكن هذه العملات الأجنبية رغم شيوعها و تنوعها، تعتبر ثانوية بالنسبة للعملات المحليّة التي تدعّمت مكانتها في ميدان التعامل النقدي، و نالت ثقة التجار و إقبال الأهالي، نتيجة عاملي، أولهما: قوّة الاستعمال اليومي، و ثانيهما: محافظتها على نسبة مرتفعة من المعادن الثمينة كالذهب و الفضة. فبفضل هذين العاملين

¹ _ ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830)، المرجع السابق، ص 182.

² _ نسبة إلى الخليفة الموحي الرابع محمد الناصر (454-481 هـ/ 1062-1089 م)، و قد ضرب هذا الريال المنسوب إليه لأول مرة بتونس سنة 1212 بمناسبة زيارته لمدينة تونس. أنظر: ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830)، المرجع السابق، ص 186.

³ _ ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830)، مرجع سابق، ص 186-187.

فرضت العملة الجزائرية وجودها و حافظت على مكانتها رغم أنها لم تكن تستند إلى تشريع خاص و لا قانون حكومي يحفظ لها امتيازات خاصة في المعاملات المالية.

الراجع أن هذا الوضع المتمثل في ترك النقود الجزائرية تحت رحمة الاستعمال اليومي، هو السبب في تعدد الوحدات الأساسية للنقود الجزائرية حسب نوعية المعادن و أسلوب الاستعمال. فالنقود الفضية كانت وحدتها الأساسية هي "ريال بوجو"، و النقود الذهبية أساسها "السكة و السلطاني"، بينما النحاسية برزت على رأسها "الخروبة".

أما من حيث القيمة النقدية فقد كانت البدقة شيك¹، أو ريال درهم الوحدة الحسابية في كل تعامل مالي في الجزائر لكن الوحدة الحسابية للنقود الجزائرية كانت لا تتعدى المجال النظري لإجراء العمليات الحسابية، و لعل هذا هو الذي حد من صلاحيتها حتى غدت بعض المواد الأولية أصلح لأن تكون وحدة أساسية لقياس العملة، و من المحتمل أن هذا الوضع هو الذي دفع السيد "جانتي دوبوسي" (Genty de Bussy)، أن يحدّد قيمة النقود الجزائرية بمقارنتها بسعر قيمة الزيت باعتبار مادة الزيت ذات استعمال يومي ولا يمكن الاستغناء عنها.

أما من حيث المعدن المصنوعة منه فإنّ مختلف النقود الجزائرية تُصنّف كما سبقت الإشارة إلى ذهبية أو فضية أو نحاسية برونزية. فالعملات الذهبية كانت تتكوّن من: السكة أو السلطاني، و نصف السلطاني و ربع السلطاني. و العملات الفضية كانت تشمل: ريال بوجو أو بدقة قوردة، و زوج بوجو أو دورو الجزائر، و الصائمة و ربع بوجو و ثمن البوجو، و موزونة، و زوج موزونة، و الأسبر الفضي. و أخيرا تتفرع العملات النحاسية البرونزية إلى الخروبة و ريال درهم الصغير، و زوج دراهم صغار، و الأسبر النحاسي، و الفلس.

لا يمكن إغفال دور اليهود في التحكم في القيمة الحقيقية للعملة، فالتعامل التجاري و ما يتطلّبه من معاملات نقدية كان خاضعاً لنفوذ اليهود، إما بطريقة غير مباشرة و ذلك في مجال المبادلات المالية المترتبة عن النشاط التجاري، أو بطريقة مباشرة عندما يتحتّم الرجوع إلى الصرافين اليهود المنتشرين عند كل زاوية شارع، و كان الالتجاء إلى السماسرة اليهود أمراً ضروريا عند كل عملية مالية مهما كانت بسيطة².

مع هذا فإنّ العملة الجزائرية لها بعض الصفات التي حافظت بفضلها على نوع من الاستقرار و الثبات، مثل استقلاليتها و بقائها مرتبطة بما كان متعارفا عليه و جاريا به العمل في البلاد منذ القديم، فلم تصبح تابعة

¹ _ بدقة شيك (pataque-Chique) تعني باللغة التركية "الدراهم الأبيض"، و يطلق عليها الإغريق في لغتهم الحديثة لفظ "الأسبروس" (Aspros)، و هو تعريف لكل عملة فضية بيضاء، و قد شاع استعمالها بالإيالة الجزائرية و أصبحت ترد أحيانا على اللسان الدارج بالبدقة شيك، حتى إن المثل العامي يحتفظ بهذا اللفظ فيطلق مثلا على الشيء التافه: بأنه لا يساوي و لو بدقة. أنظر: ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830)، المرجع السابق، ص 192.

² _ المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني (العملة-الأسعار و المداخل)، ج 1، المرجع السابق، ص 193.

للمسكوكات التركية في قيمتها و مكانتها ،و أسمائها ،شأنها في ذلك شأن بقية عملات أقطار المغرب العربي كتونس. أما الصفة الثانية التي اكتسبتها العملة الجزائرية في مجال التقييم ،فهي :كون الأجانب لم يأخذوا بعين الاعتبار واقع النقود الجزائرية ،بل كانوا يحددون سعر عملاتهم و كذلك العملات الجزائرية حسب قيمة نقودهم الخاصة¹.

نتج عن هذا الإجراء تحكّم المعاملات التجارية و تقلبات الأحوال الاقتصادية في العملات الأجنبية ،حتى أصبحت تختلف باختلاف أسعار البضائع ،رغم أنّ الواقع يفرض على هذه العملات الأجنبية مهما كانت مكانتها أن تتخذ من العملة المحليّة أساسا لتقييمها.

أما الوضع الآخر الذي كان له تأثير مباشر على العملة الجزائرية ،فيكمن في ضيق نطاق استعمال النقود في التبادل التجاري ،فالنقود بصورة عامة ظل استعمالها محدودا لا يتعدى الحواضر الكبرى كالجزائر و قسنطينة و عنابة و معسكر.و لولا المصالح الحكومية و الروابط التجارية بين هذه المدن و البلاد الأوروبية مع نشاط الشركات التجارية الأجنبية ،لكان وضع العملة بهذه المدن الرئيسية لا يختلف كثيرا عن الأرياف التي بقيت بعيدة في مجملها عن التعامل التجاري النقدي،و لعل ندرة استعمال العملة بالأرياف راجع إلى طبيعة الجبايات التي كانت غالبا ما تتم بالمواد العينية ،و هذا ما دعم مبدأ المقايضة بالأسواق الريفية الجزائرية. إضافة إلى ذلك فإن وجود ثروات نقدية بمقدرة بالخرينة ساعد ،ولو بطريقة غير مباشرة على نقص العملة المتداولة و بالتالي زاد الضغط على دار السكة حتى أصبحت غير قادرة على تزويد البلاد بما تحتاجه من نقود الأمر الذي زاد من صعوبة حركة التبادل التجاري داخليا و خارجيا².

هناك سبب آخر لقلّة النقود يعود إلى ندرة المعادن الثمينة بالإيالة الجزائرية ،و تناقص ذهب السودان بعد أن استطاع البرتغال منذ السنوات الأولى للقرن السادس عشر تحويل التجارة القائمة على ذهب السودان و غانة عن طريقها المباشر نحو البحر المتوسط عبر الصحراء و بلاد المغرب العربي إلى المحيط الأطلسي نتيجة الاكتشافات البحرية و ما صاحبها من تحوّل جذري في طريق التجارة العالمية.و هكذا أصبحت بلاد المغرب العربي تعاني طيلة

¹ _ المنور مروش ،دراسات عن الجزائر في العهد العثماني (العملة-الأسعار و المداخليل)، ج 1، المرجع السابق ،ص194.

² _ اصبر الدين سعيدوني ،النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830)، المرجع السابق ،ص،ص، 200-205.

الفترة العثمانية أزمة تتمثل في ندرة معدن الذهب، بعد أن كانت غنيّة بذهب السودان من القرن الثالث عشر إلى العقد الأخير من القرن الخامس عشر.

ختاماً لدراسة أوضاع العملة في الجزائر العثمانية، نسجل الاستنتاجات التالية:

- أدى شيوع مبدأ المقايضة إلى الحد من تطوّر الاقتصاد الجزائري، و بقائه بعيداً عن الأنظمة النقدية السائدة آنذاك بأوروبا الغربية، و بالتالي لم يعد استعمال النقود يتجاوز نطاق الحواضر الكبرى، بينما لم تجد المعادن الثمينة الإقبال على اقتنائها و التعامل بها.
- تمتعت الجزائر باستقلال مالي عن الدولة العثمانية، و من مظاهر السيادة الجزائرية في الميدان المالي وجود دار السكة المكلفة بضرب النقود، كما أن العملة المضروبة في الجزائر كانت تختلف من حيث القيمة و النظام عن غيرها من العملات العثمانية أو الأوروبية¹.
- كانت العملة النقدية هي المعمول بها في التعامل المالي بينما ظلّت العملات الورقية مجهولة، أنه في هذه الفترة عرفت العملات الورقية في أوربا رواجاً و إقبالاً ملحوظاً. هذا إذا استثنينا بعض السندات و الحوالات المالية التي كانت تسدد بها بعض القروض و تصفى بفضلها بعض الحسابات المالية للوكالات الأجنبية العاملة بالبلاد و للتجار الأثرياء من اليهود و الحضر، لأنّ التجارة الخارجية و المبادلات الداخلية تضطربهم إلى هذا النوع من التبادل المالي الورقي.
- كانت إيالة الجزائرية سوقاً حرة للتعامل النقدي، فالعملات المحلية و الأجنبية كانتا مطروحتين للتداول بدون تمييز، كل منها تحاول السيطرة على السوق المالية معتمدة على مبدأ التنافس الحر.
- استغل قناصل الدول الأوروبية و مديرو الشركات التجارية الأجنبية هذا الوضع فأصبحوا يصدرون للإيالة الجزائرية النقود المعدنية مقابل استيراد السلع و البضائع، لاسيما بعد أن وجدت هذه النقود الأجنبية إقبالا متزايداً من الأهالي.
- العملة الجزائرية لم يكن لها وحدة أساسية بالمعنى الصحيح، لأن كل نوع من أنواعها كان يعتمد في تقييمه على نسبة المعدن الثمين المتكوّن منه، و على وزنه و حجمه، و على مدى مقدّره على الصمود أمام بقيّة النقود المحليّة و الأجنبية.
- لم تساهم العملة الجزائرية و الأجنبية في خدمة التطوّر الاقتصادي كما يجب، و يرجع ذلك إلى تهرب سكان الأرياف من التعامل النقدي، و شيوع النقود المزورة و المغشوشة و انخفاض أسعار المواد الأولية².

¹ _ نفسه، ص195.

² _ ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830)، المرجع السابق، ص، ص، 207.

كما أنّ انعدام روح المبادرة الاقتصادية و إتباع أسلوب الادخار جعل النقود تقل في الأسواق و تتركز في أيدي الطبقة الموسرة المتكوّنة من أغنياء اليهود و الحضر، أو تتراكم في الخزينة العامة.

- ظل استعمال النقود النحاسية و الذهبية ضئيلاً جداً، لاسيما النوع المعروف بالبوجو بالنسبة للنقود المحليّة، و الصنف المعروف بالقرش الاسباني أو قرش بومدفع بالنسبة للنقود الأجنبية.

سبب الإقبال على النقود الفضيّة يكمن في سهولة استعمالها في قضاء الحاجات اليومية بخلاف النقود النحاسية أو الذهبية، فالنقود النحاسية أهملت لبخس أثمانها، و النقود الذهبية لم تلق الراج لصعوبة التعامل بها نظرا لارتفاع قيمتها، و لأنّها تحت مراقبة المسؤولين، بحيث يتعرّض أصحابها أحيانا للمصادرة و التغميم و الحجز فضلا عن أن كثيرا من السكان كانوا يجهلون قيمة الذهب الحقيقية، و منهم من كان لا يعرفه مطلقاً بدليل أن أحد شيوخ الأهالي المتعاملين مع شركة إفريقيا بحسن فرنسا صرح لموظفي هذه الشركة، بأن مواطنيه لا يعرفون إلا القليل عن الذهب، و لا يفضلون سوى القرش الاسباني في معاملاتهم¹.

2_ الضرائب:

خلال دراسة التاريخ الاقتصادي للجزائر العثمانية تبرز حقيقة مفادها أنه لم يكن للعثمانيين سياسة اقتصادية واضحة المعالم من شأنها أن تنهض بالبلاد، و لا أدل على ذلك من أن سياستهم المالية ارتكزت أساسا على الضرائب بحيث تحولت السياسة الضريبية إلى عامل مؤثر ليس فقط في الحياة الاقتصادية، بل و في طبيعة العلاقة بين الحكام و السكان، فلم يكن الولاة بصفتهم المسؤولين الأولين عن مالية الدولة يولون أهمية فقط لاستخلاص مداخيل ضريبية كافية لموازنة النفقات.

كانت السياسة الضريبية مرتبطة بنوعية الأراضي، و لهذا عرفت الأراضي في الجزائر العثمانية عدة أوضاع من حيث الملكية: منها الملكية الخاصة، ملكية الدولة أو البايلك، ملكية الأوقاف، و ملكية العرش².

نظرا لعدم وجود عملة موحدة للتعامل داخل إيالة الجزائر حيث كانت المعاملات المالية تتم بمختلف أنواع العملات الأجنبية، بالإضافة إلى العملة المحلية فإن هذا المعطى يصعب علينا عملية التقدير و الإحصاء الرقمي للمبلغ الإجمالي لخزينة الإيالة، و لذلك نجد اختلافا بين المصادر التي تناولت هذا الموضوع³.

كانت الجزائر سوقا حرة للتعامل النقدي الذي أفرز ربط علاقات تجارية مع عدة دول أوروبية مما جعل التجار الأجانب و المسلمين يُقبلون على ادخار العملات الجزائرية لقيمتها في حركية التجارة و الصرف رغم منافسة النقد

¹ _ نفسه، ص 206.

² _ المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني (العملة-الأسعار و المداخيل)، ج 1، المرجع السابق، ص 274.

³ _ نفسه، ص 208.

العثماني السلطاني و الإسباني، لها منذ بداية القرن 17 م وكانت العملة الجزائرية مظهرا من مظاهر السيادة للإيالة الجزائرية، و إلى جانب المعاملات النقدية المصرفية كانت بعض العملات تقوم بتسديد الديون التجارية بواسطة الكمبيالات و السندات الورقية القائمة على مبدأ الثقة رغم أنها تميزت في بعض الأحيان بالتأخر في تسديدها أو استعمال الوساطة ذات السلعة الواسعة. تدخلت الظروف الاقتصادية و لاسيما الجانب المالي منها من ضرائب و رسوم و عوائد، في تصنيف سكان الأرياف باعتبار أنّ قسماً منهم نال الامتيازات مقابل العمل لصالح النظام المالي، و منه من اضطرته ظروف المعيشة أن يبقى على اتصال دائم بالسلطة الحاكمة، و إن كان هذا الاتصال الذي حدّ من استقلالهم تفرضه المصلحة المتبادلة و يساهم فيه الرؤساء المحليون. و ساعدت الحكومة الجزائرية و ما تميّزت به من أنظمة مالية على الإبقاء على الهياكل الاجتماعية بالأرياف مستعينة بتعاطف رجال الدين من مرابطين و علماء و شيوخ و رؤساء محليين مع الحكام، و معتمدة على ملائمة نظام الملكية الجماعية في البوادي لسياسة الحكام الأتراك الرامية إلى إثارة التنافس الداخلي و الانقسام العشائري لتأمين شر الثورات و العصيان¹.

أما من حيث الحياة الاقتصادية فإننا نلاحظ أن النظام المالي كان يتحكم فيها الإجراءات المالية المتبعة، مثل قانون الاحتكار الذي كانت تمارسه الحكومة لتشرف عن طريقه على قطاعات الإنتاج الرئيسية للبلاد، و ذلك رغبة منها في الحصول عليها على الأرباح الوفيرة. ترجع أهمية نظام الاحتكار إلى كونه أصبح يتحكم بطول المدة في الإنتاج الزراعي و الحيواني، و يخضع له التبادل التجاري و تتكيف معه الأنظمة المالية المتعلقة برسوم الاستيراد أو التصدير أو المتصلة بالقوانين المعمول بها في استخلاص الضرائب، بالإضافة إلى أنّه كان انعكاساً سلبياً لعلاقة الجزائر التجارية مع الخارج، باعتبار أنّ الاقتصاد الجزائري في تلك الفترة كان قائماً على تصدير المواد الأولية و استيراد الأشياء المصنعة أو التي لا تتوفر بالبلاد. لكن هذا التنظيم الاحتكاري كان له تأثير خطير على الأوضاع المالية و انعكاس سلبى على النمو الاقتصادي فقد كان عاملاً مساعداً على تدهور التجارة و تدهور الزراعة، أو عبارة أوضح كان عاملاً محطماً للاقتصاد، و سبباً في قلة الإنتاج و عدم تلبية الحاجات السكان.

منذ إقرار نظام حكم الباشاوات (1585-1650)، الذين كانوا يتهاكون على جمع الأموال و إخفائها و التظاهر بنفاذها عند دفع رواتب الجند، و قد كان سلوكهم هذا سبباً في انتفاضات القرن 17 م العديدة (1600-1650)، ثم أعقبت فترة الأغوات المملوءة بالفوضى و الاغتيالات و التنافس على الحكم، و لم تعرف الأوضاع المالية تحسناً إلاّ بمجيء الدايات إلى الحكم في النصف الثاني من القرن 17 م، و قد ساعد على هذا الانتعاش توفر مصادر مالية كافية عن طريق الإتاوات و الغنائم و تحسّن مردود الضرائب و التدخل في شؤون الإيالة التونسية².

¹ _ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830)، طبعة ثالثة منقحة و معدلة و مزيّدة، المرجع السابق، ص214.

² _المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني (العملة-الأسعار و المداخل)، ج1، المرجع السابق، ص243.

تتفق معظم المصادر على أنّ العثمانيين لم يرفعوا من قيمة الضرائب الشرعية بالجزائر، إذ بقيت على ما كانت عليه في العهدين الحفصي و الزياني، بل أنّ الحكام العثمانيين خلصوا العديد من القبائل من العوائد (ضرائب كانت تدفعها القبائل المستقرة إلى العريان حتى تمنعهم من نهب مزارعها) التي كانت تدفعها للعريان، إلا أن هذا ينفي تفنن العثمانيين في اختراع أنواع من الضرائب الإضافية و غير الشرعية أرهقوا بها الفلاحين خاصة في نهاية حكمهم¹.

هذا و يمكن الإمام بالضرائب الزراعية من خلال التطرق إلى ثلاث نقاط رئيسية، الأولى تتعلق بمختلف أصناف الضرائب، و الثانية تتصل بطبيعة الملكية السائدة بالأرياف و انعكاسها على الطريقة المتبعة في استغلال الأرض و استخلاص الضرائب، و النقطة الثالثة تنصب على ما يمكن استخلاصه من مميزات لهذه الضرائب².

يمكن إجمال أنواع الضرائب الزراعية في أربعة أصناف متميزة و هي، ضرائب اعتيادية (شرعية) على الإنتاج الفلاحي و الحيواني الذي يعود مردوده إلى الخزينة العامة حسب تقاليد بيت مال المسلمين، تتمثل خاصة في ضريقتي العشور و الزكاة، و ضرائب مستحدثة (الزامية) في شكل مساهمات نقدية أو عينية تفرض على بعض الجماعات و القبائل في حالة تعذر استخلاص العشور و الزكاة، و النوع الثالث من الضرائب هو تلط الجبايات الطارئة (الظرفية)، و هي مطالب مالية و عينية تؤخذ في المناسبات و المواسم بغرض تدعيم القدرة المالية لخزينة الدولة بالجزائر و تغطية حاجات موظفي الجهاز الإداري، و سوء نقص المداخل الاعتيادية التي قد تطرأ في بعض الأحيان على عائدات الضرائب الاعتيادية أو المستحدثة، أما الصنف الرابع من الضرائب فهو يتمثل في موارد أراضي الدولة و هي (العزل) بمختلف أنواعها و (أحواش البايك)، و هو يؤخذ في شكل كراء اعتيادي للأرض (الحكور)، أو يقدم كخدمات مجانية يكلف بها الفلاحون و تعرف بـ"التويضة". الصنف الخامس من الضرائب بالأرياف يتألف خاصة من هدايا الترضية و حقوق التولية و رسوم الأسواق، فمثلا حقوق المناصب كانت تؤخذ مقابل إصدار قرارات التولية أو تأكيد أوامر الإقرار في المهام الإدارية من سكان الأرياف لفائدة الشيوخ و القياد و باقي المتولين الذين لهم سلطة بالوسط الريفي³.

يمكن إجمالاً استعراض أهم ما كان يميّز النظام الجبائي بالأرياف و ذكر بعض النتائج المرتبطة بتطبيق السياسة الجبائية على سكان الأرياف، فمن حيث المميزات نلاحظ أن الضرائب الزراعية:

¹ _ جميلة معاشي، الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري (من القرن 10 هـ/ 16 م إلى 13 هـ/ 19 م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2015 م، ص 189.

² _ ناصر الدين سعيدوني، الضرائب الزراعية في الجزائر في العهد العثماني، المرجع السابق، ص 217.

³ _ ناصر الدين سعيدوني، الضرائب الزراعية في الجزائر في العهد العثماني، المرجع السابق، ص 219-220.

- كانت موجهة أساسا لسد حاجات الجهاز الإداري للسلطة و توفير الأقوات الضرورية للموظفين و الجند مع تخصيص جزء ضئيل منها للتصدير ، و هذا ما ساعد على تعميق الطابع الزراعي الرعوي للاقتصاد الجزائري بعد أن تحوّل اهتمام الحكام من غنائم البحر إلى عائدات الإنتاج ألفلاحي و الحيواني.
- لم تكن موحدة أو محدّدة و هذا ما جعلها غير عادلة في تقدير كمّيّتها و في كيفية استخلاصها ، فرغم المرونة و الفعالية التي حاول الحكام الأخذ بها فيما يخص الإجراءات الجبائية ، إلا أن الضرائب الزراعية ظلّت في أساسها تخضع لاعتبارات خاصة فهي تقوم على المعاملة الخاصة ومنح الامتيازات للمتعاملين مع السلطة ، و ضمان نفوذ الدولة في أوساط سكان الأرياف.
- أنما ظلّت تتّف بغياب التنظيم المحكم مع انعدام الديناميكية التي بدونها لا يمكن التعرّف على الخلل و تصحيحه ، و حتى المحاولات المتواضعة و المحدودة لبعض الحكام لم تسمح هي الأخرى بإعادة تقييم كمية الضرائب و تعديل طرق استخلاصها ، و هذا ما جعل الضرائب الزراعية بصفة عامة في غير صالح الدولة و الفلاح على حد سواء¹.
- أنما تأثرت إلى حد كبير بالوضع الصحي و الحالة الديموغرافية السائدة بالأرياف التي أدّت إلى تدهور ديموغرافي عندما أقفرت الأرياف من السكان و قلّ الإنتاج و بدأت كمية الضرائب بالتضاؤل ، اضطر السلطة إلى الاعتماد أكثر فأكثر على شتّى الحملات لجمع الجبايات ، وهذا ما زاد الزراعة انكماشاً و حياة الفلاحين شقاء.

أسفر هذا الواقع الذي ميّز الضرائب الزراعية عن عدّة نتائج أهمها ما يتصل بمستوى معيشة الفلاحين و طبيعة الاقتصاد الريفي ، فقد أثّرت الضرائب الزراعية بشكل ملحوظ على مستوى المعيشة ، حيث أسهمت هذه الأخيرة في رفاهية سكان المدن من جهة ، و زيادة معاناة و شقاء سكان الأرياف من جهة أخرى ، فأوضاع قبائل الرعيّة الخاضعة و الفلاحين الأجراء "الخماسين" كانت بفعل ثقل الضرائب أشبه شيء بأقنان الأرض ، و هذا ما يجعل نمط الاستغلال الزراعي في مزارع كبار الملاك و أراضي الدولة شبه إقطاعي يقوم على استغلال الفلاحين المعدومين لفائدة أصحاب الأرض. كما أدّت الضرائب الزراعية إلى اختلال في النشاط الاقتصادي فتحوّل قسم هام من السكان عن خدمة الأرض إلى ممارسة الرعي ، فاختفت الزراعة من مساحات شاسعة من الأراضي القبلية و أصبحت مجال تنقّل موسمي لقطعان المواشي ، في وقت أصبحت فيه الجهات الجبلية الصعبة القليلة الموارد مناطق كثافة مرتفعة بالنسبة للسهول الخصبة التي أصبحت هي الأخرى طرد بشري بفعل ثقل الضرائب ، و تهديد قبائل المخزن المتعاملة مع الدولة و استحواذ الحكام على مساحات شاسعة من الأراضي الصالحة ، و هذا ما زاد في عداوة السكان للسلطة و أدى إلى تناقص الإنتاج و ضآلة مردود الضرائب².

¹ _ نفسه ، ص 218.

² _ ناصر الدين سعيدوني ، المرجع السابق ، ص 229.

في ظل الحكم العثماني شهدت الجزائر عدة مؤسسات تتولّت تسيير الأمور السياسية والاقتصادية والمالية والثقافية منها "خزينة الدولة" و"مؤسسة الأوقاف" و"مؤسسة بيت المال"، فهذه الأخيرة أدت دورا هاما في إبراز الملامح الأساسية للحياة السياسية والاقتصادية، لذا لقيت اهتماما كبيرا من طرف الباحثين وتشكل جانبا هاما من الأبحاث. و مؤسسة بيت المال هي إحدى المؤسسات الهامة في الجزائر خلال العهد العثماني يشرف على إدارتها ناظر بيت المال إلى جانب مجموعة من الموظفين. وتتمثل سلطات هذه المؤسسة في المهام التي يمارسها ناظر بيت المال، الذي يعمل على إدارتها وفق إستراتيجية دقيقة وصارمة. تعدّ مؤسسة بيت المال إحدى مؤسسات الدولة اكتسبت مكانة كبيرة في أوجه الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الجزائر كغيرها من المؤسسات مثل مؤسسة الأوقاف، فقد كانت تتمتع بجهاز يتكفل بتسيير أمور التركات أو الأملاك العائدة إلى اليتامى والغائبين وتضمن حصة الدولة منها حسب الأحكام الشرعية¹.

ولقد ازدادت أهمية هذه المؤسسة بازدياد عدد ممتلكاتها التي كانت تسيّر من طرفها، كما عرفت في وثائق المحاكم الشرعية " بالأموال العائدة لبيت المال "أو" تحت اعتماد بيت المال"، وتتمثل في الأراضي والبساتين والخوانيت... الخ. وكانت مؤسسة بيت المال تتحصل عليها من مصادر مختلفة منها الأملاك الشاغرة التي تعود ملكيتها لأشخاص غائبين أو أسرى حيث يتم المحافظة عليها من طرف المؤسسة لحين عودتهم وكذلك أملاك المتوفين الذين لا وارث لهم يتم الإشراف عليها من طرف بيت المال وناظر بيت المال. كونه حافظ الموارث المخزنية فيقوم إما بكرائها أو بيعها في المزاد العلني أو ما يعرف في وثائق المحاكم الشرعية " بأماكن الزيادة والرغبة".

وقد كان لمؤسسة بيت المال عائدات مالية معتبرة زادت في أهميتها، فقد كانت تدخل لخزينة الدولة من المعاملات المالية التي كانت تقوم بها المؤسسة من بيع كراء، وكان لمؤسسة بيت المال مقر خاص بها يوجد فيه مكتب المحاسبة و مراقبة الأملاك و الأموال التي تتولى تسييرها كما يستقر فيه ناظر بيت المال وأعوانه، وذكر هذا المقر في وثائق المحاكم الشرعية بـ دكان بيت المال. وكان يقع بين قصر الجنيّة ومسجد السيدة وتحديدًا " في المنطقة القريبة بين منقطع الطريق بين سوق القيصرية وسوق الصاغة وسوق الغزل. وتم تحديد هذا الموقع من خلال عقود المحاكم الشرعية مثلما جاء في وثيقة تحبّيس تعود إلى عام 1158 هـ الموافق ل 1726 / 1725 م "الخانوت الواقعة في سوق الصاغة الثالثة على اليمين الذهاب إلى زنقة بيت المال... باتجاه السوق. ففي هذا المقر كان يجلس ناظر بيت المال ويتم تسجيل كل المعاملات من مداخيل ونفقات خزينة بيت المال في سجلات محكمة الدقة والتفصيل، وكان يساعد ناظر بيت المال مجموعة من الأعوان مثل: العدول والقاضي و الشاوش والدلال². فهذا الجهاز الإداري كان يشكل مؤسسة مستقلة متكاملة المهام وهذا لضمان السير الحسن لمهام المؤسسة. كما

¹ _ صبرينة لنوار، آليات تسيير مؤسسة بيت المال في الجزائر خلال العهد العثماني، مجلّة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة بابل، العدد 26، نيسان، 2016، ص 89.

² _ اصّر الدين سعيدوني، دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية، المرجع السابق، ص 247.

حدد موقع بيت المال من خلال مخطوط "دوفو" انطلاقاً من موقع منطقة البشماقجية التي كانت تتصل بعدة شوارع، أحدها كان يتواجد فيه بيت المال وتنتهي هذه الشوارع عند مسجد السيدة وكان المكان نفسه ساحة كانت تعرف بسوق الغزل سنة 1634 م.

كشفت الدراسات أن مؤسسة بيت المال تعتبر من المؤسسات التي تتمتع باستقلالية في التسيير، وتمتعت بهيكل إداري منسجم على رأسه ناظر بيت المال ويساعده مجموعة من الموظفين تتكامل مهامهم في تسيير المؤسسة. ولها علاقات إدارية مع مختلف مؤسسات الدولة خاصة مؤسسة الأوقاف في المسائل التي تخص الموارث. ولقد ساهمت في إبراز ملامح الحياة الاقتصادية الاجتماعية في الجزائر خلال العهد العثماني¹.

3_ تأثير الوقف في النشاط الاقتصادي

كانت مساهمة الأوقاف فعالة في الجانب الاقتصادي، كما كان لها تأثير مباشر على تسيير مصالح الدولة و المجتمع و ذلك من خلال ارتباط الخدمات بمؤسسة الوقف، حيث ساهمت في إنشاء المرافق العامة والحفاظ عليها وكذا من خلال عملية توزيع المداخل والثروة، بالإضافة إلى الدور الإيجابي الكبير لها في التأثير على ملكية الأرض بتقليص أراضي البايك، والحفاظ على الملكيات للأفراد وبالتالي استغلالها عن طريق الكراء أو الاستبدال، بل والاستثمار فيها حسب إمكانية الأفراد.

ارتبط جزء هام من الخدمات العمومية والمرافق القائمة بالمدينة ارتباطاً وثيقاً بمؤسسة الأوقاف حيث شكّلت مداخل الأملك الموقوفة المصدر المالي الوحيد للإنفاق على تلك المؤسسات، إذ لم تخصص السلطة ميزانية معينة لذلك فاستمرار المؤسسات في خدماتها خضع لما كان يجني من مداخل الأوقاف فهي المصدر الأول الذي حافظ على بقائها وهو تقليد رسخه الحكام الأوائل وسار عليه خلفهم، فباستثناء الجهات النائية والمناطق الجبلية التي كانت القبائل فيها تتكفل بالإنفاق على أماكن العبادة والتعليم بها، فإن مردود الأوقاف كان يشكل المصدر الوحيد لرعاية الخدمات بأغلب البوادي والحوضر الجزائرية².

تمكّن حكام الجزائر من الأترك بفعل عوائد الأوقاف أن يجدوا حلولاً ملائمة لتسيير بعض المصالح التي لم يكن لها دخل محدّد ينفق عليها مثل الشؤون الثقافية التي ما كان لها أن تتم لولا مداخل الأحماس التي كانت تساهم بنفقات الدراسة وتكفل بأجور المدرسين والقائمين على شؤون العبادة بالمساجد والزوايا والمدارس وتوفير وسائل الصيانة الضرورية لمراكز العبادة مع كثرتها بمدينة الجزائر حيث قدر عددها أواخر العهد العثماني بـ 901 أماكن للعبادة. ومهما كان قدر موارد الأوقاف فإنها كانت تعول عدداً كبيراً من العائلات الجزائرية، نظراً للعدد الهائل من الإداريين والعمال والحرفيين الذين كانوا يتقاضون رواتبهم من تلك العائدات ولا شك أن ذلك ساهم

¹ - صبرينة لنوار، آليات تسيير مؤسسة بيت المال في الجزائر خلال العهد العثماني، المرجع السابق، ص 90.

² - عائشة غطاس وآخرون، الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة وثورة أول نوفمبر، 2007م، ص 242-243.

في التخفيف من آثار البطالة فحالة العمران ووضع الثقافة في الجزائر ارتبط بمدخول الأحماس والأوقاف الذي كان يشكل المورد الأساسي للإنفاق على المساجد والمدارس ورعاية المدرسين والطلاب¹.

أوقفت عدة أملاك داخل مدينة الجزائر وخارجها للإنفاق على المرافق العامة ، كالطرق والعيون والسواقي، وكل هذه المرافق كانت تحظى بالعديد من الأوقاف ويقوم عليها وكلاء وشواش يعرفون بأمناء الطرق والعيون والسواقي ، فقد أنشئت عدة عيون داخل الجزائر وخارجها ، والتي كان عددها يزيد عن مائة عين ، إذ كانت موارد الأوقاف خير مساعد على صيانة بعض المرافق العامة مثل الطرق والآبار والعيون والسواقي والجسور والحصون ، وفي هذا الصدد نذكر أن بيت المال كانت تخصص جزءا هاما من عناء الأوقاف التي تشرف عليها لتنفق على مثل هذه المصالح العامة التي ، لم يعطي لها الحكام الأتراك الأهمية التي تستحقها ولم يخصصوا لها المبالغ المالية التي تتطلبها بعد أن انشغلوا بالاضطرابات والثورات وبعد أن انقطعت مغامرات القرصنة وشحت مصادر دخل الخزينة.

ساهمت الأوقاف بفعل ما توفره من عوائد على المحافظة على بعض المرافق العامة مثل الطرق والمسالك التي خصت بأوقاف عديدة ، وهذا ما وفر للسكان خدمات أساسية وأوجد وسائل ضرورية للحياة لم تكن إدارة البايك تهتم بها ولم يكن الحكام يحرصون على توفيرها ففي قسنطينة كان وكيل أوقاف العيون يصرف حوالي 300 فرنك لنقل الماء إلى الأحواض السبعة المنتشرة وسط المدينة بنسبة حمولتين لكل حوض يوميا تكلفه حمولة البغل الواحد 0,23 فرنك.

كان لعائدات الأوقاف الفضل في تشييد العديد من الثكنات والحصون والأبراج والأسوار والبطاريات قصد الدفاع عن البلاد ضد الهجمات البحرية الأوربية وغارات القبائل داخل البلاد وكان أكثرها يتركز بمدينة الجزائر والجهات الغربية منها ، ففي وسط المدينة كانت الثكنات السبع تنال نصيبا وافرا من عائدات الأوقاف تنفقه على رعاية الجند وصيانة المرافق بما وفي الجهات القريبة منها كانت الحصون المختلفة تتنفع بما يخصص لها من أوقاف مثل حصن تافورة (باب عزون) وحصن مولاي حسن (الإمبراطور) وبرج الزووية (البرج الجديد)².

امتلكت مؤسسة الأوقاف أملاك متعددة أدرت عليها مداخيل وأرباح وفيرة ، ساهمت في الانتقال والانتفاع الدوري بالأموال ونمو الاستثمار في المشاريع عن طريق الكراء أو الاستغلال ، كما ساعدت على تحريك الثروة بين من يخدمها ويستغلها وبذلك إلى عدم تراكم رؤوس الأموال في فئة دون غيرها باعتبار أن الوقف يؤدي إلى التخلص من الملكية الفردية بغرض التقرب إلى الله عز وجل وتسهيل المنفعة لفائدة المحبس له.

كان الوقف يوفر وسيلة فعالة للمحافظة على الثروات والأملاك والأراضي الموقوفة لكونها لا تباع ولا تشتري ولا يمكن حيازتها بتصرف أو استحواذ أو مصادرة ، وبالتالي لم يعد في استطاعة الحكام وذوي النفوذ مد أيديهم إلى الأملاك المحبسة إذ ساهمت الأوقاف في القضاء على مشكلة الفوارق الطبقيّة في المجتمع ، فمن خلالها تتوزع

¹ _ ناصر الدين سعيدوني ، الوقف في الجزائر في العهد العثماني من القرن 18 م إلى 19 م ، دار البصائر الجديدة للنشر و التوزيع ، الجزائر ، طبعة خاصة ، 2013 ، ص 72.

² _ ناصر الدين سعيدوني ، دراسات في الملكية العقارية ، م و ك ، الجزائر ، 1986م ، ص 103.

الثروة على مختلف حاجياتهم وتأمين متطلباتهم من خلال استفادتهم من مداخيل الوقفيات ، وبذلك تنقل الأموال من الطبقات الغنية إلى الفقيرة وبهذا يتحقق التوازن في توزيع الدخل وتختفي الفروق بين فئات المجتمع فالأوقاف ساعدت على أن لا تقتصر الثروة في طبقة معينة أو تحتكر ، من طرف واحد وهذا ما يؤدي إلى الإحساس بالمسؤولية على الأملاك إذ يستفيد كل أفراد المجتمع منها ، فتوفر بذلك .مناخا للاستقرار الاجتماعي والاقتصادي والسياسي¹.

تكمن أهمية الأوقاف في الجزائر في تأثيرها المباشر على مختلف الحياة في الجزائر ،فبفضل مردودها أمكن الإنفاق على القائمين بشؤون العبادة و التعليم من أئمة و مدرسين و طلبة ،كما أصبح من الميسور سد حاجة الفقراء و المعوزين من عوائد الأوقاف ،هذا مع العلم بأن الأنظمة الخاصة بالأوقاف و الأحكام المتعلقة بها ساعدت كثيرا على الحد من مظالم الحكام و تعسفهم و عملت في نفس الوقت على تماسك الأسرة الجزائرية بحفظ ثرواتها و إيجاد طرق ملائمة لاستغلال مصادر رزقها عملا بأحكام الشريعة الإسلامية الخاصة بالوقف الأهلي. ظهرت أوقاف الأندلسيين بالجزائر مع تزايد الهجرة الأندلسية إلى السواحل الجزائرية إثر سقوط حواضر الأندلس و إصدار قرارات الطرد الجماعي لعام 1016هـ/1609م ،و قد استقرت نتيجة لذلك منذ أواخر القرن الخامس عشر و حتى أوائل القرن السابع عشر أعداد ضخمة من النازحين الأندلسيين.

أما الدافع إلى تخصيص أوقاف لفائدة أفراد الجالية الأندلسية دون غيرهم من المجموعات السكانية ،يعود إلى الظروف التي واجهتها عند توطنها البلاد الجزائرية ،بالإضافة إلى الأوضاع التي عاشتها إيالة الجزائرية طيلة العهد العثماني ،يضاف إلى هذا أن العائلات الأندلسية العريقة التي اكتسبت في مواطنها الجديدة النفوذ بفعل تعاملها مع الحكام الأتراك ،و تحصلها على ثروات ضخمة بممارسة التجارة و الصناعة و شراء الأراضي.

أما من حيث الوثائق المتعلقة بنشاط الجالية الأندلسية و الموجود بالأرشيف الجزائري فإنها تعود إلى أواخر القرن الخامس عشر ،و قد أشار إلى بعضها "دوفو" Devoulx.A "عندما تعرض لأوقاف الأندلس و رتبها حسب السنوات التي تعود إليها ،فأرجع عقدان منها إلى عام 980هـ/1573م ،أما باقي العقود فهي تتوزع على السنوات التالية :981هـ/1574م ،1012هـ/1604م ،1013هـ/1605م ،1014هـ/1606م.نُظمت في فترة متأخرة من عام 1018هـ/1609م و أصبح لها وكيل يقوم بشؤونها يعرف بـ"وكيل الأندلس"².

من بين الآثار المترتبة عن الوقف هو تقلص أراضي البايلك³ ،و انكماش أراضي الخواص و اختفاء الملكيات المشاعة ،وهذا ما أدى إلى تفتت وحدة القبيلة ، وتلاشي روح الجماعة ، لتحل محلها مجموعات سكانية ، ذات

¹ _ ناصر الدين سعيدوني ، الوقف في الجزائر في العهد العثماني من القرن 18 م إلى 19 م ، المرجع السابق ،ص102.

² _ Devoulx.A :Op cit,p,p,113,114

³ _هي الأراضي التي استحوذ عليها الحكام العثمانيون عن طريق المصادرة والشراء ووضع اليد في حالة الشغور وانتقاء الورثة أو

انتماءات عرقية مختلفة ، حيث أستقدم منها من إقليم جرجرة (بلاد القبائل .) وقدم البعض الآخر من نواحي التيطري وواحات الصحراء للعمل بالأراضي الموقوفة لفائدة العائلات الحضرية المنتفعة بالوقف الأهلي ، والتي لم تساهم في تطوره ولم تكن لها الرغبة أو القدرة على خدمته وبذلك أصبح قسم كبير من الأراضي الزراعية (الأراضي الموقوفة) لا يخضع لقوانين البيع والشراء ولا يتماشى مع أحكام الورثة في اقتسام الشركة ، وهذا ما لم يساعد على انتقال الملكية أو تفتيتها أو تجميعها في أيدي مستغلين جدد قادرين على تطوير أساليب الإنتاج وتحسين طرقه ، إذ أصبح الوقف يشكل بفحص الجزائر أحد أنماط الملكية الشائعة والتي لا يماثلها من حيث الأهمية و الاتساع إلا الملكيات الخاصة في حين اختفت أراضي البايلك ولم يعد لها أهمية تذكر بفحص الجزائر كما أدى الوقف إلى إقرار حدود الملكيات الزراعية ، التي تعتمد على العقود الشرعية الغير قابلة للنقص أو المراجعة وإلى تكريس طريقة استغلال زراعي غير مباشر باعتبار أن المنتفع بالحبس لا يملك حق التصرف في الحبس الذي يعود إلى المرجع الذي حبس عليه¹.

من خلال القاعدة الشرعية لأملاك الأوقاف التي لا تخضع للبيع والشراء ولا تتماشى مع أحكام الورثة ، حافظت الأوقاف على سبيل الخصوص أوقاف الحرمين الشريفين على الملكيات وأكسبتها قدسية الجهة الموقوفة عنها مكانة أهم من ملكيات البايلك أو ملكيات العروش ، وبهذا ساهمت الأوقاف في ظهور نوع من الملكيات المشاعة الجماعية المستغلة من طرف عناصر مختلفة عن طريق العناء أو الكراء أو المعاونة ، وبهذا حافظت على الطبقة الميسورة التي شكلت فئات اجتماعية متماسكة فيما بينها وقد ساعد هذا الدور على الاستقرار النسبي للوضع الاقتصادي والاجتماعي والذي حال دون اتساع الفوارق بين طبقة وأخرى، وبفعل انتشار الوقف أواخر العهد العثماني وازدهاره أصبحت الأراضي الموقوفة تستحوذ على مساحات شاسعة لا تماثلها في شساعتها سوى ملكية الدولة ، وقد أصبح الوقف بالجزائر مؤشرا على مختلف أوجه الحياة بحيث أصبحت الأوقاف تشتمل على الأملاك العقارية والأراضي الزراعية وتضم العديد من الدكاكين والفنادق وأفران الخبز والعيون، والسواقي، و الصهاريج ، و أفران معالجة الحبس بالإضافة إلى البساتين والحدائق².

الأراضي التي ظلت في أيدي أصحابها باعتبارها وقفا أهليا أو ذريا تستغل عن طريق الكراء المعروف بالعناء في الجزائر، هذا وقد دعم الوقف طريقة الاستغلال الزراعي غير المباشرة والتي حالت دون تطور الملكية وانتقالها لكون المنتفع بالحبس لا يملك حق التصرف فيه ، لأنه يع ود للمرجع الذي حبس عليه وإنما يحق له فقط استغلاله أو

عند ترحيل السكان المقيمين عليها عند امتناعهم عن دفع الضرائب المستوجبة عليهم ، ينظر : بليروات بن عتو ، المدينة و

الريف، ط1، ج2، مؤسسة دار كوكب للنشر و التوزيع، 2016م، ص628.

¹ _ ناصر الدين سعيدوني ، دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي، 2000م، ص248، 249.

² _ ناصر الدين سعيدوني ، الوقف ومكانته في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بالجزائر أواخر العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي ، في مجلة الآصاله ، ع 89-90 ، الجزائر ، 1981م، ص99.

كرائه ،وقد عرف هذا النوع من الملكيات الزراعية توسعا ملحوظا لتردي الأحوال الاجتماعية وانتشار الطرق الصوفية وحالة الفوضى والاضطراب ، فأصبحت أراضي الوقف تؤلف الجزء الأكبر من الملكيات بأطراف مدن الجزائر كما انتشرت بالأرياف ووظف ريعها على الأضرحة والزوايا ، فكانت بذلك عاملا مساعدا على المحافظة على أملاك بعض الأسر ومصدر دائما للإنفاق على الخدمات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

في هذا الصدد نجد أن مؤسسة سبل الخيرات مثلا قد اعتمدت على الإيجار المعروف محليا بالكراء لأجل استغلال أملاكها المحبسة ،وهو أسلوب اقتصادي ناجح مكن المؤسسة من أن تحني أرباحا معتبرة إذ يسمح الكراء للمستأجر أن يشغل العقار المحبس دون أن يملكه فيستعملها للسكن أو يسخره لنشاط اقتصادي منتج مقابل أجره أو كراء قد يكون مبلغ من المال أو قسط بدفع من المنتج أو الغلة ، وتحدد مدة الكراء في عقد الكراء وفق أحكام الوقف ولقد سمحت المؤسسة لجميع العناصر المشكلة لمجتمع مدينة الجزائر وضواحيها ، باستغلال أملاكها الموقوفة عن طريق الكراء وهذا دون تمييز من حيث الأصل أو المركز الاجتماعي فوفرت للبعض مكانا للإيواء والسكن وأعطت للبعض الآخر فرصة للقيام بعمل ومجالا للكسب أيضا فأدت بذلك دورا اقتصاديا واجتماعيا في آن واحد،وبالتالي يمكن وصف الوقف بأنه ملكية انتفاع وليس امتلاك ،حيث أن المحبس ليس له سوى حق الانتفاع بفوائد المحبس وتعرف عملية كراء الوقف التي قد تكون مؤبدة أو محددة بعدد من السنين قد بلغ في كثير من الأحيان التسعين سنة¹.

يغزى استبدال المحبس أو معاوضته إلى المذهب الحنفي ،ويكون عند تعذر استغلال الوقف من طرف الموقوف عليه ، وثمة من يرغب فيه ويعطي بدله أرضا أو دارا لها ريع يعود يعود على جهة الوقف ويجوز استبدال الوقف إذا دعت الضرورة إلى فعله ويقف القاضي بنفسه على ذلك إن أمكن بعد أن تثبت له شهادة شخصين عدلين أمينين لهما خبرة بالقيمة والمساحة ،غير متهمين ولا متساهلين في شهادتهما، ومن بين الأمثلة التي تضمنتها العقود الشرعية الخاصة باستبدال المحبس إرادة سيدة منحصر فيها حبس جنة بفحص تلاوملي ،عوضتها بمجموعة عقارات تعادلها قيمة متمثلة في جنة أخرى بفحص حيدرة ودار ونصيب من علوي وشرط بيت وربع غرفة داخل المدينة ، ووافق المجلس العلمي على طلبها، حيث أن حركية التبادل في أملاك الأوقاف ، كانت جد متنوعة في مدينة الجزائر خاصة في العقارات الزراعية،و التي تتواجد بشكل خاص في المدن ذات التجمع السكاني الكبير².

ظلت العقارات المحبسة خاصة القديمة منها في حاجة دائمة إلى الترميم وإعادة البناء ، مما شجع جماعات حرفية مختلفة خاصة البنائين على الاستثمار فيها ، فكثيرا ما سعى هؤلاء للعمل في تلك العقارات لضمان مدخول مالي معتبر ، وقد عرفت المدينة انتشارا كبيرا لهذه الفئة خاصة من جماعة الأندلسيين الذين برزوا في هذه المجال، كما اهتمت فئات من السكان بالنشاط الزراعي في أراضي الفحص ، للحصول على أرباح من خلال تنمية

¹ _ ناصر الدين سعيدوني ،دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية ، المرجع السابق،ص247.

² _ ناصر الدين سعيدوني ، دراسات في الملكية العقارية ، المرجع السابق ، ص 104-105.

غلات الجنات وتحصيل إنتاجها وبيعه ، فعلى سبيل المثال نذكر حالة تخص أحد المغارسين في أرض من أراضي الفحص ، خارج باب الحديد حيث دفع له المالك أرضه بصفة المغارسة على أن يكون ما يغرستها منها بينهما على السوية والمنصفة ، لكن عند وفاة المالك أحييت الأرض على البيع بالمزاد العلني بما غرس منها وما لم يغررس ، فكان المغارس المذكور هو من تمكن من شراء جميع الأرض بما احتوت عليه من جنة وغيرها، كما نلاحظ أن بعض الأشخاص يقومون بإعادة وقف العقارات ، بعد أن يتراجعوا عن وقفها بدافع الحاجة لكي يبيعوها ويستنفعوا بأثمائها ، ومن اتساع الإقبال على الحبس فإن الأشخاص الذين يتابعون تلك العقارات كانوا في أحيان كثيرة يقومون بإعادة حبسها كما كانت عليه قبل شرائها وهو ما نجده في حالة "الحاج علي البلاغجي ابن عطية" الذي أوقف في أواخر رجب 1206 هـ/ 1792 م ريع العلوي الذي كان على ملكه بالسوق الكبير ، وفي أواخر ذي القعدة 1211 هـ/ 1797 م وقفه وباع ريع العلوي المذكور من " سليمان خوجة الخيل ابن عبد الرحمان " بمائة دينار ذهبيا سلطانيا وقام المبتاع بوقفه في التاريخ نفسه على من يقرأ القرآن الكريم بالجامع الأعظم¹.

كان للوقف تأثير مباشر على النشاط الاقتصادي يمكن أن نلخصه في النقاط التالية:

- النفقة على رجال العلم و المدرسين و الطلبة :بفضل مردود الأوقاف و المداخل التي يوقرها تمكن حكام الجزائر من إيجاد وسيلة ملائمة لتسيير بعض المصالح التعليمية و الخدمات الثقافية التي لم تر الدولة ضرورة لرعايتها ، و لم تكن الخزينة العامة تهتم بالإنفاق عليها مثل منح الطلاب و أجور المدرسين و جريات القائمين على شؤون العبادة. مردود الأوقاف كان يشكل المصدر الوحيد لرعاية الخدمات الثقافية و الدينية بأغلب البوادي و الحواضر الجزائرية ، و الجدير بالذكر أن فائض مردود الأوقاف كثيرا ما يستغل في إنشاء أماكن جديدة للعبادة و التعليم مثل زاوية الجامع الأعظم بالجزائر التي بنيت بفضل مردود الأوقاف عام 1039 هـ/ 1639-29 م و هذا ما ساعد على انتشار العلم و المعرفة في أوساط السكان².
- الإحسان إلى الفقراء و التخفيف من شقاء المعوزين :تكفل وكلاء الأوقاف بتقديم مبالغ مالية و مساعدات عينية للفقراء و المحتاجين في شكل إعانات و صدقات تقدم في أيام محدودة و مواسم معينة.
- الحد من المظالم و الأحكام التعسفية للحكام :وقر الوقف وسيلة فعالة للمحافظة على الثروات و الأملاك و الأراضي الموقوفة ، و بالتالي لم يعد في استطاعة الحكام و ذوي النفوذ مدّ أيديهم إلى الأملاك المحبسة.
- تمكين العجزة و القصر من تسيير و استغلال مصادر رزقهم :و ذلك لكون الحبس الأهلي يسمح لصاحبه بكرائه مقابل عناء محدد يقرّه المجلس العلمي بعد وضعه في المزاد العلني ممّا مكن فئات من المجتمع من المحافظة على مصادر دخل قارة و مضمونة.

¹ _ ناصر الدين سعيدوني ،دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر ، المرجع السابق ،ص194.

² _ ناصر الدين سعيدوني ،دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر ، المرجع السابق ،ص195.

- العمل على تماسك الأسرة الجزائرية و حفظ حقوق الورثة :أحكام الوقف الأهلي تقرر لصاحب الحبس أن ينتفع هو و عقبه بالحبس حبس الوصية ،فلا يصرف الحبس على الغاية التي وقف من أجلها إلا بعد انقراض العقب و انتفاء الورثة ،و هذا ما مكن الأسرة الجزائرية من المحافظة على تماسكها و حال دون اقتسام الأملاك أو بيعها أو رهنها من طرف الورثة.
- رعاية و صيانة المرافق العامة :ساهمت الأوقاف في المحافظة على بعض المرافق العامة التي خصت بأوقاف عديدة ،و هذا ما وفر للسكان خدمات أساسية ،و أوجد وسيلة ضرورية للحياة لم تكن إدارة البايليك تتم بها و لم يكن الحكام يحرصون على توفيرها¹.
- إنشاء و ترميم الثكنات و التحصينات المختلفة :يعود الفضل لعائدات الأوقاف في تشييد العديد من الثكنات و الحصون و الأبراج و الأسوار و البطاريات قصد الدفاع عن البلاد ضدّ الهجمات البحرية الأوروبية و غارات القبائل داخل البلاد ،و كان أكثرها يتركز بمدينة الجزائر و الجهات القريبة منها².

إجمالاً يمكن أن نستنتج مايلي :

- لم تعرف الأوقاف توسعاً ملحوظاً إلا أثناء العهد العثماني ،و قد ساعدها على ذلك انتشار الروح الدينية وسياسة الحكام و تأثير رجال الدين و المرابطين ،فأصبحت تشتمل على الأملاك العقارية و الأراضي الزراعية ،و هذا ما دفع أولي الأمر إلى الاعتناء بها و ضبط حساباتها و احترام عقودها.
- تمكن حكام الجزائر من الأتراك بفعل عوائد الأوقاف أن يجدوا حلولاً ملائمة لتسيير بعض المصالح التي لم يكن لها دخل محدد ينفق عليها.و توفر وسائل الصيانة الضرورية لمراكز العبادة و الدرس مع كثرتها.
- كانت موارد الأوقاف خير مساعد على صيانة بعض المرافق ففي هذا الصدد نذكر أن بيت المال كانت تخصص جزءاً هاماً من عناء الأوقاف التي تشرف عليها لتنفق على مثل هذه المصالح العامة ،التي لم يعط لها الحكام الأتراك الأهمية التي تستحقها و لم يخصصوا لها المبالغ المالية التي تتطلبها ،بعد أن انشغلوا بالاضطرابات و الثروات و بعد أن انقطعت مغامرات القرصنة و شحت مصادر دخل الخزينة.
- ساهمت الأوقاف في تخفيض شقاء المعوزين لما كانت تقدمه لهم من صدقات و إعانات مختلفة ،هذا و قد عملت الأوقاف على تماسك الأسرة الجزائرية بعد أن حفظت لها مصدر رزقها و أبقتها بعيداً عن أطماع الحكام و تدخلات ذوي النفوذ و سوء تصرف الورثة.
- ساهم الوقف في تسيير الخدمات العمومية بفضله عوائده تمكنت الدولة من إيجاد الحلول لتسيير مصالحها
- تخصيص جزء من مداخيل الأوقاف لإنشاء الأماكن العامة والمحافظة عليها من خلال الترميم.

¹ _ناصر الدين سعيدوني ،الوقف في الجزائر أثناء العهد العثماني -من القرن 17 إلى القرن 19-،المرجع السابق،ص ص 62-75.

² _نفسه،ص74-75.

- ساهمت المؤسسات الوقفية في توزيع مداخلها بفعل المداخل الكثيرة لها ، كما لعبت دورا كبيرا في مجال القضاء على الفوارق الطبقة من خلال توزيعها الثروة على مختلف الفئات. أثر الوقف تأثيرا مباشرا على ملكية الأرض من خلال تقليص أراضي البايك وبالتالي اختفاء الملكيات المشاعة.
- سمحت الأوقاف لملاك الأراضي من استغلالها عن طريق الكراء أو الاستبدال وكذا الاستثمار في العقارات مساهمة بذلك من تمكين الأسر على المحافظة على أملاكها¹.

4_العوامل المؤثرة في السياسة المالية:

كان من الطبيعي في هذه الحالة أن تتأثر الأوضاع المالية للبلاد إلى حد كبير بالسياسة الأوروبية المعادية للنشاط البحري للإيالة الجزائرية ،الذي كان يشكل موردا مهما في مداخل الخزينة العامة ،حيث كانت القرصنة-و هي جهاد بحري التجأ إليه المغاربة للدفاع عن سواحلهم ضد الغزو الأوروبي المسيحي و يحصلون بفضلها على غنائم وفيرة-شهدت ازدهارا ملحوظا في القرنين السادس عشر و السابع عشر ،بحيث أصبحت تتحكم في الأنظمة المالية و يقوم عليها البناء الاقتصادي للدولة الجزائرية ،و بالتالي زاد اهتمام السلطة الحاكمة بالمسائل الخارجية على حساب الأمور الداخلية للبلاد باعتبار أن الدولة كانت تعتمد إلى حد كبير على ما توفره البحرية من أرباح و أسرى ،و ما تفرضه هيمنتها البحرية من إتاوات و ما تقدمه لها الدول من هدايا و ترضيات². و في نطاق المؤثرات الخارجية على السياسة المالية تبرز قضيتان مرتبطتان بأوضاع البحرية الجزائرية ،و هما قضية الأسرى و قضية الإتاوات. بالنسبة للأسرى ،تناقص عددهم نتيجة انهيار البحرية ،و بالتالي انخفضت أرباح الدولة التي تحصل عليها مقابل إطلاق سراحهم ،فبعد أن كان عددهم في القرن السابع عشر يقدر بـ25 ألف أسير حسب "هايدو"(Haédo) ،و 35 ألف أسير حسب "غراماي"(Gramaye) ،أي ما يقارب ربع سكان مدينة الجزائر¹.

زيادة على تضائل عدد الأسرى ،فإنّ المبالغ الناتجة عن فديتهم لم تكن تذهب كلها إلى خزينة الدولة فالوسطاء المسيحيون و اليهود كانوا يتحصّلون على نسبة تُقارب 40% من هذه الصفقات في أغلب الأحيان و في بعض الأحيان كان يتم استبدال الأسرى المسيحيين بأسرى جزائريين وقعوا في أيدي الأعداء دون الحصول على مقابل²³.

¹ _ناصر الدين سعيدوني ،الوقف في الجزائر أثناء العهد العثماني -من القرن 17 إلى القرن 19-،المرجع السابق ،ص194-195.

² _ناصر الدين سعيدوني،النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830) ،المرجع السابق ،ص62.

³ _ Haédo(D):Op,cit,p ,77

² _جميلة معاشي ،المرجع السابق،ص190.

أما العوامل الخارجية المؤثرة على السياسة المالية الجزائرية، هي تلك المعاهدات غير المتكافئة التي تميّزت بها علاقة الجزائر مع الدول الأوروبية كفرنسا و إنجلترا و بعض الدويلات الإيطالية، و التي أثّرت سلباً على القدرة و السياسة المالية الجزائرية لأنها كانت مجحفة في حق الجزائر، خاصة منها تلك التي كانت تقضي بتصدير الجزائر موادها الأولية بأثمان بخسة، مقابل استيراد المواد الجاهزة الغالية الثمن. و ممّا زاد هذه المعاهدات إجحافاً تدخل الوسطاء اليهود و التجار الأوروبيين في كل صفقة تعقد أو بضاعة تصدر. الأمثلة على هذه العلاقات غير المتوازنة العلاقة مع فرنسا التي بدأت منذ عهد مبكر باصطياد المرجان بالسواحل الشرقية للجزائر سنة 1520 في عهد "فرانسوا الأول"، ثم اتخذت شكل امتيازات تجارية سنة 1524 عندما احتكر المارسييليان "توماس لنش" (Thomas Linch) و "كارلن ديدا" (Carlin Didas) صيد المرجان و تصدير البضائع من منطقة عنابة. و تأكّدت هذه الامتيازات الفرنسية ببناء حصن بجوار القالة سنة 1561 و تنصيب قنصل فرنسي بمدينة الجزائر سنة 1577. و قد استمر نشاط هذا الحصن التجاري الذي أصبح مركزاً و محطة للمصالح الفرنسية بالشرق الجزائري، رغم تعرّضه في بعض الأحيان إلى التضييق و التدمير³¹.

فضلاً عن هذا فإنّ الاحتكارات الأجنبية الناجمة عن العلاقات غير المتكافئة تسببت في خسائر تكبّدها الاقتصاد الجزائري، و من ذلك أنّ شركة "لنش" (Linch) كانت عند تعاملها مع الجزائر تتجاهل اتفاقيات تصدير القمح و تحوّل لنفسها حق السيادة المطلقة على مراكزها التجارية، حتى بلغ بهم الأمر إلى القيام بتصدير الحبوب حتى في سنوات القحط و المجاعة متحدية بذلك أوامر السلطات الجزائرية، و هذا هو السبب في تعرض المصالح الفرنسية بالشرق الجزائري إلى التضييق و العداء في كثير من الأحيان، و من ذلك تعرّض الحصن الذي يُعتبر مركز هذه الامتيازات للهدم عدّة مرات في 1568 و 1637 و... إلخ.

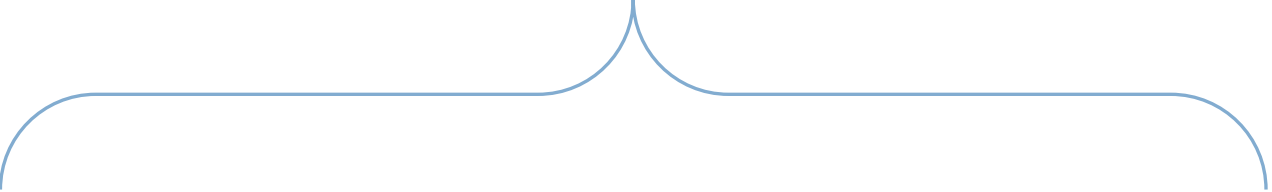
كما أن السلطات الجزائرية اضطرت إلى السماح بإعادة بناء حصن فرنسا بعد أن هدمته سنة 1640، و ذلك لامتنعاص غضب شيوخ العشائر المتعاملين مع الشركة و المنتفعين من بيع حبوبهم و منتجاتهم من أصواف و شموع و مواشي للمركز التجاري بالحصن².

3_ المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني (العملة-الأسعار و المداخل)، ج 1، المرجع السابق، ص 244.

² _ جميلة معاشي، المرجع السابق، ص 191.

ارتباط اقتصاد الجزائر بتلك الشركات الأجنبية يظهر في تدخلات موظفي الشركات الأجنبية في المسائل المتعلقة بالاقتصاد المحلي، ففي نواحي القالة كان مسئولو الشركة الفرنسية يقومون بتوزيع البذور المخصصة للزراعة على الأهالي ليستفيدوا من تصديرها، كما ساهم هؤلاء المسئولون في نواحي عنابة في تكوين شركات مؤسسة على مبدأ مدّ الأهالي بقطيع من المواشي لرعايته و العناية به على أن يُقسم فائض الإنتاج بنسب متفق عليها مسبقاً. هكذا أصبحت المراكز التجارية الأوروبية و لاسيما الفرنسية منها تعتبر مواطن ضعف في الاقتصاد الجزائري، فهي تساعد على استنزاف المنتجات الجزائرية و تسربها إلا البلاد الأوروبية بأثمان بخسة و بكميات كبيرة¹.

¹ _ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830)، المرجع السابق، ص 67-74.



خاتمة



من خلال هذا البحث نستنتج مايلي:

— الوجود العثماني في الجزائر كان نتيجة حتمية نظرا للظروف التي كانت تعيشها الجزائر داخليا من صراع وضعف، إضافة إلى الخطر الإسباني الذي كان يهددها في كب لحظة ، ففي ظل هذه الظروف ظهر الأخوان "عروج" و "خير الدين" كمدافعين عن الراية الإسلامية ، في ظل انتشار ما يسمى بظاهرة القرصنة البحرية ، التي أطلقها الغرب المسيحي على السفن المتوسطية المسلمة ، على غرار ممارستهم غير الشرعية في مياه البحار ، ومنه يمكن أن نظهر و نمح كل الأوصاف التي قد تسيء إلى تاريخ البحرية الإسلامية عموما و الجزائرية بوجه خاص ، و لم يكن أمام الجزائريين آنذاك خيار ، فإما الاستنجاد بالإخوة بربروس ، وربط مصيرهم بالخلافة العثمانية ، بكل ما تحمله من معان ، أو أن تصبح الجزائر مستعمرة إسبانية لم يتوان الإسبان عن تنصير سكانها ، لأن الجزائريين قد تصوّروا ضعفهم تحت الاستعمار الإسباني ، فقبلوا بإرسال رسالة إلى الباب العالي . ولأننا تناولنا في بحثنا هذا بداية الوجود العثماني ، أو الفتح العثماني للجزائر ، الذي لم يكن يخفي أهدافه بتنصير كامل شمال إفريقيا ، كما أننا نستطيع القول أنه لولا التواجد العثماني ، لكان المشروع الإسباني قد تحقق دون شك ، لما رأيناه من حالة الجزائر في تلك الفترة.

— الظروف القائمة في الجزائر كانت تنذر بالسوء جراء الاعتداءات المتكررة من قبل الدول الأوروبية الطامعة في مقدرتها مع فورة الاستعمار و الاستحواذ على المناطق العربية بعد انهيار الحكم الإسلامي في الأندلس ، لذلك عمل القادة الأتراك على تأمين وصول المسلمين إلى المغرب العربي ، ومن ثم الدفاع عنها ضد هجمات الإسبان المتكررة ، وبالتحالف مع الدولة العثمانية للوصول إلى مبتغاها وتأمين ثغورها من تلك الهجمات ، والملاحظ على تلك السنوات التي عاشتها الجزائر تحت الحكم الاسمي للدولة العثمانية ، أنها قد أرست قواعد الدولة وجعلتها في مصاف الدول الكبرى من خلال سيطرتها على البحر المتوسط وقيام رياس البحر في فرض الضريبة البحرية على كل السفن المارة خلاله ، وتنظيم القوانين الشرعية والأحكام اللازمة لذلك في المجالات كافة ، استمرت على مدى 3 قرون بسطت خلالها الأمن و الاستقرار مع عدم التدخل في بلاد القبائل أو في المشاكل القبلية التي لا تجد لها حلاً ، وكذلك سيطرة الحكام على أمور الدولة الفتية.

— إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية أمدها بالدعم العسكري و أكسبها مع الوقت المهابة و المكانة الدولتين بتعيين خير الدين بيلرباي "أصبحت الجزائر إحدى الولايات العثمانية وأصبح لبایلر باي الجزائر بمقتضى هذا التعيين حق التصرف المطلق في الجزائر مع الإشراف على إقليم تونس و طرابلس ، لكن هذا

الإشراف لم يدم طويلا فقد ألغى العثمانيون نظام البايلر باي سنة 1588 م خوفا من أن يفكر هؤلاء الولاة في الانفصال فأصبحت الجزائر ولاية عادية يعين على رأسها باشا تغيره الأستانة كل ثلاث سنوات.

— انصرف الباشوات إلى جمع أكبر قسط من الأموال في انتظار مدة الولاية وبذلك انتقلت السلطة من أيديهم إلى ضباط الجيش الذين بدأ نفوذهم يتعاظم تدريجيا مع بداية سنة 1659 م وأصبح حكام الجزائر العثمانية يعينون من بينهم ضابطا برتبة أغا كحاكم فعلي على الولايات غير أن هذه المرحلة لم تطل مدتها و ذلك لأن الأغا لم يكن يستقر في منصبه أكثر من شهرين نتيجة للتنافس الشديد بين الضباط على الحكم. فكانت الجزائر خلال الفترة من 1518-1671 م إيالة عثمانية تتلقى المساعدة المالية و العسكرية من الخلافة و قد اهتم الحكام في هذه المرحلة بتوحيد الجزائر سياسيا و ذلك بالقضاء على الإمارات المستقلة وإخضاعها لسلطة مركزية مقرها مدينة الجزائر كما وجهوا جهودهم لتحرير موانئ البلاد من السيطرة الإسبانية وفرض سيطرة الأسطول على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.

— يعتبر عهد الاغوات عهد تسلط الجيش على الحكم، ويمثل أحلك فترة في تاريخ الحكم العثماني في الجزائر، ويعود السبب في قيام حكم الأغوات إلى سياسة الباشوات المالية فقد اتهم الجند "إبراهيم باشا" بنهب المعاشات والضرائب، وكان السبب المباشر في تجريد الباشا من سلطاته هو محاولته أن يستوفي العشر من المنح التي كان السلطان يرسلها لمساعدة الأسطول الجزائري، مما أثار رد فعل شديد دفع الديوان إلى اتخاذ قرار بإلغاء امتيازات الباشا وهي: دفع المعاشات تعيين القواد، ممارسة القضاء على أهل البلاد.

— دخلت الجزائر مرحلة جديدة مع بداية سنة 1671 م تميزت بتولي الدايات الأوائل الذين كانوا من طائفة الرياس السلطة، و هم ضباط البحر الذين نصبوا نظاما جديدا يتمثل في تعيين حاكم للبلاد يلقب بالداي، و قد التزم الدايات بحفظ الارتباط مع الدولة العثمانية باعتبارها خلافة إسلامية لكنهم سلكوا سياسة مستقلة فيما يتعلق بالشؤون الخاصة للبلاد.

— تميزت سياسة العثمانيين منذ بداية تواجدهم على أرض الجزائر إلى غاية النصف الأول من القرن 17 م بعدم التدخل في شؤون السكان الداخلية، مكنتية بالتعامل مع شيوخهم، و مرابطيهم الذين كانوا يقدمون نيابة عن السكان ما كان يفرضه البايلك من ضرائب متنوعة مقابل نيلهم العطايا و الترضيات.

— كان اعتماد الدولة في سد حاجياتها على الموارد البحرية من غنائم و كإتاوات سببا في تخفيف الضغط على الأهالي، لكن منذ أواخر القرن 17 م اتجهت سياسة الحكام إلى مد نفوذهم نحو الداخل

متبعين في هذا أسلوبا يعتمد على القوة، وعلى عدم مراعاة ظروف الأهالي، وتجاهل رأي العلماء الذين لم يتوقفوا على إزعاج السلطة بحجج تاريخية دينية، كونهم حماة الإسلام مدعين هذا بعيوب السلطة و المشاكل التي أضعفت المجتمع، و بما أنهم شكلوا خطر عليها أواخر القرن 17 م عملت السلطة على إبعادهم متخذة في هذا عدة إجراءات حتى تحد من نفوذهم.

— كان حكام الجزائر بعيدين عن فكرة التمرد عن إرادة السلطان العثماني، لكن التحول الذي حدث في طبيعة العلاقات العثمانية الأوربية في نهاية القرن السادس عشر و اختلال موازين القوى لصالح الأوروبيين كانت وراء ازدياد الضعف العثماني، ولاسيما اثر معاهدي استانبول (1091هـ/1670م) مع روسيا، والتي تخلت فيها العثمانيون عن بعض أقاليمهم. و معاهدة "كارلوفيتز" في (1112هـ/1699م) مع النمسا، و البندقية و بولونيا. نتج عن هذه التطورات ضعف الروابط بين نيابة الجزائر والسلطة العثمانية حتى أصبحت الجزائر شبه جمهورية عسكرية و أصبحت الايالة لا يربطها بالدولة العثمانية سوى رباط ديني ووازع أدبي و مما زاد في استقلالية الجزائر، أنّ الدايات أصبحوا يعتبرون أنفسهم كحلفاء للباب العالي، فقط بعد أن كانوا تابعين له، ووصلت الجرأة أن يقوموا بالاتصال بالدول الأوروبية دون اعتبار لمصلحة السلطنة. — بدون شك فإنّ عصر الدايات الأول هو عصر القوة العسكرية، والحاكم هو الذي يختار وزراءه بحرية تامة ويشكّل مجلس الدولة بأسلوبه الخاص .

— عهد الدايات في الجزائر لم يكن يختلف عن عهد الباشاوات، كلاهما يعكس فوضى الدولة العثمانية وبداية انهيارها المبكر، فقد كانت الدولة القويّة في العالم تسيطر على إمبراطورية واسعة وخاصة أنّها تسيطر على ضفتي البحر الأبيض تقريبا، وتتحكّم في مياهه.

— ويتضح مدى استقلال الجزائر عن الدولة العثمانية، عندما منع الداوي "علي شاوش" "إبراهيم باشا" المعيّن من الباب العالي من تولي مهمته في الجزائر بحجة تسببه في إثارة المشاكل، وتجسدت هذه الاستقلالية في نجاح "علي شاوش" في الحصول على لقب الباشا من السلطان بفضل الهدايا وسياسة الأمر الواقع.

— واجهت الجزائر الحملات الأوروبية و التحرشات الغربية لوحدها دون مساعدة فعلية من طرف الدولة العثمانية مهما كان شكلها، حيث لم يكن بمقدور السلاطين العثمانيين التصرف دون العودة إلى موافقتهم مع الدول الأوروبية، فاكثفوا في أغلب الأحيان في التعبير عن رفضهم فقط لا أكثر لتجاوزات الدول الأوروبية، و لأن الجزائر قادرة على حماية نفسها بنفسها بفضل قوة أسطولها البحري، حيث تمكنت السلطة العثمانية الحاكمة احتواء جميع الحملات العسكرية الأوروبية سواء بالقوة أو بفضل دبلوماسيتها

بإبرام المعاهدات و الاتفاقيات دون تدخل الباب العالي و مراعاة نوعية العلاقة مع تلك الدول إلا في حالات العداء المباشر، و دخول الولايات المتحدة الأمريكية الصراع إلى جانب الدول الأوروبية ضدّ الجزائر، جعل هذه الأخيرة تتجاوز الحوض الغربي للمتوسط إلى المحيط الأطلسي لتتعرّض للسفن الأمريكية تأدياً لها. و مجمل القول: ان السياسة الفرنسية تجاه الجزائر اختلفت عن سياسة إنجلترا كل واحدة حسب ظروفها الاقليمية، و المتوسطة.

- أنّ العلاقات الجزائرية الفرنسية في الفترة الحديثة ارتبطت بالتواجد العثماني، فكان لمعاهدة الامتيازات الأولى في سنة 1536 م الفضل في إرساء أسس العلاقات الثنائية وبموجبها حصلت فرنسا على امتيازات سياسية وتجارية في الجزائر لم تحظ بمثلها دولة أوروبية أخرى.

أنّ العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السادس عشر ميلادي عرفت فترات خصبة من التعاون والدفاع المشترك فرضته الظرفية التاريخية المتمثلة في وجود العدو المشترك "اسبانيا".

- أنّ العلاقات الجزائرية الفرنسية ميّزها سلم حذر خلال الفترة التي تغطي النصف الأول م القرن 17 م، حيث تأرجحت بين السلم والحرب، وعجزت فرنسا على انتهاج سياسة واضحة المعالم مع إيالة الجزائرية.

- أنّ اعتلاء الملك "لويس الرابع عشر" عرش فرنسا شكّل بداية مرحلة جديدة في علاقات البلدين حيث عمد إلى أسلوب القوّة ضدّ الجزائريين بتجريد لعدّة حملات عسكرية قصد إذلال الجزائر وإملاء شروطه عليها، إنّ سياسة العصا والقوّة التي انتهجها "لويس الرابع عشر" منيت بالفشل، وأدرك متأخراً أنّ هذا الأسلوب لا طائل منه فاضطرّ مُرغماً إلى انتهاج أسلوب الترضية والمسامحة

- أنّ الانجليز سعوا إلى ربط علاقات ود وسلام مع إيالة الجزائر بعد التقارب الذي تمّ بينهم وبين العثمانيين خلال القرن 10 هـ/16 م، وذلك خدمة لمشروعهم الرامي إلى التحكّم في التجارة الدولية في البحر المتوسط.

- أنّ العلاقات الجزائرية الانجليزية خلال القرن 10 هـ/16 م طبعها السلم والتعاون على المستوى الدبلوماسي، التجاري وتبادل الخبرات.

- أنّ العلاقات الجزائرية الانجليزية دخلت مرحلة جديدة مع مستهل القرن 11 هـ/17 م، حيث عرفت شداً وجذباً خاصة في النصف الأوّل من القرن المذكور متأثرة بالمستجدات الدولية المتمثلة في تصاعد وتيرة القرصنة البحرية أنّ علاقات البلدين مالت نحو السلم أكثر مع الربع الأخير من القرن 11 هـ/17 م.

__ سياسة إسبانيا اتجاه بلاد المغرب الإسلامي لم تكن لها خطة استعمارية منظمة وواضحة، لأن حكوماتها كانت قد خططت لوضع سلسلة من الحاميات على الساحل دون التوغل في الداخل، فالاحتلال الإسباني ظل مرتبطاً بتحسين القلاع التي يسيطر عليها مثل: وهران، المرسى الكبير، حلق الوادي، طرابلس رغم مدة الاحتلال.

__ كانت إسبانيا تسعى إلى السيطرة على بلدان المغرب الإسلامي، لكونها بوابة رئيسية نحو الإمارات الإفريقية جنوب الصحراء. حيث كانت تمرّ عبرها كميات ضخمة من السلع، فقد كانت إسبانيا ترغب في السيطرة على الطرق التجارية في إفريقيا، التي اشتهرت بتصدير بعض السلع إلى أوروبا، كالتبر، وريش النعام، و الجلود، وغيرها. كما أرادت إسبانيا السيطرة على المراكز التجارية، والمناطق التي تتميز بغنى إقليمها بالثروات الحيوانية، والمحاصيل الزراعية كعنابة، ووهران، واحتكار التجارة الخارجية للمنطقة. وجدت إسبانيا في القرصنة المغربية حجة لتغذية النزعة الصليبية، و ذريعة لمحاربة المسلمين في عقر دارهم، وفي هذا الموضوع يقول بروديل: ((حقيقة لقد كان هؤلاء المطرودين يعدون من بين أكثر أعداء إسبانيا ضراوة، بسبب فقدانهم لدورهم، وأملأهم، وقد وجدوا تسهيلات من أبناء عموماتهم الذين بقوا في إسبانيا".

- كما كان للبحرية الجزائرية دور هام في مقاومة الاحتلال الإسباني في منطقة المغرب الإسلامي، وحماية دويلاته الضعيفة، وتحرير موانئه التي كانت إسبانيا قد احتلتها. كما ساهمت في إلحاق بلاد المغرب الإسلامي بالدولة العثمانية، و تخليصها من الاسبان

__ مجمل القول أنّ العلاقات الجزائرية الاسبانية خلال القرن 11 هـ/ 17 م ظلّ يميّزها العداء والصراع بشكل عام وإن خفّ دويّ المعارك مقارنة بما كان عليه في القرن السابق، وبقيت قضية وهران والمرسى الكبير المحتلتين تشغل بال الحكام في الجزائر

__ سعت الدويلات الإيطالية، وأهمّها البندقية و جنوة، فقد كانت حريصة على إقامة علاقات طيبة، و سلمية، و تجارية مع دول الضفة الجنوبية لحوض البحر المتوسط في كل من أفريقيا، و آسيا متقدمة عامة عن إيطاليا في مطلع القرن 16 م / 10 هـ وتتنافس للفوز بالعلاقات الأقوى والأحسن مع هذه الأخيرة .

__ لم تكن علاقات الجزائر مع باقي بلدان المغرب العربي حسنة وودية كما يجب لعدّة ظروف تاريخية. فلقد كانت الجزائر تعتبر تونس إقليماً تابعاً لها بحكم أنها هي التي طردت منه الاسبان وضمّته إلى الدولة العثمانية التي جعلت تعيين باشاواتها من اختصاص بايلربايات الجزائر، وعلى هذا الأساس كانت الجزائر تحاول

باستمرار أن تجعل هذه التبعية حقيقة ملموسة. وباختصار فإن فترة حكم الدايات قد تميّزت بخصائص يمكن إيجازها فيما يلي:

- في عهد الدايات تحوّل جنود الإنكشارية من جنود مناضلين ومقاتلين ضدّ القوات المسيحية المناهضة للإسلام إلى رجال يبحثون عن الغنائم لأنفسهم وللحكام.
- اهتمّ حكام الجزائر في القرن 17م بجمع الثروة من العمليات الحربية في البحر، ولم يهتموا بتطوّر الدخل من الثروة الفلاحية وتوفير الغذاء للسكان.
- نتيجة لاعتماد الحكام على الحروب والصراعات الداخلية بين فئات الجيش فقد لقي العديد من الحكام مصرعهم على يد المجموعات المعادية لهم بحيث أصبحت قضية اغتيال المسؤولين عمليّة عادية.

— تراوح اقتصاد الجزائر في العهد العثماني بين الانتعاش في بداية القرن السادس عشر حتى القرن السابع عشر، بسبب قدوم المهاجرين الأندلسيين الذين أدوا أدوارا مهمة في زيادة إنتاج الأراضي الزراعية والصناعة والتجارة، ومن ثم التقهقر الذي أصاب الاقتصاد الجزائري بعد النصف الثاني من القرن السابع عشر حتى الاحتلال الفرنسي 1830 الذي كان سببه الأوبئة والطاعون وسنوات القحط التي تعرضت إليها البلاد، وتأخر طرق وأساليب الزراعة والصناعة التي لم تعرف كيفية تحويل المواد الزراعية إلى صناعية، وركود التجارة التي انعكست على جميع نواحي الحياة الاقتصادية.

تراوحت نسبة سكان الجبال والأرياف ما بين (90-95%) من إجمالي سكان الجزائر البالغ عددهم نحو 2-3 ملايين نسمة خلال المدة المبحوث، وهذا ما يؤشر لنا أن النشاط الزراعي بمختلف فروعه هو السائد، إذ كانت الطرق التقليدية التي عرفت الجزائر منذ آلاف السنين هي المستعملة في الزراعة، (المحراث والمنجل)، أما نظام الإرواء الزراعي فكان يعتمد على مياه الأمطار لعدم توفر الخزانات والقنوات الإروائية

— عند دراسة أوجه النشاط الاقتصادي للجزائر العثمانية يلاحظ الطابع الزراعي و الرعوي الذي تركز أساسا في الأرياف و أطراف المدن هذا في حين أن الحواضر تكاد تنفرد بالنشاط الحرفي لو لا وجود قدر قليل من نشاط حرفي متواضع يهدف إلى تلبية الضرورات المنزلية و يقوم على الاكتفاء الذاتي في الأرياف. و إلى جانب ذلك لعبت التجارة الخارجية و الداخلية دورا مهما داخل البنية الاقتصادية للمجتمع الجزائري عموما و البنية الحضرية بشكل خاص. و الجدير بالملاحظة أن العثمانيين قد عملوا جاهدين على الاحتفاظ بالأوضاع السائدة، فأبقوا في غالب الأحيان ملاك الأراضي و أقروا العشائر المتعاملة معهم على الأراضي

التي استحوذوا عليها بغية الحصول على تأييد شيوخ القبائل و مساندة رؤساء الزوايا لهم و لم يهتموا بصفة خاصة إلا بما تدره الأرض من إنتاج و ما توفره من جبايات.

— التطور الذي انتهت إليه وضعية الأرض من ناحية الإنتاج لم يكن نتيجة لسياسة معينة من طرف الحكام العثمانيين و إنما كان نتيجة تحول بطيء فرضته الأحوال الاقتصادية و ساهمت فيه الأوضاع الاجتماعية و تسببت فيه حاجة الحكام إلى موارد البلاد "إثر تزايد" الضغط الأوربي على السواحل و انفتاح البلاد على التجارة الأوربية.

— النظام الجبائي المطبق على الأراضي الفلاحية لم يخرج في أساسه عن مبدأ الجباية في الإسلام، و حاول الحكام رفع الإنتاج الزراعي بالالتجاء إلى الحملات العسكرية لإرغام السكان على تقديم المزيد من المحاصيل الزراعية و باحتكار تجارة الحبوب و تسخير الفلاحين بالأرياف لخدمة أراضي الدولة لإنتاج المزيد من المحاصيل، و قد أنشئوا لهذا الغرض العديد من المظاهر العامة في مراكز الحاميات و أقيمت المطاحن الهوائية بالقرب من المدن حيث كان قياد الباي لك يكلفون بإحصاء المحاصيل الزراعية، و مراقبة مواشي البايك، و تحديد مقدار الضرائب التي كانت تتقاضاه الدولة عن تلك المحاصيل و المواشي.

يبدو إن عدم الاهتمام بالجانب الاقتصادي من قبل الحكام العثمانيين باعتماد الوسائل الحديثة في الزراعة، قد سبب عدد من المشكلات التي طالت الفلاحين والتي بدورها أثرت سلبا على الإنتاج الزراعي والواقع التجاري بالوقت نفسه لارتباط الزراعة بالتجارة المحمية والخارجية، وبذلك كانت هناك إخفاقات اقتصادية امتدت طوال العهد العثماني.

— احتكار جزء من النشاط الصناعي مثل صناعة السفن و مسابك المدافع و مطاحن الدقيق و المحاجر، و هذه الصناعات الاستخراجية كانت تمثل مجموعة الضروريات التي تستند إليها قوة البايك، وقد أدى هذا الوضع إلى تدعيم سلطة الداي الاقتصادية و السياسية على هذا النحو، و احتكار الدولة للتجارة الخارجية و كذا اشتداد المنافسة الأوروبية للمنتجات المحلية إلى إفشال تحول البرجوازية الجزائرية إلى برجوازية تحويلية على غرار البرجوازية الأوربية التي وضعت الحرف تحت تصرفها و لم تضيق عليها مجال الاستثمار في هذا المجال.

— نظرا للمكانة السياسية و الاقتصادية التي أصبحت عليها المدينة في ظل الحكم العثماني، باعتبارها عاصمة البلاد و حالة الانتعاش الاقتصادي الناتجة عن انتشار الأمن و ازدهار نشاط الغزو البحري، استقبلت عناصر جديدة من بينها اليهود الأوروبيين، الذين وفدوا إلى الجزائر ابتداء من القرن السابع عشر

و استمر ذلك طيلة القرن الثامن عشر ميلادي من مختلف الأراضي الأوروبية كفرنسا وصقلية والأراضي المنخفضة و البرتغال و من المدن الإيطالية مثل :جنوه و البندقية، و قد برزت بصفة خاصة العناصر الوافدة من مدينة ليفورنه، و التي تميزت- عن البقية -بنفوذها المادي الناتج عن اشتغالها بتجارة الغنائم البحرية و اقتداء الأسرى.و قد لعب اليهود بالجزائر أدورا هامة في الاقتصاد و السياسة، و كانت مشاركتهم في الحياة العامة واسعة ونشيطة، لاسيما في العقود الأخيرة السابقة للاحتلال.

— حرص هذه الطائفة على استغلال هذه الأوضاع لصالحهم، فتفرغوا لتحقيق المكاسب الاقتصادية و المالية، و عملوا على الاحتكاك و التقرب من الفئة الحاكمة وموظفي الجهاز الإداري، إذ من المعروف أن استحواذ اليهود على احتكارات تجارية هامة كان نتيجة استمالتهم لبعض الحكام، باستعمال وسائل مختلفة :من هدايا ثمينة ومساعدات مالية و التجسس في الداخل و الخارج لحساب البعض فساهموا في نشر الفساد و الرشوة بين موظفي الإدارة، كما نجحوا أيضا في تهميش المنافسين من التجار المسلمين، و بذلك سيطر اليهود على مقاليد التجارة الخارجية، التي تعتبر عصبا اقتصاديا حساسا، و لعل ما ساعدتهم في ذلك حسن تعاملهم في الميدان التجاري وخبرتهم في المسائل المالية و علاقاتهم مع البيوت التجارية الأوروبية و الشركات العائلية اليهودية هناك، زيادة على معرفتهم باللغات السائدة في حوض البحر المتوسط.

وتمكنت هذه العناصر من فرض ثقافتها و عاداتها على حساب العناصر المحلية، واستطاعت الاستحواذ على مقاليد تسيير الطائفة، بل أنشأ هؤلاء الكثير من التنظيمات و الوظائف، الشبيهة لما عرفوه في الأندلس، الذين كان وضعهم يعكس بصدق وضع المدينة حتى قبل إلحاقها بالدولة العثمانية.

— أدى التنظيم المكاني للأسواق إلى تنظيم طائفي عرقي للتركيبة السكانية التي كانت تتكون من سيفساء بشرية أتت من كل مكان و استقرت بمدينة الجزائر لأسباب مختلفة منها الأمن و توفر فرص العمل ،و بالتالي تموضعه مختلف الطوائف في فضاءات معينة من المدينة حسب أهمية الحرفة التي كانت تمارسها ،فكان للسكان الأصليين قطاعهم الخاص و للجاليات الأندلسية أيضا قطاعهم الخاص بما فيها مسلمون و يهود الذين استقروا بالمدينة .

— تحكّم الأقلية العثمانية الحاكمة التي استأثرت بمقاليد الحكم والصناعات الكبرى، و تستحوذ على 1,5 مليون هكتار من الملكية العقارية إلى جانب ما تدر عليها عوائد الضرائب و التجارة و حسب البعض فإن الوجود العثماني بلغ دورة شرعيتها مع ظهور فكرة الحدود و السيادة الإقليمية و ذلك منذ القرن السادس عشر ،وقد تمكنت بعد فترة وجيزة من تكوين جيش بحري مكنها من السيطرة على غرب البحر الأبيض المتوسط حيث استمر هذا الوجود ثلاثة قرون.

__ بحلول القرن السابع عشر حلّ عصر جديد للبحرية الجزائرية، حيث أجمع مؤرخو الجزائر على أن هذه الحقبة التاريخية تمثل العصر الذهبي للبحرية الجزائرية. فخلال عشرية الأربعينات من القرن السابع عشر يكون أسطول البحارة قد وصل إلى أقصى تطوّره. فقد كان الجزائريون عندئذ يجوبون البحر الأبيض، من البحر الأدرياتيكي إلى مضيق جبل طارق بل إنهم اجتازوا إلى المحيط الأطلسي.

__ استطاعت الجزائر بفضل هذه القوة أن تسيطر سيطرة تكاد تكون كلية على الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط، فأصبحت الجزائر مثلما ذكره صاحب " تحفة الجزائر "، "...كانت لها اليد الطولي في البحر الرومي، وكانت بعوثها وغازيها كثيرة ما تسم الثغور الإفريقية بالخسف والدمار...".

__ بلغت الجزائر خلال النصف الأول من القرن السابع عشر أوجّ قوتها العسكرية والسياسية، والاقتصادية، بدليل استكمالها لوحدها الترابية (الجغرافية).

ساهمت عدة عوامل في ازدهار النشاط البحري للجزائر في العهد العثماني، و في القرن السابع عشر تحديدا و هنا نشير إلى طبيعة الأتراك كونهم أمة بحرية دون إغفال عوامل مهمة أهمها الموقع الهام للجزائر ثانيها المساهمة الكبيرة و الدعم التقني الذي قدمه الأندلسيون بعد قدومهم، و خبرتهم في صناعة السفن و التجارة، و غيرها من النشاطات التي أعطت دفعا كبيرا لهذا النشاط.

__ لا يمكن فصل العوامل الخارجية عن عنصر الامتيازات التي تحصلت عليها الدول الأوروبية عبر مختلف الفترات الزمنية، هذه الامتيازات التي ترى فيها بالعربي أنها جعلت من الموانئ العثمانية مفتوحة أما التجارة الغربية، تجسدت في توقيع العديد من المعاهدات التي تبدو غير متكافئة بين الطرفين عمليا. فأمام عرقلة نشاط التجار الجزائريين في الموانئ الأوروبية ترى حصول هؤلاء الأجانب على احتكار الصيد والنشاط التجاري، وتطورت الشركات و المؤسسات بالشرق الجزائري بالنسبة للفرنسيين و الإنجليز وبيوتات تجارية إسبانية في الغرب إلى جانب نشاط التجار اليهود.

__ عرفت عائدات البحرية من غنائم و أسرى تطورا و تزايداً في المداخل على خزينة الدولة أموال طائلة، و أصبحت البحرية الجزائرية من أهم القوى البحرية في المتوسط منذ النصف الثاني من القرن 16 م و حتى النصف الأول من القرن 17 م، و بدرجة أكبر في ثلاثينيات من القرن 17 م، و عرفت غنائم البحرية مراحل اختلفت عائداتها من مرحلة لمرحلة حيث نرى أن القرن 17 م يقسم لثلاث مراحل لكن بالرغم من تدني مستوى نشاط البحرية الجزائرية في نهاية القرن 17 م إلا أن عائدات سنوات الركود فاقت سنوات العطاء. و ذلك انعكاسا لأحداث سياسية عاشتها الجزائر نتيجة عدم الاستقرار في نظام الحكم طيلة القرن 17 م، مما أثر على الاستقرار العام عموما و النشاط البحري خصوصا.

— أن النشاط البحري العثماني الذي يسميه الغربيون "قرصنة" كان نوعاً من أنواع العمليات الحربية المشروعة، أو ما يمكن أن نطلق عليه تسمية "الغارات البحرية". فقد كان القباطنة العثمانيون يعملون ضمن إطار النظام الإداري العثماني، و من ثم فإن نشاطهم كان موجهاً لخدمة قضية الدولة العثمانية في حربها مع خصومها السياسيين في البحر المتوسط، هذا من جهة. و من جهة أخرى كانت الدولة العثمانية تمثل العالم الإسلامي و الخلافة الإسلامية.

— اعتمدت الجزائر في تحصيل مواردها الداخلية على الزكاة التي تفرض على الماشية بالنسبة للمسلمين و الضرائب بالنسبة لغير المسلمين، وهي بنسبة 11 %، كما فرضت الضرائب على الجلود والعسل والغنائم التي يكسبها البحارة، و كانت نسبتها بين 5-8 %، كذلك فرضت رسوم على الأموال المتروكة بدون وريث وعلى الميناء وأماكن الترف و اللهو، و هناك رسوم طوابع و غرامات مالية لم تخضع لنظام ثابت ومحدد، بل كانت تختلف من مرحلة إلى أخرى، وما عرف عن الحكر و هو الإيجار الذي يدفعه الفلاحون نتيجة استثمارهم الأراضي التي تملكها الدولة فضلاً عن ضريبة الخراج التي يدفعها أهل الدمة.

أما الواردات الخارجية للدولة فكانت تأتي عن طريق الغنائم التي يحصل عليها البحارة عبر المعارك البحرية التي يخوضونها، والهدايا والحمولات والجزية التي كان يدفعها الأوربيون، تضاف إليها المساعدات العثمانية، فضلاً عن الموارد التي تحصل عليها الدولة عبر التجارة من خلال الموانئ الجزائرية عند تصدير المنتجات الجزائرية إلى خارج البلاد، وكذلك عن بيع العبيد وفداء الأسرى.

— كانت الجزائر تشكو من نقص في الطرق و المرافق الضرورية لإيواء المسافرين الأمر الذي يمثل عائقاً في تنظيم التبادل التجاري عمى المستوى الخارجي، كما أن عدم تنوعها يجعل من غير المفيد نقل السلع لمسافات بعيدة و بيعها بالأسعار السائدة آنذاك، وان لا يتحمل التجار عناء نقلها، واعتمدت التجارة عمى أساس المقايضة في اغلب الأحيان.

— شكّلت العلاقات الخارجية للجزائر في العهد العثماني أهم مظاهر السيادة، و أبرز سمات الاستقلالية و القوة كما لا يخفى أن علاقات الجزائر و دول أوروبا خاصة المتوسطية منها تحكمت بها المصالح التجارية بين البلدين، و شكل النشاط البحري للجزائر خاصة في القرنين 16 و 17 م أهم الركائز الأساسية التي بلورت و حددت مظاهر العلاقات الخارجية للجزائر و أثرت على سير معاهدات التقارب و التباعد بينها و بين أمم أوروبا. بنت الجزائر سياستها الخارجية على مجموعة المبادئ الأساسية التي شكلت في جوهرها دستور الدولة فيما خص علاقاتها بالدول المجاورة لها، خاصة الأوروبية منها، فكانت الشخصية و السيادة

العامة للبلاد، وكرامة السكان و العباد أهم مبادئها، و مصلحة الدولة فوق كل اعتبار، و كرّست هذه المبادئ في إطار الولاء للدولة العثمانية.

— انعكس الاهتمام الكبير للعثمانيين بالجوانب العسكرية والسياسية سلبا على الجانب الاقتصادي يتجلى هذا من خلال عدم اهتمام العثمانيين بتطوير البنية التحتية لإيالة الجزائر فمثلا بالرغم من اهتمام العثمانيين بالبحر لا نجد للدولة أثرا في الموانئ الصالحة للتجارة، و كان ميناء الجزائر هو الميناء الوحيد الصالح للتجارة في حين كانت باقي الموانئ مهملة، و قد بدأ اهتمام الحكومة بميناء الجزائر منذ أيام "خير الدين"، و لكن الاهتمام لم يكن بقصد التجارة بل لإيجاد مرسى آمن لسفن للقرصنة، كما لم تتدخل الدولة لتحسين وسائل الزراعة البدائية، و لم تسهم في الوقاية من الأضرار الطبيعية، أ و الآفات الزراعية التي كانت تتعرض لها البلاد باستمرار، و من خلال دراسة التاريخ الاقتصادي للجزائر العثمانية تبرز حقيقة مفادها أنه لم يكن للعثمانيين سياسة اقتصادية واضحة المعالم من شأنها أن تنهض بالبلاد ن الخروج عن سياستها العامة.

كانت الجزائر تسك النقود بثلاثة أنواع هي: العملات الذهبية: السلطاني، و نصفه وربعه والمحجوب و نصفه وربعه. و العملات الفضية: الدورو الجزائري، و ريال بوجو وريال دريم و نصف ريال درهم و ثمن بوجو والموزونة. و العملات النحاسية: الصائمة وريال بسيطة وبعض قطع أخرى اقل منها.

— أهم ما ميز العملة الجزائرية في العهد العثماني، عدم استقرارها وصعوبة تحديد قيمتها بسبب تذبذب الأحوال الاقتصادية والسياسية في البلاد، مما ساعد على ندرة المعادن الثمينة، وتسبب في تدني القدرة الشرائية على الرغم من تدني أسعار الغلة، و زاد من ذلك رواج أعمال تزوير العملة، ولاسيما في بلاد القبائل، على الرغم من وجود عقوبة الإعدام حرقا التي كانت تطول الموزرين، والعقوبات الجماعية ضد القبيلة التي يثبت تورط أحد أبنائها في عمليات التزوير بعدما يكون محل بحث ولم تستطع الدولة الوصول إليه.

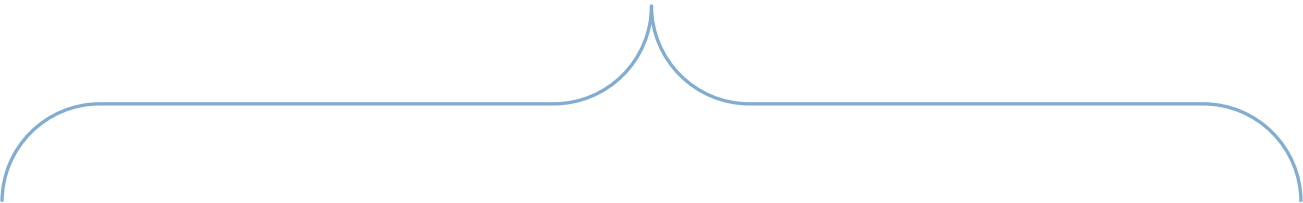
— تطوّرت إدارة الأوقاف في العهد العثماني، كنتيجة سياسية واقتصادية، وتقوم فكرة الأوقاف على مبدأ شرعي وعلى أسس قضائية ملزمة تركز عليها إدارة الأوقاف، وتلك الأسس تكون ملزمة من الأهالي، و يلتزم باحترامها الواقف والمستفيدون منه، ولكن تلك الأسس لم تكن محل احترام دائم، فقد يسيء الوكيل التصرف في الوقف، وقد تتدخل الدولة فتحول فوائد الوقف إليها، لذلك كان إهمال الأوقاف أو سوء إدارتها محل شكوى من المسلمين، و لاسيما علماء الدين.

— كانت الأوقاف الجزائرية تدار من قبل موظفين يدعون بالوكلاء أو (النظار) تعيّنهم السلطات العمومية ممثلة في الباشا أو السلطة القضائية ممثلة بالملقي ، ويتم اختيارهم حسب سمعة الشخص الاجتماعية من جهة تقواه أو نسبه ، وهذا التعيين ليس دائماً إذ يمكن نقضه حينما يظهر ما يخل بالوظيفة من سوء إدارة أو إهمال ، ويختلف الوكلاء في مسؤولياتهم حسب أهمية المؤسسة الوقفية المسندة إليهم من حيث عدد العقارات المحبسة ، وكانت وظيفتهم تشمل إصلاح وصيانة المرفق الحبس ودفع أجور العمال وجمع مداخيل المرافق من إيجار واستغلال.

— أهمية مؤسسة الأوقاف في الحياة الاجتماعية للجزائر العثمانية كانت خدمة للدين الإسلامي ، و التعليم كما كانت عنوانا للتضامن الاجتماعي والتقارب الأسري بين أفراد المجتمع وانتشال المعوزين و الفقراء من بؤسهم ، وهي حالة من التعايش المذهبي التي دعا إليها أئمة المذهبين الحنفي والمالكي.

كان اليهود و الأوروبيون يشكلون إحدى الفئات الاجتماعية في المدن الجزائرية خلال العهد العثماني و بالرغم من اختلاف أوضاعهم و أدوارهم فإنّ اليهود كانوا أكثر اندماجا في المجتمع الجزائري ، أما الأوروبيون المسيحيون فمعظمهم كانوا أسرى ، بينما القلة القليلة من الأحرار ، كان دورهم مقصورا على التجارة و مهام أخرى و كانت علاقات هذه الفئة بالسلطة تحددها المكانة التي كان يحتلها كل فرد من أفرادها.

— النظام الضريبي الذي وضعه العثمانيون في الجزائر لم يكن عشوائيا ، بل كان يخضع لعدّة قوانين و معايير موضوعية تختلف درجة احترامها و الالتزام بها من ظرف لآخر ، و من منطقة لأخرى. كانت الإدارة تراعي أثناء فرضها للضرائب وضع البلاد الاقتصادي ، كما أنها كانت تأخذ بعين الاعتبار طبيعة التضاريس و الأحوال المناخية لكل جهة من البلاد ، ووفقا لهذه المعطيات سنت الإدارة نظاما ضريبيا. و بحكم تنوع تضاريس الجزائر و مناخها و النشاط الاقتصادي الممارس فيها فإنّ من الطبيعي أن تكون الضرائب متنوعة هي الأخرى ، فهناك الرسوم ، و الغرامة ، و الزمة ، و المعونة ، و الضيفة و كان نوع من هذه الضرائب يفرض على القبائل حسب موقعها الجغرافي و طبيعة نشاطها الاقتصادي.



قائمة المصادر و المراجع



1_المصادر:

ا_ بالعربية:

- 1- الجامعي عبد الرحمن: شرح أرجوزة الحلفاوي، مخطوطة ، رقم 2521، المكتبة الوطنية الجزائرية، ق 10 أ.
- 2- الجديري ابن رقية التلمساني ، الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، مخطوط بالمكتبة الوطنية بالجزائر، ص 6، يحتوي هذا المخطوط على 16 ورقة، مكتوب بخط مغربي يوجد تحت رقم 1626 بقسم المخطوطات.
- 3- الجزائري عبد القادر ، الأمير محمد: تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، شرح وتعليق ممدوح حقي، دار اليقظة العربية، بيروت، 1964م.
- 4- الخطيب لسان الدين ، الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: محمد عبد الله عنان، ط 1، مكتبة الخانجي، القاهرة، ج 1، 1974.
- 5- الزهار أحمد الشريف ، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، نقيب أشرف الجزائري، تق و تع: أحمد توفيق المدني، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1974.
- 6- الزباني محمد بن يوسف ، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تق: المهدي بوعبدلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2004.
- 7- الضياف ابن أبي ، إتحاف أهل الزمان وأخبار تونس في عهد الأمان، ط 2، الدار التونسية والشركة التونسية للنشر والتوزيع، تونس، ج 2، تونس، د.ت.
- 8- القشتالي عبد العزيز ، مناهل الصفا في موالينا الشرفا، تح: عبد الكريم كريم، الرباط، 1971.
- 9- المزاري الآغا بن عودة ، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تح: يحي بوعزيز ، ج 1، دار الغرب الإسلامي ، د.س.ن.
- 10- الوزان الحسن بن محمد : وصف أفريقيا ، ترجمة : محمد حجي وآخرون، ط 2، دار المغرب الإسلامي، بيروت 1983، ج 2.
- 11- بن حمادوش عبد الرزاق ، رحلة بن حمادوش، المسماة: لسان المقال في البناء عن النسب و الحال، تق و تع: أبو القاسم سعد الله، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1983.
- 12- بن ميمون، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تح و تق : محمد عبد الكريم، ش، و، ن، ت، الجزائر.
- 13- خوجة حمدان بن عثمان ، المرأة، تع: محمد العربي الزبيري ، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1983م.

- 14- كاريخال مارمول : إفريقيا ، ترجمة : محمد حجي وآخرون ، ج2، دار نشر المعرفة ، الرباط 1988 .
- 15- مجهول: غزوات خير الدين وعروج، تصحيح وتعليق عبد القادر نورالدين، المطبعة الشعلبية الجزائر، 1335هـ/1989م.
- 16- مجهول، مذكرات خير الدين بربروس ،تر:محمد درّاج، ط1، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 1431هـ-2010م.
- 17- محمد ابن خلدون عبد الرحمن بن ،مقدمة ابن خلدون، دار الفكر للنشر والطباعة والتوزيع، ب يروت-لبنان-، 1424هـ/2004م.

ب_بالأجنبية:

1. Arvieux Laurent :**Mémoire du chevalier** d avieux ,édition ,Jean Baptiste Delespine ,Paris,1835.
2. (Th)Shaw: **voyage dans la régence d Alger ou description géographique**. Physique philologique. Etc.de cet état. Tard. De l anglais par g. mac. 2^e éd. Editions bous lama,Tunis,1980.
3. Dan Le Pierre : **Histoire de barbarie et de ses corsaires**,2eed, paris,1649.
4. De Grammont Henri : "**Relations entre la France et la régence d'Alger au 17 siècle .Les deux canons de Simon Dansa 1606-1628**", in R.Af, 1879, Alger, vol 23.
5. De Grammont Henri: **histoire d'Alger sous la domination turque 1515-1830**.e.E.le roux ,paris,1887.
6. Dan Pierre:**Histoire de la Barbarie et de ses corsaires** ,éditions, Pierre Rocolet ,Paris,1634 .
7. De Voulx (A): **Les archives du consulat général de la France soit les rapports commerciaux de Marseille avec l'ancienne régence d'Alger**, Bastide libraire ,editeur, Alger,1865 .

8. Eugene(P) :**Correspondance des deys d'Alger avec la coure de France 1579-1833** , TII, paris, 1889.
9. Haédo Fray Diego :**Histoire des Rois d'Alger**, traduit par H.D.D.E , Grammont Adolphe ,Jourdan,Libraire-éditeur,Alger,1881.
- 10.Haedo Fray Diego: **Histoire des rois d'Alger**, traduit par de Grammont ,et présente par rebbahi Abderrahmane, Alger grand livres edition,Alger,2004.
- 11.Rotalier C H ;Histoire des états barbaresque qui exercent la piraterie,2T,Paris, 1757 .
- 12.Tassy Laugier de: **Histoire du royaume d'Alger**, Henri du Sauzet Amsterdam.

2_ قائمة المراجع:

أ_بالعربية:

- 1- أباطة فاروق عثمان ،أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر و عالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر،دار المعارف،مصر،1986.
- 2- احميده عميراوي ،قضايا مختصرة في تاريخ الجزائر الحديث،دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع،عين مليلة ،1426هـ-2005م.
- 3- البطريق عبد الحميد و عبد العزيز نوار:التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا ،دار النهضة العربية ، بيروت 1973.
- 4- أتر عزيز سامح:الأتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية،تر :محمود علي عامر،دار النهضة العربية للطباعة و النشر،ط 1،بيروت-لبنان 1989 م.
- 5- التميمي عبد الجليل ،دراسات في التاريخ الموريسكي الأندلسي ،د.د.ن ،زغوان ،1993.
- 6- التميمي عبد الجليل: الولايات العربية ومصادر وثائقها ، ط 1، مركز البحوث والدراسات عن الولايات العربية في العهد العثماني ، تونس 1984.
- 7- الجمل شوقي عطاء الله ،المغرب العربي الكبير في العصر الحديث (ليبيا-تونس-الجزائر-المغرب)، مكتبة الأنجلوا المصرية،ط1، 1977.

- 8- الجيلاني محمد عبد الرحمان بن محمد ،تاريخ الجزائر العام (920 هـ/1514 م-1216 هـ/1830 م)، ج3، شركة دار الأمة للطباعة والنشر و التوزيع، 2014 م.
- 9- الدعيم محمود السيد ،تاريخ البحرية العثمانية حتى نهاية عهد الخليفة العثماني سليم الثاني 1574، منشورات اتحاد المؤرخين العرب ،القاهرة ،1994.
- 10- الزيري محمد العربي ، التجارة الخارجية للشرق الجزائري، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1972م.
- 11- الشلق أحمد زكريا ، العرب والدولة العثمانية من الخضوع إلى المواجهة 1516-1916م، ط1، مصر العربية للنشر و التوزيع، القاهرة، 2002 م.
- 12- الشيخ رأفت :تاريخ العرب الحديث ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، مصر 1994.
- 13- الصالح صبحي ،الحماية من القرصنة في نظر الشريعة الإسلامية، أعمال أكاديمية المملكة المغربية، الدورة 9، الرباط-المغرب-1986م.
- 14- الصلابي علي محمد ،الدولة العثمانية، عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار ابن الجوزي، القاهرة، 2001.
- 15- العربي إسماعيل:العلاقات الدبلوماسية بين دول المغرب والولايات المتحدة (1776-1816) الجزائر، ش.و.ن.ت. 1978.
- 16- العربي إسماعيل:تاريخ الرحلة والاستكشاف في البر والبحر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر، 1986 .
- 17- العسلي بسام ،خير الدين بربروس و الجهاد البحر 1470-1547م، دار النفائس، 1980-1400هـ، ط2.
- 18- العقاد صلاح ،المغرب العربي دراسة تاريخية الحديث و أوضاع المعاصرة ،(الجزائر تونس المغرب الأقصى)، ط5، مكتبة لأنجلو المصرية، القاهرة، 1985م.
- 19- المحامي محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق : إحسان حقي ، ط6 ، دار النفائس ، بيروت 1988.
- 20- المدني أحمد توفيق ،حرب الثلاثة مائة سنة بين الجزائر و اسبانيا ، ش.و.ن.ت، الجزائر، ط 1976، 2م.
- 21- المهدي شعيب محمد ،أم الحواضر في الماضي والحاضر، مطبعة البعث، قسنطينة، 1980.

- 22- الميسري عبد الوهاب ،موسوعة اليهود و اليهودية و الصهيونية، ج2 ، دار الشروق، بيروت، 1998م.
- 23- الملي مبارك ، تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، مكتبة النهضة الجزائرية، د.س.ن، ج3.
- 24- ايفا نوف نيكولاي،الفتح العثماني للأقطار العربية 1516-1574 م، تر و تح :يوسف عطا لله ، ط 2 ،دار الفراي،2004.
- 25- بديرة المازري ، " حياة اللهو و خدمات الخمارات و المقاهي و الفنادق في الجزائر في أوائل القرن الثامن عشر ميلادي"، منشور في أعمال ملتقى الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني، ج1 و ج2، زغوان، 1988م.
- 26- بلقاسم مولود قاسم نايت ،شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830، ط1، دار البعث، قسنطينة، 1985.
- 27- بن خروف عمار: العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر هجري /السادس عشر ميلادي، ج2، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، 2008م.
- 28- بن عبدا لله عبد العزيز: سلا أولى حاضرتي أبي الرقراق، منشورات الخزنة العلمية الصبيحة، ط2 ، سلا، 1989م.
- 29- بن عتو بلبروات ، المدينة و الريف، ط1، ج2، مؤسسة دار كوكب للنشر و التوزيع، 2016م.
- 30- بوحوش عمار ،التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997.
- 31- بوعزيز يحيى ،الموجز في تاريخ الجزائر- الجزائر القديمة والوسيلة والحديثة- ، ج2، دار البصائر للنشر والتوزيع، طبعة خاصة، الجزائر، 2009م.
- 32- بوعزيز يحيى: علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوربا (1500-1830) ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1980.
- 33- جبارة تيسير ، تاريخ الدولة العثمانية (1280-1924م)، جامعة القدس المفتوحة، فلسطين، 1436 هـ-2015م.
- 34- جلال يحيى ،تاريخ المغرب الكبير ، ج3 ، دار النهضة العربية ، بيروت 1981 ، ج3.
- 35- جوليان شارل أندري: تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي ، والبشير بن سلامة، ج2، الدار التونسية للنشر، 1983.
- 36- حساني مختار ، تاريخ الدولة الزيانية -الأحوال الاقتصادية و الثقافية-، ط1، ج2، دار الحضارة للطباعة و النشر و التوزيع، 2007م.

- 37- خروف عمّار ،العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، ط1، ج1، دار الأمل للنشر والتوزيع،الجزائر،1978م.
- 38- خلاصي على ،البحرية الجزائرية عبر التاريخ، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار"منشورات المتحف المركزي للجيش"، وحدة الرواية، الجزائر، 2007 م.
- 39- دحماني توفيق ،دراسة في عهد الأمان القانون الأساسي السياسي والعسكري للجزائر في العهد العثماني -وثائق تنشر لأول مرة-، الدار العثماني.
- 40- دحماني توفيق: دراسة في عهد الأمان ، دار العثمانية،الجزائر،2009.
- 41- درّاج محمد ،الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس (1512-1543م)،تصدير: ناصر الدين سعيدوني،ط1 ،الأصالة للنشر والتوزيع،1433-2012م.
- 42- رزوق محمد ،الأندلسيون و هجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 و 17م،ط3،إفريقيا الشرق، الدار البيضاء،1998.
- 43- زروال محمد ، العلاقات الجزائرية الفرنسية (1791-1830)،م.و.ن.ت، الجزائر ،2009.
- 44- سبنسر وليام ،الجزائر في عهد رياس البحر،تع :عبد القادر زبّادية ،دار القصبة للنشر ،الجزائر،2009م.
- 45- سعد الله أبو القاسم ، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر الحديث، ش.و.ن.ت،1981م،ط2.
- 46- سعد الله أبو القاسم ، شعوب وقوميات، المؤسسة الوطنية للكتاب ،1988.
- 47- سعد الله أبو القاسم ،محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث -بداية الاحتلال-،ط3 ،الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر ،1982م.
- 48- سعد الله أبو القاسم: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، المؤسسة الوطنية لكتاب الجزائر، 1986.
- 49- سعيدون ناصر الدين ،الملكية والجباية في الجزائر أثناء العهد العثماني،ط2،معدّلة ومنقّحة،البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، الجزائر.
- 50- سعيدوني ناصر الدين ، النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830)، طبعة ثالثة منقّحة ومعدّلة ومزيدة، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، الجزائر.
- 51- سعيدوني ناصر الدين ، دراسات في الملكية العقارية ، م و ك ، الجزائر ، 1986م.
- 52- سعيدوني ناصر الدين ، دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر -الفترة الحديثة و المعاصرة -،المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر ، ج 2،د.س.ن.
- 53- سعيدوني ناصر الدين ،الحياة الريفية بإقليم بمدينة الجزائر، دار البصائر، الجزائر،2012.

- 54- سعيدوني ناصر الدين ،الوقف في الجزائر في العهد العثماني من القرن 18 م إلى 19 م ، دار البصائر الجديدة للنشر و التوزيع ،الجزائر ،طبعة خاصة ،2013م.
- 55- سعيدوني ناصر الدين ،دراسات أندلسية-مظاهر التأثير الأيبيري و الوجود الأندلسي بالجزائر، دار الغرب الإسلامي،الجزائر،2003.
- 56- سعيدوني ناصر الدين ،دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية، ط 1 ،دار الغرب الإسلامي، 2000م.
- 57- سعيدوني ناصر الدين و المهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ -العهد العثماني -،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ،ج 4، 1984م.
- 58- شالر وليام ،مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر،تع:إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر، د.س.ن.
- 59- شوفالييه كورين ،الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر (1510-1541 م)،تر:جمال جمادة،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ،2007م.
- 60- شويتام أرزقي ،دراسات و وثائق في تاريخ الجزائر العسكري والسياسي الفترة العثمانية 1519-1830م ،دار الكتاب العربي ،2010م.
- 61- صالح عباد: الجزائر خلال الحكم التركي (1514-1830) ،دار هومة، الجزائر، 2004.
- 62- طمار محمد ،الروابط الثقافية بين الجزائر و الخارج، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ،الجزائر، 1983 م.
- 63- عامر محمود علي و محمد خير فارس: تاريخ المغرب العربي الحديث ،منشورات جامعة دمشق ، دمشق 2000/1999 ، ج 2.
- 64- عبد القادر نور الدين: صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، قسنطينة، مطبعة البحث، نشر كلية الآداب الجزائرية، 1965.
- 65- عبد الوهاب حسن حسني ، خلاصة تاريخ تونس، ط3، دار الكتب العربية، تونس، 1373 هـ.
- 66- عكاك عثمان ، موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2003 م.
- 67- عمورة عمار ،موجز في تاريخ الجزائر،دار ربحانة للنشر والتوزيع، ط 1، 2002 م.
- 68- عنان عبد الله ،نهاية الأندلس و تاريخ العرب المنتصرين،ط3،مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر،القاهرة،1966.

- 69- غطاس عائشة وآخرون ، الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها ، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة وثورة أول نوفمبر، 2007م.
- 70- غلاب عبد الكريم، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي -عصر الإمبراطورية-، ج 2، ط 1، دار الغرب الإسلامي، 1426هـ-2005م.
- 71- فارس محمد خير ، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، ط 2، مكتبة الشرق، لبنان، 1969م.
- 72- فكاير عبد القادر، الغزو الاسباني للسواحل الجزائرية و آثاره (910-1206هـ/1505-1792م)-دراسة تتناول الآثار السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية على الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر.
- 73- قنان جمال ، معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619-1830 م، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010 م.
- 74- قنان جمال ، نصوص و وثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500-1800، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1987.
- 75- قنان جمال، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصر، م.م. و.ج، 1994، الجزائر.
- 76- كاردياك لوي : المورسكيون الأندلسيون والمسيحيون ، تعريب وتقديم : عبد الجليل التميمي ، منشورات م ت م ، تونس 1983.
- 77- كوران أرجنت ،السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر ،تر:عبد الجليل التميمي ،منشورات الجامعة التونسية، 1970م.
- 78- كولان . ج . س: الأندلس ، ترجمة : إبراهيم خورشيد وآخرون ، ط 1 ، دار الكتاب اللبناني المصري ، مصر 1980 ، كتب دائرة المعارف الإسلامية 2.
- 79- محرز أمين:الجزائر في عهد الأغوات(1659_1671)،دار هومة للطباعة و النشر والتوزيع الجزائر 2008.
- 80- مروش المنور،دراسات عن الجزائر في العهد العثماني (القرصنة الأساطيل الواقع)، ج 2، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2009م.
- 81- مروش المنور،دراسات عن الجزائر في العهد العثماني -العملة، الأسعار و المداخل-ج 1، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2009.
- 82- مصطفى أحمد عبد الرحيم، في أصول التاريخ العثماني ،(ط 1 ، 1402هـ-1982م/ط 2 ، 1413هـ-1993م/ط 3 ، 1424هـ-2003م)، دار الشروق ،القاهرة.

- 83- معاشي جميلة ،الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري (من القرن 10هـ/16م إلى 13هـ/19م)،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،2015م.
- 84- منير حمزة وآخرون ،الجزائر في عهد الدايات، قسم العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تبسة.
- 85-مولود قاسم نايت بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل 1830
- 86- هلايلي حنيفي ،الحضور الأندلسي بالجزائر في العهد العثماني على ضوء سجلات المحاكم الشرعية ،جامعة سيدي بلعباس ،الجزائر.
- 87- هلايلي حنيفي ،أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني ،دار الهدى ،عين مليلة – الجزائر-،2009م.
- 88- وولف جون ب ،الجزائر وأوروبا 1550-1830، تر: أبو القاسم سعد الله، دار الرائد، الجزائر.
- 89- ياغي إسماعيل أحمد :الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ، ط2 ، مكتبة العبيكان ، السعودية 1988.

ب_بالاجنبية:

1. (A) Nettement: **Histoire de la conquête d'Alger**, paris,1556.
2. 1_Aperçu Le Pen :**Historique, Statistique et Topographique sur L'état d'Alger** ,2eme éd, CH, Pecquet, Paris, 1830.
3. (A.J) Charl: **Histoire de l'Afrique du Nord de coquette Arabe a1830**,T2,2^e édition Payot, Paris,1964.
4. (B).Moulay:**LES Captifs Algériens et L'Europe Chrétienne(1518-1830)**,paris, éd France empire,1984.
5. Belhamissi : Moulay **Alger l'Europe et la guerre secrète 1518-1830**, éditions a-n-e-.Alger.2009.
6. Benmansour Abdelhadi "**Alger VVI^e-XVII Siècle**",journal de jean baptiste Grammaye, Paris,1998.

7. Belhamissi Moulay: **Histoire de la marine Algerienne 1516-1830** ENAL, Alger, 1983.
8. Braudel Ferand : **le Méditerranée et le Monde méditerranéen à l'èpoque de Philippe2**, 2T, 2eme édition, librairie Armand colin, Pari 1966,T2 .
9. (C) Chevalier: **les tentes premières Années de l'états d'Alger: 1510-1541** ,Alger 1988.
10. (G.van).Kriken : **Corsaires et marchands.les relations enter Alger et les pays- bas** (1604-1830), Edition Bouchéne, paris,2002.
11. (L).La caste : **La marine Algériennes ou les turcs**, paris, éd Géographie Maritime et coloniale,1931.
12. (O) Dapper: **Description de l'Afrique contenant les noms et la situation** avec des carte des états des provinces et des villes, Traduite de Flamand, Wolfgang, Amsterdam 1686.
13. (Y).Bouabba: **Les Turcs au Maghreb central du 16ème au 19ème Siècle**, S.N.E.D, Alger.
14. (G) Fisher: **légende barbaresque Guerre Commerce et Piraterie en Afrique du Nord de 1415 à1830**, Trad et annoté par F.Hellal, o.p.u, Alger 2000.
15. (P). Bayer: **la vie quotidienne a Alger a la ville de l'intervention française** hachette,1963.
16. J.Hefele Dr CH: **le Cardinale XIMENES et L'èglise d'Espagne** ,traduit par :M.L'abbè A.sisson et M.L'abbè A.crambon,2eme édition ,J.B. pèlagaud Imprimeur-libraire,Paris1860.

17. Chaillou.LM. :**texte pour servir à l'histoire de d'Algérie au XVIIIème siècle** ,1979.
18. Champ Pierre Grand :**Une mission délicate en barbarie ,jean baptiste salvago**,in:R.T.1937,2eme partie.
19. Champ Pierre Grand: **Auteure de Consulat de Franc a Tunis(1577–1881)** imprimerie J. aloccio, Tunis, 1943.
20. Cresti:"**Quelle réflexion sur la population et la structure social d'Alger a période turque XVI–XIX**"in J.A Avril–Juin, 1922.
21. G.P: **The present state of Tangier in a letter to his grace the lord chancellor of Ireland and one of the lords justices there**, to which is added the present state of Algeria, H. Herring man, London, 1676.
22. Grammont (H.D): **Correspondance des consuls d’Alger (1690–1742)**, Alger A. Jourdan paris le roux,1890
Grammont HD **Relation entre la Frances et la régence**.
23. Kaddache Mahfoud:**L'Algérie Durant la période Ottoman**,O.P.U, Alger,1991.
24. Kieken Van .G:**les relations entre Alger et les Pays–Bas1604–1830**,Edions Bouchene Paris,2002.
25. Lamouche.C.:**historique de la Turquie depuis les origines jusqu'à nous jours**,Payot,Paris,1953.
26. Mascarenhas :**Esclave a Alger (1621– 1624)**,trad., du portugais et présente par P.teyssier,2e éd ,Editions chand igné, paris ,1999.
27. Merouche Lemnouar: **Recherches sur L'Algérie à l'poque Ottomane**,v2,La course mythe et réalité,édition Bouchene,France,2007

- 28 Monleau Jean :**Les états barbaresques**, paris,1964.
 29 Monleau Jean:**Les états Barbaresque** ,paris,1964.
 30 Pichot Amédée :**CHARLES–QUINT, chronique de sa vie intérieure et sa vie politique**, FURNE et Ce libraire–éditeur ,Paris 1854.

3_المقالات والدوريات:

أ_بالعربية:

- 1- التميمي عبد الجليل: الخلفية الدينية للصراع الإسباني- العثماني على الإيالات المغربية في القرن السادس عشر، في م ت م ، جانفي 1978 ،تونس 1978 ،العدد 10-11.
- 2- الجديري محمد بن محمد بن عبد الرحمن ابن رقية التلمساني: الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة ،نشر سليم بابا عمر في م ت ح م ،الجزائر، 1967 م ،عدد3 .
- 3- الدغيم محمود السيد: أضواء على تاريخ البحرية العثمانية حتى نهاية عهد الخليفة سليم الثاني ، مقال في مجلة الحضارة الإسلامية وعالم البحار (بحوث ودراسات) ، منشورات اتحاد المؤرخين العرب ، القاهرة 1994.
- 4- الصباغ ليلي ، ثورة مسلمي غرناطة عام 976هـ أواخر 1568م و موقف الدولة العثمانية منها،م جلة الأصالة،العدد27،سبتمبر-أكتوبر،1975.
- 5- المجلة التاريخية المغربية، تونس،1976، عدد5.
- 6- المشهداني مؤيد محمود حمد و سلوان رشيد رمضان ،أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني 1518-1830 ،مجلة الدراسات التاريخية و الحضارية ،المجلد5 ،العدد16،جامعة تكرت ،جمادى الآخر 1434هـ/نيسان 2013م.
- 7- المعلوف أمين ، شيء عن الجندية، مجلة المقتطف عدد 5، السنة،39.
- 8- أمين محمد ،القرصنة و شروط افتداء الأسرى بالجزائر في القرن الثامن عشر، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، 21،مؤسسة التميمي للبحث العلمي،والمعلومات،زغوان،تونس،سبتمبر،2000م.
- 9- حورية شريد ،" زخارف شجر اليهود في الفن الجزائري أثناء العهد العثماني"، حوليات المتحف الوطني للآثار ،عدد11 ،2002م.

- 10- سعد الله أبو القاسم: "من أخبار شعبان باشا داي الجزائر"، مجلة التاريخ، العدد 18، 1985.
- 11- سعيدوني ناصر الدين، "الأندلسيون (المورييسكيون) بمقاطعة الجزائر (دار السلطان) أثناء القرنين السادس عشر و السابع عشر"، حوليات جامعة الجزائر، العدد 7، الجزائر، 1993.
- 12- سعيدوني ناصر الدين، الوقف ومكانته في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بالجزائر أواخر العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي، في مجلة الأصالة، ع 89-90، الجزائر، 1981م.
- 13- سعيدوني ناصر الدين، ملكية الأراضي في الجزائر أواخر العهد العثماني و تأثيرها على البنية الاجتماعية بالريف، في أعمال ملتقى الثالث للتاريخ و حضارة المغرب، ج1، د.م.ج، الجزائر، 1983.
- 14- سعيود إبراهيم: القرصنة المتوسطية خلال الفترة الحديثة، مجلة الواحات لبحوث و الدراسات، المطبعة العربية، المركز الجامعي بغرداية، جوان 2011 م.
- 15- شهيل جمال الدين، ملامح من شخصية الجزائر خلال القرن 11هـ/17م، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، العدد 13 (2011): 137-158، قسم التاريخ، المركز الجامعي، غرداية، الجزائر.
- 16- شويتام أرزقي، الصراع الفرنسي الانجليزي وأثره على الجزائر، جريدة الشعب، عدد 8640، الجزائر، 21 أوت 1991.
- 17- غطاس عائشة، سجلات المحاكم الشرعية و أهميتها في دراسة التاريخ الاقتصادي و الاجتماعي بمجتمع مدينة الجزائر في العهد العثماني، مجلة إنسانيات، مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية و الثقافية، العدد 3.
- 18- قنان جمال: "عنصر في الأزمة الجزائرية الفرنسية 1827 م"، في مجلة التاريخ، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، 1984 م، عدد خاص.
- 19- لنوار صابرينة، آليات تسيير مؤسسة بيت المال في الجزائر خلال العهد العثماني، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية و الإنسانية، جامعة بابل، العدد 26، نيسان، 2016م.
- 20- مبارك زكي: الجهاد البحري في الغرب الإسلامي، المفهوم الإسلامي والمفهوم المسيحي، رحلة البحث لعلمي السنة الإحدى والثلاثون، جامعة محمد الخامس، الرباط 1998، عدد 45.
- 21- مهدية طيبي، نموذج من العائلات الأندلسية في مدينة الجزائر في الفترة العثمانية القرنين (17-18م) -من خلال سجلات المحاكم الشرعية وثائق الأرشيف الوطني الجزائري-، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر 2، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية -قسم التاريخ-، العدد 14، الجزائر، 1433هـ/2012م.

- 22- هلايلي حنيفي ،التنظيم العسكري للبحرية الجزائرية في العهد العثماني،م جلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية،ع24،دار الهدى للطباعة،عين مليلة،الجزائر،2007 م.
- 23- وايز جيروم ب ،المغرب و قراصنته المغاربة في القرن السابع عشر،تع: طارق العسكري وعبد الهادي التازي، في:مجلة البحث العلمي ،جامعة محمد الخامس ،السنة 16 ، ع29-30 ،الرباط-المغرب-،1399هـ/1979م.

ب_بالاجنبية:

- 1_ (A).De Voulx:"**la marine de la régence d'Alger**", in R.Af.,1869,n⁰13.
- 2_Braudel Fernand: **Les Espagnoles et l'Afrique du Nord de 1492- 1577**,in R..Af , Alger 1928,T19.
- 3_ (E) Merit: "**Un mémoire sur Alger par pétris de la Groix 1695**",in, A.I.E.O,1958, n⁰11p.
- 4_(G) Delphin:" **Histoire des pachas d'Alger de 1515 à1745** " in J.A avril juin 1922 , n⁰66.
- 5_(G) Delphine : "**Histoire des pachas d'Alger de 1515 à1745** " in R.Af .66, 1925.
- 5_ (H.D) Grammont:"**Documents algériens**" in R.Af., 1885, n⁰29.
- 6_(J) Sauvaget:" **Une description de Cotes barbaresque au XVIIe siècle**" in R.Af., 1949, n93.
- 7_(R) Mantran: " **Quelques apports ottomans dans les capitales des odjaks l'ouest**" in R. H. M , 1993, n⁰ 69-70.
- 8_(J) Casenove:"**Contribution à L'Histoire du Viel Oran** ", in R.Af. 1925 , n66.
- 9_(CH.D)Veronne : "**Un Faux captif à Alger en 1782**" , in R.H.M, janvier 1976, n°5.

10_(M).Fontenay:" **le Maghreb barbaresque et éclairage méditerranéen aux XVI – XVI siècle**" ,in C.T.157-185,1991.

11_(S) Boubaker:"**la peste dans les pays du Maghreb. Attitudes face au fléau et impacts sur les activités commerciales XVI-XVIII^{ème} siècles**" in R.H.M , 1995, N79-80.

12_1664", in R.Af, Alger 1873, vol 17.

13_Med Amine:" **Conditions et mouvements des échanges de la Régence ottomane d'Alger**" in R.H.M ,1993, n⁰ 69,70.

14_Louba Belarbi:"**Le régime Libéral des Capitulation de cadre juridiques de l'expansion du capitalisme Européenne dans le marché da l'empire Ottoman au 19^e Siècle**" in C.M.H. 7,juin 1990.

15_Pierre Boyeri: "**Le Problème kouloughli dans la Régence d'Alger**" in R.O.M.M .Aix-en Provence , 1970 ,n⁰ spécial.

16_Primaudie Elie:**Documents inidits sur l'Histoire de l'Ocupation Espagne en Afrique (1506-1574)**, Lettre du Comte d'Alcaudète à sa Majestè, Oran 12 aout 1536 in R .Af Alger 1877, T 21.

17_d'Alger au XVII sicles", 4er Parti ,in ,R.Af, 1879, n⁰28.

18_Kuran.E:" **La lettre du dernier dey d'Alger au grand – vizir de l'empire ottoman**", in, R .Af, 1952, n^o 96.

19_Sacerdati Albert :"**L'esclavage Chrétien en Barbarie au XVIII Siècle**" in .R.Af , 1949.

4_الرسائل الجامعية

- 1- الصغيري سفيان ،العلاقات الجزائرية العثمانية خلال عهد الدايات في الجزائر،(1671-1839 م)، مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية و العلوم الإسلامية، جامعة الحاج لخضر، باتنة،(1432-1433 هـ/2011-2012 م).
2- العايب كوثر ،العلاقات الجزائرية التونسية خلال عهد الدايات (1711-1830)،مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير تخصص التاريخ الحديث و المعاصر ،كلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية ،قسم العلوم الإنسانية ،جامعة الوادي ،2013-2014م.
- 3- القشاعي فلة ،الصحة والسكان في الجزائر في العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي 1518-1871م،دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر ،2003-2004.
- 4- بلقاسم قرياش ،الأسرى الأوروبيون في الجزائر خلال عهد الدايات (1671-1830)،دكتوراه في التاريخ الحديث و المعاصر ،جامعة مصطفى اسطمبولي ،كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية ،قسم العلوم الإنسانية ،معسكر ،2015-2016م.
- 5- بليل رحمونة: العلاقات التجارية للإيالة الجزائرية، مع بعض موانئ البحر المتوسط، مرسيليا، ليفورنا(1700-1827م)، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، الحديث، جامعة الجزائر.
- 6- بن كردرة زهية ،أسواق مدينة الجزائر من الفتح الإسلامي إلى العهد العثماني من خلال المصادر- دراسة تحليلية- ،رسالة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية ،جامعة الجزائر ،كلية العلوم الإنسانية ،قسم الآثار ،1999-2000م.
- 7- حفناوي رشيد ،الطرق و القوافل التجارية بين الحواضر المغاربية و أثرها الحضاري في العهد العثماني خلال القرنين 11-12هـ،17-18م،ماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر، جامعة قسنطينة،2013-2014م.
- 8- حماش خليفة ، العلاقات بين الإيالة الجزائرية والباب العالي من سنة 1798 إلى 1830 م، مذكرة ماجستير، كلية الآداب - جامعة الإسكندرية،1988م.
- 9- زيتوني إسحاق ،البحرية الجزائرية و تأثيرها في العلاقات الجزائرية الفرنسية السياسية 1519-1800 م ،رسالة ماجستير في التاريخ الحديث ،المركز الجامعي بغرداية،1432 هـ-2011/1433-2012 م.
- 10- شويتام أرزقي ،المجتمع الجزائري و فعالياته في العهد العثماني 1519-1830م،دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر،2006-2007م.

- 11- صالح كليل ، سياسة خير الدين في مواجهة المشروع الاسباني لاحتلال المغرب الأوسط، رسالة ماجستير تاريخ حديث معاصر ،جامعة باتنة، 2007.2006.
- 12- غطاس عائشة ،الحرف و الحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1800م،مقاربة اجتماعية - اقتصادية، دكتوراه دولة في تاريخ، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 2002.
- 13- غطاس عائشة ،العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السابع عشر 1619-1694 م،رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1984 م.
- 14- فاطمة دخية ،الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، دكتوراه في جامعة بسكرة، 2014-2015م.
- 15- فكاير عبد القادر : الصراع الجزائري الإسباني في الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرن 16 م ، رسالة ماجستير ، معهد التاريخ ، جامعة الجزائر ، الجزائر 2000/2001.
- 16- مقصودة محمد ،الكراغلة و السلطة في الجزائر خلال العهد العثماني (1519-1830 م)،جامعة الجزائر، رسالة ماجستير، جامعة وهران، 1435 هـ- 2014 م.

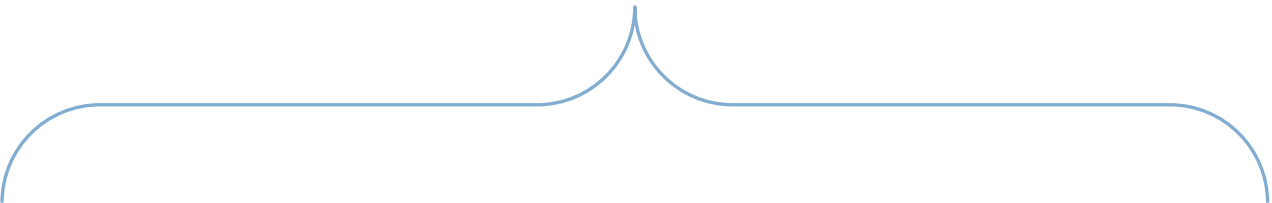
5_المعاجم:

أ_بالعربية:

- 1_حلاق حسان والصباغ عباس:المعجم الجامع في المصطلحات الايوبية ، والمملوكية، والعثمانية ذات الاصول العربية ، والفارسية ،والتركية ،ط1 ،دار العلم للملايين ، بيروت ، 1999م.

ب_بالاجنبية:

- 1_Dubois Claude , et autres:Le **petit larousse illustre** ,edition larousse ,Paris ,2007



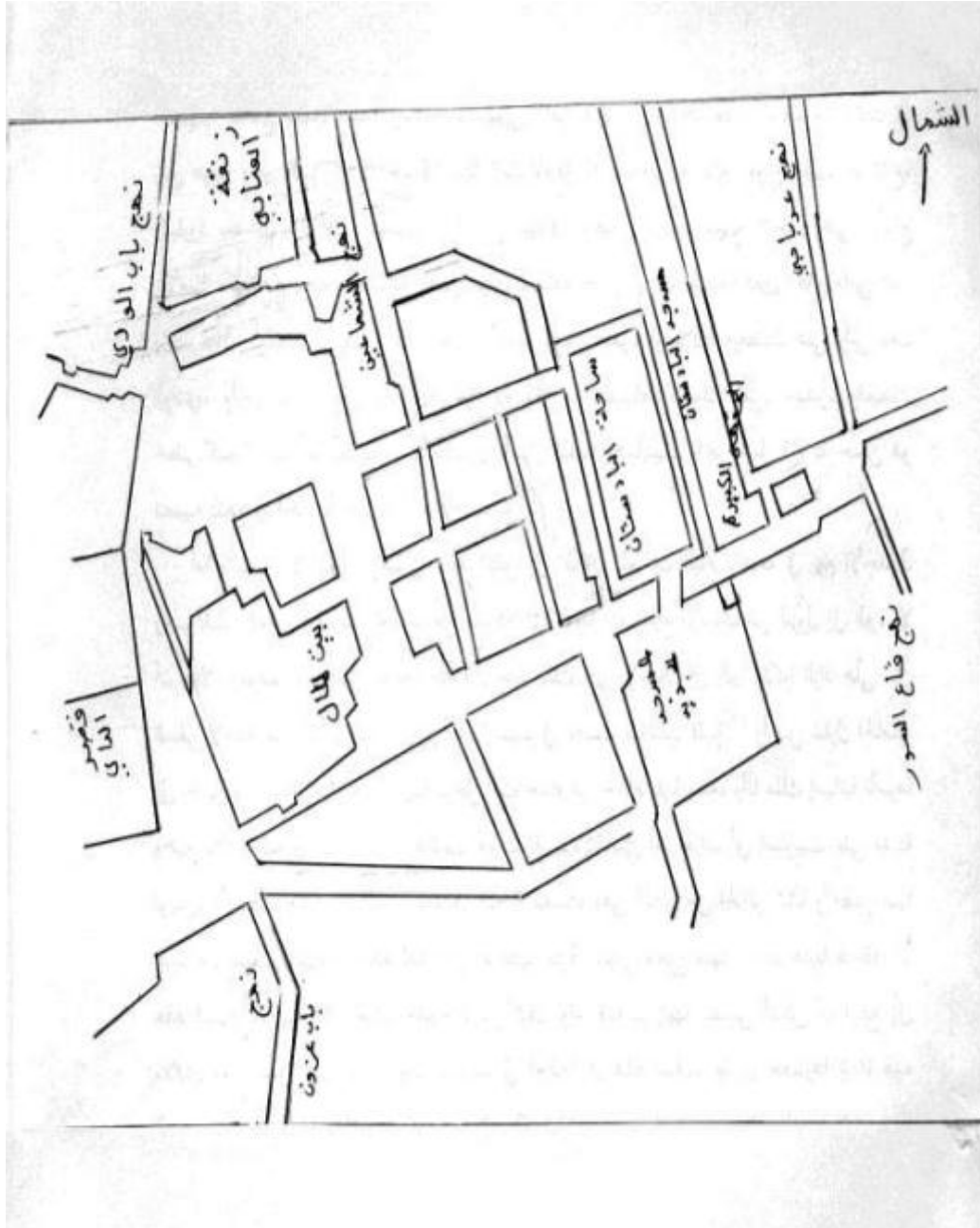
الملاحق





¹ مؤيد محمود حمد المشهداني و سلوان رشيد رمضان ، أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني 1518-1830 ، مجلة الدراسات التاريخية و الحضارية ، المجلد 5 ، العدد 16 ، جامعة تكرت ، جمادى الآخر 1434 هـ / نيسان 2013 م. ص 444.

الملحق رقم 02: مخطط يوضح موقع سوق البادستان في مدينة الجزائر¹



¹ محمّة عائشة، المرجع السابق، ص 178.

الملحق رقم 03: ميناء مدينة الجزائر خلال القرن السابع عشر ميلادي¹



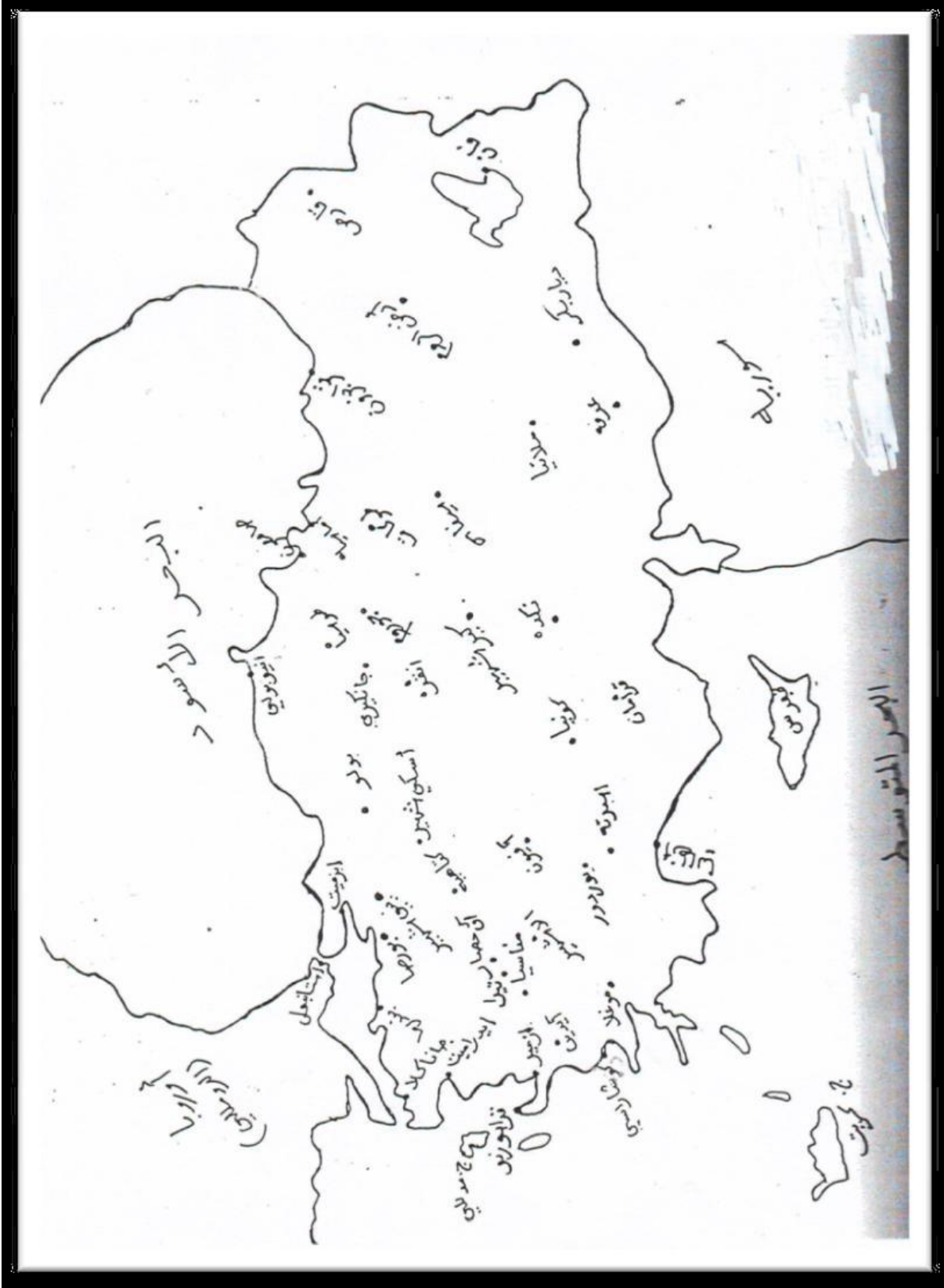
¹ عطلي محمد الأمين، المرجع السابق، ص 168.

الملحق رقم 04: خريطة توضح المدن الساحلية لضفتي غرب البحر المتوسط خلال القرن 17م¹



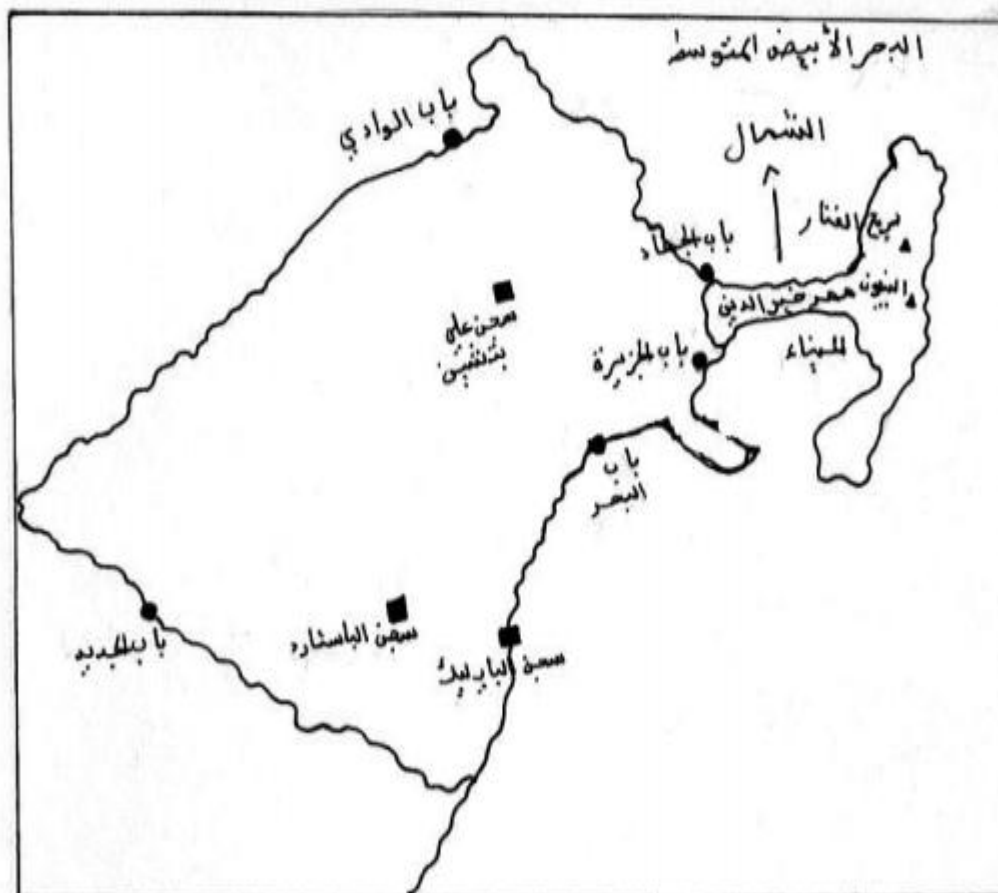
¹ أنظر الموقع الإلكتروني، www.gallica.bnf.fr، يوم 2015/09/25، الساعة 00:15 د.

الملحق 05 : خريطة بأسماء أهم مدن الأناضول التي كان يأتي منها الجند المتطوعون للجزائر¹



¹ خليفة حماش ، العلاقات بين الإيالة الجزائرية والباب العالي من سنة 1798 إلى 1830 م، مذكرة ماجستير، كلية الآداب - جامعة الإسكندرية، 1988م، ص244.

الملحق رقم 06: خريطة توضح موقع بعض سجون الأسرى في مدينة الجزائر في العهد العثماني¹



- مفتاح للزينة:

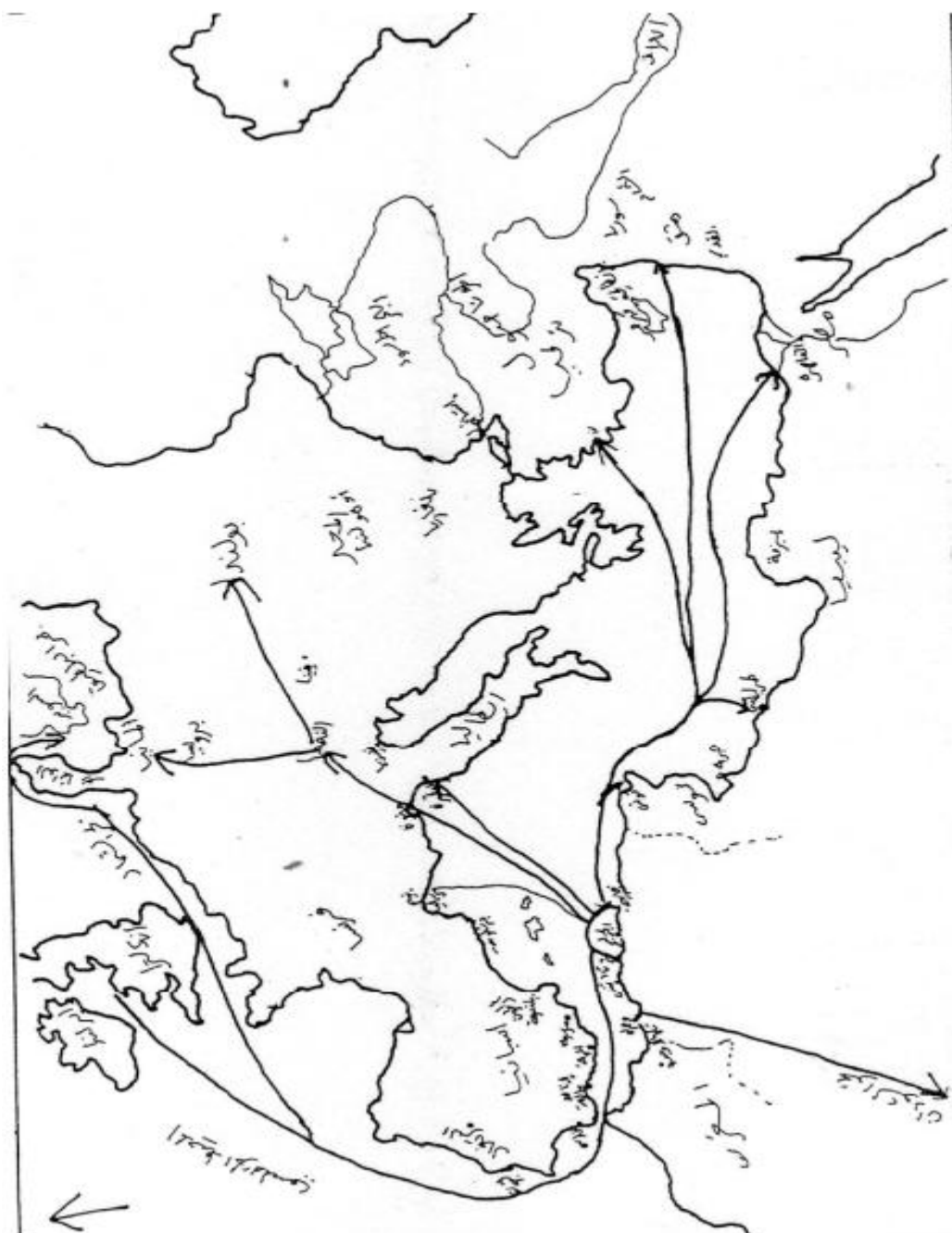
■ مسجون الأثري.

● أبواب المدينة

▲ أُبراج

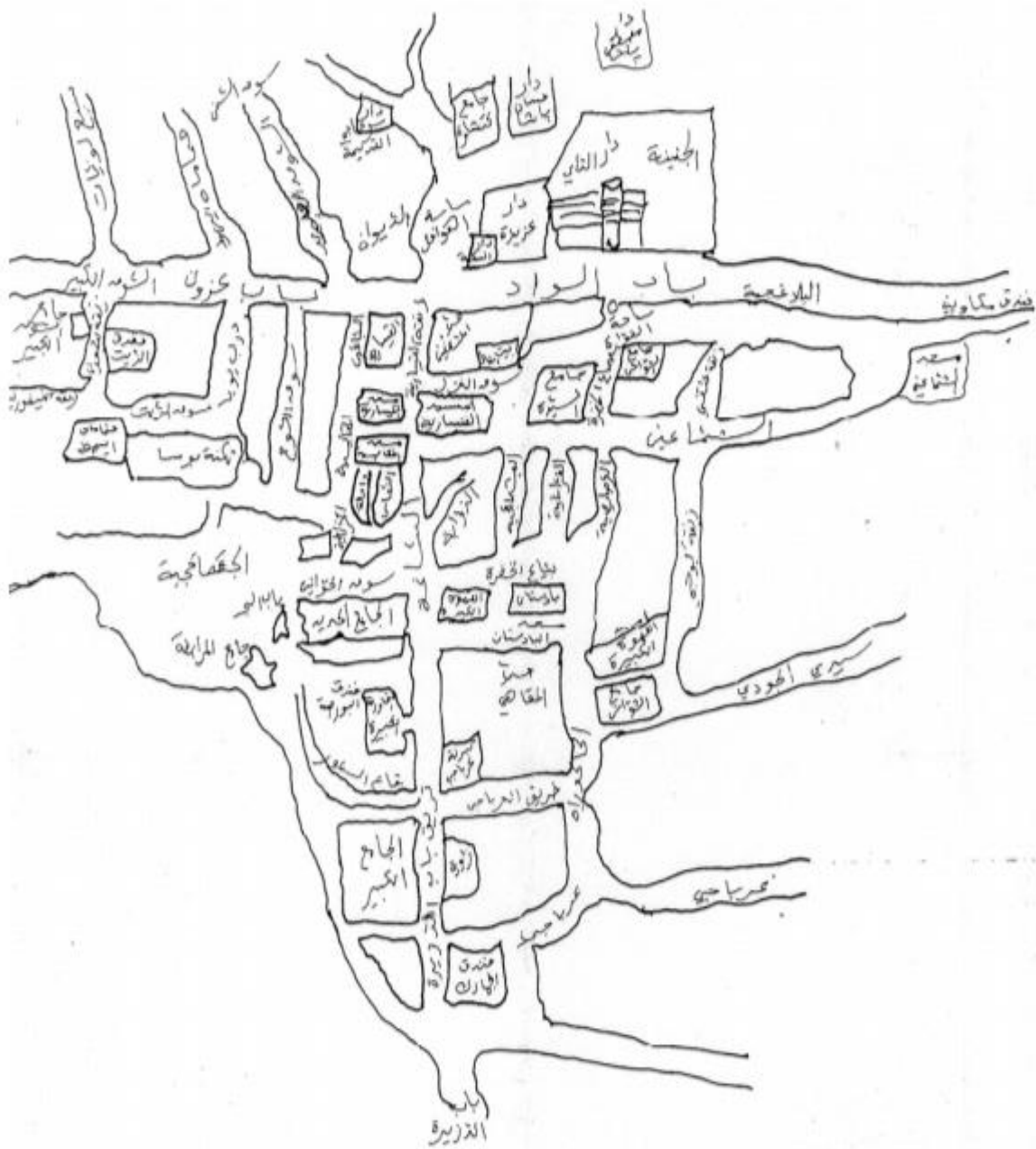
¹ محمّة عائشة، المرجع السابق، ص 179.

الملحق رقم 07 :خريطة توضح العلاقات التجارية بين مدينة الجزائر و مدن البحر الأبيض المتوسط و أوروبا في العهد العثماني¹



¹ زهية بك كردرة، المرجع السابق، ص 224.

الملحق رقم 08: توزيع الأسواق بمدينة الجزائر¹



¹ زهية بك كردرة، المرجع السابق، ص 226.

الملحق رقم 09: قائمة بأسماء المبعوثين الكنسيين في الجزائر في النصف الثاني من القرن السابع عشر¹

اسم المبعوث الكنسي	Vicaire apostolique	مدة الإقامة بالجزائر
فيليب لوفاشي	Philippe Le Vachet	1662-1650م
بينيامين هويجي	Benjamin Huigier	1663-1662م
جون لوفاشي	Jean Le Vacher	1683-1667م
ميشال مونتماسون	Michel Montmasson	1688-1685م
جيوسيبي جيانولا	Guiseppe Gianola	1692-1689م
ايغون لورانس	Yvon Laurence	1705-1693م

¹ محمّة عائشة، المرجع السابق، ص171.

الملحق 10: بايلربايات الجزائر¹

تاريخ التولية	
950هـ-1544م	حسن باشا بن خير الدين
958هـ-1551م	حسن آغا -مؤقتا-
959هـ-1552م	صالح رايس
963هـ-1556م	حسن قورصو
964هـ-1557م	حسن باشا بن خير الدين (ثانيا)
969هـ-1562م	أحمد باشا بستانجي
969هـ-1562م	القائد يحيى -مؤقتا-
969هـ-1562م	حسن باشا بن خير الدين (ثالثا)
974هـ-1567م	محمد بن صالح رايس
976هـ-1568م	علج علي
979هـ-1572م	أحمد عراب
981هـ-1574م	القائد رمضان
985هـ-1577م	حسن فنزيانوا
990هـ-1580م	جعفر باشا
990هـ-1582م	القائد رمضان -مؤقتا-
990هـ-1582م	مامي الأرنأؤوط
991هـ-1583م	حسن فنزيانو (ثانيا)
993هـ-1585م	محمد مامي عتيق -مؤقتا-

¹ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، مرجع سابق، ص 143.

الملحق 11 باشاوات الجزائر: (995- 1069 هـ/ 1587-1659 م)¹

تاريخ التولية	
995هـ-1578م	دالي أحمد باشا
997هـ-1589م	خضر باشا
999هـ-1591م	الحاج شعبان باشا
1003هـ-1594م	مصطفى باشا
1003هـ-1595م	خضر (ثانيا) باشا
1007هـ-1599م	دالي حسن باشا
1007هـ-1599م	مصطفى جاقرجي باشا
1009هـ-1601م	سليمان باشا
1011هـ-1603م	خضر (ثالثا) باشا
1011هـ-1603م	محمد قوصة باشا
1013هـ-1605م	كوسة مصطفى القابجي باشا
1016هـ-1607م	رضوان باشا
1019هـ-1610م	كوسة مصطفى (ثانيا) باشا
1020هـ-1611م	مصطفى باشا
1022هـ-1613م	حسين الشيخ باشا
1025هـ-1616م	مصطفى خزناجي باشا
1026هـ-1617م	سليمان قاطانيالي باشا
1027هـ-1618م	حسين الشيخ (ثانيا) باشا
1028هـ-1619م	سليمان باشا
1028هـ-1619م	خسرف باشا
1029هـ-1620م	خضر باشا
1030هـ-1621م	مصطفى حافظ كوسة باشا
1030هـ-1621م	حسين باشا
1032هـ-1623م	حسين بن الياس باشا
1032هـ-1623م	مراد باشا

¹ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، مرجع سابق، ص 143.

1033هـ-1624م	ابراهيم باشا
1034هـ-1625م	خسرف باشا
1036هـ-1626م	حسين باشا
1044هـ-1634م ¹	يوسف باشا
1047هـ-1637م	علي باشا
1049هـ-1639م	الشيخ حسين باشا
1050هـ-1640م	أبو جمال يوسف (ثانيا) باشا
1052هـ-1642م	محمد برصالي باشا
1054هـ-1644م	أحمد دغانجي باشا
1050هـ-1647م	أبو جمال يوسف (ثالثا) باشا
1060هـ-1650م	مراد باشا
1061هـ-1651م	بوشناق محمد باشا
1064هـ-1551م	طوبال محرم باشا
1065هـ-1655م	أحمد طوشان باشا
1065هـ-1655م	عبد الله بلكباشي باشا
1066هـ-1656م	إبراهيم باشا
1066هـ-1656م	الحاج أحمد باشا
1067هـ-1657م	إبراهيم (ثانيا) باشا

¹ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، مرجع سابق، ص 144.

الملحق 12 : جدول تاريخي لأهم الأحداث (995-1069 هـ / 1587-1659 م)¹

أهم الحوادث و أبرز الأحداث	تاريخ الحوادث
ابتداء عصر حكومة الباشاوات	995هـ-1587م
قمع حركة الثورة الوطنية بمجانة	998هـ-1590م
اشتداد هيب الثورة الوطنية بناحية زواوة	999هـ-1591م
قمع الحركة الثورة بناحية سور الغزلان و إنشاء مركز للحراسة	1003هـ-1594م
استيلاء الأتراك على حصن المرسى الأعلى بوهران و انهزام الأسبان إلى الحصن الأسفل	1007هـ-1599م
حدوث الإضطراب السياسي و العسكري حول منصب الإمارة و إخفاق الأسبان في حملتهم الشعواء ضد العاصمة	1009هـ-1601م
نشأة الخلافة السياسي و الإقتصادي بين حكومة الجزائر و فرنسا و رد غارة الأسبان البحرية عن مرسى أزفون	1011هـ-1603م
انتصار الأسبان بوهران	1014هـ-1606م
إغارة الطوسكان على بونة-عنابة- وقطع العلاقات بين الجزائر و فرنسا و تخطيط مرسى برشك	1016هـ-1607م
حملة الإنجليز و الهولنديين و الأسبان على سواحل الجزائر	1019هـ-1610م
تسوية الخلاف الناشئ بين حكومة الجزائر و تونس حول تخطيط الحدود السياسية بين القطرين	1022هـ-1613م
تخطيط السلطة المركزية للمحرس الفرنسي بالقالة	1026هـ-1617م
تحدد الخلاف بين الجزائر و فرنسا و شن الغارات البحرية الجزائرية ضد المراكب الفرنسية	1029هـ-1620م
خيبة حملة الإمبرال الإنجليزي مانصيل على الجزائر	1030هـ-1620م
تقدم البحرية الجزائرية و اتصالها بأعلى جزر بحر	1033هـ-1623م

¹ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، مرجع سابق، ص 157.

الشمال	
التزام الهولندي الإنجليزي بالجزائري	1033هـ-1623م
نشوب الخلاف بين الجزائر و تونس حول قضية الحدود و انفجار وقعة السطارة	1037هـ-1628م
تدمير الزلزال الهائل لأكثر دور العاصمة و موت الأكثرية من السكان	1042هـ-1632م
انكسار الأسطول الفرنسي بمياه الجزائر	1044هـ-1634م
تخطيط مركز القالة الفرنسي و إعلان الحرب ضد فرنسا	1046هـ-1637م
انكسار الأسطول الجزائري في حرب البندقية ببحر الأدرياتيك	1055هـ-1640م
الإستيلاء النهائي على أعمال قسنطينة	1052هـ-1642م
انكسار أسطول أمام قرصان مالطة	1054هـ-1644م
تأسيس إرسالية القديس فانسان دوبول بالجزائر ¹	1056هـ-1646م
هجوم الأميرال الفرنسي دوكين على مدينة الجزائر	1058هـ-1648م
محاولة الدولة الشريفة العلوية الإستيلاء على الجزائر	1060هـ-1650م
اتخاذ وادي التافنا حدا فاصلا بين حكومتي الجزائر و مراكش	1064هـ-1655م
تسرع القنصل الفرنسي إلى مغادرة المحرس التجاري و تأسيسه لطائفة من المسلمين	1066هـ-1656م
نهاية عصر حكومة الباشاوات	1069هـ-1659م

¹ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، مرجع سابق، ص 157-158.

الملحق 13: أغوات الجزائر: (1069 هـ - 1659/1081 م - 1671 م)¹:

تاريخ التولية	
1070هـ-1660م	البكباشي خليل آغا
1071هـ-1661م	بويوك رمضان آغا
1071هـ-1661م	شعبان آغا
1072هـ-1662م	إسماعيل آغا
1074هـ-1665م	موسى آغا
1075هـ-1665م	الحاج علي آغا

الملحق 14: جدول تاريخي لأهم الأحداث التاريخية (1069-1082 هـ / 1656-1671 م)²:

أهم الوقائع و أبرز الأحداث	تاريخ الوقائع و الأحداث
فاتحة حكومة الآغوات بالجزائر	1069هـ-1659م
إنشاء بناية الجامع الجديد الحنفي بالعاصمة	1070هـ-1660م
خيبة الحملة البريطانية على الجزائر	1071هـ-1660م
توالي انهزام الحملة الفرنسية ضد الجزائر أربع مرات، و انكسار الأتراك	1072هـ-1662م 1073هـ-1663م
خيبة الحملة الفرنسية ضد مدينة جيجل، و انتشار البعثات و الإرساليات المسيحية بالجزائر	1075هـ-1664م
توثيق العلاقات التجارية بين الجزائر و فرنسا	1076هـ-1665م
إغارة الإنجليز على الجزائر و رميهم لها بالقنابل	1080هـ-1670م
اغتيال الحاج علي آغا و به كانت نهاية عصر الأغوات بالجزائر	1082هـ-1671م

¹ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، مرجع سابق، ص 169.

² نفسه، ص 186.

الملحق 16 :دايات الجزائر (العهد الأول): (1082-1246 هـ/ 1672-1700 م¹)

تاريخ التولية	
1682-1671م	الحاج باشا
1683-1682م	بابا حسن باشا
1688-1683م	الحاج حسين باشا ميزومورطو
1695-1688م	الحاج شعبان باشا
1698-1695م	الحاج أحمد باشا
1700-1695م	حسن باشا شاوش

¹ يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، مرجع سابق، ج2، ص 130.

الملحق رقم 17: البحرية الجزائرية عام 1681م

تقرير للمبعوث الفرنسي "هايت" حول القوات البحرية لمدينة ومملكة الجزائر¹

اسم السفينة	اسم القائد	عدد قطع المدفع في السفينة	عدد الجنود في كل سفينة	اسم السفينة	اسم القائد	عدد قطع المدفع في السفينة	عدد الجنود في كل سفينة
الوردة	غالي راييس أميرال	36	400	النجوم السبعة	-	30	320
الحصان الأبيض	مصطفى راييس	34	380			28	300
الجانوى	غالي راييس	32	380			30	300
		32	380			34	300
البسطانجي	-	30	320			34	380
البسكانجي	رجب راييس	24	300			22	400
الأسد الأحمر	-	26	300			28	250
الجوهرة	-	34	340			32	400
التنوس أ	-	34	340				
البولوني 02	يوسف راييس	30	320				
	محمد راييس	14	180				

¹ جمال قنان: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500-1830، المرجع السابق، ص 107.

الملحق رقم 18 :يمثل عدد الأسرى بالجزائر خلال القرنين 16 و 17 م¹:

السنوات	عدد الأسرى
1578-1581م	25 ألفا
1598م	15 ألفا
1619م	أكثر من 35 ألفا
1625م	25 ألفا
1640م	من 30 إلى 40 ألفا
1660م	35 ألفا
1662م	12 ألفا
1665م	أكثر من 40 ألفا
1678م	ما بين 20 و 30 ألفا
1683م	ما بين 35 و 40 ألفا
1684م	35 ألفا
1693م	4 آلاف
1696م	1600 (داخل المسجون)
1698م	2600

¹ محمّة عائشة، مرجع سابق، ص 172.

الملحق رقم 19: الأسرى الذين تم افتدائهم من قبل منظمات افتداء الأسرى من خلال أرشيف التاريخ الوطني باسبانيا (AHN)، و المكتبة الوطنية بمدير (BNM)¹

السنة	الأرشيف	عدد المفتدين	المدة الزمنية (اليوم)
1575	BNM:mss2963	143	84
1580-1581	L118, L120 ²	165	293
1582	L119	107	--
1587-1588	L122	102	--
1591-1592	L121	120	--
1618	L125	141	--
1627	mss3872	143	--
1642	L133	142	--
1649	L132	106	--
1651	mss3597	238	--
1660	mss4359	368	--
1662	L139	285	19
1664	mss4314	262	--
1667	mss3586	211	22
1669	mss3593	189	12
1670	L135	192	23
1675	mss7974	519	19
1678	Mss7752	448	--
1679	L146	165	09
1686	mss4363	320	20
1690	L145	162	09
1692	L147	156	17

¹ قرباش بلقاسم، الأسرى الأوروبيون في الجزائر خلال عهد الدايات (1671-1830)، دكتوراه في التاريخ الحديث و المعاصر، جامعة مصطفى اسطمبولي، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية، قسم العلوم الإنسانية، معسكر، 2015-2016م، ص145.

² (L): بمعنى Legagos: أي ملفات رقم

الملحق رقم 20 : مقارنة بين عدد الأسرى الذي تم افتدائهم من قبل منظمتي الثالوث المقدس والرحمة¹

المنظمة وعدد الأسرى	السنة	المنظمة وعدد الأسرى	السنة
الرحمة(153)	1681	الثالوث المقدس(212)	1670
الرحمة(446)	1682	الرحمة(519)	1675
الثالوث المقدس(156)	1692	الرحمة(450)	1678
الرحمة(642)		الثالوث المقدس(163)	1679
مجموع الأسرى المحررين من طرف منظمة الثالوث المقدس (537)			
مجموع الأسرى المحررين من طرف تنظيم الرحمة (2210)			

¹ قرياش بلقاسم ،المرجع السابق ،ص147.

الملحق رقم 21 :إحصاء عدد أسرى طائفة الأصدقاء¹

السنة	عدد الأسرى	الأسماء إن وجدت
1682	21	--
1683	--	كان يوجد لقاءات بين أفراد الطائفة دون تفاصيل
1684	في إحدى التقارير، تم افتداء البعض، في حين بقي آخرون كأسرى	--
1685	ذكر موسس فولك، أسير سابق، أنه ترك في المدينة ستة أسرى. أما إيغرام جيلبارت أسير سابق بالجزائر، فأكد وجود ثلاثة من أسرى الطائفة	مويسس فولك، إيغرام جيلبارت، ريوماي أما ريوماي فقد أصبح ملكا للوزير العثماني الأكبر.
1686	01	روجر أودي
1687	01	--
1688	--	--

¹ قرياش بلقاسم، المرجع السابق، ص148-149.

الملحق رقم 22 : إحصاء عدد الأسرى¹

السنة	المناطق	عدد الأسرى	المصدر
1672 - 1682	353 سفينة إنجليزية	2800-4200	<i>De La Motte, 99</i>
1673	تورشياريلو - بوغليا	50	<i>Mafrici, 66</i>
1677 - 1680	أخذ الجزائريون 160 سفينة إنجليزية خلال 40 شهر	1300-1900	<i>Morgan. R</i>
1685 - 1686	--	664	<i>Fontnay, 434</i>

الملحق رقم 23 : إحصاء عدد الأسرى الذين بيعوا في قادس²

السنوات	1650	1660	1670	1680	1690	المجموع
الأصل	1655	1665	1675	1685	1695	الإجمالي
بربري	24	82	84	56	40	286
عربي	124	233	329	69	11	766
تركي	01	11	06	11	58	87

¹ قرباش بلقاسم، المرجع السابق، ص 150-151.

² نفسه، ص 165.

الملحق رقم 24 : ثمن الأسرى المحررين من الجزائر خلال القرن 17¹

السنات	الثمن
1642	أربعة فرنسيين تمّ تحريرهم مقابل 6.000 دولار
1646	تم دفع مبلغ 1450 دولار عن رجل بريطاني
1682	في قائمة قدمها لنا سيمون ديفريس، تظهر أن ثمن الفدية كان بين 150-2000 قطعة ذات الثمانية، أما المتوسط الإجمالي للفدية فكان بين 200-300.
1683	إحدى قوائم الفدية قدمت لنا أن ثمن الفدية كان بين 130-600 قطعة ذات الثمانية ، أما المتوسط الإجمالي 200-300 ، وهناك بعض الاستثناءات، مثلا :قائد سفينة من أمستردام (2000، كارنو لويس سيفارتيز تاسل (1100) ، ريان سفينة(900)
1688	فرانسيس بروك يؤكد أن السلطان المغربي، راسل الجزائريين من أجل شراء 500 أسير مقابل 150 دولار عن كل رأس.
أواخر ق 17	بعد أن مرض ابن تاجر يهودي، كان أسيرا لدى أحد كبار الضباط الأتراك قام الأخير بتعيين أسيرين للاعتناء به إضافة لنساء القصر، باعتبار أنه كان يأمل أن يبعه، سيتمكنه من شراء خمسة أو ستة أسرى آخرين.

¹ قرياش بلقاسم ،المرجع السابق ،ص208-209.

الملحق رقم 25 :جدول يوضح انتشار أنواع من الأوبئة في بعض المدن الجزائرية خلال القرن السابع عشر¹

الفترة	الانتشار الجغرافي	الملاحظات
1598-1603	الجزائر-قسنطينة	-
1605-1609	الجزائر	-
1611-1613	الجزائر	-
1620-1624	الجزائر-بايلك الشرق	عرف بالحبوب الكبيرة
1626-1627	الجزائر	وفاة خسرو باشا في 1626م
1630	الجزائر	-
1634-1636	قسنطينة	-
1639-1644	جميع البلاد	-
1646-1650	جميع البلاد	-
1654-1657	جميع البلاد	عرف بوباء قونية
1659	جميع البلاد	-
1661-1666	الجزائر-بايلك الشرق	عرف بالحبوب القوية
1671-1672	الجزائر	-
1675-1678	جميع البلاد	-
1680-1683	الجزائر	-
1686	الجزائر	-
1689-1695	الجزائر	-
1697-1702	الجزائر	-

¹ كوثر العايب ،العلاقات الجزائرية التونسية خلال عهد الدايات (1711-1830)،مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير تخصص التاريخ الحديث و المعاصر ،كلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية ،قسم العلوم الإنسانية ،جامعة الوادي ،2013-2014م،،ص123.

الملحق رقم 26: غنائم الجزائريين (ماي-أكتوبر 1619)¹:

التواريخ	المراكب	الأسرى	الملاحظات
9 ماي	مركب من مرسيليا	4(غراماي، برتغالي، جنوي ،فارسي مالطي)	أخلي سبيل المركب الطاقم و الركاب الفرنسيين
1 جوان	4 سفن هامبورغية	عدد غير محدد	احتجزت المراكب و الحمولة
5 جوان	سفينتين هولنديتين	-	احتجزت الحمولة، أفرج عن البحارة و أخلي سبيل السفينة الأولى على الفور و الأخرى في 12 جويلية.
8 جوان	مركب اسباني	40 اسباني	احتجزت المراكب و الحمولة
25 جوان	سفينتين قادمتين من اسبانيا	بلجيكيين، اسبان و فرنسيين في خدمة اسبانيا	تابعة السفينتين و عدد الأسرى غير محدد، احتجزت السفينتين و الحمولة
من 1 جوان إلى 10 جويلية	-	160 صقلي و أسيرين فرّا من تونس	غارة مشتركة مع التونسيين على السواحل الصقلية، غنيمة ثمينة جداً
13 جويلية	فرقاطة فرنسية	-	احتجزت الحمولة، أفرج عن البحارة و لكن الفرقاطة أفلتت
5 أوت	مركبين اسبانيين	28 اسباني	احتجز المركبين و الحمولة
27 أوت	سفينة هامبورغية	17 ألماني	احتجز المركب و الحمولة
31 أوت	-	72 اسباني	غارة على ساحل غاليسيا
6 سبتمبر	-	19 اسباني	غارة على سواحل غاليسيا و جزر الكناري
15 سبتمبر	غليوطة اسبانية	25 اسباني	غنيمة ثمينة أخذت من الاسبان، و احتجز المركب
16 سبتمبر	4 سفن على الأقل (فرنسية، بلجيكية، و انجليزية)	-	كانت تحمل بضائع اسبانية، احتجزت السفن و الحمولة
20 سبتمبر	-	21 كناري و العديد من	غارات على سواحل اسبانية و جزر

¹ عطلي محمد الأمين، مرجع سابق، ص 87.

الكناري، احتجزت حمولة سكر	الاسبان		
افتدي الطاقم و المركب	-	مركب من طولون	22 سبتمبر
أخلي سبيل الطاقم و المركب و احتجزت الحمولة	-	مركب من لاروشيل	29 سبتمبر
احتجزت المراكب و الحمولة، و أغرق طاقم و ركاب إحدى المراكب	-	سفينتين فرنسيتين، و سفينتين بلجيكيتين، و أخرى هولندية	30 سبتمبر
احتجز المركبين و الحمولة	-	سفينتين هولنديتين	6 أكتوبر
احتجز المركبين و الحمولة	-	سفينة إنجليزية	7 أكتوبر
-	24 ألماني و 35 كناري	-	8 أكتوبر
-	36 برتغالي	مركب برتغالي	9 أكتوبر
احتجز المركبين و الحمولة، غارة على الساحل الاسباني	77 برتغالي و 18 اسباني	مركبين برتغاليين	19 إلى 26 أكتوبر
المجموع: 25 مركب محتجز، و 578 أسير جنسيته معروفة			

الملحق رقم 27: غنائم البحرية الجزائرية في الفترة (1608-1618)¹

السنوات	المراكب	الأسرى	الملاحظات
1608	42	860	بعض الأسرى أخذوا و بيعوا خارج الجزائر
1609	36	632	-
1610	23	384	-
1611	20	464	-
1612	-	-	لا توجد إشارة
1613	16	230	بالنسبة لإيطاليا وحدها
1614	35	467	-
1615	-	-	لم ترد إشارة لهذه السنة
1616	34	767	-
1616	26	1763	منهم 663 من جزر مادير البرتغالية

¹ عطلي محمد الأمين، مرجع سابق، ص 89.

غزو لانزاروت ، و عدّة مواقع بجزر الكناري	1468	19	1618
بمعدل سنوي يقارب 28 مركبا و 781 أسير	7035	251	المجموع

الملحق رقم 28: سنوات الغنائم القصوى للبحرية الجزائرية:

1. سنوات الصعود (1644-1580):

1-1. قوة صاعدة: 1622-1607	
السنة	الغنائم و أنواعها "طبيعتها"
1625-1608	جملة ما أخذه الأتراك و الأهالي: 17 سفينة
1618-1608	جلب إلى الجزائر 251 سفينة من الغنائم و 7035 أسير
1621-1613	تم الاستيلاء على 936 سفينة. هذه تفاصيلها: 447 من هولندا، 193 من فرنسا، 56 من البلاد الألمانية، 120 من اسبانيا، 60 من إنجلترا، أكثر من 60 من مناطق بروفانس و لنغدوك الفرنسية
1616-1609	محمل ما أخذه الجزائريون 466 سفينة إنجليزية
1627-1616	في الإجمال: 216 سفينة و أعيدت لأصحابها بفعل المفاوضات من أجل السلم
1638-1612	37 سفينة معظمها من السفن الضخمة (قوراس و غاليوطات) و أحيانا متوسطة (طرطان)، قيمتها 5 ملايين قرش بالإضافة إلى السلع و الأسرى

الملحق رقم 29: عائدات البحرية من 1619 إلى 1642:¹

2-1. سنوات الغنائم القصوى	
من 26 أكتوبر 1619	25 سفينة و 578 أسير يذكر كريكن 12 سفينة تجارية هولندية
1620	سنة استثنائية: 125 سفينة أخذها الجزائريون ، و في نفس السنة: 20 سفينة بلغت قيمتها 205000 أيكي، و أخذت 21 سفينة
1620	قدّرت مجموع الغنائم الفرنسية بـ 800 ألف أيكي ، و عدد الأسر 500 أسير فرنسي

¹ عطلي محمد الأمين، مرجع سابق، ص 91-92.

1623-1622	05 بوارج و سفن عظمى قدرت قيمتها بـ 1700000 قرش و تم الاستيلاء على سفن: إنجليزية و فرنسية ،و اسبانية و إيطالية
1625-1624	- غزو قاعدة بحرية في البندقية "بيراستووهي" و تم فيه غنم حوالي نصف مليون قرش - و السنة أي سنة 22 جوان 1624 في عملية مشتركة بين الجزائريين و قراصنة تونس "مامي و أسطى مراد" على نفس القاعدة قدرت غنائم هذه العملية بـ: ألف أيكي - 26-27 جوان :03 سفن من راكوش "قاعدة البندقية"
1625	سفينة برتغالية عظمى و عدة سفن صيد 53 بحار و توغلوا إلى جزيرة Terreneuve نيو فولندر ،استولوا على 132 من البحارة و في طريق العودة أخذوا 9 سفن.
1626	استولت سفن الجزائر و تونس على 18 سفينة محملة سلع فاقت قيمتها 1600 قرش

غنائم متنوعة ¹	
السنة	الغنائم
1630	20 سفينة قدرت قيمتها بـ: 380 ألف أيكي.
1633	حسب "المنور مروش" :أنه تم أخذ 4 صنادل و 3 سفن كبرى مرسيلية أخذت إلى الجزائر و أن قيمتها تبلغ نحو مليونين من اليرات ترنوا.
1633	حسب الأب "دان" :تم غنم 80 سفينة فرنسية قيمتها 47752000 ليرة ترنوا ،و أسرى 342 فرنسية منهم 138 تركوا أحرارا.
1635	سفينة هولندية على متنها نبيل بندي قدرت بـ: 4000 قرش و 150 جندي و كمية معتبرة من الذخيرة.
1636	سفينة برتغالية تجارية عظمى من نوع كاراك محملة ببضائع غالية من الهند.
1637	سفينة برتغالية تجارية ذاهبة إلى البرازيل و 5 سفن قادمة من الموانئ الألمانية.
1638	في هذه السنة تم غنم غنائم مهمة.
1639	سفينة من هامبورغ تحمل جنود الاسبان إلى نابولي.

¹ عطلي محمد الأمين ،مرجع سابق ،ص 94.

فرقاطة من دنكرك قوية التسليح و كذا سفينة هولندية.	1640
- سفينة حربية هولندية و سفينة من دنكرك. - سفينة هولندية محملة ببضائع نفيسة.	1641-1642

الملحق رقم 30: غنائم البحرية الجزائرية في الفترة الممتدة من 1645-1699:¹

1-3. حركة المد و الجزر 1645-1699: سنوات الركود	
السنة	الغنائم
1645	7 سفن جزائرية في المياه البريطانية تأسر 240 و تأخذ غنائم كبيرة.
1646- 1648	إنزال قوات السواحل الإيطالية و البريطانية و أخرى أسرى.
1649	غارات ثم تسجيل غنائم.
1650	الاستيلاء على 3 سفن و عليها 150 شخص.
1651	أسرى و هجمات متفرقة على مناطق إيطالية.
1652	الاستيلاء على سفينة إنجليزية و هولندية محملة بالسلع إلى البندقية و مركبين للحملات الممنونة إلى نابولي.
1653	أخذ سفينة تحمل أصغة كاردينال و أسر 70 من رجاله.
1654	أخذ بارجتين من دنكرك و سفينة ثمينة السلع قادمة من الهند و مركبا يحمل 80 ألف قرش.
1655- 1656	17 سفينة مأسورة منها 6 سفن هولندية.
1657- 1658	سفينة مالطية+سفينة محملة بالنقود الفضية و الذخيرة الحربية+390 مسيحي+مركبين جنوئين كبيرين.
1660- 1661	أخذ الجزائريون للإنجليز 62 سفينة في ستة شهور.
1662- 1663	11 سفينة هولندية و إنجليزية، 6 سفن اسبانية و 3 سفن عائدة عائدة من الهند و 5 من البندقية و 4 جنوية، و 3 فرنسية و 3 من نابولي. المجموع حوالي 30 سفينة.
1644	سفينتين من كاتاروا، و في مارس أخذوا بارجتين عليها 80 شخص منهم 4 فرسان من مالطة

¹ عطلي محمد الأمين، مرجع سابق، ص 95.

و 3 سفن إنجليزية.	
عدة صنادل و مراكب أخذت في المياه الاسبانية+سفينة بندقية و اسبانية.	1655
سفينة ثمينة الحمولة من القافلة الهندية+بارجتين و 4 صنادل جنوبية و أسر 70 في سواحل نابولي ،سفينة ذاهبة من البندقية كانت للجنويين بها سلع تقدر بـ40 ألف أيكي و عدد من المركب و القوارب و كثير من الأشخاص.	1666(عقد الصلح مع فرنسا)
سفينة اسبانية و قافلة من الهند و سفينتين اسبانييتين في إحداها 8900 يورو (قطعة ذهبية و تطلق أحيانا على قرش 8 ريالات الاسباني و منه كلمة بوجو الجزائرية)+سفينة من نابولي عليها 24 شخصاً.	1667- 1669
5 سفن في أبريل -ماي 1670، و بارجة هولندية.	1670(فشل الصلح مع الإنجليز)
- سفن كبرى محملة بسلع بالغة القيمة. - 1673: 3 سفن من الدانمارك و هامبورغ ، و سفينتين هولنديتين كانت إحداها محملة بـ1500 برميل من الكحول المقطر و خمر بوردو.	1671- 1677 (صلح مؤقت مع الإنجليز)
عقد الصلح مع هولندا طبق في 1680.	1679
أخذت سفن اسبانية و برتغالية و بندقية و جنوبية.	1680
أواخر 1681،أسر 29 سفينة فرنسية تبلغ قيمتها 750,000 أيكي.	1681
المعطيات عن الغنائم نادرة.	1683
24 سفينة و 400 بحار قيمتها 20000 قرش.	1684
- 60 سفينة بعضها من أكبر البوارج استولى عليها الجزائريون.	1685-
- 32 سفينة عليها 350 بحار ،و 9 سفن اسبانية ،و 4 جنوبية و 3 برتغالية ¹ .	1686
- 13 سفينة و عدة أسرى. - 3 سفن تجارية هولندية. - 23 سفينة عليها 469 مسيحي أسير ،أكثرهم اسبان و هولنديين.	1687

¹ عطلي محمد الأمين ،مرجع سابق ،ص 96.

1688	- 375 أسير فرنسي منهم 85 أسروا في بداية 1688. - 19 سفينة فرنسية.
1689	- أخذ 280 جندي اسباني و جملة من الغنائم المتنوعة.
1690 (معاهدة الصلح مع فرنسا)	- عدة سفن تجارية هولندية ،و بارجة جنوية و 12 سفينة صغيرة. - بلغ عدد الأسرى 700 و 800 أسير.
1691	10 سفن برتغالية و جنوية ،و هولندية و دانماركية.
1692	12 سفينة هولندية ،و بوارج برتغالية ،و جنوية ،و 1435 أسير فرنسي ،و 30000 ألف قرش قدمها الاسبان لفدية أسراهم.
1693	سفينة من أصل مجهول ،كارافيل برتغالية ،و 3 سفن إنجليزية ،و 100 ألف قرش لافتداء الأسرى.
1694	- فرقاطة هولندية و 32 بحار ،و بارجة كاتالانية ،و سفينة بندقية لها 34 مدفع. - سفينة مالطية و 4 سفن إنجليزية. - هدايا من الإنجليز :منها 75 برميل بارود و ألف قذيفة ،و 500 صندوق قنابل يدوية و مسدسات.
1695	الاستيلاء على سفينة هولندية عليها 63 شخصاً و 24 مدفعاً.
1697	- الاستيلاء على سفينة هولندية تحمل 10000 قنطار من الحديد و الخشب. - سفينة برتغالية عليها 4000 قنطار من السكر ،و سفينتان من جنوة ،و كارافيل برتغالية.
1698	6 سفن منها سفينة هولندية ،و أخرى برتغالية بسلع عالية القيمة.
1699	- 3 سفن هولندية. - سفينة من جنوة ،و أخرى برتغالية ،و عدة سفن أخرى ¹ .

¹ عطلي محمد الأمين ،مرجع سابق ،ص 96-99.

الملحق رقم 31 :المعاهدات المبرمة بين الجزائر و فرنسا خلال القرن 17 م¹:

تاريخ المعاهدة	موضوعها
أوت 1605م	معاهدة سلم وتجارة.
1616م	اتفاقية بشأن تبادل الأسرى.
25 نوفمبر 1665م	معاهدة سلم وتجارة.
26 نوفمبر 1665م	اتفاقية سرية بشأن اقتداء الأسرى.
02 أوت 1666م	معاهدة بشأن استغلال مركز الرأس الأسود.
28 جوان 1672م	معاهدة سلم وتجارة.
28 أوت 1685م	معاهدة بشأن استغلال الرأس الأسود.
30 أوت 1685م	معاهدة سلم وتجارة لمدة مائة سنة مع أعضاء الديوان.
04 سبتمبر 1685م	معاهدة سلم وتجارة لمدة مائة سنة مع البايات.
16 ديسمبر 1691م	اتفاقية بين القنصل والديوان.
10 جوان 1698م	تأكيد لمعاهدة السلم المتوي سنة 1685م.
28 جوان 1699م	تأكيد لمعاهدة السلم المتوي سنة 1685م.
28 جوان 1699م	الإستغلال الدائم لمركز الرأس الأسود.

¹ محمد بن سعيدان،علاقات الجزائر مع فرنسا (1070 هـ -1659/1170-1756 م،مذكرة لنيل شهادة الماجستير ،تاريخ حديث ،غرداية ،الجزائر ،2011-2012 م،ص 68-70.

الملحق 32: قائمة لبعض الواردات مدينة الجزائر من الأسواق المحلية¹:

الخشب-الحديد-الأدوات الحديدية	بجاية
الجمال-التمور-الحناء-الحايك	بسكرة
الحايك-البرانس	تلمسان
الصو-الأغنام	بايلك التيطري
الخشب	جيجل
العنب	دلس
ريش النعام-الجمال-التمور	الصحراء
المرجان-التبغ-الزبدة	عنابة
القمح-الصوف-جلود الماعز-البرانس	قسنطينة
القرمز	معسكر

الملحق 33: لأهم الصادرات و الواردات بين الجزائر و الأسواق الخارجية²:

المواد المصدرة	المواد المستوردة	أهم الأسواق	البلد
قمح-جلود-شمع-صوف-ريش النعام..	رخام-ورق-زجاج-حبال-مرجان-ثريات..	مرسيليا	فرنسا
قمح-جلود	ملح-أجبان-عرق-خمر	بليار	إسبانيا
صوف-برانس-عطور-شمع-شالات...	حياك-زراي-عسل-سكر-تبغ-عبيد..	فاس-تيطوان-تافيالات	المغرب
حبوب-زيت-تمور-توابل-سكر.ز	عبيد-عاج-تبر-جلود-بخور..	تمبكتو-سقاطو-كاتشنه-كانو..	السودان
صوف-جلود-أحزمة-حريرية..	شواشي-قطن-أقمشة-حرائر-قطن-زيت...	تونس-غدامس-قفصة	تونس
عطور-جواهر-أقمشة-حياك-تمور..	عبيد-تبر-عاج-عقاقير-ريش النعام..	طرابلس-غاث-مرزوق	طرابلس

¹ محرز أمين، مرجع سابق، ص 134.

² نفسه، ص 138.

الملحق رقم 34: قائمة لبعض أسماء التجار الجزائريين خلال القرن السابع عشر¹

الاسم بالعربية	الاسم بالفرنسية
بن جامان ساكوتو	Ben Jamin Sacutto
موسى	Moisie
إسحاق كيان	Isaac Couen
صمويل هنريكاز باروخ	Samuel Henriquez Baruch
سليمان كيان	Salamon Coen
إبراهيم (إبراهيم)	Abraham
جوزيف	Joseph
موسى كيان	Moise Coen
روبان ميانة	Roben Maina
حمران عمر	Hamran Amar
موسى قابصين	Moise Gabson
صمويل	Samuel Vayt

¹ عائشة غطاس، العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن 17 (1619-1694)، المرجع السابق، ص 141-145.

الملحق 35: البحرية الجزائرية عام 1681م

تقرير للمبعوث الفرنسي "هايت" حول "القوات البحرية لمدينة ومملكة الجزائر"⁽¹⁾.

اسم السفينة	اسم القائد	عدد قطع المدفع في السفينة	عدد الجنود في كل سفينة	اسم السفينة	اسم القائد	عدد قطع المدفع في السفينة	عدد الجنود في كل سفينة
الوردة	غالي ريس أميرال	36	400	النجوم السبعة	-	30	320
الحصان الأبيض	مصطفى ريس	34	380			28	300
الجانوى	غالي ريس	32	380			30	300
		32	380			34	300
البسطانجي	-	30	320			34	380
البسكانجي	رجب ريس	24	300			22	400
الأسد الأحمر	-	26	300			28	250
الجوهرة	-	34	340			32	400
التنوس أ	-	34	340				
البولوني 02	يوسف	30	320				

(1) جمال قنان: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500-1830، المرجع السابق، ص 107.

							رايس		
					180	14	محمد رايس		11

الملحق رقم 36: كرونولوجيا لأهم الحملات الإسبانية على الإيالات العثمانية في غرب المتوسط خلال القرن السادس عشر¹

التاريخ	الحملات الإسبانية
1505م	- احتلال المرسى الكبير .
1509م	- احتلال مدينة وهران .
1510م	- احتلال احتلال مدينتي : بجاية ، وطرابلس الغرب .
1511م	- احتلال البينيون ، وفرض التبعية على مدن : الجزائر ، دلس ، مستغانم .
1520م	- حملة بيدرو نفارو على جزيرة جربة وقرقنة .
1531م	- الحملة على جزيرة جربة وفرض التبعية عليها للإسبان .
1535م	- حملة أندري دوريا على مدينة شرشال .
1536م	- حملة شارلكان على تونس ، واحتلال بنزرت ، والمهدية ، وحلق الوادي .
1541م	- حملة أورليو بوتيجيلا حاكم طرابلس على مدينة تاجوراء .
1543م	- حملة شارلكان على مدينة الجزائر .
1547م	- حملة دالكودايت على تلمسان ، ثم على مستغانم .
1551م	- حملة دالكودايت الثانية على مستغانم .
1558م	- حملة أندري دوريا على المهدية ، وتدميرها بأمر من شارلكان .
1560م	- حملة دالكودايت على مزغران ، ومستغانم ، ومصرعه فيها .
1573م	- الحملة الإسبانية المسيحية على جزيرة جربة ، وفشلها .
1573م	- حملة دون جوان النمساوي على تونس ، واحتلالها .
1589م	- حملة فرسان مالطة على طرابلس الغرب ، وفشلها .

¹ جمال قنان: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500-1830، المرجع السابق، ص108.

الملحق رقم 37: أهم الشخصيات التي ساهمت في العلاقات بين الضفتين خلال القرن 16م

أ- الضفة الشمالية :

ملوك إسبانيا	فرديناند (1467 - 1516 م) ، إيزابيلا (1474 - 1505 م) شارلكان (1516 - 1566 م) ، فليب 2 (1566 - 1598 م) .
ملوك فرنسا	فرنسوا 1 (1515 - 1547 م) ، هنري 2 (1547 - 1559 م) ، شارل 9 (1560 - 1574 م) .
رجال الدين	اخييمينس (1436 - 1517 م) ، الكسندر 6 (1492 - 1503 م) ، ليون 10 (1513 - 1521 م) ، كليمنت 7 (1523 - 1534 م) ، بولس 3 (1534 - 1549 م) .
القادة العسكريون	بيدرو نفارو ، الكونت دالكودايت (1534 - 1558) ، أندري دوريا (1466 - 1560 م) ، دون جوان (1545 - 1578 م) .

ب- الضفة الجنوبية :

الحكام العثمانيون	سليم 1 (1512 - 1520 م) ، سليمان القانوني (1520 - 1566 م) ، سليم 2 (1566 - 1574 م) ، مراد 3 (1574 - 1595 م) .
حكام الجزائر	عروج (1514 - 1518 م) ، خير الدين (1518 - 1547 م) ، حسن أغا (1534 - 1544 م) ، حسن باشا حكم ثلاث مرات ينظر التهميش رقم 7 ص 52 ، صالح رايس (1552 - 1556 م) ، حسن قورصو (1556 - 1557 م) ، قليج علي (1568 - 1571 م) ، أحمد عراب (1571 - 1574 م) ، رمضان باشا (1574 - 1577 م) .
حكام طرابلس	مراد أغا (1551 - 1553 م) ، درغوث رايس (1553 - 1565 م) ، علج علي (1565 - 1568 م) ، مصطفى باشا (1568 - 1577 م) .
حكام تونس	الحسن الحفصي (1526 - 1542 م) ، أحمد الحفصي (1542 - 1569 م) محمد بن الحسن (1573 - 1574 م) ، حيدر باشا (1574 - 1591) .

الملحق رقم 38: مدونة العائلات الأندلسية المقيمة بمدينة الجزائر¹

عائلة أبراموني	عائلة الراج
عائلة الدويسي	عائلة بن مطري
عائلة بن بربير	عائلة بن فارطة (كارطة)
عائلة العداد	عائلة بن فاضل
عائلة قاسم	عائلة الخيار
عائلة بوضربة	عائلة مارين
عائلة الكميليو	عائلة بن سالم
عائلة صفرة (صفر)	عائلة قرانص
عائلة البوني	عائلة برالطة
عائلة جراد	عائلة شملال
عائلة ابن الأحرش	عائلة بن الطبال
عائلة سعد	عائلة الحجام
عائلة الغربي	عائلة النقلة
عائلة الغبري (القبري)	عائلة الأنجرون (الأجروني)
عائلة بن عمار	عائلة بن فارس
عائلة مفتاح	عائلة الكيراني
عائلة بن دبسي	عائلة الرشوا
عائلة شيخون	عائلة الفكاي
عائلة المدافعي	عائلة فرج
عائلة الأمين	عائلة البراعي
عائلة كلاتوا (فلاطوا)	عائلة الحميني
عائلة القلدرون	عائلة القرطبي

¹ طيبي مهدي، نموذج من العائلات الأندلسية في مدينة الجزائر في الفترة العثمانية القرنين (17-18م) - من خلال سجلات المحاكم الشرعية وثائق الأرشيف الوطني الجزائري-، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر 2، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية -قسم التاريخ-، العدد 14، الجزائر، 1433هـ/2012م، ص 187-188.

عائلة الطنيطن	عائلة البراضي
عائلة الشاطبي	عائلة المرباط
عائلة بن برمقوز	عائلة بيزار
عائلة العبلي	عائلة أبو ساهل
عائلة خلاصة	عائلة الانجدون
عائلة الروند(الدوند)	عائلة المسميح
عائلة العادل	عائلة الصديق
عائلة الفانيدي	عائلة شحاتة
عائلة بولطا	عائلة شوطو
عائلة هيل	عائلة عالج
عائلة الارجوني	عائلة السيني
عائلة الطالب	عائلة انزلوا
عائلة الرفاعي	عائلة بن عاشور
عائلة المجاتي	عائلة القتال
عائلة الرصافي	عائلة رندة
عائلة موهوبي	عائلة البرميل
عائلة بن فاضلة	عائلة المليح
عائلة نبيضة	عائلة بن محمد
عائلة ابن بقا	عائلة القوري
عائلة ساعد	عائلة اللبيب
عائلة بن عاشير	عائلة عبيد
عائلة العزوي	عائلة العاقل
عائلة الجبوط	عائلة البونصوا
عائلة يماني	عائلة الشريف
عائلة سعد الله	عائلة الهاشم
عائلة الحكیکن	عائلة حمودة

عائلة بشان	عائلة بن يليه
عائلة النبطور	عائلة الشوابي
عائلة الخشاب	عائلة حميدة
عائلة الخطيب	عائلة جامع
عائلة بديلة	عائلة الداوي
عائلة الطويل	عائلة عسكري
عائلة البراملي	عائلة الثغري ¹

¹ طيبي مهديّة، المرجع السابق، ص 189.

الملحق 39: الرسالة التي أرسلها الأهالي للسلطان العثماني "سليم الأول" سنة 1519 يعرضون فيها رغبتهم في ضم الجزائر للدولة العثمانية¹

هذه الرسالة التي كتبها أهالي الجزائر للسلطان العثماني "سليم الأول" سنة 1519، تعرض فيها رغبتهم في ضم الجزائر للدولة العثمانية. النص مكتوب بخط يدوي عثماني، ويبدأ بعبارة "هذه الرسالة التي كتبها أهالي الجزائر للسلطان العثماني".

في هذه الرسالة، يصف أهالي الجزائر وضعهم الحالي، ويذكر أنهم يعانون من اضطهاد من قبل القوى الأوروبية، وخاصة من قبل فرنسا. يذكرون أن فرنسا قد احتلت الجزائر، وأنها تسيطر على البلاد وتغتصب أموالهم. يذكرون أيضاً أنهم يعانون من نقص في الأمن، وأنهم يتعرضون لتهديدات من قبل القوى الأوروبية.

يطلب أهالي الجزائر من السلطان العثماني التدخل لإنقاذهم من هذا الوضع، ويطلبون ضم الجزائر للدولة العثمانية. يذكرون أن الجزائر لها تاريخ طويل من الصلة بالسلطنة العثمانية، وأنهم يرغبون في العودة إلى حضن السلطنة العثمانية.

يختم النص بعبارة "والله اعلم بالصواب".

في الأسفل، يوجد نص آخر مكتوب بخط يدوي، يبدو أنه استجابة من السلطان العثماني. يذكر فيه أن السلطان قد تلقى الرسالة، وأنه قد وافق على ضم الجزائر للدولة العثمانية. يذكر أيضاً أن السلطان قد أمر بتجهيز السفن لنقل أهالي الجزائر إلى الدولة العثمانية.

¹ خير الدين بروس، المصدر السابق، ملحق رقم 03.

الملحق رقم 40 : حكم إلى بيلرباي الجزائر "محمد بن صالح رايس" بتاريخ 19 رجب 973هـ/10 فيفري 1566م¹



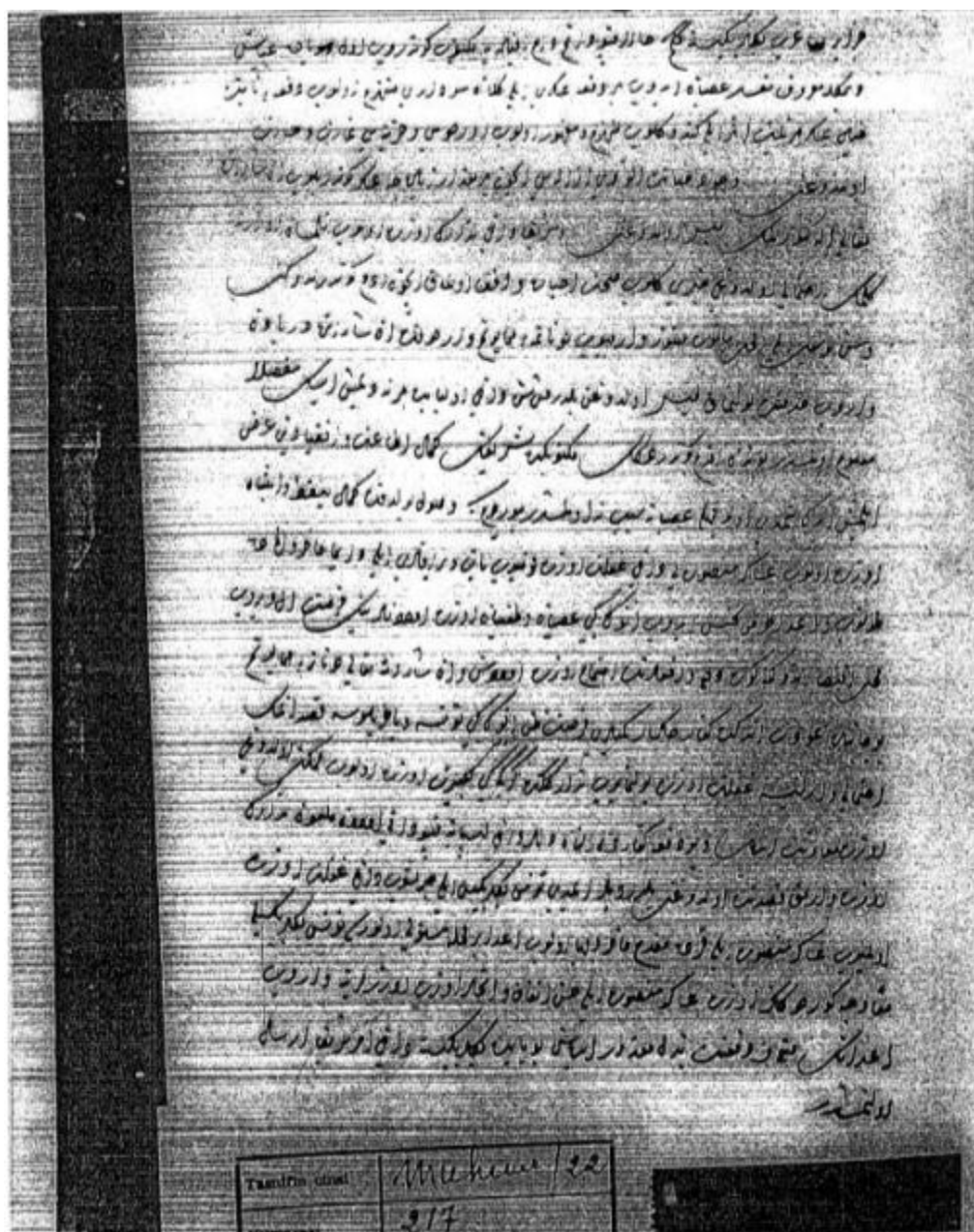
¹ محمّة عائشة، المرجع السابق، ص 164.

بعد التوكل على عناية الحق جل وعلا والتوسل إلى فخر الكائنات عليه أفضل الصلوات، فقد أمرت أسطولي الهمايوني بالإبحار في الربيع القادم داعين الله أن يكتب له الخير والنصر. وقد رأيت من المناسب ملاقاتك لأسطولي الهمايوني.
وأمرت:

في حالة عدم ترتب أي ضرر من جانب الأعداء على ولايتك فعليك بملاقة أسطولي الهمايوني بسفن الجزائر والالتحاق بقوات بيالي باشا أمير أمراء الجزائر (جزائر البحر الأبيض المتوسط)، وتقديم الخدمات، التي يراها مناسبة. أما في حالة توقعك الخطر فعليك الحذر من الأعداء ورصدهم. وفيما إذا هاجمت سفن الأعداء ولايتك فقابلهم بالمثل، واضرب بسفنك ولاياهم، التي تقد على ضربها بعنف، والحق بهم كل خسارة. وسواء كنت ملاق للأسطول الهمايوني، أو كنت مغيرا على الأعداء فلتضع إحقاق الحق نصب عينيك، وليكن النصر حليفك، وكن دائما على بصيرة من الأمر، وحاذر أن يلحق البلاد أو الولاية أي ضرر من الأعداء على حين غفلة.

¹ محمة عائشة، المرجع السابق، ص 165.

الملحق رقم 42 :حكم إلى عامة أمراء و أعيان و قواد ولاية جزائر الغرب بتاريخ 19 شوال
979هـ/4 مارس 1572م¹



و

¹ محنة عائشة، المرجع السابق، ص 166.

أرسلتم كتباً تعربون فيها عن كمال رضا وشكران الرعايا، والبرايا، والعساكر، والأعيان عن أوضاع وأفعال قبوداني علي باشا دام إقباله، وأمير الأمراء السابق للولاية المزبورة كما أشدتم بالأفعال، التي قام بها كتنخدا، الذي عينه قائم مقام، ومن بذله للمقدور وسعيه المشكور في أداء خدماته، وإحسان معاشرته لأعيان وأهالي الولاية، وتأديبه بعناية الله تعالى لأعداء الدين والدولة أثر محاولتهم الإغارة على البلاد والولاية بقصد الحاق الضرر بهما، وكيف انه استطاع على سفينتين بكامل رجالهما منهم والقضاء عليهم ولقد أحاط علمنا الشريف بكل ذلك بيض الله وجوهكم هذا ما كان يرجى منكم والحمد لله، فقد حصل الخير وإن نظرنا لكم بعين الاعتبار لا يقل أبداً عن نظرنا إلى الممالك الجلييلة الاعتبار الواقعة داخل حيطه خلافتنا الواسعة الأفطار بل إنَّما تزيد على ذلك، حيث أنَّ ولايتكم هي دار الجهاد وأنَّ أمراء وأغوات وسائر عساكر واعيان تلك الديار بمثابة رجال ولاية سدة سعادتنا.

ولقد أنعمنا على المشار إليه (علي باشا) دام إقباله بإمرة الأسطول (قبودانلق) وإمرة ولاية الجزائر (جزائر بحر السفيد) كما أنعمنا على أمير سنحق قوجة إيلي أحمد دام إقباله، وهو من الأمراء ذوي الاحترام لدينا بإمرة جزائر الغرب، وتم إرسالها إليها وأمرنا:

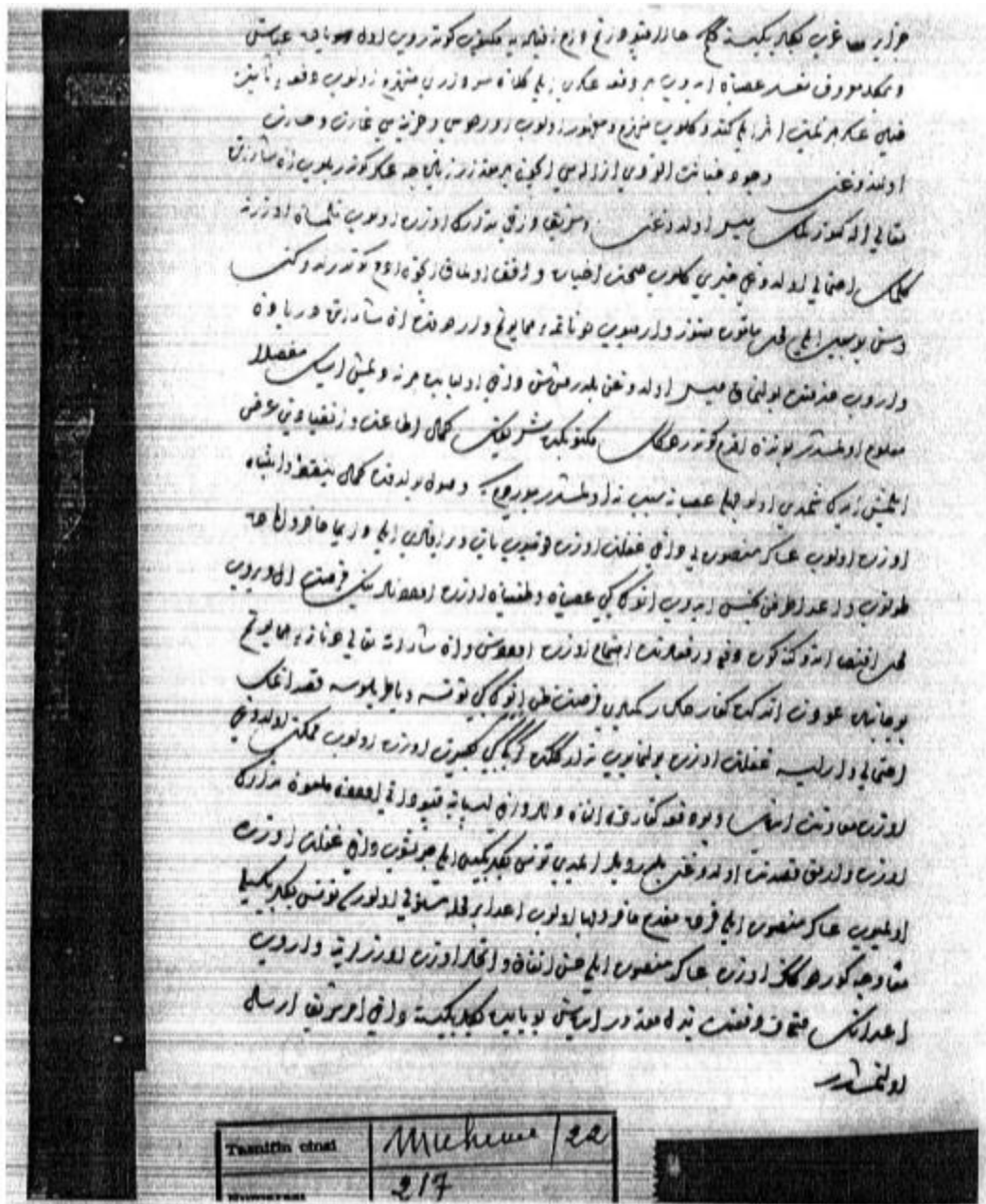
حال وصوله (الحكم)، عليكم بإطاعة المشار اليهم، والامثال لأوامره، والعمل على تعظيمه وإجلاله، ومن ثم بدل المقدور والسعي اللامحصور في سبيل ضبط وحراسة الولاية ودفع مضرة الأعداء والكفار أصابها الدمار عنها وكذلك في سبيل الأمور المتعلقة بالغزو والجهاد لصيانة عرض الدين، وحماية ناموس دولتنا الأبدية وينبغي كذلك أن تكونوا على حسن اتفاق واتحاد معه، وأن يكون قلبكم واحداً ووجهتكم واحدة، فلا تضيعوا دقيقة واحدة.

إنَّ ملك فرنسا معروف بكمال إخلاصه، وفرط اختصاصه تجاه أستانة سعادتنا من قديم الزمان، وال هذا لان لذا فإننا نهييكم عدم التعرض للأرجاء الفرنسية، والتجار الفرنسيين، وحاذروا من أي

تصرف يخلف العهد والأمان وإن شاء الله الأعزَّ فقد تقرر إنزال أسطولنا الهمايوني العظيم إلى البحر في الربيع الخير فعليكم بعمل الترتيبات الملائمة وأنَّ أمير الأمراء سيبحر بنفسه، وسيصطحب معه قوارب اللوند المتواجدة في تلك الديار، وسيغير على ولايات الإسبان الملاعين بالشكل، الذي يراه مناسباً فعليكم بنهب وغارة وخسارة تلك الأطراف.

¹ محمة عائشة، المرجع السابق، ص 167.

الملحق رقم 44 : حكم إلى عامة أمراء و أعيان و قواد ولاية جزائر الغرب صادر بتاريخ 13 ربيع الثاني 981هـ / 11 أوت 1573م¹



¹ محمّة عائشة، المرجع السابق، ص 169.

حكم إلى أمير أمراء جزائر الغرب:

علمنا بإرسالك بخطاب إلى قبوداننا-دام إقباله-تعلمه فيه عن عصيان المفسد المدعو عباس، وتشير إلى أن قائده، وعساكره قد هزموا في المرة الأولى، وأنه حاول الكرة الثانية بنفسه مع خيالاته - المهزومين- إلا أنه هزم وقهر أيضا، وإن الخسائر، قد لحقت بجيشه، وأمواله، تعرض حاجتك لعدد أكبر من العسكر للقضاء المبرم عليه إن شاء الله تعالى.

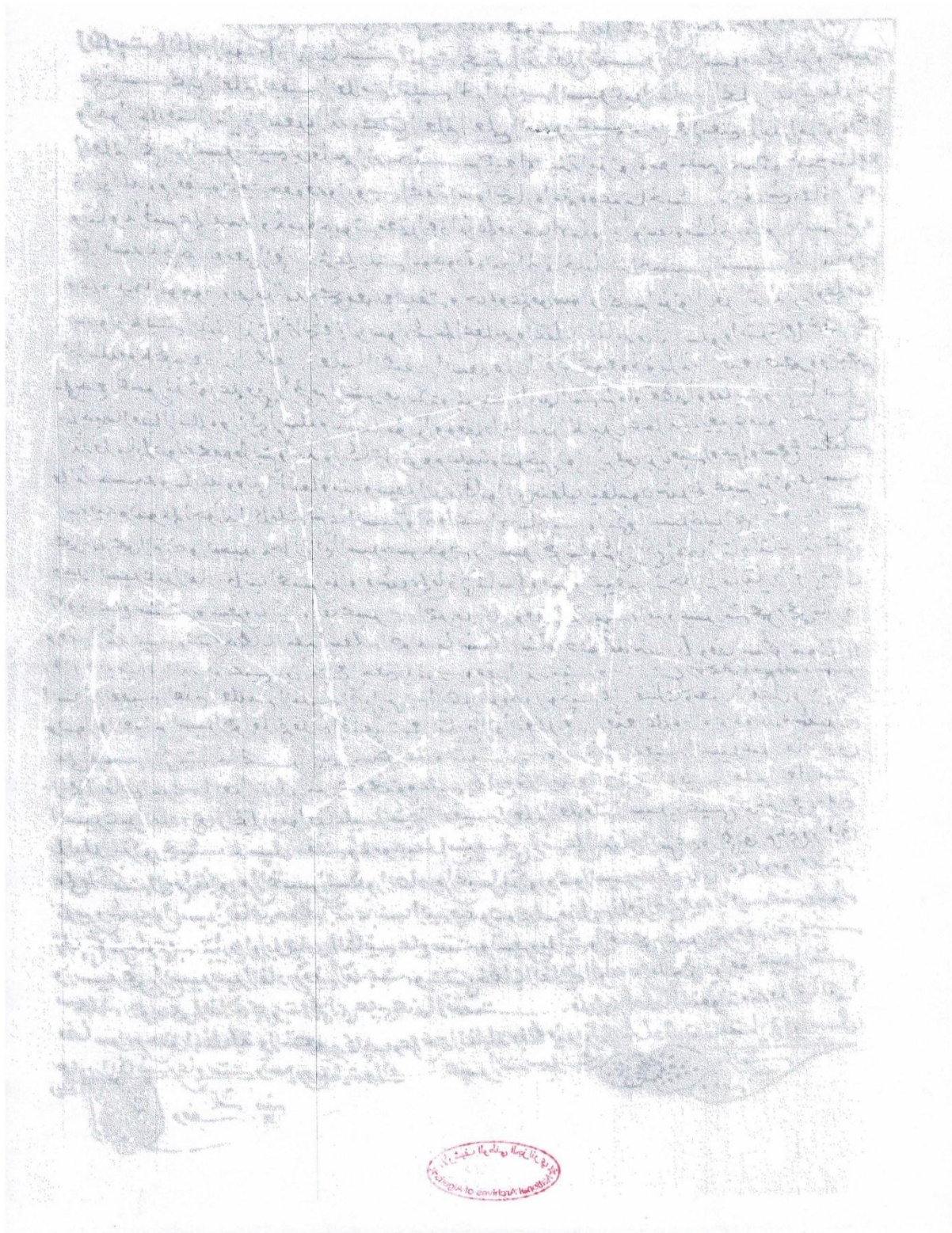
كما جاء في خطابك أنباء عن احتمال هجوم الشريف (حاكم فاس) على تلمسان وتذكر بأنك أرسلت رجالك لاستضاء صحة ذلك الخبر، وتفيد بأنه نظرا لتلك الأسباب لم تستطع الوصول إلى المكان، الذي أمرت أن تكون فيه إلا أنك تعرب عن املك بالالتحاق-بمشيئة الله-بالأسطول الهمايوني عند وصوله، هذا وقد أحاط علمنا الشريف بكل ما جاء في هذا الصدد، ولقد سبق أن أعلمت في خطابك السابق عن كمال إطاعة انقياد الشريف فما السبب وراء عصيانه الآن؟... وإننا نأمر.

حال وصوله، عليك بكمال التيقظ والانتباه، ولا تدع العساكر المنصورة تغفل عن واجبها، فضعهم على أهبة الاستعداد دائما بكامل عدتهم وعتادهم، وقد برصد الأعداء، وعليك بالاهتمام لدفع، ورفع كل من يسعى للعصيان، والطغيان.

وحين عودة أسطولنا الهمايوني-بمشيئة الله تعالى-إلى هذه الأطراف، فإذا كان ثمة محاولات من سفن الكفار-أصابعهم الدمار-إلا انتهز الفرصة، والهجوم على تونس وطرابلس، فينبغي التبصر والحذر من ذلك، وأخذ الاستعدادات اللازمة لمعاونتهم.

ولقد أعرب الأسرى، الذين أخذناهم من الكفار في هذه المرة عن استعداد قبودان الإسيان للهجوم، فيجب التيقظ من هذه الناحية، والتشاور مع أمير أمراء تونس وطرابلس، وأخذ الترتيبات اللازمة في البر مسبقا، وفيما إذا استولى الأعداء على أي مكان من تونس فيجب الاتحاد مع أمير أمرائها، وبقية العساكر للهجوم عليهم، وبذل المقدور لدفعهم ومنعهم عن ذلك، ولقد أرسل أمير شريف بهذا الخصوص إلى أمير أمرائها.

¹ محمة عائشة، المرجع السابق، ص 170.



1

¹ سلسلة المحاكم الشرعية وثيقة رقم 2 علبة 34، الارشيف الوطني الجزائري.

LOUIS XIV
A IBRAHIM, PACHA D'ALGER.

Paris, le 14 juin 1659.

Illustre et magnifique Seigneur,

Ayant pourvu de la charge de Gouverneur et Consul du Bastion de France en Barbarie le sieur Louis Campon, écuyer de notre ville de Marseille, pour rétablir cette place en son négoce, nous avons bien voulu vous écrire la présente, pour vous dire que vous nous ferez plaisir très agréable de le favoriser de votre autorité et protection, et de ne souffrir qu'il lui soit fait, mis ou donné aucun trouble ou empêchement, mais au contraire toute l'aide et l'assistance dont il aura besoin, comme nous ferions, en pareil cas, si nous en étions requis. Cependant nous prions Dieu qu'il vous ait, illustre et magnifique Seigneur, en sa sainte garde⁽¹⁾.

Écrit à Paris, le 14e jour de juin 1659.

Louis.

¹Plante Eugene: **Correspondance des deys d'Alger avec la coure de France 1579, 1833** ,TI, paris, 1889 ,p56.

لويس الرابع عشر
إلى إبراهيم، باشا الجزائر

باريس، 14 جوان 1659

السيد المجيد والعظيم

لتقليدنا بمنصب حاكم و قنصل باستيون فرنسا في "بلاد البربر" السيد لويس كامبون، تارس مدينتنا
مارسيليا، لأجل إعادة تجارة هذا المركز إلى نصابها، وددنا حقاً أن نكتبكم بهذه الرسالة، لنقول لكم أنه
سيسرنا غاية السرور أن ترعوه بنفوذكم و حمايتكم، و أن لا تقبلوا بأن يفعل أو يوضع أو يسبب له أية
بليلة أو عرقلة، لكن على العكس [أن يمنح] كلّ العون و المساعدة التي سيحتاجها، كما كنا سنفعل في حال
مماثل، لو طلب منا ذلك.

الحال أننا ندعو الرب أن يجعلكم، السيد المجيد والعظيم، في رعايته المقدسة.

كتب في باريس، اليوم الرابع عشر من جوان 1659.

لويس

الملحق 52 :رسالة "إبراهيم باشا" إلى السادة القناصل وحكام مدينة مارسيليا ،الجزائر 09 فبراير 1661 م¹:

ISMAÏL, PACHA D'ALGER,
A MM. LES CONSULS ET GOUVERNEURS DE LA VILLE DE MARSEILLE.

Alger, le 9 février 1661.

Messieurs,

Le grand désir que nous avons de rétablir dorénavant la bonne intelligence que nous avons eue de tout temps avec vous, pour ce qui, regarde le commerce, nous a fait prendre résolution de vous en donner des témoignages par la présente que nous avons bien voulu vous écrire, et par laquelle nous vous assurons que tous les Français en particulier, qui auront dessein de trafiquer avec nous, seront toujours les très bien venus et reçus dans les ports et places dépendant de notre domination. Nous promettons par les présentes qu'il ne leur sera fait, aucun déplaisir ni avanies, pour quelque cause et occasion que ce soit, mais au contraire toute aide, faveur et assistance, qu'ils peuvent y venir en toute sûreté, soit pour, le négoce, soit pour la traite des esclaves, et qu'il leur sera gardé une foi inviolable, ainsi que nous ordonnons à ceux qui sont établis par nous aux commandements des dites places ; et pour assurance de ce, nous avons mis et posé sur les présentes nos sceaux accoutumés⁽¹⁾.

(Sceau)

ISMAÏL,
PACHA D'ALGER,

¹ Plante Eugene: **Correspondance des deys d'Alger avec la coure de France 1579, 1833** ,TI, paris, 1889,p57.

باشا الجزائر،
إلى السادة قناصل و حكام مدينة مارسيليا

الجزائر، 9 فبراير 1661

سأدتني،

الرجبة الكبيرة التي لدينا لإحلال من الآن الوفاق الحسن الذي كان لنا من زمان معكم فيما يخص التجارة، جعلنا نتخذ قرار إعلامكم بذلك في هذه الرسالة التي وددنا أن نكتبكم بها، والتي عبرها نوكد لكم أن جميع الفرنسيين، وبوجه خاص الذين لهم نية الإتجار معنا، سيكونون دائماً مرحب بهم و سيستقبلون جيداً في الموانئ و المواقع التابعة لسلطتنا. نعد بهذه الرسالة أنه لن يسبب لهم أي كدر أو مهانة مهما يكن السبب أو الظرف، بل على العكس [سنمنحهم] كل العون، الرعاية و المساعدة، و أنه يمكنهم المجيء بكل أمان، سواء للتجارة أو للنخاسة، و أنه ستحفظ لهم حرمة لا تنتهك، كما نأمر بذلك أولئك الذين نقيمهم في قيادات المواقع المذكورة ؛ و للتأكيد على ذلك، و ضعنا و ختمنا هذه الرسالة بأختامنا المعتادة.

(ختم)

باشا الجزائر

ISMAÏL, PACHA D'ALGER,
A M. TRUBERT, COMMISSAIRE DU ROI ET CONTRÔLEUR GÉNÉRAL
DE LA MARINE DU LEVANT.

Alger, le 26 novembre 1668.

Comme nous avons donné une entière créance à tout ce que vous nous avez dit de la part du Roi⁽¹⁾, aussi nous avons la confiance que vous aurez rendu un fidèle témoignage à Sa Majesté, et comme il est passé beaucoup de temps sans que nous ayons reçu aucune de vos nouvelles, et que d'ailleurs nous avons appris que les Anglais sèment le faux bruit, partout où ils se trouvent, que nous avons rompu la paix et que nos corsaires prennent les Français, ce qui est contre la vérité⁽²⁾, nous avons résolu d'envoyer un exprès à Marseille, sur un de nos vaisseaux, avec nos lettres pour Sa Majesté, afin de l'assurer de la continuation de l'amitié que nous avons contractée par le traité de paix que nous faisons observer. Que si les vaisseaux qui étaient, la campagne passée, au service du Grand Seigneur prirent trois embarcations qui se disaient Françaises, ce fut son Envoyé, qui était chef dans l'armée, qui les fit de bonne

prise pour les avoir trouvées au service des Vénitiens et portant des vivres en Candie, en quoi nous n'avons point de part. Si vous vous trouvez à la Cour, nous vous prions de le faire entendre au Roi, et de faciliter la réponse favorable que nous attendon⁽¹⁾. Nous adressons notre Envoyé à Monsieur l'Intendant à Marseille⁽²⁾, que vous et le sieur Consul⁽³⁾ nous avez fait connaître ; nous espérons qu'il aura agréable de s'employer en cette négociation, que vous l'obligerez à nous envoyer au plus tôt les matériaux que nous lui demandions par notre mémoire⁽⁴⁾, et que vous n'oublierez pas ce que vous avez dit à Ali à votre départ⁽⁵⁾. Je ne doute pas que vous n'y fassiez votre possible ; j'agréé toujours votre bonne volonté, et je suis, attendant de vos nouvelles,

Monsieur,

Votre bien affectionné serviteur,
(Sceau)

¹ Plante Eugene: **Correspondance des deys d'Alger avec la cour de France 1579, 1833**, TI, paris, 1889 ,p62.

إسماعيل، باشا الجزائر
إلى السيد تروبير، مفوض الملك و المفتش العام لبحرية الشرق

الجزائر، 26 نوفمبر 1668

كما كانت لنا ثقة كاملة عن كل ما ذكرته من قبل الملك، فإنه لدينا الثقة أيضاً بأنك أدليت بشهادة أمينة عن صاحب الجلالة، ولأنه قد مرّ الكثير من الوقت دون أن نكون تلقينا شيئاً من أخباركم، وأنه فضلاً عن ذلك علمنا أن الإنكليز حيثما كانوا ينشرون إشاعة بأننا خرقنا معاهدة السلم وأن قراصنتنا يأسرون الفرنسيين، إن ذلك مخالف للحقيقة، لقد عزمنا على إرسال رسول إلى مارسيليا، على إحدى بوارجنا، مع رسائل إلى صاحب الجلالة لكي نؤكد له استمرار الصداقة التي التزمنا بها في معاهدة السلم المتقيدين بها. وإن قامت البوارج التي كانت، في الحملة السابقة، في خدمة السيد العظيم بأخذ ثلاثة مراكب ادّعت أنها فرنسية، فمبعوثه الذي كان قائداً للقوات، هو الذي اعتبرها غنائم جائزة لأنها وجدت في خدمة البنادقة و حاملة المون إلى كاتديا، و لم يكن لنا أي دخل في ذلك. إن كنت في البلاط، فنرجو منك أن تفهم ذلك للملك، و تمهّد للجواب الملانم الذي نأمل.

لقد وجهنا رسولنا إلى السيد القيم بمارسيليا**، الذي عرفتنا أنت و السيد القنصل به ؛ نرجو أن يطيب له السعي في هذه المفاوضة، و أن تحثه على أن يرسل لنا في أقرب الآجال اللوازم التي طلبناها منه في مذكرتنا، و أن لا تنسى ما قلته لعلي [آغا] قبل رحيلك. لا أشك في أنك ستقوم بقدر المستطاع ؛ أعتمد دوماً على حسن إرادتكم، و إنني أنتظر من أخباركم،

سيدي،

خادمكم المخلص جداً

(ختم)

إسماعيل،
باشا الجزائر

ISMAÏL,
PACHA D'ALGER,

ISMAÏL, PACHA D'ALGER,
A LOUIS XIV⁽²⁾.

Alger, 1669.

Sire,

La venue de Trubert, votre Commissaire, a été généralement de grande satisfaction à tout ce pays et à nous en particulier. Il nous a rendu votre lettre dans laquelle je remercie Votre Majesté des témoignages qu'elle nous donne de son amitié⁽³⁾. Nous avons reçu fort agréablement la proposition que mon dit sieur Trubert nous a faite de la part de Votre Majesté de rompre avec toute l'Europe et nous tenir bien unis avec vous⁽⁴⁾. Il rendra compte en détail des mesures qu'il y a à prendre pour exécuter l'intention

¹Plante Eugene: **Correspondance des deys d'Alger avec la coure de France 1579, 1833**, TI, paris, 1889,p66.

إسماعيل، باشا الجزائر
إلى لويس الرابع عشر

الجزائر، 1669

مولاي،

أشعر قدوم السيد تروبير، مفوضكم، جميع البلد على العموم برضى كبير و نحن على وجه الخصوص.
لقد أدى لنا رسالتكم التي أشكر من خلالها جلالكم على الدلائل التي منحنا إياها عن صداقته. تلقينا بمنتهى
السرور الإقتراح الذي تقدم به السيد تروبير من قبل جلالكم بالقطع مع جميع أوربا و الوقوف متحدين
معكم. و سيقدم لكم بياناً مفصلاً عن التدابير اللازم إتخاذها لتنفيذ رغبة جلالكم، التي سنعمل معها دوماً
بحسن نية. لقد كلفنا السيد تروبير بمذكرة ليتقدم بها إلى جلالكم. و نحن ننتظر النتيجة و ندعو الرب القدير
أن يشملكم برعايته المقدسة.

حرر بالجزائر، العام 1079 من الهجرة

(ختم)

إسماعيل،
باشا الجزائر

الملحق 55: معاهدة السلم المثنوي مع فرنسا (1101هـ/1689م)¹

البند 1

إن المعاهدات المبرمة بين إمبراطور فرنسا والسلاطين، والتي سيبرمها مستقبلاً، سفير فرنسا والمبعوث الخاص لدى الباب العالي من أجل السلم وراحة ممالكها، ستحترم وتراعى بدقة وإخلاص بدون الإخلال بها من أي من الطرفين

البند 3

سيقر السلم في المستقبل بين إمبراطور فرنسا و الأماجد الباشا داي والديوان وميليشيا مدينة ومملكة الجزائر وبين رعاياهما ويستطيعون المتاجرة في كلا البلدين والإبحار بكل أمان بدون التعرض لهم لأي سبب وتحت أي عنوان كان.

البند 4

وللوصول إلى السلم المعني، فقد اتفق الطرفان على حرية شراء الأرقاء بدون تمييز بينهم، بالسعر الذي يتم الاتفاق عليه بين الباشا وقنصل إمبراطور فرنسا باستثناء، طاقمي السفينتين محمد خوجة ومحمد الصغير الذين سيتم شراء الترك (عساكر الأوجاق) بسعر مائة وخمسين قرشاً للشخص الواحد ومائة قرش للفرد بالنسبة للأهالي، وتعهد الباشا بإطلاق سراح نفس العدد من الأرقاء الفرنسيين وبنفس السعر (مائة قرش).

البند 7

عندما تلتقي السفن المجهزة للحرب سواء كانت خرجت من ميناء مدينة الجزائر أو من أي ميناء من موانئ المملكة، بسفن مبحرة تحت راية فرنسا ومزودة بجوازات مستخرجة من الإميرالية وفقاً للنموذج الذي سيلحق بآخر هذه المعاهد سوف يترك لها الحرية لمتابعة رحلتها بدون أي عرقلة، ومساعدتها عند الحاجة مع الملاحظة أن لا يرسل إلى المراكب لزيارتها (تفتيشها) سوى شخصين وطاقم القارب الذي يحملها ولا يدخل أحد غيرهما إلا بإذن صريح من قائد المركب، نفس الإجراء تتبعه السفن الفرنسية مع مراكب الخواص التابعين لمدينة ومملكة الجزائر، الذين سيزودون بشهادات يمنحها القنصل الفرنسي المقيم بمدينة الجزائر والذي سيلحق نموذجاً لها في آخر هاته المعاهدة.

البند 8

تستقبل السفن الحربية والتجارية الجزائرية والفرنسية على السواء في موانئ كلا البلدين وتعطى لها كل أنواع المساعدة، كما يرخص لها التزود بالمواد التموينية والمعدات وغيرها وبصفة عامة كل ما هي في حاجة إليه بالسعر الجاري في المكان الذي وقع فيه الشراء.²

¹ جمال قنان: : نصوص ووثائق...، المرجع السابق، ص 122، 123.

² نفسه، ص 124، 125.

البند 9

وإذا هوجمت سفينة تجارية فرنسية، كانت راسية في ميناء مدينة الجزائر أو في أحد موانئ هذه المملكة من طرف سفن حربية معادية وكانت هاته مرمى مدافع الحصون سوف يدافع عنها وتحمي من طرف مدافع هذه الحصون، وقائد الميناء يلزم السفن المعادية المهاجمة بالسماح للسفينة الفرنسية بالخروج من الميناء، وترك الوقت الكافي لها للابتعاد، ولن يسمح للسفن المعادية بمطاردتها أثناء ذلك، نفس الالتزام يتعهد به إمبراطور فرنسا بشرط أن لا تقوم السفن الحربية الجزائرية بمهاجمة مراكب أعدائها على مسافة عشرة فراسخ من الشواطئ الفرنسية.

البند 10

تعهد إمبراطور فرنسا على أنه في حالة شراء الأتراك للعمل في أجفانه ووجد من بينهم من هو من هيئة عسكري أوجاق الجزائر ويعد إثبات أمام قنصل فرنسا صفتهم هاته ويتم الاتفاق على مبلغ فديتهم مع أمين صندوق الأجفان، فإنه سيعطي أوامره لإطلاق سراحهم مباشرة بعد تسليم مبلغ الفدية من طرف أمين صندوق الأجفان¹.

البند 11

كل الفرنسيين الذين تم أسرهم من طرف أعداء إمبراطور فرنسا وسيقوا إلى مدينة الجزائر أو إلى أحد موانئ هذه المملكة، سيطلق سراحهم في الحال بدون حجزهم واسترقاقهم. عندما يتم أسرهم من طرف سفن طرابلسية أو تونسية أو غيرها ويساقون إلى الجزائر سيعطون الأوامر إلى لكل الحكام بحجز هؤلاء الأرقاء وتقينتهم ليتم شرائهم من طرف فرنسا بأفضل سعر ممكن، نفس الإجراء يتبع في فرنسا بالنسبة لرعايا مملكة الجزائر.

البند 15

كل التجار الفرنسيين يرسون في موانئ أو على شواطئ مملكة الجزائر يستطيعون إنزال سلعهم، والقيام بالبيع والشراء بكل حرية ولن يدفعوا من الرسوم والضرائب غير التي يدفعها سكان هذه المملكة و يحضى بنفس هذه المعاملة التجار الجزائريون في الموانئ التابعة للإمبراطور فرنسا، وفي حالة ما إذا أودع التجار بضاعتهم في المستودعات ولم يبيعوها فإنهم يستطيعون إعادة شحنها بدون دفع أية رسوم².

البند 18

يستطيع الإمبراطور الفرنسي المعني بالاستمرار في اعتماد قنصل له بالجزائر لمساعدة التجار الفرنسيين في كل ما يحتاجون إليه ويستطيع هذا القنصل القيام بشعائر الدين المسيحي في منزله وبكل حرية هو، وكل المسيحيين الذين يريدون مشاركته. كما يستطيع أترك مدينة ومملكة الجزائر القيام بشعائر دينهم في منازلهم،

¹ جمال قنان: : نصوص ووثائق...، المرجع السابق، ص 125، 126.

² نفسه، ص 125.

إذا ما وفدوا إلى فرنسا. إن القنصل المعني يكون له حق في المنازعات التي قد تنشأ بين الفرنسيين فلا يحق للقضاة الجزائريين التدخل في ذلك.

البند 19

إذا ما أراد فرنسي أن يتحول إلى تركي (أي مسلم) فإنه لا يقبل طلبه إلا بعد أن يكرر رغبته ثلاث مرات في الأربع وعشرين ساعة والتي خلالها سيودع لدى القنصل ويكون تحت رعايته.

البند 26

إذا حدث انتهاك لهاته المعاهدة، فإنه لا يجوز القيام بأي عمل عدائي مضاد إلا بعد الرفض القاطع بتقديم الترضية المشروعة، ولأجل دعم التجارة ووضعها على أسس ثابتة وقادرة فإن الباشا داي الديوان و أوجاق الجزائر سيوفدون واحدا من الأعيان من بينهم، عندما يرون ذلك مناسبا، للإقامة في مرسيليا لسماع الشكاوى التي قد تقدم في عين المكان حول التجاوزات التي تكون قد وقعت لهاته المعاهدة، وسيلقي المبعوث كل أنواع المعاملة الحسنة¹.

البند 31

إن البنود أعلاه ستثبت ويصادق عليها من طرف إمبراطور فرنسا والباشا داي و الديوان و أوجاق مدينة ومملكة الجزائر للعمل بها واحترامها من طرف رعاياها لمدة مائة سنة، ولكي لا يتذرع أحد بجهلها فإنها تشهر وتعلق في أي مكان تدعوا الحاجة لذلك.

حرر في التاسع من ذي الحجة الحرام سنة مائة بعد الألف هجرية والحمد لله رب البرية².

¹ جمال قنان: : نصوص ووثائق...، المرجع السابق، ص 126، 127.

² نفسه، ص 127.

ليحفظ الأقوى والأسعد الإمبراطور العظوف صاحب العرش العالي والمنصة الرفيعة، دائما. يترجى جلالته بكل تواضع، كل¹ خدماته وأصدقائه الغارقين في بحر نعمته، المقيمين حاليا في بالجزائر رباط الجهاد الكبير وكل الموظفين الحاكمين بها، آغوات الديوان الكبير والكاشيات والبلوك باشي وشواش وضباط المراكب ورياس السفن وقادة الجيش البري وكل الذين يوجدون بها من عساكر ورجال الحرب كبيرهم وصغيرهم، أن ينظر بعين الاهتمام للرجاء الذي يلتمسونه عند بابه...

وبعد أن نوقشت كل هذه المسائل من طرفهم وتم الاتفاق عليها، قام الكاتب بتسجيلها وتدوينها بالشكل الذي يجب أن تكون عليه، وكل السادة أعضاء الديوان أخذوا الكلمة وتعهد جميعهم باحترام المعاهدة كما تم الاتفاق عليها بدون الإخلال بها في أي شيء سواء بطريق مباشر أو غير مباشر، إلى يوم الحساب والمنن التي نطلبها والتي سنبقى معترفين لكم بجميلها إلى الأبد هي ما يلي:

إطلاق سراح جميع الأسرى الأتراك منهم وأهل البلاد الذين هم من الجزائر والمقيدة أسماءهم في سجلات ديواننا سواء أولئك الذين هم من مليشيا الجزائر أو التابعين لسفن محمد خوجة ومحمد الصغير ووالي راييس وحسن راييس ومصطفى راييس.

إطلاق سراح جميع الأسرى الجزائريين الذين أسروا قبل ذلك، في وقت السلم: ثمانية وعشرون رجلا من سفينة قارة راييس، وثمانية حجاج إلى مكة (المكرمة) من رجالنا أسروا في السنة الماضية أمام تونس على متن سفينة إنجليزية، وخمسة رجال المتبقين من سفينة أيوب راييس، وستين من أسرانا الذين تعهد جلالته بإطلاق سراحهم للسفير الحاج جعفر وللمبعوث محمد خوجة، والذين بقوا آخر الأمر في فرنسا بالرغم من أوامر الملك والذي رد إلينا بدلهم أشخاص من جنسية أخرى لسنا في حاجة إليهم.

إن جلالته بمئة خاصة من طرفه وافق على رد سسيفيتين (من نوع كرافيل) للجزائريين ولقد تم استلام واحدة منهما ونلتمس أن يأمر ترد لنا الأخرى في أقرب الآجال مع تجهيزاتها ومعداتهما.

كنا قد شحنا سلعا على مركب من ماجورك مزودا من عندنا، لقد اشترت هذه السلع بأموال خزينة الجمهورية بهدف جني أرباح كبيرة من وراء هذه العملية، وهذه الأموال سحبت من الرصيد المخصص لدفع راتب المليشا واستولى عليها أحد رياس سفنكم الحربية يدعى برسان، وبما أن مبلغ عشرين ألف

(1) جمال قنان: نصوص ووثائق...، المرجع السابق، ص 126، 127.

ورقة من أموال الجمهورية قد ضاعت بسبب ذلك فإننا نشكو لجلالتكم من الضرر الذي لحق بنا بسبب ذلك ونتوسل إليه أن يرد إلينا أموال الخزينة كهدية منه¹

قام ربانين سفنكم مع بحارتهم، الذي قدموا إلى الميناء فاخطفوا، انتهاكا للسلم القائم، علانية ثلاثين أسيرا جهرا بعضهم تابع لبائلك والباقي تابعين لعساكر ميليشيا الديوان الفقراء، وحملوهم تحت رايتهم... هذا العمل هو ضد روح المعاهدات ومضر للطرفين، ومن شأنه أن يؤدي إلى حدوث فوضى عندنا وإعداد مؤامرة لاغتيالنا لولا أننا قمنا بطمأنة أصحاب هؤلاء الأسرى الذين التجئوا إلى السفن الفرنسية وتعهدنا بأن ندفع لهم فديتهم وأن نرد لهم المبالغ التي اشتروهم بها... وبخصوص هذه الشكوى فإننا نأمل من عدالة جلالته ليس فقط معاقبة القبطانيين بشدة وإنما أيضا دفع فدية هؤلاء الأسرى الذين التجئوا إلى سفينته.

إن السيد "لومير" خادم جلالته الذي عمل بكل جهد وإخلاص لعقد الصلح أثناء تردد الوسطاء لهذا الغرض والذي قدم خدمات مفيدة لكلا الطرفين، نلتمس من جلالته اعتبارا لهذه الخدمات واعتبارا للجمهورية أن يمنح للسيد المعني "لومير" رخصة التعيين كقنصل الجزائر.

ولكي نكون في وضع يسمح لنا بتوجيه ضربات انتقام شديدة ضد أعدائه بسهولة فإننا نرجو وعلى اعتبار كونه الأقوى والأكثر ثناء والأكرم من جميع الملوك بأن يقوم بإهدائنا بعض المعدات التي تحتاجها سفننا مثل السواري والحبال وأقمشة الأشرعة وكذلك بعضا من ذخيرة المدافع التي نحن في أشد الحاجة إليها...

(1) جمال قنان: : نصوص ووثائق...، المرجع السابق، ص128.



¹ توفيق المدني: حرب الثلاثمائة، المرجع السابق، ص 235.

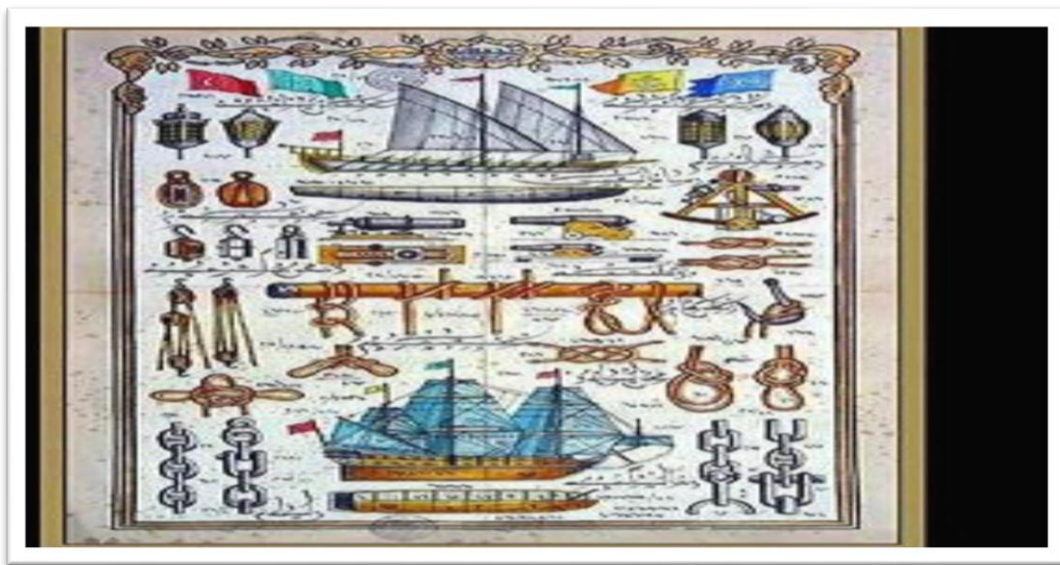
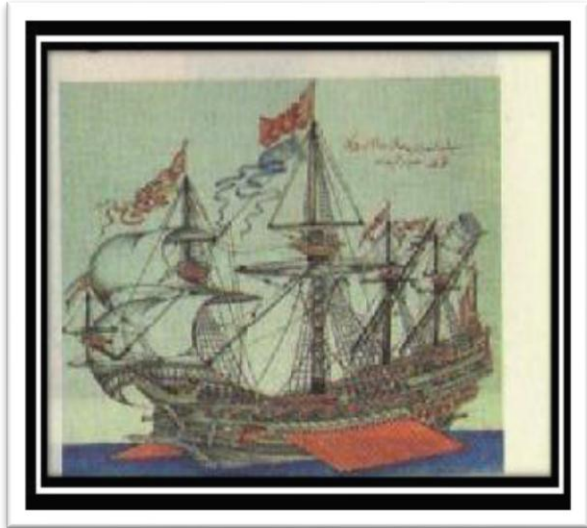
الحركة بصرار استغفر على ملك الذمير ومع شوعه وموت ولد ايعقوب ابرمشير وابراهيم
 بهارور مشيشير المذكورين في الهم اعلاء تلك جميع شكر الدار الكائنة بجومة الكبابكية داخل
 محروسة الجزائر المعروفة في القديم بدار خاوا المذكورة معهم في المشار اليه بفتضى ما رفع حيث
 اومى وحيما احيل عليه الاستغفار القام ثم اراد الدار المذكورة اهوت للسفوح وتعذر المارون
 بالرفا والته هي به وعجز الذمير المذكورون باقامة الشكر الذي بايديهم لضعف وفلة
 ما بيدهم وارادوا تسليم ذلك لم يدفع به وادع الضرع المسلم المارون تلك الناحية جانا
 بغير عوض وكان ذلك كذا حضر الارل شهيديه وبالحكمة الخفية من بلاد الجزائر النجمية
 بالله تعالى اما الشيخ الغاض في التاريخ ايدء الله الواضع لحابعه الرجوع اعلاء داء عن وعلاء
 الذمير المذكورون واشتدوها على انجسم انهم سلموا جميع الشكر المذكور من الدار -

المسكورة للدار العالية الخيرية المنصورة بعور الله تعالى بعرا استدافع من له نظر عنهم
 بذلك قبل الهام ناب عنها وهو المكرم السيد احمد امير جماعة البناء في التاريخ ابرم
 ورضيه وحاز لها جميع الشكر المذكور حوزا قاما كما يجب شرعا والتزم عنها باقامة
 الضرر المذكور وازالت على المار والمجاورين للدار المذكورة تصليما وفبولا والتي امانات
 وشهد على من ذكر بما ذكر على فخر ما يبر فيه ومكرم الكل جال كمال الاشهاد عليه وعرض
 بتشيخ او اخر رجب الفجر الاصب عاوار بعير وماتين والعب محرم وبعه الله بمنه
 ومحرم وبعه الله بمنه

ونصر ما يجاب الغاض الموضوع اعلا اصل هذا الرسم: المتوكل على الباري عبد مفتاح
 الدين حسام الدين البخاري ٣٧٣هـ

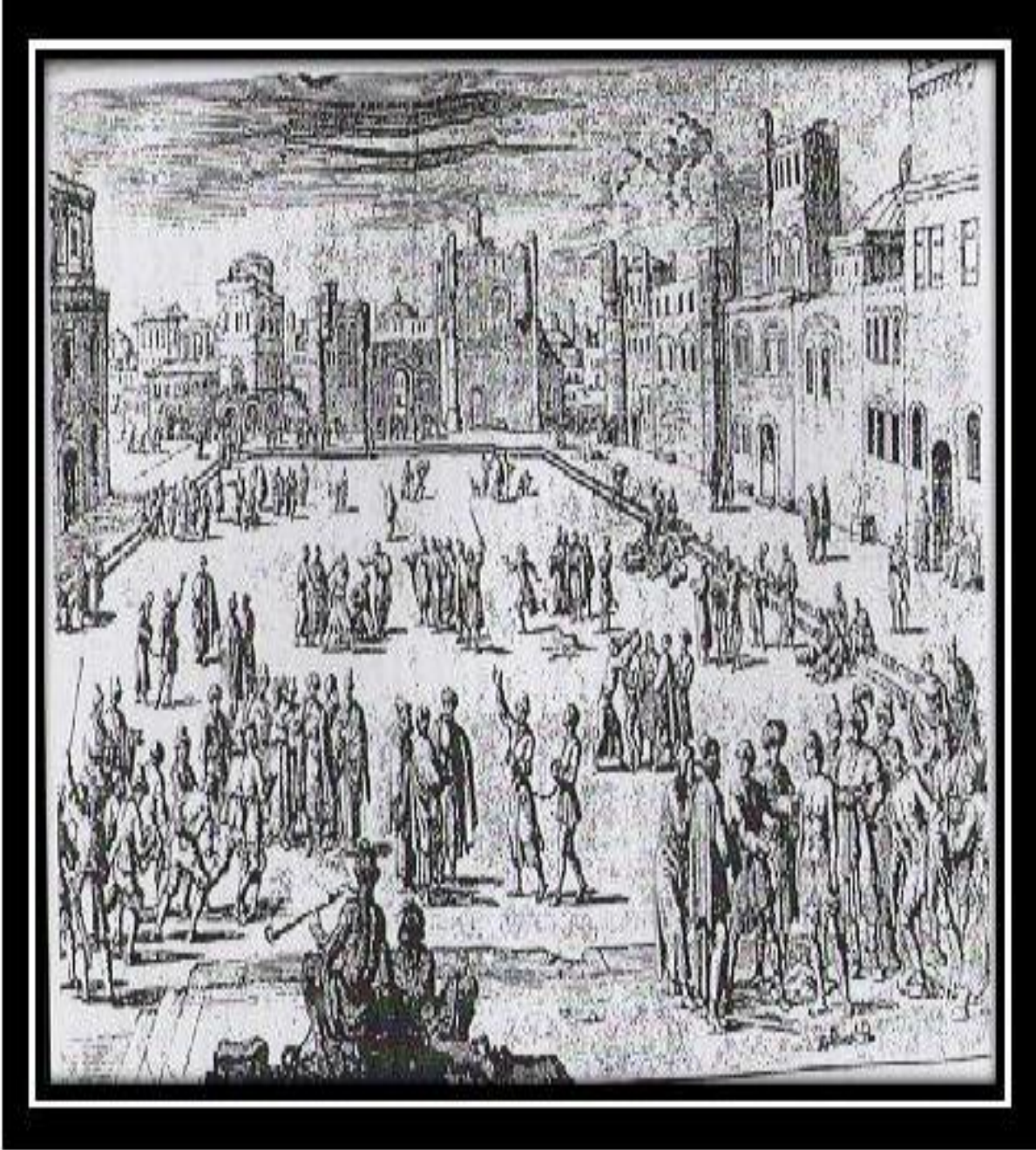
¹ علبة رقم 63، وثيقة رقم 90.

الملحق رقم 62: أنواع السفن المستعملة¹



¹ مذكرات خير الدين، تر: محمد دراج، المصدر سابق، ص 233-234.

الملحق رقم 63 :صورة لسوق الأسرى في مدينة الجزائر¹



¹ عطلي محمد الأمين، نشاط البحرية الجزائرية في القرن السابع عشر و أثره في العلاقات الجزائرية الفرنسية، المرجع السابق، ص178.

الملحق رقم 64 :نظرة الأب "دان" لوضعية الأسرى الأوروبيين في الجزائر¹



¹ محنة عائشة، المرجع السابق، ص 176.



¹ عطلي محمد الأمين، المرجع السابق، ص 179.



¹ مولود قاسم نايت بلقاسم :المرجع السابق ،ص 132 .



¹ كاميللو مانغريني: العلاقات بين ليبيا وإيطاليا ، تاريخ البحرية الليبية ، ترجمة وتقديم :إبراهيم حمد المهداوي ، ط1 ، منشورات جامعة قار يونس ،ليبيا 1992 ،ص ص 78 – 82 .



¹ DE la Primaudaie : **Documents inédits sur l'histoire de l'Occupation Espagnole en Afrique (1506–1574)** , publiés par : DE M. le Maréchal de Mac-Mahon, Duc de Magenta, extrait de la R.A.A. Jourdan, Libraire-éditeur ,Alger 1875, p4.



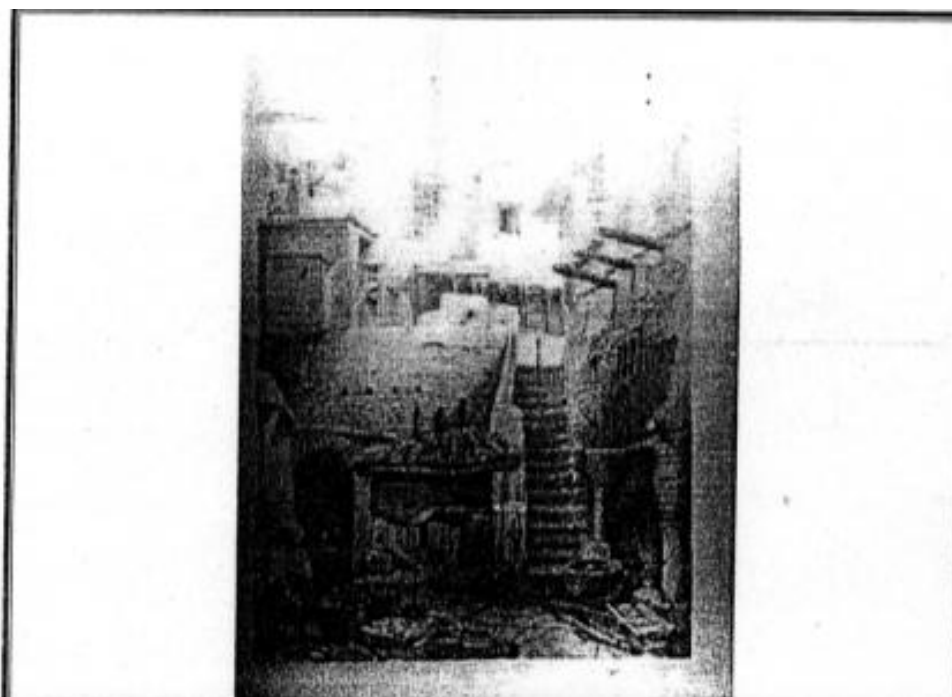
¹ DE la Primaudaie : Documents op.cit, p 4 .



¹ عطلي محمد الأمين، المرجع السابق، ص179.



¹ زهية بك كردرة، المرجع السابق، ص 262.

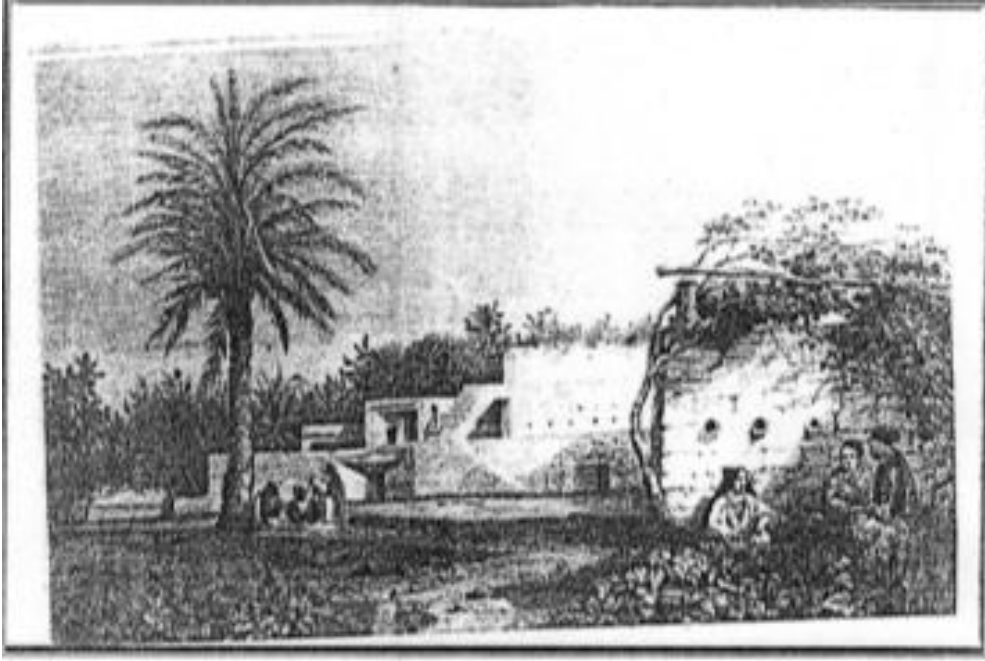


السباغ



الخرائط

¹ زهية بك كردرة، المرجع السابق، ص 264.



مصنع القرميد

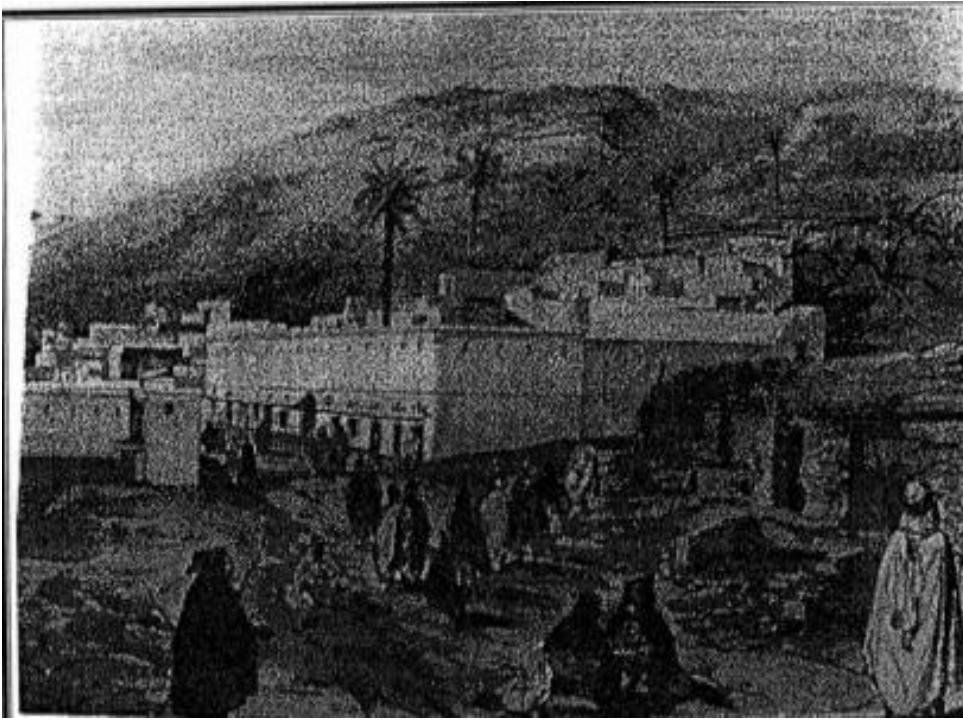


فرن لصناعة الجير

¹ زهية بك كردرة، المرجع السابق، ص 265.



سوق باب عزون



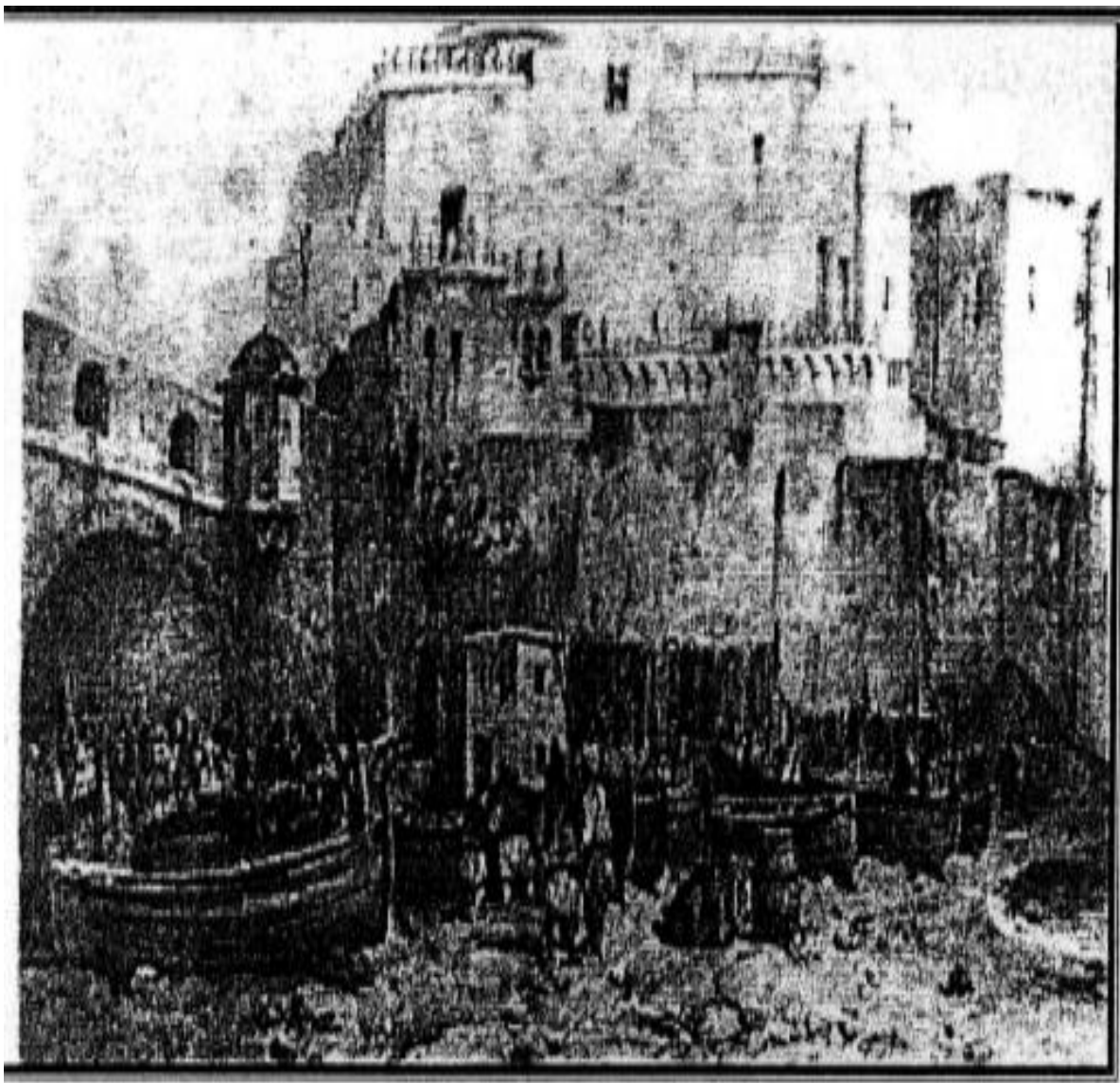
ضاحية باب عزون

¹ زهية بك كردرة، المرجع السابق، ص 267.



خان القوافل بالأناضول

¹ زهية بك كردرة، المرجع السابق، ص 269.



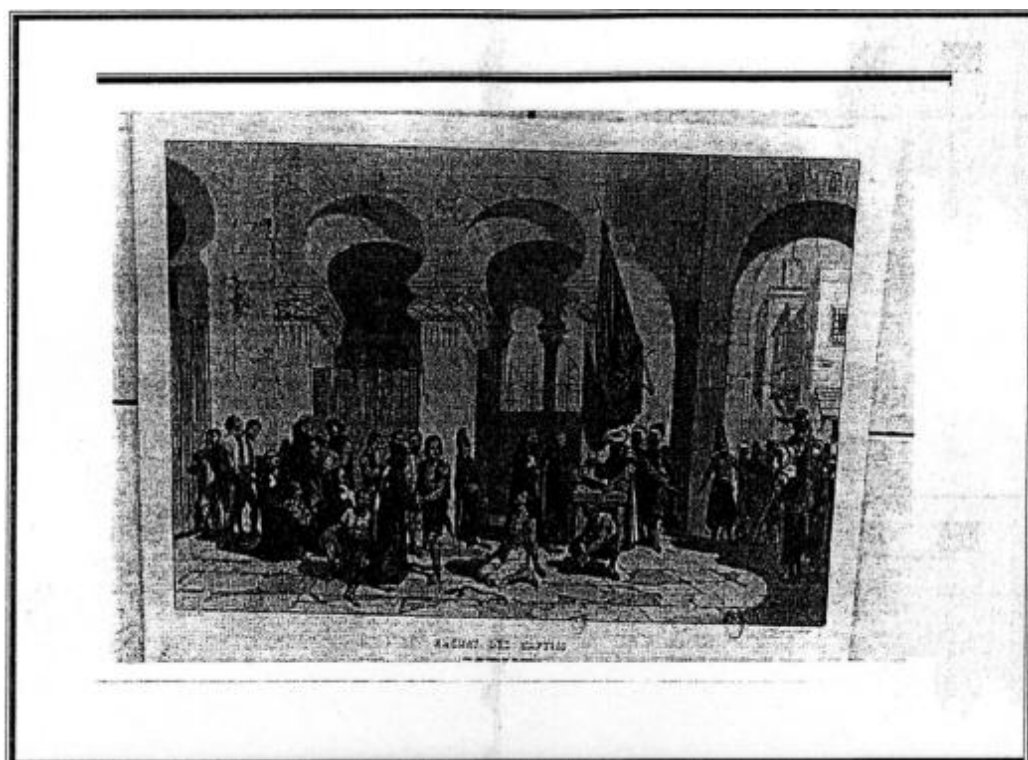
باب البحر (دار الصناعة)

¹ زهية بك كردرة، المرجع السابق، ص 272.

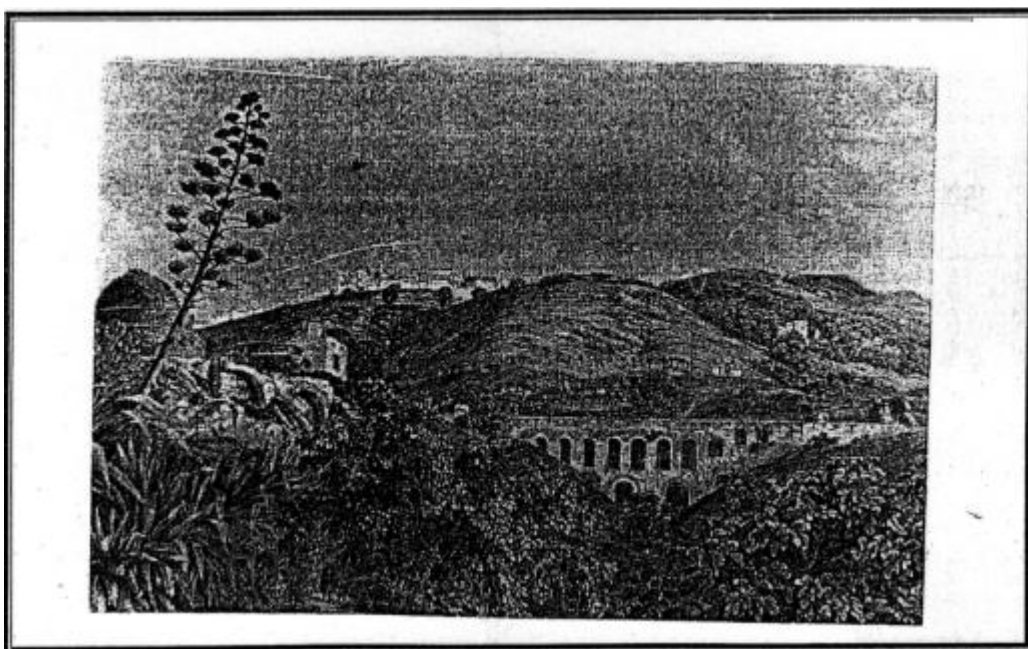


سوق بوفاريك

¹ زهية بك كردرة، المرجع السابق، ص 276.



عتق الأسرى



قناة باب الواد

¹ زهية بك كردرة، المرجع السابق، ص 279.



باب (باب الواد)



باب عزون

¹ زهية بك كردرة، المرجع السابق، ص 282.

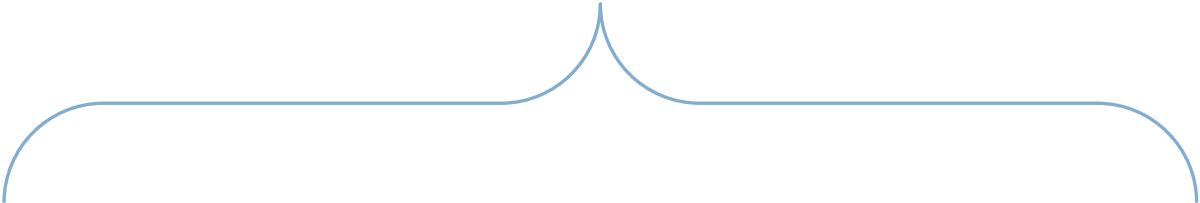


كتابة تذكارية (مخزن العشور)



كتابة تذكارية (مخزن القمح)

¹ زهية بك كردرة، المرجع السابق، ص 284.



الفهارس

فهرس الأعلام

فهرس الاماكن و البلدان

فهرس القبائل و الجماعات

فهرس المحتويات



فهرس الأعلام

(أ)

الاب دان : 140،143،49.

ابراهيم باشا : 214،53،50،49،47،41.

ابراهيم عرباجي : 134،132.

ابن المفتي : 42.

ابن خلدون : 179،154،153،123،121.

ابن صخري : 41،40.

ابن مريم : 40.

أبو القاسم سعد الله : 40، 39،14.

ابو جمال يوسف باشا : 47،41.

أبو عمر عثمان : 194.

أحمد باشا : 114،47،41،39.

أحمد بن القاضي : 40،31،24.

أحمد بن شركس : 110.

أحمد توفيق المدني : 9.

أحمد شريف الزهار : 12،9 .

احميدة بن حاج علي البرادعي : 156.

اخسيمينيس : 88،85.

الأخوة ببروس : 213،159،20،18.

ادمون كاسن : 82.

اسحاق ببروس : 23.

اسماعيل العربي : 13 .

اسماعيل باشا : 68.

الآغا الحاج علي : 208،138،103،100.

الآغا شعبان : 66،7.

ألبير دوفو : 205،141،12،10،9 .

ألكسندر السادس : 88،85.

اندري ريمون : 159.

ايزابيلا : 88،85.

ايمانويل أرندا دوبروج : 146،143.

(ب)

باشا الداي محمد بكداش : 7.

بروديل : 186،123،91.

بلانشي : 13.

بلونتي : 10، 12.

بليل رحمونة : 11.

بول الثالث : 95.

بول ماصون : 10.

بونشطران : 78.

بيار دان : 13 .

بيار غرانشان : 120.

بيتيس دي لأكروا : 23، 132، 134.

بيرس بن اسحاق كوهين : 155.

بينك : 137.

(ت)

تركي رايس : 100.

تروبير : 67.

تورفيل : 71.

توماس بيكه : 181.

توماس لينش : 211.

(ج)

جاك أرنو : 67.

جان أندري دوريا : 114،96،95،93،92،86،31.

جان دي لا فوريه : 58.

جعفر باشا : 191.

جعفر جنويز : 122.

جمال قنان : 112،13،10.

جواب كانوا : 114.

جول فرانجياني : 58.

جوليان : 30.

جون باتيستيت وولف : 15 .

جيرمينو فيانيللي : 85.

جيمس الأول : 82،81.

جيوفاني دوريا : 93.

(ح)

الحاج باشا : 114.

الحاج جعفر : 72.

الحاج حسين ميزومورتو : 105،76،72،71،70.

الحاج ناصر : 182.

حسن أغا : 32،23.

حسن الوزان : 178.

حسن بن خير الدين : 148،39،36،34،32،24.

حسن فنزيانو : 174،59،34.

حسن قورصو : 148،52.

حسين ابن الياس باي : 49.

حسين باشا : 75،48،49.

حمدان خوجة : 149،122.

حمزة خوجة : 41.

حمو الثالث : 23.

(خ)

خضر باشا : 42،43،47،49.

خير الدين بربوس : 18،19،23،24،25،26،29،31،32،34،44،54،87،96،109،213.

(د)

دالمان : 61.

دالي أحمد باشا : 45،47.

دالي حسن أبو ريشة : 47.

دانيال بانزاك : 14.

الداي الحاج محمد التركي : 68،69.

الداي حسين : 7،72.

الداي شعبان : 7،47،71،73،76،77،78،79،80،110.

الداي محمد بن حسين : 80.

الداي مصطفى : 80.

دايير : 135.

درغووث باشا : 130.

دوترفيل : 112،70.

دوزر : 80.

دوزو : 80.

دوغرامون : 9، 14.

الدوق دي كانثاو : 187.

دوكيز : 62،61.

دوكين : 112،102،76،71،70.

دوماي : 143،112.

دوموا ساك : 62.

دي بوفورت : 67،66.

دي سنيلي : 71.

دي فياس : 96.

دي كلير فيل : 101،66.

دي مرتل : 68،67.

ديستري : 113،73،72،70،11.

ديسو : 69.

(ر)

الرايس حميدو : 174،10.

رجب رايس : 64،43.

روارد دو كارد : 12.

روييرت كول : 141.

روييرت مانسل : 82.

روني دي بوا : 146.

روني لومير : 78.

(س)

سانسو نبللو : 65،64،61.

سعد السعود : ز ، 111.

السلطان ابراهيم : 60.

السلطان كوكو : 46.

سليم الأول : 25.

سليم التومي : 143،40.

سليم الثاني : 59.

سليم بابا عمر : 11.

سليمان القانوني : 29، 35، 58، 87، 89، 92.

سليمان باشا : 48.

سليمان رايس : 92.

سواريز : 187، 190.

سيمون دانصا : 43، 63.

(ش)

شار لكان : 23، 35، 86، 87، 89، 94، 95، 117، 130.

شارل : 13.

شارل التاسع : 59.

شارل الثاني : 83، 187.

شارل الخامس : 86، 124، 130.

شعبان الزناني : 111.

(ص - ط - ع)

صالح ريس : 52،44،34،33،32.

الطبيب شاو : 13 .

عائشة غطاس : 11 .

عبد الله محمد بن ميمون الزواوي النجار : 11 .

عروج : 213،144،131،130،40،21،20،18.

عزيز سامح التر : 14،10 .

علج علي : 148،130،126،44،34،33.

علي باشا : 114،42،41.

علي بتشين رايس : 134،132،122،92،65،50،46.

علي بن محمد التيمقوتي : 175،122.

علي رايس : 46.

علي شاوش : 214،108،104،5.

علي يولداش بن محمد : 157.

عمار بن اسحاق : 155.

(غ)

غراماي : 211،143،120.

غرون شو : 137.

غوميز : 189.

(ف)

فرانسوا الأول : 211،117،95،87،86،57،35.

فرانسوا شيه : 132.

فرانسييس نايت : 50 .

فرديناند : 143،86،85،84.

ف- كنايت : 190.

فوفري : 76.

الفونس روسو : ز .

فونشير دي برادي : 154،114.

فيرناندو دي زافيرا : 85.

فيليب اوغست : 123.

فيليب لوفاشي : 146،144،143.

(ق)

قاجي باشا : 48،43.

قاسي بنت باروخ اليهودي : 155.

قبطان باشا : 39.

قبودان باشا : 30.

قودو مونكاد : 31.

(ك)

كارلن ديدا : 211.

كارلوس الخامس : 60،58،57.

كتونغهام : 125.

كورين شوفالييه : 138،121.

كوكيال : 65.

كولبير : 102،101،72،65.

الكونت كوديت : 144.

(ل)

لانشون : 137.

لوجي دو تاسي : 13، 135.

لورينثو دي باديا : 85.

لوفاشيي : 70.

لويس الثالث عشر : 64، 102، 165.

لويس الخامس عشر : 80.

لويس الرابع عشر : 65، 66، 67، 68، 69، 71، 72، 73، 75، 77، 79، 80، 81، 96، 102، 119.

(م)

مارسيل : 75، 76، 77.

مازاران : 101.

مامي ارناووط : 122.

مامي قورصو : 43.

مامي نابوليأتو : 43، 52.

محمد ابن علي : 31.

محمد الأمين : 71، 73، 76، 77، 78.

محمد العربي الزيري : 10، 14، 179، 182.

محمد الفريرا : 40.

محمد بن عبد الرحمان بن رقية التلمساني الجديري : 11، 69، 128، 135، 141.

- محمد بن عبد الكرم : 11 .
- محمد تكلري باشا : 50.
- محمد عوجية رايس : 43.
- محمود علي عامر : 14 .
- مراد الثالث : 59.
- مراد الثاني : 43.
- مراد باشا الأعمى : 49.
- مراد رايس : 92،82.
- المزاري بن عودة : 11 .
- مصطفى أغا : 62.
- مصطفى حافظ كوسة : 49.
- مصطفى باشا : 47.
- م-فويوم : 187.
- المقراني : 47 .
- المنور مروش : 187،14،10.
- المهدي بوعبدلي : 126.
- مولود قاسم نايت بلقاسم : 54.

(ن)

ناصر الدين سعيدوني : 10، 14، 126، 176، 177، 185.

نشوالي رايس : 52.

(هـ)

هاكوليت : 190.

هايدو : 9، 10، 13، 120، 121، 132، 148، 171، 185، 189، 190، 211.

هنري الثامن : 87.

هنري الرابع : 43، 59، 61، 62، 63، 87.

(و)

وليام سبنسر : 127.

وليام شالر : 9، 13، 155، 171، 183.

الونشريسي : 22.

(ي)

يان قان كامين :97.

يحي راييس : 52.

يحي بوعزيز : 13،11 .

اليزاييث : 81.

يعقوب الصراف : 157.

يوحنا : 118،89،88،86،18.

يوسف كوهين : 155.

فهرس الأماكن و البلدان

(أ)

أزمير : 42.

اسبانيا : 11، 18، 20، 21، 22، 23، 24، 26، 28، 29، 30، 31، 32، 33، 34، 35، 38، 47، 51
60، 69، 71، 72، 81، 84، 85، 86، 87، 88، 89، 90، 91، 92، 94، 95، 96، 107، 117، 118
124، 125، 126، 127، 131، 146، 182، 185، 186، 187، 188، 190، 193، 194.

اسطنبول : 27، 30، 32، 39، 44، 45، 46، 49، 50، 59، 61، 81، 106، 107، 128، 132
133، 175، 181، 186، 192.

الاسكندرية : 181.

اسكندنافيا : 182.

الأغواط : 181، 182.

ألبانيا : 44.

ألمانيا : 89، 111.

الامارات الحفصية : 34.

أمريكا : 13، 27، 185، 186.

انجلترا : 10، 14، 51، 54، 67، 68، 72، 81، 82، 83، 87، 89، 107، 112، 124، 125، 127
131، 179، 211.

الاندلس : 19، 22، 23، 29، 34، 60، 84، 85، 88، 90، 94، 118، 126، 130، 162، 163
165، 174، 205، 213.

اولونيا : 29.

آيسلاندا : 129، 51، 27.

(ب)

باريس : 12 .

بحاية : 18، 19، 23، 24، 32، 52، 60، 83، 86، 91، 102، 123، 132، 136، 151، 174، 186.

البحر الادرياتيكي : 29، 131، 218.

البرازيل : 27، 127.

البرتغال : 18، 20، 21، 38، 51، 56، 85، 110، 131، 193، 196، 216.

برج بوعرييج : 47.

البرواقية : 169، 176.

بروفانس : 89.

بسكرة : 175، 181.

بلاد القبائل : 31، 40، 100، 136، 171، 172، 193، 206، 152، 220.

بلتيمور : 82.

بلغاريا : 44، 133.

البليدة : 19، 163، 176.

البندقية : 32، 59، 60، 86، 88، 95، 96، 108، 111، 157، 174، 180، 214، 216.

بني عباس : 34،39،40،47،48،51.

بنيون : 18.

بوسطن : 13 .

بوسعادة : 175،176.

البوسنة و الهرسك : 44.

بوغار : 176.

بولونيا : 32،108،111،214.

بونة : 52.

البويرة : 40.

(ت)

تازة : 181.

تركيا : 20،45،185.

تطوان : 181.

تلمسان : 19،20،23،28،31،32،34،40،85،92،109،110،111،150،164،166

175،176،194.

تنس : 19،20،24،186.

توقرت : 182.

تونس : 18،26،28،30،32،33،34،39،44،45،47،49،50،52،56،66،80،86،108
 109،110،111،127،131،154،156،166،167،175،176،181،182،183،192
 193،194،195،199،213.

(ج)

جبل طارق : 131،182،218.

جبل كوكو : 24،31،34،40.

الجريد التونسي : 181.

الجزائر : 5،6،7،8،9،10،12،13،14،18،19،20،21،22،23،24،25،26،27،28،29
 30،31،32،33،34،35،36،37،38،41،42،43،44،45،47،43،44،45،51،52
 53،54،55،56،57،58،60،61،62،63،64،65،66،67،68،69،70،71،72،73،74
 75،77،78،79،80،81،82،83،84،87،91،92،93،94،96،98،99،100،101،102
 103،104،105،106،107،108،109،110،111،112،113،114،115،116،117
 118،119،121،122،123،124،125،126،127،128،129،130،131،132،133
 134،135،136،137،138،140،141،142،143،144،145،146،147،148،149
 149،150،151،152،153،154،155،156،157،158،161،162،163،164،165
 166،167،168،169،170،171،172،173،174،175،176،177،178،179،181
 182،183،184،185،186،187،189،190،191،192،193،194،195،196،197
 198،199،200،201،202،203،204،205،206،207،208،209،210،211،212
 213،214،215،216،217،218،219،220،221.

جزيرة القرم : 95.

جزيرة جربة : 20،31،86.

جزيرة رودس : 87،89.

جزيرة مالطا : 18،140،142.

جنوة : 27،44،86،92،93،95،157،181،186،216.

جيجل : 23،31،66،67،92،101،124،136،174.

(ح)

الحجاز : 181.

حلق الوادي : 18،90،181.

حيدرة : 211.

(خ - ر)

خط الواد : 182.

روسيا : 32،33،107،112.

روما : 29،126.

(ز)

زمورة : 47.

زواوة : 40،45.

(س)

الساحل السوداني : 181،182.

سبوا : 40.

سردينيا : 27،84،93،163.

سطورا : 101.

السودان : 175، 176، 181، 183، 193، 196.

(ش)

الشام : 28.

شبه الجزيرة الايبيرية : 84، 119، 121، 185.

شرشال : 20، 24، 32، 66، 69، 96، 111، 123، 132، 136، 146، 170.

(ص)

الصرب : 44، 133.

صقلية : 27، 47، 84، 88، 90، 92، 93، 112.

(ط)

طرابلس : 30، 32، 33، 34، 38، 50، 86، 87، 88، 90، 91، 102، 110، 111، 127، 131، 181

.185، 215.

طرابلس الغرب : 18، 28، 108، 181.

(ع)

عكا : 89.

عنابة : 20، 24، 34، 42، 61، 62، 66، 90، 101.

عين صالح : 182.

(غ)

غدامس : 182.

غرداية : 182.

غرناطة : 162،88،85،60،20،19.

(ف)

فاس : 194،181،166،85.

فالونا : 50.

فرنسا : 60،59،58،57،55،54،51،48،43،39،35،34،29،26،14،13،12،11،10

87،81،80،79،78،77،76،75،74،72،71،70،69،68،67،66،65،64،63،62،61

146،145،144،130،129،125،124،117،112،108،107،102،101،100،95،89

.216،212،211،198،193،184،182،181،175،165 157

(ق)

قابس : 181.

القالا : 97،43،42،24.

قبرص : 96،89،44.

القسنطينية : 133،128،110،109،105،97،95،77،53،47،45،39،32.

قسنطينية : 176،175،169،168،159،151،150،136،110،109،41،40،34،24

.213،196،193

القليعة : 182،170،163،19.

(ك)

كورسيكا : 52،47.

كولوا : 101.

(ل)

ليبيا : 44.

ليفرونه : 181.

ليفورن : 211،157،142،140،69،58،7.

(م)

مازگران : 24.

مالطا : 142،140،102،60،59،27.

متليلي : 176.

متيجه : 168،172.

المجر : 44،29.

مدريد : 86،58.

مدينة الجزائر : 71,70,69,68,66,61,51,46,43,40,32,30,25,23,20,19,18,13
 142,141,136,132,128,127,125,121,108,102,101,94,93,83,82,73
 168,165,164,163,162,160,159,158,157,156,154,153,151,149,146
 209,207,204,203,191,188,186,179,178,177,176,175,173,171,170
 211.

المرسى الكبير : 189,187,94,92,91,90,88,86,85,34,20,18.

مرسيليا : 186,145,102,79,78,74,69,64,63,62,61,58,54,43,35,11.

مستغانم : 170,150,144,32,28,20.

المسيلة : 19.

مصر : 185,181,28,25.

المغرب : 94,91,90,89,88,86,85,84,62,60,55,52,49,45,44,34,28,26
 193,192,185,183,182,181,175,174,166,165,145,118,111,110,109
 215,196,195,194.

المغرب الأقصى : 194,182,181,171,111,110,109,91,52,49.

المكسيك : 190.

مليانة : 171,170.

ميزاب : 182.

ميناء الجزائر : 181,162,141,139,96,83,69,31.

(ن - هـ)

النمسا : 216,193,179,108,33,32,29,26.

هولندا : 49،51،67،68،124،125.

(و)

و.م.أ : 14.

واحات توات : 182.

واد الزيتون : 40.

واد ريغ : 182.

وادي الحراش : 31.

وادي سوف : 182.

ورقلة : 175،176،182.

وهران : 11،18،19،20،21،23،24،26،28،32،34،57،71،78،85،86،90،91،92

93،94،111،123،168،172،174،184،186،187،188،189،190.

اليونان : 44.

فهرس القبائل و الجماعات

(أ)

الأتراك : 199،180،168،166،165،164،162،123،114،109،96،50،47،14،6 :
210،209،205،204،203.

الأتراك العثمانيون : 148،137،132،14،10.

الاسبان : 94،93،92،89،87،85،71،56،33،32،31،29،26،24،23،21،20،19،18 :
215،184،174،144،143،142،132،130،127،125،118،109،100،99،96،95.

الأسرى الانجليز : 82.

الأسرى الاوريون : 190،142،101،13.

الأسرى الجزائريين : 211،165،74،73،72،71،69،66،63،48.

الأسرى الفرنسيين : 74،70،48،43.

الأسرى المسلمين : 112،74،49.

الأسرى المسيحيين : 215،193،164،153،139،137،112،74،5.

أسرى جيغل : 67.

اغريقيون : 142.

الانجليز : 112،109،102،101،100،99،92،83،82،68،65،59،58،49.

الأندلسيون : 91،56،8.

الانكشارية : 10،39،40،42،44،45،46،48،51،52،53،93،98،100،104،113،114،137،147،157،158،162،169،178.

الأوجاق : 27،33،42،43،45،47،48،73،76،97،98،100،110،116،162.

الاوربيون : 4،94،119،216،220،221.

أولاد جرير : 111.

ايرلنديون : 127.

ايطاليون : 127.

(ب)

برتغاليون : 142.

البروتستانت : 26.

بسكريون : 159.

البكداشية : 10.

البندقيون : 50.

بني عامر : 111.

بوناتير (عائلة) : 164.

(ج)

الجزائريين : 22،23،27،30،33،34،35،36،43،46،47،48،50،51،58،63،64،65،

66،67،70،71،72،73،74،77،81،82،83،84،109،112،117،121،124،125،

128،130،132،134،136،141،165،184،193،211،220.

جماعة الثالوث المقدس : 145.

جيجلية : 159.

(ح)

الحفصيون : 18،24،26،31،32،192.

الحنانشة : 40،172.

(د)

دانماركيون : 127.

الدوادة : 41.

(ر)

الرحالة الاوريون : 5،68.

(ز)

الزيانيون : 24،31،32،34،192،194،199.

(س)

سوريون : 127.

(ش)

شيوخ الطرق الدينية : 19،46،117،168،198،199،200،212.

(ص)

صقالبة : 142.

(ع)

العثمانيين : 9،39،40،41،44،51،53،56،59،83،86،87،89،90،93،95،96،103
108،129،136،160،168،183،198،199،200،216،218،221.
العلوج : 127.

(ف)

فرسان القديس ايتيان : 96.
فرسان القديس يوحنا : 18،86،88،89،118.
فرسان مالطة : 111.
الفرنسيين : 40،42،43،48،58،59،61،63،65،66،67،69،70،71،74،76،78،79
82،93،96،100،101،102،124،145.

(ق)

قبائليون : 159.
القلانسي (عائلة) : 164.

(ك)

الكراغلة : 40،46،51،53.

(م)

المرينيون : 18،28،31،192.

مسلمي الأندلس : 126،88،85،60،56.

مصريون : 127.

المهاجرين الاندلسيين : 217،174،168.

المورسكيين : 165،60،18.

ميزايون : 159.

(هـ)

هنغاريون : 127.

الهولنديين : 142،125،101،100،99،92،65،49.

(ي)

يابانيون : 127.

اليهود : 177،162،159،158،157،156،155،154،189،152،145،140،121،109.

178،179،180،183،186،188،189،195،197،211،219.

اليهود الاوريون : 221،216،211.

يهود توسكانيا : 140،96.

اليولداش : 103،97،50،47،44.

فهرس المحتويات

شكر وعرفان

الاهداء

قائمة المختصرات

المقدمة

17	الفصل التمهيدي :أوضاع الجزائر داخليا و خارجيا أواخر القرن 16م مطلع القرن 17م
18	1- الاستنجد بالعثمانيين
29	2- نظام البايبريات (1518-1587م)
37	الباب الأول : التطورات السياسية لإيالة الجزائر في القرن 11 هـ/ 17م
38	الفصل الأول :مرحلة الباشاوات (1587-1659م)
38	1- سياسة الباشاوات الداخلية
53	2- سياسة الباشاوات الخارجية
55	1- علاقتها مع الدولة العثمانية
56	2- علاقتها مع أوروبا
56	1- علاقتها مع فرنسا
80	2- علاقتها مع إنجلترا
83	3- علاقتها مع اسبانيا
94	4- علاقتها مع الدويلات الإيطالية
96	5- علاقتها مع الأقاليم المتحدة
96	الفصل الثاني :مرحلة الأغوات (1659-1671)
96	1- مميزات فترة الأغوات على المستوى الداخلي
100	2- مميزات فترة الأغوات على المستوى الخارجي
103	الفصل الثالث :مرحلة الدايات (1671-1700)
103	1- مميزات فترة الدايات على المستوى الداخلي

107	2- مميزات فترة الدايات على المستوى الخارجي
109	علاقتها مع الغرب الأقصى
115	الباب الثاني : التطورات الاقتصادية لإيالة الجزائر في القرن 11 هـ/ 17 م
118	الفصل الأول : الأسطول البحري و دوره و عائلاته
129	1- عوامل قوّة البحرية الجزائرية
132	2- صناعة السفن و الأسلحة
138	3- عائدات البحرية و عدد الأسرى خلال القرن 11 هـ/ 17 م
149	الفصل الثاني : الحرف و الحرفيون
160	1- الفضاء المكاني للنشاط الأندلسي
161	2- التعاملات الاقتصادية الأندلسية
162	3- الصناعات الحرفيون
168	الفصل الثالث : الزراعة و الري
168	1- اهتمام العثمانيين بالزراعة
170	2- التقنيات المستعملة و أنواع المحاصيل الزراعية
172	3- الدور الاجتماعي للزراعة
174	الفصل الرابع : المبادلات التجارية الداخلية و الخارجية
185	1- العملة
198	2- الضرائب
203	3- تأثير الوقف في النشاط الاقتصادي
210	4- العوامل المؤثرة في السياسة المالية
215	خاتمة
227	قائمة المصادر و المراجع
228	1- قائمة المصادر
230	2- قائمة المراجع
239	3- المقالات و الدوريات
243	4- الرسائل الجامعية
244	5- المعاجم

245	الملاحق
246	1- خرائط
254	2- جداول احصائية
287	3- وثائق
316	4- صور
335	الفهارس
336	1- فهرس الأعلام
352	2- فهرس الأماكن و البلدان
362	3- فهرس القبائل و الجماعات
367	4- فهرس المحتويات